الحمد لله ربِّ العالمين، وصلّى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد

فكتاب مسائل الجاهلية للشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمة الله تعالى عليه؛ كتابٌ يَعرف قدْرَهُ من وقف عليه وعلِم احتياج الناس إليه ولا سيما في أزمنة اشتداد الغربة وغيرها من الأحوال، فهو من الكتب التي يحتاج إليها العالم والعاميّ وطالب العلم، فهو كتاب - كما سترى بعون الله عزّ وجلّ - قيِّم للغاية.

نُعَرِّفُ أولًا بالكتاب: معلوم أنّ التصنيف عند أهل العلم في أمور العقيدة يكون على نوعين:

النوع الأول: المصنّفات التي يُقَرَّرُ فيها الحقُّ ويُوضَّح؛ كما في المصنّفات المسندة في الاعتقاد؛ ككتاب السُّنَّة لابن أبي عاصم وكتاب الشريعة للآجريّ وكتاب شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة للالكائيّ والإبانة لابن بطة وأمثالها من الكتب المسندة، أي التي يَروي فيها مصنِّفُوها الاعتقادَ عن السلف رضي الله عنهم وعن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أولًا ثم عن السلف وعن أهل العلم بالإسناد، وهذه الكتب كثيرة وينبغي على طالب العلم أن يعتني بها لأن فيها تدوين عقيدة السلف مسندة إليهم، تارة تكون باسم السُّنَّة - كما ذكرنا في المصنّفات - السُّنَّةُ لابن أبي عاصم وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائيّ، وتارة تكون باسم الشريعة؛ كالشريعة للآجريّ والإبانة عن شريعة الفِرقة الناجية لابن بطّة، وتارة تكون باسم التوحيد كالتوحيد لابن خزيمة، وتارة تكون مصنّفات متعلقة بالإيمان كالإيمان لابن أبي شيبة وغيرها من هذه الكتب، يُقَرَّرُ فيها الاعتقادُ برواية مسائل الاعتقاد عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم وعن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم وعن علماء الأمة، ومن المصنفات التي يُذكر فيها التقرير أيضا المصنفاتُ المختصرة؛ وهي التي يعرفها طلبة العلم عموما كالطحاوية لأبي جعفر الطحاوي والواسطية لابن تيمية رحمهم الله جميعا، فهذه يُذكر فيها الاعتقادُ مختصرا وموجزا في العموم الأغلب وتُهيّأ لأنْ يحفظها طالب العلم ويتمكن من استظهارها، كل هذه نسميها كتب تقرير الاعتقاد.

النوع الثاني من المصنفات: كتب الرَّد على الباطل وعلى أهله، كالمصنفات التي صنفها عثمان بن سعيد الدارميّ رحمه الله تعالى في الردّ على الجهميّة، ومصنفات شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - وهي كثيرة في

الرُّدود - كنقضه على المَنَاطِقَة، وردِّه رحمه الله على الروافض في كتابه منهاج السنة ونحو ذلك من الكتب، فهذه كتب يُرَدُّ فيها على أهل الباطل.

مِن أيّ الأنواع هذه يصنف كتاب مسائل الجاهلية للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى؟ الكتاب بديع في تصنيفه حقيقة لأنه رحمه الله قام بجمع المسائل التي كانت لدى أهل الجاهلية وخالفهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيها، وفي الوقت نفسه بَيَّن طريقة النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم المخالفة لما عليه أهل الجاهلية، فجمع أمرين اثنين:

الأول: التَّنبيه على الخصلة الجاهلية.

الأمر الثاني: التنبيه إلى مخالفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لأهل الجاهلية في هذه الخصلة.

هذا الأسلوب مميز جدًا، لأن نسبة المسألة إلى الجاهلية كفيل بتقبيحها وبيان أنها مذمومة، إذ لو لم تكن مذمومة لما نُسبت إلى حالة قبل الإسلام؛ وهي حالة الجاهلية. ضمَّ إلى ذلك أن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم خالف أهل الجاهلية في هذه الخصلة، ما الذي يترتب على ذلك؟ يترتب عليه أن المتمسك والمتلبس بهذه الخصلة قد رضي أن يتأسى بأهل الجاهلية ويحيد عن هدي رسول صلّى الله عليه وسلّم، وهذا من أعظم الخذلان والعياذ بالله.

التصنيف على النحو الذي سلكه الشيخ رحمه الله نافع جدا؛ لأن تقرير الحق يكثر التصنيف فيه بحمد الله كما سمعتَ في المصنفات، فيبقى جَمْعُ ما يُعَدُّ ضمن الأخطاء. هذا الموضوع بحاجة أن يُرَكَّزَ عليه، وهو مما يَحسن أن يلاحظه أهل العلم في دروسهم وخطبهم وفي كلماتهم؛ يَحْسُنُ أن يركزوا على هذا النوع من الأخطاء بأن يُركَّز بأن الأخطاء هي كذا وكذا، ومن ذلك أن يركزوا على ذكر الأخطاء عند التصنيف.

خذ على سبيل المثال: كل أحد يعرف جمل الأذان من جهة عددها وترتيبها، لكن تأمل الأخطاء التي يقع فيها المؤذن في صيغة الأذان، فالمؤذن إذا قيل له: بم تبدأ؟ قال: أبدأ بالتكبير. فإذا قيل له: أَذِّنْ، فربما قال: آاالله أكبر، ويَفْهَمُ الآن أن التكبير هذه الأربع في مقدمة الأذان، ثم الشهادتان: شهادة أن لا إله إلا الله أربعا؛ اثنتان بشهادة التوحيد، واثنتان بشهادة أن محمدا رسول الله ثم الحيعلتان ثم تكبيرتان ثم التهليلة.

فإذا مدَّ فإنه في الواقع لم يكبر؛ وإنما يسأل، قال تعالى: ﴿الله خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1] هذا استفهام، هذا المؤذن لما أذَّن؛ في الواقع أنه ما كبَّرَ وإنما يستفهم: هل الله أكبر؟ قد عرف جمل الأذان؛ لكنه لم يحسن إلقاء الصيغة، وهكذا لو أنه قال: الله آكبار - كما يقع من بعض العوام والمؤذنين -، الكلمة سيئة جدا، وهذا لأن الكَبَرَ هو الطبل -وجمعه طبول-، فهو قد عرف جمل الآذان لكنه لم يحسن أدائها، وعلى هذا قس أنواع كثيرة من الأخطاء؛ في الكلمات المنتشرة بين الناس في العبادات؛ في الوضوء؛ في الصلاة؛ في الصيام؛ في الزكاة؛ في الحج؛ وهكذا الأخطاء في المعاملات، وهكذا موضوع الكتاب هذا؛ التصنيف فيما يشيع بين الناس مما هو من خصال أهل الجاهلية، هذا النوع الحقيقة يجب أن يعتني به طلبة العلم وأهل العلم عموما حتى يُركز مع العامة على أمور من الخطأ تغلغلت عندهم ورسخت في اعتقادات وفي ألفاظ وفي ممارسات؛ الواقع أنها من أمور الجاهلية.

المسألة الثانية: ما المراد بالجاهلية؟ الجاهلية نسبة إلى الجهل، وقد ذُكرت في القرآن في مواضع - كلها على سبيل الذم قطعا -، قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿يَظُنُّونَ بِالله غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[4]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[5].

الأمور المذكورة في هذه الآيات خصال كلها مذمومة:

الأولى: حكم الجاهلية، وهو حكم الطاغوت بتحكيم غير شرع الله عزّ وجلّ أيا كان هذا النظام الذي يُحكَّم.

---

(١) النمل: ٥٩.

(٢) المائدة:٥٠.

(٣) الفتح: ٢٦.

(٤) آل عمران: ١٥٤.

(٥) الأحزاب: ٣٣.

الثانية: حمية الجاهلية التي تحملهم على الظلم والتعاون على الفساد لمجرد هذه الحمية.

الثالثة: ظن الجاهلية: وهو أن يُظن بالله عزّ وجلّ غير ما يليق به سبحانه كالظن أن الحق يضمحل ويتغلب أهل الباطل على أهل الحق غلبة مستقرة مستديمة لا يأتي الله عزّ وجلّ بعدها بالفرج، فهذا من ظن الجاهلية.

الرابعة: تبرج الجاهلية، وهو ابداء المرأة محاسنها، وهو المعدود اليوم عند همج المدنية الغربية معدود ضمن الحرية والانفتاح والرُّقي والبعد عن الانغلاق، حتى جعلوا النساء سلعا تُعْرَضُ على هيئة هي من أسوأ ما يكون من الهيئات في العرض، فسمَّى الله ذلك بالجاهلية.

في السُّنَّة وردت كلمة الجاهلية أيضا في أكثر من حديث، من أشهرها قول النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لأبي ذر رضي الله عنه عندما عيَّر بلالًا بسواد بشرة أمه؛ قال: يا ابن السوداء، قال النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «أَعيَّرته بأمه؟! إنك امرؤ فيك جاهلية»(١)، وأخبر عليه الصلاة والسلام أن من خرج من الطاعة ومات مفارقًا للجماعة؛ مات ميتة جاهلية(٢).

نستفيد فائدة من هذه النصوص تعطينا المراد بكلمة الجاهلية، عرَّف الجاهلية الشيخ عبد الرحمن بن حسن في فتح المجيد عند شرحه لباب ما جاء في الكهان ونحوهم؛ ذكر رحمه الله التنجيم والكهانة والضرب بالحصى ونحوها من علوم الجاهلية ثم قال: ونعني بالجاهلية كل من ليس من اتْبَاع الرسل صلّى الله عليهم وسلّم كالفلاسفة والكهان والمنجمين وجاهلية العرب الذين كانوا قبل البعثة، فإن هذه علوم القوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل صلّى الله عليهم وسلّم، فجعل هؤلاء جميعًا من أهل الجاهلية ومنهم الفلاسفة لأن الفلاسفة أبعد الناس عما جاءت به الرسل صلّى الله عليهم وسلّم.

وعليه فالوضع الموجود اليوم في البلاد الغربية والشرقية من بلاد الكفر وضع الجاهلية، إذا هو قائم على جملة من الفلسفات الإلحادية، فنشأت بتلك البلاد الشرقية الفلسفة القائمة على الأساس الشيوعي،

---

(١) صحيح البخاري (٣٠).

(٢) صحيح مسلم (١٨٤٨).

ونشأ في البلاد الغربية مقابلا لها الفكرة القائمة على الرأسمالية، وعموم المذاهب ذات النزعة العلمانية معدودة شرعا ضمن الجاهلية لأنها كلها فلسفات على خلاف ما جاءت به الرسل صلّى الله عليهم وسلّم، فالمسمى الشرعي لتلك الأوضاع هو الجاهلية ويأتي له مزيد بيان إن شاء الله.

الضابط في ذلك كله - سواء في جاهلية العرب، أو في الجاهلية التي يكون عليه أهل التنجيم وأهل الكهانة وأهل السحر أو أهل الفلسفة من ملاحدة اليونان القدامى أو من تأثر بهم ممن أدخلوا الفلسفة إلى داخل البلاد الإسلامية أو الفلسفات الحديثة؛ الجامع لهذه كلها مع الجاهلية العربية هو أن ما هم عليه على خلاف ما جاءت به الرسل صلّى الله عليهم وسلّم كما قرره الشيخ عبد الرحمن رحمه الله، وهذا من أدق تعريفات الجاهلية، لأن الجاهلية -كما تقدم - منسوبة إلى الجهل، وهؤلاء يجهلون أعظمَ ما ينبغي أن يُعلم وهو العلم بالله كما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى في أحوال الجاهلية.

الجاهلية لها حالان اثنان:

الحال الأول: الجاهلية العامة، وهي التي كانت قبل بعثة النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حيث كان الناس كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(١) هذا الضلال المبين هو الجاهلية العامة التي كانت قبل بعثته صلى الله عليه وسلم وقد أزالها الله تعالى بالسراج المنير صلّى الله عليه وسلّم حيث انقشعت تلك الجاهلية بالكلية بحمد الله وعُرف الحق، لا يزال هذا الحق في هذا الأمة، لا يضمحل ويخبو بحيث لا يُعرف الليل من النهار؛ لا يُعرف الحق من الباطل؛ لا يُعرف الكفر من الإيمان؛ السُّنَّة من البدعة، هذا بحمد الله لا ينمحي بحيث لا يُعرف بتاتا، قال صلّى الله عليه وسلّم: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق؛ لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»(٢)، وأخبر عليه الصلاة والسلام أن أُمَّتَه ستكون على هذا الحق حتى يقاتل آخرُهم الدَّجَّالَ، فدل على استمرار الحق إلى أن يأتي أمر الله الذي قال صلّى الله عليه

---

(١) الجمعة:٢.

(٢) صحيح مسلم (١٩٢٠).

وسلّم: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق؛ لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله»، ما المراد بأمر الله؟ المراد بأمر الله ما ثبت من غير وجه أن المسلمين والمؤمنين بعد أن ينزل عيسى عليه الصلاة والسلام وبعد أن يُهلك اللهُ تعالى يأجوج ومأجوج يبعث الله تعالى ريحا طيبة فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر؛ فعليهم تقوم الساعة، الذين تقوم عليهم الساعة كلهم كفار، ولهذا قال صلّى الله عليه وسلّم: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد»[(١)]، وأخبر صلّى الله عليه وسلّم أن الناس بعد أن يقبض هؤلاء المؤمنون والمسلمون يتمثل لهم الشيطان كما في صحيح مسلم فيقول لهم: ألا تستجيبون؟! فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان[(٢)]، زاد أحمد في المسند فيعبدونها[(٣)]، وأيضا في مسلم أن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أخبر أنهم يعودون إلى دين آباءهم[(٤)] - وهو دين الجاهلية - فيعبدون الأصنام، هؤلاء الذين تقوم عليهم الساعة وذلك في آخر الساعة بعد أن يُقتل الدجال على يد عيسى صلّى الله عليه وسلّم، وبعد أن يقبض الله جميع من على وجه الأرض من المؤمنين والمسلمين، فهؤلاء الذين يبقون يبقون في آخر الزمان بعد أن يأتي أمر الله كما قال صلّى الله عليه وسلّم: «حتى يأتي أمر الله» وهو الريح هذه «وهم على ذلك» يبقى أهل الإيمان على الثبات على الحق حتى يبعث الله هذه الريح.

إذًا الجاهلية العامة انتهت بحمد الله تعالى ببعثة النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أرسله الله تعالى بالنور المبين فأزاح الله تعالى به تلك الظلمة العظيمة، وكان الناس قبل بعثته صلّى الله عليه وسلّم على أسوأ الأحوال كما قال صلّى الله عليه وسلّم: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل

---

(١) صحيح. رواه أحمد (٤٣٤٢) بتمامه في المسند. والشطر الأول منه رواه البخاري (٧٠٦٧) تعليقا، وهو في مسلم (٢٩٤٩) من حديث ابن مسعود بلفظ (لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس)، ورواه ابن حبان في صحيحه (٦٨٤٧). وصححه الألباني رحمه الله في كتابه (تحذير الساجد) (ص٢٣).

(٢) صحيح مسلم (٢٩٤٠).

(٣) مسند أحمد (٦٥٥٥).

(٤) صحيح مسلم (٢٩٠٧).

الكتاب»[١] وهذا قبل بعثته صلّى الله عليه وسلّم فكان الناس على جاهلية جهلاء، فبعد البعثة النبوية لا يقال: إن الناس عادوا إلى الجاهلية العامة في جميع الأرض! هذا لا يجوز أن يقال ولا أن يوصف الناس بأنهم في جاهلية، لأن الجاهلية العامة انتهت، وهذا هو الحال الأول للجاهلية.

الحال الثاني: الجاهلية الجزئية، هذه الجاهلية تكون في أماكن معينة لا يصل إليها نور النبوة، قد تكون هذا الأماكن واسعة وفيها خلق كثير، كالوضع في البلاد الغربية والشرقية من بلاد الكفر، فالوضع في بلادهم - كما تقدم - وضع جاهلية، وإن بلغوا في العلوم الدنيوية ما بلغوا، فالمُسمَّى الشرعيّ لهم أنهم أهل جاهلية، قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[٢]، فالجهل الحقيقي هو الجهل بالله عزّ وجلّ والجهل بالأمر الذي خلق الإنسان لأجله، أما مجرد بلوغ الإنسان في أمر معاشه كل مبلغ؛ فذلك لا يعني أنه ليس من أهل الجاهلية ما دام أنه قد أعرض عن ربه تعالى، فوصف الجاهلية لا يرفع عنه وإن وصل في أمور الدنيا ما وصل، الأمر كما قيل: «أبني إن من الرجال بهيمة في صورة الرجل السميع المبصر، يدري إذا كان المصاب بماله وإذا كان يُصاب بدينه لا يشعر»[٣] فهمهم أموالهم ومآكلهم ومشاربهم ومناكحهم كما تعيش البهائم، أما أمور دينهم ولماذا خلقهم الله تبارك وتعالى فلا يرفعون به رأسا، لا شك أن هذا الوضع وضع جاهلية، ولا غرابة في تسميتهم بهذا فقد سمى الله عزّ وجلّ كثيرا من الجن والإنس باسم لزمهم إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾[٤] هذا الصنف من الجن والإنس سماهم الله تعالى بهذا الاسم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[٥] فهل يُستكثر على من وصفوا في كتاب الله تعالى بأنهم أضل سبيلا من الأنعام هل يستكثر عليهم بأن يوصفوا بأنهم من أهل الجاهلية؟ نعم؛ هم من أهل الجاهلية، الجاهلية الجزئية - كما قلنا - توجد في

(١) صحيح مسلم (٢٨٦٥).

(٢) الروم:٧.

(٣) يُنسبُ هذا البيت إلى أبي عمرو بن العلاء، كما في تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٦٥/٧٣).

(٤) الأعراف:١٧٩.

(٥) الفرقان: ٤٤.

بعض الأماكن، وتبقى مسألة ينبغي أن يضبطها طالب العلم في موضوع الجاهلية الجزئية؛ وهي أنه قد توجد خصلة من خصال الجاهلية في الرجل من أهل الإسلام؛ يكون الرجل مسلما لكن فيه خصلة من خصال أهل الجاهلية، دل على هذا حديث أبي ذر رضي الله عنه، فمع أن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر»(١) إلَّا أنه مرة اختصم مع بلال رضي الله عنهما، وكان بلال رضي الله عنه أسودا من الحبشة، فقال له أبو ذر رضي الله عنه: (يا ابن السوداء) يعني أن أمك لونها أسود، فقال له عليه الصلاة والسلام: «يا أبا ذر، أَعيَّرته بأمه؟!» جاء في بعض الروايات أنه قال: «من سب الرجال سبوا أباه وأمه» قال: «إنك امرؤ فيك جاهلية»، قال: «أعلى هذا السن مني يا رسول الله؟»(٢) يعني: بعد هذا العمر، وبعدما أسلم - لأن أبا ذر أسلم قديما رضي الله عنه -، قال: «نعم، إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم»، فأبو ذر رضي الله عنه لما قال صلّى الله عليه وسلّم هذا المقال أحسن التأدب رضي الله عنه وأرضاه، لأنه قال صلّى الله عليه وسلّم: «فمن كان أخوه تحت يده؛ فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس»(٣) فكان يُلْبِسُ غلامه كما يلبس هو، فإذا لبس ثوبا ألبس غلامه مثلَه، وإذا سئل - لأن العادة أن الإنسان قد يصطفي لنفسه اللباس الأحسن، ويبقى أمر نفقته على مولاه ومن تحت يده لا يلزمه أن يلبسه اللباس الأوفى والأحسن، تلزمه كسوته؛ لكن الكسوة أمرها واسع، فكان يُلبسه كما يلبس رضي الله عنه تخلصا من خصلة الجاهلية.

فهذه المسألة وهي وجود خصلة جاهلية في مسلم لا تعني أن الرجل كافر، ولا تعني أن الرجل حاله حال أهل الجاهلية تماما، ولكن يُقال كما قال النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إنك امرؤ فيك جاهلية» ولم يقل: إنك من أهل الجاهلية، فقال: فيك جاهلية.

هذه الجاهلية الجزئية تبقى في بعض الناس في خصال، والناس في هذا بين مُقِلٍّ ومستكثر، هذا مما يجعل هذا الكتاب من أنفع ما يكون للناس اليوم، فكم هم الذين - مثلا - يُعَيِّرُون الناس بألوانهم؟ لا شك أنهم

(١) صحيح. رواه الترمذي في سننه (٣٨٠١)، انظر صحيح الجامع الصغير (٥٥٣٨).
(٢) صحيح البخاري (٦٠٥٠).
(٣) صحيح مسلم (١٦٦١).

كثير، فإذا علم المسلم أن هذا التَّعيير من خصال الجاهلية حَذِرَهُ واجتنبه، وطهَّر لسانه من مثل هذه الألفاظ، كما أنه يطهر لسانه من النطق بهذه الأمور الدالة على ازدراء أخيه المسلم أمام الناس؛ فإنه يطهر قلبه وينزه نفسه من أن يكون الضابط عنده في التعامل مع عباد الله بالألوان أو اللسان أو الأوطان أو القبائل أو نحو ذلك، ولذلك قلنا: إن هذا الكتاب فيه هذه الفائدة لأن فيه علاجا حقيقيا لأمور ينبغي أن يقال: إنها ليست في العامة وحدهم؛ بل توجد حتى في بعض طلبة العلم، إذا كان النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول لأبي ذر رضي الله عنه لما قال ما قال - وهو من هو رضي الله عن أبي ذر في إيمانه وتقواه - إذا قال: «إنك امرؤ فيك جاهلية» حتى تَخَلَّصَ رضي الله عنه من تلك الخصلة الجاهلية؛ فغيره ممن لا يبلغ مقامه؛ لا يُستكثر أن يقع في خصلة من خصال الجاهلية، لذلك ينبغي أن توطن النفوس على التخلص من خصال الجاهلية لأنها لا شك أنها مَذَمَّة، الشرع إذا أطلق على خصلة هذا الاسم - الجاهلية - لا شك أن هذا الإطلاق دال على الذم، لأن الجاهلية - كما قلنا - هي الحالة التي كانت قبل الإسلام، فالذي فيه خصلة من خصال الجاهلية قد أخذ شيئا مما كان عليه أهل الكفر - وإن لم يكن كافرا - واتسم به وترك ما ينبغي أن يأخذه من دين الله عزّ وجلّ، ولهذا قال أهل العلم: إن الكفر شعب والنفاق شعب، فيكون في المسلم شعبة من شعب النفاق وإن لم يكن منافقا خالصا، كما في الحديث «ثلاث من كن فيه كان منافقا»[(١)] وذكر خُلْفَ الوعد والكذب في الحديث وإذا خاصم فجر، والحديث مروي بأكثر من لفظ يدل على أن خصال النفاق كثيرة، فمن كان فيه خصلة من هذه الخصال كان فيه خصلة من النفاق، فيكون مسلما لكن فيه هذه الخصلة، وهكذا ما ذكر النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من إطلاق الكفر على بعض الأعمال، يقال فيه خصلة من خصال الكفر وإن لم يكن كافرا، كقوله صلّى الله عليه وسلّم «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[(٢)]، فالقتال الواقع بين المسلمين على غير الحق هذا خصلة من خصال الكفر، ولا يعني أنهم كفار بنص قوله عزّ وجلّ ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾[(٣)] قال البخاري رحمه الله:

---

(١) صحيح البخاري (٣٤).

(٢) صحيح البخاري (٤٨).

(٣) الحجرات: ٩.

فسماهم مسلمين، يعني فسماهم مسلمين مع الاقتتال، فينبغي الحذر من هذه الخصال وذلك ثمرة من ثمار العلم، من أعظم ثمار العلم ما يهيأ الله عزّ وجلّ لمن وفق له من العمل به، إذ هو ثمرة العلم، فأما أن يعرف الانسان خصال الجاهلية وهو متسم بها متصف بها - والعياذ بالله - فذلك مما يدل على أنه لم ينتفع بعلمه، وهذه الخصال كما سترى إن شاء الله كثيرة متنوعة متعددة، منها ما يكون متعلقا بالقلوب ومنها ما يكون متعلقا بالألفاظ ومنها ما يكون متعلقا بالأفعال والممارسات، فينبغي أن يجتنبها المسلم وأن يكون لهذا العلم فائدته بأن يطهر صاحبه من هذه الخصال، لأن هذه الخصال بمثابة النجس، فإذا سلم الله تعالى المؤمن من هذه الخصال السيئة فإنه يكون قد تطهر وقد تنزه وتنظف كما يكون على بدنه نجاسة أو على بدنه وسخ فيغسله بالماء، فينبغي الحرص على تحقيق العلم والانتفاع به؛ وإلا فإن الانسان يكون بذلك عالما بأمور هي عليه حجة إذ لم يعمل بها، لا شك أن التخلص من خصال الجاهلية يحتاج إلى مصابرة لأن بعض هذه الخصال في الحقيقة قد تكون مما نُشِّأ عليه الانسان منذ صغره كالفخر بالأحساب - على سبيل المثال - والطعن في الأنساب، هذه من خصال الجاهلية كما جاء في نص الحديث، لا يسهل على كثيرين أن يتخلصوا من تفاخرهم بأحسابهم، ولا يسهل على كثيرين أن يتخلصوا من طعنهم في أنساب غيرهم، ويدلك على هذا حال الغضب، فإن حال الغضب - نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا - تظهر فيه أمور قد تكون كامنة في النفوس، فإذا غضب الانسان ظهر ما عنده من طعن في نسب الناس، وإذا جاءت المفاخرة ظهر ما عنده من تفاخر في الأنساب والترفه والتعالي بهذا التفاخر على غيره، وهكذا أمور كثيرة تأتي بإذن الله عزّ وجلّ تباعا في هذا الكتاب نشرحها بعون الله عزّ وجلّ واحدة واحدة.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم، اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولشيخنا وللحاضرين.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: قال الشيخ الإمام العالم محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى: هذه أمور خالف فيها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما عليه أهل الجاهلية الكتابيين والأميين مما لا غنى للمسلم عن معرفتها، فالضدُّ يُظهر حُسْنَه الضدُّ، وبضدها تتبين الأشياء، فأهم ما فيها وأشدها خطراً؛ عدم إيمان القلب بما جاء به الرسول صلّى الله عليه وسلّم،

....

ذكر رحمه الله تعالى أن أهل الجاهلية الذين بعث فيهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم نوعان:

النوع الأول: هم الأُمِّيُّون الذين ليس لهم اتِّباع لنبيّ، وكانوا يعبدون الأصنام والأشجار والأحجار ويعبدون الملائكة ويعظمون الصالحين، فكانت عبادتهم على أنواع شتى يجمعها جميعا اسم الشرك، لأن الشرك ضابطه أن يجعل لله شريكا فيما يختص بهم، وكان أكثر شركهم في العبادة، فكانوا مُقرّين بأن الله تعالى ربهم ولكنهم يجعلون معه تعالى شريكا في العبادة، هذا هو الصنف الأول.

الصنف الثاني: أهل الكتاب، وأهل الكتاب على نوعين اثنين، النوع الأول منهم: مَنِ انتفعوا بما حمله من هذا الكتاب، وهم قليل، وهم الذين آمنوا بالنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وهم في اليهود قليل، ووجد في النصارى أكثر بكثير ممن وجد في اليهود ممن نفعهم الله تعالى بعلمهم وآمنوا، إلى يومك هذا الذين يؤمنون من النصارى أكثر بكثير - ولا مقارنة - من الذين يؤمنون من اليهود، لأن النصارى سماهم الله تعالى بالضالين، والضال الضائع إذا دلَّ على الطريق - وكان يعي معنى النجاة - فإنه يسلكه، أما اليهود فسماهم الله تعالى بالمغضوب عليهم لأنهم قد عرفوا الحق واجتنبوه، قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾(١)، بيَّن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن المغضوب عليهم هم اليهود والضالون هم النصارى، فبعث صلّى الله عليه وسلّم والناس على هذين النوعين، منهم أهل الكتاب

(١) الفاتحة: ٦، ٧.

والمقصود بهم اليهود والنصارى، ومنهم هؤلاء الأُمِّيُّون، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾(١)، إذا جمع الانسان عدمَ الإيمان بالله عزّ وجلّ ولزومَ ما عليه أهل الجاهلية تمت الخسارة - نسأل الله العافية والسلامة - لأنه ترك الحق ولزم الباطلَ، العرب تقول لما ذكر رحمه الله تعالى فائدة تعلم خصال الجاهلية لأنه قد يقول قائل: أَلَا صنفت كتابا في خصال أهل الإسلام، قالوا: وصنف جميع أهل العلم مصنفات في بيان تقرير الحق، كما صنف في كتابه رحمه الله الأصول الثلاثة، وكما صنف في كتاب التوحيد والقواعد الأربعة وغيرها، كل هذه تدخل في تقرير الحق، لكن هذا النوع من التصنيف له أهمية بالغة وهو أن يُحصر الباطلُ والخطأ؛ كي يقال: هذا الخطأ فاجتنبوه، والضدُّ يُظهر حُسْنَه الضدُّ، إذا عرفتَ الجاهليةَ وخصالَها علمتَ عظمةَ الاسلامِ، وهذا كالحال الآن الذي تراه بحمد الله عزّ وجلّ من سقوط كل ما سوى الاسلام مما جُرِّب ومما سيجرَّب؛ يقضي الله عزّ وجلّ بأنه يسقط، مع أنه في أول ظهوره يكون له أتباع وأشياع ودعاة يصيحون به ويهتفون به ويبشرون البشرية بالخلاص ثم لا يلبث أن يضمحل ويزول، ويقوم على انقاضه مبدأ آخر في تيه هائل وشديد لطوائف من البشر يبحثون خلف السراب عما يُصلح اللهُ عزّ وجلّ به حالَهم وعما من يجدون به السعادة وهم لم يجدوه، ومن أشد ذلك تلك الفلسفات الكفرية التي وفدت إلى البشر من فلسفات الغربيين أو الشرقيين، هذه صرعت فئامًا كثيرة من الناس، يظل الواحد منهم منذ صغره وهو يخدم خدمة في نشر هذا الداء والباطل، بعد أن يشيب منه الشعر ويمضي عقودا من عمره يدرك أن ما كان فيه إنما كان كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، فيجرب مبدأ آخر وآخر حتى صار البشر على حال من الضياع والتيه إلَّا من كان مستمسكا بهدي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

المعرفة بحال اهل الجاهلية تظهر عظمة ما عند المسلم من هذا الرصيد العظيم الذي جعل الله فيه صلاح الدنيا والآخرة، ولهذا قال رحمه الله تعالى: فالضدُّ يُظهِر حسنَه الضدُّ، وقد قال عمر رضي الله عنه: (إنما ينقض الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية)(٢)، فالذي لا يعرف أمور

---

(١) الجمعة: ٢.

(٢) أورده ابن القيم رحمه الله في كتابه (الفوائد) (ص١٠٩).

الجاهلية وخطورتها قد تدخل عليه وهو لا يشعر، ولهذا فمعرفة ما عليه أهل الجاهلية فيه هذه الفائدة ولكن لا شك أن الأصل هو تعلم الحق وتقريره وتبيينه فبعد ذلك يتعرف طالب العلم على الباطل ليحذره، وقد ثبت أن حذيفة رضي الله عنه قال - كما في الصحيحين: «كان الناس يسألون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يدركني»(١)، وفي بعض الروايات أنه قال: «وكنت أعلم أن الخير لن يفوتني»(٢) يقول: الخير سأعلمه، لكني كنت أخشى أن أقع في الشر، ولذا قال الشاعر: (عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه، ومن لا يعرف الخير من الشر يقع فيه)، فالذي لا يعرف الشر يقع في بعض الأحيان في الشر لأنه لا يدري أنه شر.

فالحاصل أن مقدمته رحمه الله فيها بيان لسبب تصنيف الكتاب، فالمصنفون قد يذكرون سبب التصنيف، وأسباب التصنيف كثيرة، فمما ذكره المصنف هنا رحمه الله تعالى أن يُعرف أمرُ الخصال هذه حتى يُعرف حُسن ضدها وهو خصال الحق وخصال الإيمان.

---

(١) صحيح البخاري (٣٦٠٦).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٧٣٤٣).

فإن انضاف إلى ذلك استحسان ما عليه أهل الجاهلية تمت الخسارة كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِالله أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(1).

....

ذكر رحمه الله تعالى دلالة على تمام خسارة هذا الصنف قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِالله﴾(2) طلبوا المفسدة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِالله أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الخاسر هو الذي انقلبت عنده الأمور حتى آمن بالباطل بدلا من أن يكفر به، وكفر بالله عزّ وجلّ بدلًا من أن يؤمن به ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

---

(1) العنكبوت: ٥٢.

(2) العنكبوت: ٥٢.

المسألة الأولى: أنهم يتعبدون بإشراك الصالحين في دعاء الله وعبادته، يريدون شفاعتهم عند الله لظنهم أنَ الله يحب ذلك وأن الصالحين يحبونه، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ الله﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى﴾[2] وهذه أعظم مسألة خالفهم فيها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأتى بالإخلاص وأخبر أنه دين الله الذي أرسل به جميع الرسل، وأنه لا يقبل من الأعمال إلا الخالص، وأخبر أن من فعل ما استحسنوا فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار.

وهذه المسألة التي تفرق الناس لأجلها بين مسلم وكافر، وعندها وقعت العداوة، ولأجلها شرع الجهاد، كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لله فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[3].

....

بدأ رحمه الله بالمسألة الأولى من مسائل الجاهلية، وذكر رحمه الله تعالى أن هذه المسألة هي أعظم مسألة خالف فيها النَّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم أهلَ الجاهلية، أسوأ مسألة وقع فيها أهل الجاهلية قديما وحديثا أنهم يجعلون العبادة لغير الله تعالى ويُرَكِّزُون على عبادة الصالحين، ولهذا قال: إنهم يتعبدون بإشراك الصالحين في دعاء الله وعبادته، والشرك في عبادة الصالحين هو أقدم شرك وقع في الأرض، والدليل على هذا أنه وقع في قوم نوح، قال عزّ وجلّ - في ذكر شكاية نوح لقومه -: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾[4] قال ابن عباس رضي الله عنه - كما في البخاري: «أسماء رجال صالحين في قوم نوح هلكوا فأوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا

---

(١) يونس: ١٨.

(٢) الزمر: ٣.

(٣) البقرة:١٩٣.

(٤) نوح:٢٣.

وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد، فلما هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت»[(١)] الجيل الذي وقع فيهم تعظيم هؤلاء الصالحين لا شك أنهم لم يكون مشركين، قال ابن عباس رضي الله عنه: «بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على التوحيد»[(٢)]، ما الذي وقع منهم: أن مات هؤلاء الصالحون الخمسة المذكورون في الآية، هذه الأسماء المذكورة في الآية أسماء رجال صالحين فلما هلكوا وكانوا من ذوي العبادة والصلاح وسوس إليهم الشيطان فكرة خبيثة وهي أن يضعوا لهم تماثيل، ويجعلون هذه التماثيل في المواضع التي كان يجلس فيها هؤلاء الصالحون، فيقولون هذا تمثال لِوَدٍّ، وهذا تمثال لِسُواعَ، وهذا لِيَعُوْقَ، وهكذا، يقول: ففعلوا، أطاعوهم وجعلوا هذه التماثيل، قال: فلم تعبد، لماذا لم تعبد ؟ لأنهم لا يزالون على التوحيد، لكنهم ابتدعوا تصوير هؤلاء الصالحين وجعل هذه النُّصُب لهم والتماثيل فتسلسل الشر إليهم بالتدريج، فلما هلك أولئك يعني ذلك الجيل، جاء بعدهم أبناؤهم وأبناء أبنائهم وتنسخ العلم، العلم يقل ويخبو، فلما هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت، لأن أولئك الأجيال ظنوا أن من قبلهم إنما جعلوها لأنهم يسقون بهم المطر ولأنهم يستغيثون بهم من دون الله عزّ وجلّ، مع أن إبليس إنما وسوس لهم في البداية لمجرد أن يتذكروهم، وهذا يدل على خطورة التماثيل، وأنها من أخطر ما يكون على الاعتقاد، ويدل على خطورة الغلو في الصالحين فإن الذي حملهم على جعل هذه التماثيل وطاعة إبليس في هذا هو غلوهم في الصالحين، ولهذا قال في المسألة الأولى أنهم يتعبدون بإشراك الصالحين في دعاء الله وعبادته، هل كانوا يعبدون الله؟ نعم، لكنهم يجعلون هؤلاء الصالحين شركاء، وبذلك سموا مشركين لأنهم يعبدون الله ويعبدون غيره معه، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لله مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لله بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾[(٣)] هذا هو الشرك، فكانوا يجعلون لله تعالى ويجعلون لشركائهم في العبادة نصيبا، لما جعلوا هؤلاء الصالحين شركاء لله تعالى؛ هل جعلوهم شركاء لله تعالى في الربوبية والخلق؟؟ لا، ولهذا قال: يتعبدون بإشراك الصالحين في دعاء الله وعبادته، أما الخلق والرزق والإحياء والإماتة فهم يعلمون أن ذلك لله وحده، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٢٠).

(٢) صحيح. الحاكم (٣٦٥٤)، وقال الحافظ الذهبي رحمه الله: (صحيح على شرط البخاري). وانظر (تحذير الساجد) (ص٩٠).

(٣) الأنعام: ١٣٦.

مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾(١) وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ﴾(٢) فهذه أمور يعلمون أنها من الله، إذاً من أين أتاهم الشرك؟ بأن جعلوا للصالحين مع الله تعالى نصيبًا، لأن التوحيد هو الإفراد، وهذه الإشارة التي ترفعها في التحيات مثلا لله عزّ وجلّ في الصلاة إشارة إلى التوحيد وتدعو بها، الشرك ما هو - عياذًا بالله -؟ أن تجعل مع من يجب أن تفرده شريكا أو أكثر، فهذا معنى الشرك، فلهذا التوحيد هو الإفراد؛ إفراد الله تعالى، الشرك هو أن يجعل مع الله - عياذًا بالله - شريكا ثانيا أو ثالثا أو رابعا أو ما شابه، ما دام قد جعل الله تعالى غيره فهو مشرك أيًا كان الْمُشْرَكُ به.

لماذا جعلوا هؤلاء الصالحين مع الله تعالى في العبادة؛ لماذا أشركوهم مع الله تعالى في العبادة كما بيَّن عندك، قال: يريدون شفاعتهم، يزعمون أن هؤلاء الصالحين إذا عُبدوا شفعوا لمن يعبدونهم من دون الله، والدليل قوله تعالى ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾(٣)، يقول: يظنون أن الله تعالى يحب ذلك وأنه يرضاه سبحانه وتعالى وأن من فعله قَبِلَ اللهُ دعاءه لأنه جعل الصالحين مع الله في العبادة، ويقول: ويظنون أيضا أن الصالحين يحبونه، مع أن الصالحين لا شيء أبغض عندهم من الكفر والشرك، قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾(٤) فأكره ما يكره الصالح أن يقع الشرك بالله عزّ وجلّ، أكره عنده من كل كريه، حتى القبائح كالزنى والسرقة ونحو ذلك؛ الكفر أخبث منها وأشد، يظنون أن الصالحين يحبون هذا وأن الله تعالى يحب هذا فلهذا صنعوا هذا الصنيع وزعموا أنهم بذلك يرضون الله ويرضون الصالحين ويحصلون على شفاعة الصالحين، يتوهمون بذلك أن الصالحين يشفعون لهم، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ

---

(١) الزخرف: ٨٧.

(٢) يونس: ٣١.

(٣) يونس: ١٨.

(٤) الحجرات: ٧.

زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾(١) ذهبت هذه الأمور واضمحلت في القيامة؛ كانوا يتوهمون أن هؤلاء سيشفعون لهم، والواقع أن الصالحين يتبرؤون إلى الله منهم ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾(٢) فيخسرون في القيامة أعظم الخسارة لأنهم يتوهمون أنهم سينفعونهم وهم لا يمكن أن ينفعونهم بل يتبرؤون إلى الله تعالى منهم، قال تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾(٣) فالصالحون كما تبين لا يرضون أن يشرك بهم من دون الله، وتوهُّمُ هؤلاء المشركين أنهم سيشفعون لهم قد تبين بالنصوص أنه أمر لا يمكن أن يحصل، يطلبون بعبادة الصالحين شيئا آخر أيضا - ذكره الشيخ أيضا فيما استدل عليه في الآية -: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾(٤) قال الشيخ البغويّ رحمه الله في بيان المراد بالآية ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ أي أن هذا هو قول هؤلاء المشركين، فهم اتخذوا هؤلاء أولياء وزعموا أنهم يقربونهم إلى الله زلفى، يقول الشيخ رحمه الله: هذه أعظم مسألة خالفهم في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، لأنها شرك أكبر، وهو صلّى الله عليه وسلّم أتى بالتوحيد الخالص، قال: فأتى بالإخلاص، والإخلاص هو إفراد الله عزّ وجلّ بالقسط وتصفية العمل وتطهيره من جميع شوائب الشرك، وأخبر أنه دين الله الذي أرسل به جميع الرسل، الرسل صلّى الله عليهم وسلّم اتفقوا جميعا على التوحيد، الخلاف الذي يكون بين الرسل لا يسمى خلافا؛ يقال: اختلف الرسل؟ لا؛ التفاوت في الشرائع، فيحل في شريعة نبي ما كان حراما في شريعة آخر، قال الله عزّ وجلّ عن عيسى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾(٥)، فيتفاوت من جهات التشريع، قال الله عزّ وجلّ:

---

(١) الأنعام:٩٤.

(٢) القصص: ٦٣.

(٣) فاطر: ١٤.

(٤) الزمر: ٣.

(٥) آل عمران: ٥٠.

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾(١)، فيتفاوتون من جهة التحليل والتحريم والإيجاب والإباحة، هذا يتفاوتون فيه، لكن أصل التوحيد لا يمكن أن يتفاوتوا فيه بتاتا، قال النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «الأنبياء إخوة لعلات، دينهم واحد وأمهاتهم شتى»(٢)، إخوة لعلات: هم الذين والدهم تزوج أكثر من زوجة؛ فهم إخوة من الأب، أمهاتهم شتى وأبوهم واحد، مراده صلّى الله عليه وسلّم أن الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم من جهة الشرائع قد تتفاوت شرائعهم في التحليل والتحريم ونحوه، لكنهم من جهة الاعتقاد؛ على اعتقاد واحد، يقول ابن القيم رحمه الله: (الدين في التوحيد دين واحد، لم يختلف منهم عليه اثنان) أي لا يختلف اثنان من الرسل عليهم الصلاة والسلام على التوحيد، فالتوحيد الذي عليه جميع المرسلين هذا أمر قد اتفق عليه الأنبياء والرسل منذ آدم إلى محمد صلّى الله عليهم وسلّم جميعا، كلهم متفقون على التوحيد، ولهذا قال: أرسل به جميع الرسل، والله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا الخالص، فالمشركون أعمالهم غير خالصة، لأنهم من اسمهم مشركون؛ يجعلون لله ولغيره نصيبا في العبادة، فلا شك أن أعمالهم تُرَدُّ عليهم، وهم أبعد الناس عن الشفاعة، لما سأل أبو هريرة رضي الله عنه النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن الشفاعة فقال: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه»(٣)، وهؤلاء ليسوا بمخلصين، لا نصيب لهم من الشفاعة - نعوذ بالله من حال أهل النار - ونعوذ بالله من الزيغ والضلال والتيه والضياع؛ أن يتيه الانسان ويحسب أنه يحسن صنعا - نسأل الله العافية والسلامة - ويمضي في هذا الدهور الطويلة من عمره وينفق الأموال ويبذل الجهود الهائلة ثم يكون سعيه - عياذا بالله - هباء منثورا، فإذا ورد في القيامة ورد على أشد ما يكون من فساد الحال ومن الخسران المبين، ولهذا ينبغي أن يركز أهل العلم على أمر التوحيد أولا قبل كل شيء، وأن يركزوا على تطير الناس من أمور الشرك، فإن الشرك هو الذي إذا خالط الأعمال أفسدها إفسادا تاما، والتوحيد إذا لم يوجد عند العبد فحتى لو وجد عنده شيء من الخصال الطيبة كَبِرِّهِ لوالديه وعطفه على الأرامل والمساكين والمحتاجين؛ فإن ذلك لا ينفعه - نسأل الله

(١) المائدة: ٤٨.

(٢) صحيح البخاري (٣٤٤٣).

(٣) صحيح البخاري (٩٩).

العافية والسلامة -، ولهذا ينبغي التركيز على التوحيد وأن يُعلم أن أكبر خصلة خالف النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيها أهل الجاهلية خصلة الشرك القبيحة التي كانوا عليها، وأتاهم صلّى الله عليه وسلّم بالتوحيد الخالص ولم يجامل ولم يحابي ولم يكن صلّى الله عليه وسلّم لهم مداهنا كما قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾(١) هذه أمور لا مداهنة فيها، لا بد أن يُصدع بالدعوة إلى التوحيد وأن يُحذر من الشرك، نعم تستخدم الأساليب الطيبة التي ترغب الناس وتحببهم بالحق ويحرص الداعي إلى الله تعالى إلى التزام الخلق النبيل والحرص البالغ على نفع الناس، كل هذا صواب وحق، لكن لا شك أن هذه الخصلة وهي أسوأ خصال أهل الجاهلية يجب أن يُتخلص منها غاية التخلص وأن يركز الدعاة إلى الله عزّ وجلّ على تطهير الناس وتنزيههم منها.

---

(١) القلم:٩.

المسألة الثانية: أنهم مُتفرِّقون في دينهم، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(١)، وكذلك في دنياهم، ويرون ذلك هو الصواب، فأتى بالاجتماع في الدين بقوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾(٣)، ونهانا عن مشابهتهم بقوله ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾(٤)، ونهانا عن التفرُّق في الدين بقوله ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾(٥).

....

هذه الخصلة الثانية من خصال أهل الجاهلية ناشئة عن بعدهم عن التوحيد، فلما كانوا ملازمين للشرك ولأهوائهم ترتب على ذلك تفرقهم ولا بد، الأهواء كثيرة وصرف العبادة لغير الله عزّ وجلّ إذا وقع في الناس تفاوتوا، فمنهم من يعبد الملائكة ومنهم من يعبد الأنبياء ومنهم من يعبد الصالحين ومنهم من يعبد الكهوف والغيران ومنهم من يعبد الأشجار ومنهم من يعبد حتى الدواب والبهائم، بل منهم من يعبد حتى الشياطين ومنهم من يعبد الكواكب، فيتفرق الناس، فلا شيء يجمع الناس كالتوحيد، ولهذا هذه الأمة حتى تتوحد - وكثيرًا ما نسمع وحدة الأمة وحدة الأمة - لا يمكن أن تتحد الأمة إلا على توحيد، إذا لم يوجد التوحيد فلا يمكن أن تتوحد الأمة، إذا وجد التوحيد في طائفة من الأمة ووجد في طائفة أخرى الشرك؛ لا يمكن أن يجتمعوا، والذي يطلب أن يجتمع أهل الشرك مع الموحدين هذا يطلب المحال؛ لأن من الأمور المفروغ منها أن الموحد الذي يعي توحيده لا يمكن أن يُقرَّ الشرك، والذي قد عبد غير الله تعالى لا يرضى أن يُجهر بالتوحيد وأن يُحذر من الشرك، فأنى لهم أن يجتمعوا، لذا فهذا السراب الذي يعدو

(١) المؤمنون: ٥٣.
(٢) الشورى: ١٣.
(٣) الأنعام: ١٥٩.
(٤) آل عمران: ١٠٥.
(٥) آل عمران: ١٠٣.

خلفه كثيرون ليوحدوا الأمة على غير أساس؛ هؤلاء قد أضاعوا أوقاتهم وأضاعوا نصيبهم ولم يظفروا بشيء ولو جمعوا الجموع الغفيرة على أحقاد وأدواء وتباغض فإنهم لا يفلحون ولا ينصر الله سبحانه وتعالى من هذا حالهم، لأن الأساس الأكبر في النصر هو أن يُوحد الله وهو الذي يجلب نصره سبحانه ﴿إِنْ تَنْصُرُوا الله يَنْصُرْكُمْ﴾(١) وأساس نصرك لربك تعالى هو بتوحيدك فما لم يكن موحدا فهو يكون أبعد ما يكون عن أن ينصره الله تعالى، فهذه الخصلة فيهم أنهم متفرقون في دينهم، قال تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(٢)، المسلمون أمة واحدة وليسوا أحزابا وليسوا مجموعة من الضُّلَّال الذين يُشرعون ما لم يشرعه الله عزّ وجلّ، هكذا كانوا في أول الإسلام، فكانوا أمة واحدة، دينهم واحد، اعتقادهم واحد، قبلتهم واحدة، ربهم واحد، نبيهم صلّى الله عليه وسلّم واحد، فلما دَبَّتِ البدع والضلالات في الأمُّة حصلت الفُرقة، وترتب على هذه الفُرقة شيء عظيم من الوهن والضعف وتكدر القلوب والتقاتل، فاستباح الناس من بعضهم ما لا يجوز أن يستباح وأزهقت نفوس كثيرة، وقطعت سبل وسلبت أموال، ورُوِّعَ آمنون بغير وجه حق، ما الذي فرَّق الأُمَّة؟ الذي فرَّق الأُمَّةَ أن كل مخالفة لهدي النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فإنها توجد وهنًا، وبقدر ما تكون هذه المخالفة بقدر ما يكون الوهن، وأعظمُ المخالفةِ المخالفةُ في الأساس والأصل وهو التوحيد، فكثر المشركون، قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: أول من نشر الشرك في الصالحين وأقام على قبورهم البنايات هم الرافضة، حيث كانوا في زمن بني بُويه، وفي زمن بني عُبيد المسمى بالدولة الفاطمية، ولا يصح أن تُسمى بالدولة الفاطمية لأنه لا نسبة لهم إلى فاطمة رضي الله عنها، بل هم منسوبون إلى عُبيد القدَّاح من يهود المغرب، ادَّعى هؤلاء أنهم من نسل فاطمة رضي الله عنها، فانتشر الشرك في العراق في زمن المعتضد حيث كانت الغلبة والظهور لبني بُويه، وبدأت الضلالات والشركيات، وانتشر أيضا مثل هذا في عدد من المنسوبين إلى التصوف، وصار الشرك يضرب أطنابه في بلاد شتى حتى إن بعض البلدان بلغت فيها الأضرحة أعدادا هائلة كبيرة جدا يُطاف بها ويُدعى غير الرب تعالى عندها

---

(١) محمد: ٧.

(٢) المؤمنون: ٥٣.

ويُسجد لأهلها؛ فلماذا لا يتفرقوا! الأساس الذي جمعهم قد تخلى عنه هؤلاء، ولهذا دائما عند الكلام على وحدة الأمة يُقال: إذا أُريدت وحدة الأمة؛ فالذين تفرَّقوا عن الخط الذي كان عليه صلّى الله عليه وسلّم يعودون إليه؛ فتجتمع الأمَّة، أما الذين لزموا ما كان عليه صلّى الله عليه وسلّم فلا يصح أن يُقال لهم تنازلوا عن بعض ما أنتم عليه حتى تقتربوا من الرافضة؛ حتى تقتربوا من المشركين، هذا ليس تقريبًا، هذا تخريب وليس بتقريب، هذا إفساد لدين الله عزّ وجلّ، يُقال: الذي ترك ما كان عليه النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يعود إليه، فيزول التفرق وتكون جماعة، وعند ذلك تكون قوة وتتحد الأمة، أما أن يُطلب إلى صاحب الحق أن يترك الحق حتى تتوحد الأمة، فليس هذا من توحيد الأمة في شيء بل هذا من زيادة تمزيقها، قال صلّى الله عليه وسلّم - كما تقدم في الحديث: «لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم»(١) وإليهم يؤوب الضال وإليهم يعود الزائغ، يعود إلى أهل الحق، أما أن يُقال لأهل الحق تنازلوا عن بعض كلامكم في الصحابة لأجل أن لا يغضب الرافضة، لا، لا نتنازل، لا أرضاهم الله إلى يوم القيامة، ولا يُقال في الصحابة رضي الله عنهم كلمة واحدة إرضاء لأعداء الله من ورثة المجوس، يقول قائل: تنازلوا عن كلامكم في التوحيد وأن عبادة غير الله تعالى مما يفعله عباد القبور ونحوه، لا تُصَرِّحوا بأنه من الشرك، بلى والله نصرح بأنه من الشرك ونحن أنصح الناس لهم، أن نخبرهم أنهم على حال من الضلال والتيه ويُبيَّنُ لهم بالأدلة والنصوص أن هذا من الشرك، ولا يُتنازل، والدين ليس بملك لأحد حتى يُتنازل عن شيء ما، فيقال: نرضي الرافضة بكذا؛ نرضي المخرفين وعُبَّاد القبور بكذا، الدين من قال أنه لك أصلًا حتى تتنازل عن شيء أصلًا؟؟ الدين لله عزّ وجلّ والمستمسك بالحق والداعي المُسدد البصير هو الذي قال الله فيه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى الله عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾(٢) فليس لنا أصلًا خيار، بل نحن ملزمون باتِّباعه صلّى الله عليه وسلّم وأن ندعو على هديه رضي من رضي وسخط من سخط، وليس الدين ملكًا لأحد يتنازل عن شيء منه، فالذي يُفرِّق الناس هو ترك التوحيد الذي وحد الله

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) يوسف: ١٠٨.

به الأمَّة، فإذا أُريد التوحيد الحقيقي للأمَّة والتقريب الحقيقي للأمَّة فلْيَعُدْ أهل الباطل عن باطلهم وليعودوا إلى ما كان عليه الناس زمن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقد أخبر النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار إلا واحدة، فلما سئل عنها قال: هي الجماعة(١)، فالجماعة الأولى هي التي يجب أن تكون الأصل، وتؤوب إليها الأمة دائما، تعود إلى هديها، وفي لفظ أنه قال: «هم من كانوا على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»(٢)، فلن تزول الفُرقة إلا بهذا الطريق، من خصال أهل الجاهلية كثرة التفرق، يقول: هذا التفرق ليس في دينهم فقط بل في دنياهم، وهذا أمر مؤكد أن الأساس والرأس الذي قال عنه النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «رأس الأمر الإسلام» إذا وقع فيه التفرق فسينعكس هذا قطعا على أمور دنياهم، فأصابهم الوهن في دينهم وأصابهم الوهن في دنياهم - عياذا بالله -، يقول: فأتى بالاجتماع، الشيخ رحمه الله يذكر خصلة من خصال الجاهلية ويذكر ما أتى به النَّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم علاجا لهذه الخصلة، التفرق داء دواءه الاجتماع في الدين، أتى بالاجتماع النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الدين، هذا هو الأساس وهو الذي يجمع الناس - كما قلنا -، قال الله عزّ وجلّ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾(٣) فعلى الأمَّة أن لا تتفرق في دينها، وأن تعود إلى النبع الصافي في كتاب الله عزّ وجلّ وفي سنة نبيه صلّى الله عليه وسلّم كما فهمها الصحابة رضي الله تعالى عنهم والتابعون، الصحابة من الذي أفهمهم؟ أفهمهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهم أفهموا التابعين، والتابعون أفهموها من بعدهم، وتسلسل الحق في الأمَّة إلى أن يأتي أمر الله عزّ وجلّ كما تقدم في الحديث.

ثم ذكر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾(٤) هذا تبرئة من الله عزّ وجلّ لرسوله صلّى الله عليه وسلّم مِنْ هؤلاء الذين فرَّقوا دينهم، الدين واحد اجتمع عليه زمنَ النَّبيِّ صلّى

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٤٠) بنحوه، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في الصحيحة (٢٠٣).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (١٠)، وقال الحافظ العراقي رحمه الله في المغني (ص١١٣٣): (وأسانيدها جياد).

(٣) الشورى: ١٣.

(٤) الأنعام: ١٥٩.

الله عليه وسلّم العرب والعجم ممن أسلم والحاضر والبادي والحر والعبد والذكر والأنثى والغني والفقير، اجتمعوا جميعا عليهم وألف الله تعالى به قلوبهم وأصلح الله عزّ وجلّ به أحوالهم، فتفرَّق أهلُ الباطل عن هذا الحق، برأ الله نبيه منهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ وكانوا على دين واحد ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ وقال: ونهانا عن مشابهتهم، أي عن مشابهة أهل الشرك وأهل الكفر ممن دأبهم وحالهم هو التفرق، فقال: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾(١) أهل الكتاب حين تفرّقوا تفرّقوا عياذاً بالله مع تركهم للبينات ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾(٢) فتفرَّقوا بعد وجود البينات، فَفِرَقُ الضلال والمبتدعة قد شابهوا هؤلاء، تفرَّقوا بعد أن جاءت البيِّنة، وأين البيِّنة؟ البيِّنة فيما جاء به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فلهذا نهينا أن نتشبه بأهل الكفر سواء من كفرة أهل الكتاب أو من غيرهم من عباد الأوثان وأمثالهم، نهينا عن مشابهتهم، فقال: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾(٣)، قال: ونهانا عن التفرق في الدنيا، فقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾(٤)، ولهذا الجماعة إذا أطلقت يراد بها معنيان:

الجماعة في الدين بأن يجتمعوا على دين واحد كما في الآية ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾(٥) أي اجتمعوا على دين واحد.

---

(١) آل عمران: ١٠٥.

(٢) البينة:١.

(٣) آل عمران: ١٠٥.

(٤) آل عمران: ١٠٣.

(٥) الشورى: ١٣.

النوع الثاني من الجماعة: جماعة الأبدان ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾(١) فكونوا مع الجماعة ولا تخرجوا عن الجماعة، الجماعة كما سيأتي إن شاء الله تعالى عند الكلام على الخصلة الثالثة مكونة من راع ورعية، راع يحكم بكتاب الله ويقود الأمَّة بكتاب الله، كما قال صلّى الله عليه وسلّم: «اسمعوا وأطيعوا وإن كان لعبد حبشي يقودكم بكتاب الله»(٢) فالراعي يحكم بالشرع، والرعية تطيع هذا الراعي في غير معصية الله عزّ وجلّ، فتجتمع الأمَّة، فالجماعة على ما سمعتَ؛ جماعةٌ في الدين وجماعةٌ في الأبدان، أتى صلّى الله عليه وسلّم بالجماعة وكان أمر اجتماعهم عجبا، ولا يستطيعه أحد من البشر، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ الله أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٣) فما كان لهم أن يجتمعوا، العرب أبعد الناس عن الاجتماع، ولهذا أخبر تعالى أن هذا الجمع لهم هو منه وحده تعالى، وأن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لو أنفق ما في الأرض ما ائتلفوا لشدة ما بينهم من التنافر، ولهذا يُقال هذا الوضع الذي في الأمَّة اليوم ليس بأعجب من الوضع الذي كان زمن الجاهلية، الذي جمع أولئك الذين كانوا في الجاهلية فتخلوا عن فُرقتهم واجتمعوا جميعًا تحت راية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هو الذي يمكن أن يجمع الأمَّة اليوم - بلا شك - لأن أولئك ليسوا من ذوي الدين أصلًا، يعبدون الأصنام والأوثان وعلى مناح شتى في العبادة، فجمعهم الله برسوله صلّى الله عليه وسلّم لما اجتمعوا على التوحيد، الفُرقة الموجودة اليوم منها فُرقة لا يخرج الإنسان بها من الملة فيكون عنده ابتداع خالف به رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، وثمة بدع مكفرة ضل بها من ضل وخرج عن دين الإسلام بالكلية، فلا يمكن أن تجتمع الأمَّة إلا إذا سُلك المسلك الأول الذي جمع الله تعالى به أهل الجاهلية، ولهذا لا يمكن أن تجتمع الأمَّة إلا على هذا السبيل الصحيح.

فالحاصل أن من خصال أهل الجاهلية هذا التفرق، وقد ذكر الله تعالى آية فيها عبرة وهي أن هذا التفرق دالٌّ - مع كونه فسادا في الدين ومع كونه مخالفة في النصوص وتشبها بأهل الجاهلية - فإنه دالٌّ على

(١) آل عمران: ١٠٣.

(٢) صحيح البخاري (٧١٤٢)، ولفظه في النسائي (٤١٩٢).

(٣) الأنفال: ٦٣.

قلة عقل من وقع فيه ممن خالف الحق، أما الملازم للحق فإنه ما خالف الحق حتى يُقال: إنه ممن لا يعقل، إنما الذي يخالف الحق فينشأ من مخالفته كثرة النزاع والشقاق هذا دالٌّ على قلة عقله، قال تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾(١) قال بعض المفسرين: دلَّ على أن كثرة النزاعات تدل على قلة العقل، كثرة النزاعات والخلافات دالة على قلة العقل، فنزاعات الرافضة مع كونها مخالفة للشرع وللأدلة دالة على قلة عقولهم، مخالفات المُخرفين ممن يعبدون غير الله تعالى ويسجدون لهم ويطوفون بقبورهم ويخالفون الحق المبَيَّن في النصوص - مع أنه مخالفة عظيمة للشرع - فهو دالٌّ على قلة عقولهم، وهكذا إذا رأيت حتى من ليس عندهم شرك، القوم الذي دأبهم دائما النزاعُ النزاعُ حتى لو كانوا من أهل الإسلام تجدهم من أقل الناس عقلا، في خُصمة، منذ أن يجتمعوا إلى أن يفترقوا، الخُصمة مستمرة بينهم دائما، هذا يدل على قلة عقولهم، فكثرة النزاعات والخلافات دالة على قلة العقل ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً﴾، كأن قائلًا قال: ما الذي فرَّقهم وهم أُمَّة واحدة؟ فجاء الجواب: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾، ما السبب ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾، فكثرة هذه النزاعات والخلافات لا شك أنها أتت من أهل الباطل، فلهذا هو يزعمون أنهم من أعرف الناس ومن أفهم الناس ومن أكثر الناس حذقًا وعقلًا، والواقع أنهم من أقل الناس عقلًا.

(١) الحشر: ١٤.

المسألة الثالثة: أن مخالفة ولي الأمر وعدمَ الانقياد له فضيلة، والسمع والطاعة ذلٌّ ومهانة، فخالفهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ وأمر بالصبر على جَور الولاة، وأمر بالسمع والطاعة لهم والنصيحة، وغلَّظ في ذلك وأبدأ فيه وأعاد.

....

ذكر رحمه الله تعالى الخصلة الثالثة: العرب كانوا من أشد الناس تمنعًا وتعصيًا على أن يطيعوا أحدًا، ذكر الشافعي رحمه الله تعالى أن هذه الخصلة في العرب وأنهم كانوا يأنفون أنفة شديدة أن يطيعوا أحدًا، ولهذا لم يوجد داخل الجزيرة العربية دولة إلا في الأطراف، في جهة الشمال الشرقي والشمال الغربي دولة المناذرة والغساسنة وفي أيضا الأطراف في الجنوب، الدول التي كانت في جهة اليمن، أما داخل الجزيرة العربية في وسطها وفي شرقها وفي غربها فكان شيئًا هائلًا من الخلافات والنزاعات، ولم يكن أحد يستطيع أن يجمع شتات هذه القبائل ويكون حاكمًا عليها وحدها لأن العرب تأنف ذلك، فكانت القبيلة تسمع لكبرائها وتلك تسمع لكبرائها وتلك تسمع لكبرائها، والقبائل كثيرة، ولم يكن عندهم نظام ولا جيش ولا قضاء، فكانوا على حال من الفرقة شديد جدًا، وكان من خصالهم أنهم يَرَوْنَ أن مخالفة الحاكم وعدم الانقياد له هو الفضيلة وهو الدال على تمام الرجولة وعلى القوة وعلى ما يُعَبَّرُ عنه اليوم بالشخصية القوية، فكانوا يَرَوْنَ أن الطاعة في مثل هذا مهانة ومذلة وأن أحدًا لا ينبغي أن يُسمع له ويُطاع على سبيل الأمر لك وتنظيم الأمور وترتيبها؛ يرون أن هذا من المذلة وأنه من المهانة، فكانوا يعكسون المسألة تمامًا، ولهذا هذا الصنف لا يمكن أن يقوم عندهم نظام، كيف يقوم عندهم نظام وهم يرون أن النظام مهانة، لا يمكن أن يقوم عندهم نظام، ولهذا - كما قلنا - لم يوجد في جزيرة العرب حاكم تمكن من أن يلم شتات هذه القبائل ويكون باسم ملك أو خليفة أو رئيس أو ما شابه، لا يمكن أن يكون هذا قبل الإسلام، وإنما وجد - كما قلنا - في الأطراف؛ المناذرة في جهة دولة الفرس، والغساسنة في جهة دولة الروم، وفي مواضع محددة، أما الجزيرة العربية فكانت أتونًا مشتعلة، وكانت النزاعات والحروب إذا وقعت بينهم تستمر سنين لا تطفأ، حتى استمرت بعض وقائعهم أربعين سنة، والمراد باستمرارها أربعين سنة ليس أن ثمة جيشين يتحاربان مدة

أربعين سنة، لكن تنشب الحرب بينهم ويهلك بعضهم بعضًا ثم يستمرون في الثأر فيُغِيْرُ هؤلاء على هؤلاء، ويقطع على هؤلاء أولئك الطريق وهكذا، فجاء صلّى الله عليه وسلّم بضد هذا خالفهم وأمر بالسمع والطاعة للولاة والنصيحة.

ذكر رحمه الله تعالى أن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أتى بأمور ثلاثة: السمع والطاعة، أما السمع مع عدم الطاعة ما منها فائدة كما قالت اليهود: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾(١) إذِ المقصود أن يُسمع ويُطاع، ولا شك أن المقصود هنا هو السمع والطاعة في المعروف، فلا يُسمع لأحد ويُطاع في معصية الله عزّ وجلّ، وإنما السمع والطاعة عند أهل السُّنَّة في المعروف فقط، فأما السمع والطاعة في المعصية فلا أحد يُسمع له ولا يُطاع كما قال عليه الصلاة والسلام: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»(٢) فالمقصود أنه يُسمع ويُطاع في المعروف، وما الذي يُطاع فيه الولاة؟ يُطاع الولاة في نوعين:

النوع الأول: إذا أمروا بما أمر به الله، فيطاعون طاعة لله عزّ وجلّ، كأن يأمروا بإقام الصلاة وأن يأمروا بالتزام الصيام ونحو ذلك، فيطاعون طاعة لله عزّ وجلّ.

النوع الثاني: الطاعة فيما لم يمنع الشرع منه ولم يجعله معصية، كالتنظيمات التي تقع للناس في أمور معادهم ومعاشهم وترتيب أحوالهم كما هو الشأن في الوزارات وفي غيرها، هذا الترتيب ينبغي أن يُطاعوا فيه لأنه لا يقوم نظام إلا بهذا الترتيب، وقد دوَّن عمرُ رضي الله عنه وأرضاه الدواوين وهي تشبه تنظيم الوزارات حتى ترتب الأمور، فإذا قال أحد: سأسمع لهم وأطيع فيما أمر الله به، إذا أمروا بالصلاة والزكاة والحج سمعنا وأطعنا، إذا أمروا بأمر لم يوجب الله عزّ وجلّ هذا الأمر بنص القرآن والسُّنَّة فلن أسمع له وأطيع! فيقال: هذا من قلة فقهك ومن قلة علمك، لأن السمع والطاعة لهم تكون في النوعين معًا، إنما يُعصون في حالة واحدة وهي أن يأمروا بمعصية الله فيقال: لا يُسمع لكم ولا يُطاع في معصية الله عزّ

---

(١) البقرة: ٩٣.

(٢) صحيح البخاري (٧١٤٤).

وجلّ، وأمركم مردود عليكم، لا يُسمع لهم ولا يُطاع، ولا يعني هذا أنهم إذا أمروا بمعصية وخُولفوا فيما أمروا به من معصية أن تَنتقض بيعتهم أو أن تُنزع اليد من طاعتهم أو أن يُقال: ما داموا قد أمروا بمعصية فلا يُسمع لهم لا في الخير ولا في الشر، لا، ليس هذا هو المقصود قطعًا بإجماع أهل السُّنَّة، وإنما المقصود أن يُعصوا بمعصية الله وأن يُطاعوا في طاعة الله عزّ وجلّ وفيما فيه مصلحة المسلمين في أمور معاشهم وترتيب أمورهم كما تقدم.

يقول: إن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم خالف أهل الجاهلية في هذا وغلَّظ في ذلك وأبدا وأعاد، أكثرَ صلّى الله عليه وسلّم من الأحاديث الدالة على وجوب طاعتهم في المعروف وغلَّظ على من لم يُطع في المعروف فأخبر صلّى الله عليه وسلّم أن من فارق الجماعة شبرًا ومات؛ مات ميتة جاهلية - نسأل الله العافية والسلامة - وهذا وحده كفيل بالخوف الشديد من أن يخالف الانسان الجماعة، لأن الجماعة كما قلنا تتألف من حاكم ومحكوم، فإذا انفرد عن هذه الجماعة وعدَّ نفسَه غير داخل فيها؛ فإنه إذا مات؛ مات ميتة جاهلية كما قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: (إياكم وقتال عمية، وميتة جاهلية) فقالوا: ما قتال عمية؟ قال: (أن يُقال: يا لفلان ويا آل فلان)، يعني التنادي بهذه الأسماء، قالوا: فما ميتة جاهلية؟ قال: (أن تموت ولا إمام عليك)[1]، إذا اعتقدت أن هذا الحاكم لا يُسمع له ولا يُطاع، حتى لو لم تُقاتل حتى لو لم تخرج عليه، تقول هذا الرجل الذي بُويع من قِبَلِ المسلمين: أنا لا أرى أنه واجب السمع والطاعة، حتى لو لم تخرج؛ إذا مت على هذا فإنك تموت ميتة جاهلية كما قال أبو سعيد: (أن تموت ولا إمام عليك)، تعتقد أن هذا الحاكم الذي يجب له السمع والطاعة؛ يعتقد أنه ليس بإمام وليس بحاكم مع أنه بُويع؛ فإذا مات على هذا فإنه يكون مات ميتة جاهلية لأن أهل الجاهلية هكذا، أهل الجاهلية لا يرون السمع والطاعة، والسمع والطاعة أيها الأخوة كما ننبه دائمًا في مثل هذه المناسبات؛ السمع والطاعة أهلُ السنة بحمد الله فيه على طريقتهم في سائر الأبواب على التوسط فليسوا على طريقة الخوارج الذين يخرجون على الحكام وليسوا على طريقة من يُبَرِّرُوْنَ للحكام أخطاءهم ويدافعون عن أمرهم بالباطل كما كانت النواصب زمن بني أمية، ذكر شيخ

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٧١٥٠).

الاسلام أنهم كانوا يعتقدون أن طاعة ولي الأمر واجبة مطلقة، وأنه يؤتمر بأمره حتى ولو أمر بمعصية - نعوذ بالله -، فهؤلاء طرف والخوارج طرف، وأهل السنة بحمد الله على الهدي الوسط السليم بأن يُطاع ولاة الأمور في غير معصية الله عزّ وجلّ، فالمؤمن ليس فوضويًا يقيم الأمور على حسب ما يَعِنُّ له وإنْ تدمرت الجماعة، المؤمن ليس هكذا، ولم يسم النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ذلك الحال بميتة الجاهلية إلا لعظم الذنب وكبر الجرم الذي يكون عليه من خالف ما لا يجوز أن يُخالف، وليس معنى هذا أن أحدًا لو خالف تنظيمًا من التنظيمات أو غيرها أو نحو ذلك أنه يموت ميتة جاهلية لا ينبغي أن يفخم الأمر هكذا، إنما أخطأ فيها، لكن أن يعتقد أنه ليس بإمام وإن يعتقد أنه لا يُسمع له ولا يُطاع وأن يعتقد أنه إن أتته فرصة ووَاتَتْه ووجد من يمكن أن يزحزح هذا الرجل عن حكمه أنه يكون معهم! فلو مات ولم يفعل هذا فقد مات ميتة جاهلية، ولهذا قال أحمد رحمه الله تعالى: (لا يحل له أن يبيت وهو يعتقد أنه ليس بإمام)[(١)]، فقط مجرد اعتقاد أنه ليس بإمام، لأن المسلمين إذا بايعوه لزم السمع والطاعة، فإذا لم تبايعه فليست المشكلة بينك وبين هذا الحاكم، لا، المشكلة بينك وبين الجماعة، فأنت الآن حِدْتَ وخرجت عن الجماعة، ثم الحمد لله مُرْ بالمعروف وانْهَ عن المنكر ولا تطع في المعصية فتجمع الخير كله وتخالف خصلة أهل الجاهلية.

---

(١) انظر شرح السُّنَّة للبربهاري (ص٥٦).

وهذه الثلاث هي التي جَمَعَ بينها فيما صح عنه صلّى الله عليه وسلّم في الصحيحين أنه قال: (إن الله يرضى لكم ثلاثاً: أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم)[١] ولم يقع خلل في دين الناس ودنياهم إلا بسبب الإخلال بهذه الثلاث أو بعضها.

....

لما ذكر المسائل الثلاث المتقدمة، الأولى في الشرك بالصالحين، والثانية في التفرق، والثالثة في مخالفة ولي الأمر، ذكر أن النَّبيّ عليه الصلاة والسلام جمع في الحديث الصحيح ما يدل على خصال أهل الحق فقال: «إن الله يرضى لكم ثلاثا: أن تعبدوه ولا تشركوا بها شيئًا» وهذه ضد الخصلة الأولى وهي أنهم يعبدون الصالحين أو غيرهم مما يُعبد من دون الله «وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا» وهذه ضد الخصلة الثانية وهي أنهم متفرقون «وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم» وهذه ضد الخصلة الثالثة وهي أنهم لا يرون السمع والطاعة.

ذكر الشيخ أن ولاة الأمور أيضا يُناصحون وذلك أن ولاة الأمور بشر يخطئون ويصيبون، فيجب أن يُناصحوا كما يُناصِح المسلم أخاه وأن يُدلوا على الحق ويُسلك في مسلك النصيحة المسلك الشرعي القويم الذي بينته النصوص بحيث ينفع الله تعالى بهذه النصيحة فإذا وقعت موقعًا أخلص فيه الناصح واستعمل الطريقة الشرعية في النصح؛ فإنها تجدي بإذن الله تعالى ولو بعد حين، وإذا لم تُجْدِ ولم تنفع؛ فإن الناصح قد برئت عهدته كما في الحديث أنه عليه الصلاة والسلام قال: «من أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يبده علانية» أي أمام الناس «وليأخذ بيده»[٢] يعني فيما بينه وبينه، فإن قَبِلَ وإلا كان قد أدى الذي عليه، فيُلتزم المسلك الشرعي في النصح وعلى مَنْ حولهم من بطانتهم أن يتقوا الله عزّ وجلّ وأن ينصحوا لهم؛ فإن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان؛ إحداهما تحضُّه على الخير وتأمره به، والثانية تحضُّه على الشر، والمعصوم من عصم الله»[٣] وهكذا كل من يمكنه أن

(١) صحيح مسلم (١٧١٥).

(٢) صحيح. كتاب (السنة) لابن أبي عاصم (١٠٩٦) عن عياض بن غنم مرفوعا. ظلال الجنة (١٠٩٦).

(٣) صحيح البخاري (٦٦١١).

يصل إليهم وأن يكون جليسا لهم أو أن يُكاتبهم عليه أن يتقي الله تعالى وأن يَصدُق في النصح لهم، فإن هؤلاء الحكام له بطانتان؛ بطانة فاسدة وبطانة صالحة، ولهذا قال في لفظ - عن بطانة السوء: «فمن وقي شرها فقد وقي»[(١)] ولهذا أيضا يُدعى لهم بصلاح البطانة، أن يُصلح الله بطانتهم وأن يرزقهم الجلساء الصالحين الصادقين الذين كما قال صلّى الله عليه وسلّم في سنن أبي داود: «إذا أراد الله بالحاكم خيرا جعل له وزير صدق؛ إن نسي ذكَّره، وإن ذَكَرَ أعانه»، هذا الحال الأول، وإذا - والعياذ بالله - لم يُرِدِ الله به ذلك «جعل له وزيرا إن نسي لم يُذَكِّره، وإن ذَكَرَ لم يُعِنْهُ»[(٢)] ولهذا يُدعى لهم بأن يُصلح الله تعالى حالهم وبطانتهم ومن حولهم وهذا من النصح لهم، من النصح لهم أن يُدعى لهم كما نص أهل العلم في كتب العقيدة أنه يُدعى لهم، ولهذا قال الفضيل وغيره من أهل العلم: (لو كان لي دعوة مستجابة لجعلتها للسلطان؛ لأن بصلاح السلطان صلاح أحوال الناس في دينهم ودنياهم)[(٣)]، فمن النصح لهم أن يُصدَق معهم وأن يكون مَنْ حولهم غير مُريد ولا قاصد لدنياهم وعطاياهم، وإنما يريد الصدق مع الله عزّ وجلّ في إبداء الحق لهم وتنبيههم على ما يكون خللًا وخلافًا لما أمر الله عزّ وجلّ به مما هو في أمر دين الناس أو دنياهم فهذا من النصح لهم، ولهذا ذكر الشيخ أن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أتى بالسمع والطاعة والنصيحة أيضا بأن يُنصح لهم، ثم قال رحمه الله: ولم يقع خلل في دين الناس ودنياهم إلا بسبب الإخلال بهذه الخصال الثلاث أو ببعضها.

إذا تأملت حال الناس وجدت أن الشر والفساد يتطرق إليهم من هذه الخصال الثلاث أو من اثنتين أو من واحدة، إما أن يكون الناس قد جمعوا - والعياذ بالله - الشرك والتفرق والمخالفة لولاة الأمور، أو أن يكون الناس قد وقع عندهم الشرك والتفرق حتى لو أطاعوا؛ لأنهم قد يطيعون في المعصية، وقد يكون عندهم توحيد وليس عندهم شرك؛ ولكن عندهم مخالفة للولاة في الحق وفيما يجب أن يُطاعوا فيه، يقول: لا يتطرق إلى الناس خلل في دينهم أو دنياهم إلا من قِبَلِ هذه الخلال الثلاث أو بعضها.

---

(١) رواه النسائي (٤٢٠١)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في الصحيحة (٢٢٧٠).

(٢) رواه أبو داود (٢٩٣٢)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الجامع الصغير (٣٠٢).

(٣)شرح السُّنَّة للبربهاري (ص١١٣).

أسئلة

- سؤال: يسأل أخ يقول: كثير من الفِرَق تدعو إلى التقارب بين الأديان، فما قولكم في ذلك؟

الجواب: مثل ما قلنا في موضوع التقريب، التقريب له أساس، وهو أن يقترب أهل الباطل من أهل الحق لِيُعَدِّلَ أهل الباطل ما عندهم من الباطل، هذا هو التقريب الذي جاءت به النصوص في كتاب الله وسُنَّة نبيه صلّى الله عليه وسلّم، أن يأتي صاحب الباطل سواء كان مبتدعًا أو كان كافرًا ليترك باطله ويطلب من أهل الحق أن يُقَوِّمُوا ما عنده من الباطل، فعند ذلك يُقَوَّمُون، أما إن كان المقصود بالتقريب - وهو الذي يقع - التقريب بين الأديان: المقصود أن يُزال ما بينها مما يُوجِدُ الخلاف! هؤلاء مخالفون لشرع الله ولقدره، فهذا كالذي ينحت بأصبعه في الجبل، يستحيل أن يزول هذا الخلاف، هذا الخلاف ما دام للحق حملة وللباطل حملة فهو باق، ولا يمكن أن يزول، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾(١) فأهل الحق أهل رحمة وائتلاف، فهؤلاء هم الذين لا يختلفون، أما أن تجمع أهل الكفر من اليهود والنصارى والملحدين وعُبَّاد الأوثان ليأتلفوا ويجتمعوا مع الموحدين وأهل الإسلام؛ فهذا من المحال أن يتم، يستحيل أن يتم، وحتى لو داهن بعضهم بعضا وجامل بعضهم بعضا فهم يغدرون ببعضهم في الواقع، لأن النصراني إذا قال: إن عيسى هو الرب، يقول له المسلم: لا، ليس برب، متى يجتمع هذا وهذا، ما يمكن أن يجتمعوا ولا يمكن أن يتم مثل هذا الأمر، ولهذا المفترض كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾(٢) هم قوم لا يعلمون لا يفقهون لا يعقلون؛ فيُعلَّمون ويُوضح لهم الحق ويُوضح لهم الاسلام، أم أن يُتنازل عن شيء من الاسلام! - فكما تقدم - الإسلام ليس لأحد، ليس الإسلام ملكًا لأحد حتى يقول: أنا أتنازل عن كذا من الاسلام، ليس لك، فالتقريب كما يُسمونه بين الأديان هذا من المحالات، أن تقترب الأديان الوثنية الشركية من التوحيد الخالص، يستحيل هذا الأمر.

---

(١) هود: ١١٨، ١١٩.

(٢) التوبة:٦.

- سؤال: إذا كان المؤمن به خصلة من خصال النفاق؛ فهل تنطبق عليه ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾(١) ؟

الجواب: هذا موضع مهم جدًا، إطلاق النفاق في النصوص على نوعين اثنين:

النوع الأول كما في الآية هنا: النفاق الاعتقادي المخرج من الملة، فمن الخطر الكبير أن تُفْهَم النصوص الواردة في النفاق الاعتقادي على النفاق الذي هو خصلة يقع فيها المسلم، فالنفاق الذي ذُكِرَ في الحديث «إذا حدَّث كذب» ليس معنى ذلك أن من حدَّث فكذب فهو في الدرك الأسفل من النار، لأن الآية أصلًا تتناول المنافقين بدليل أن القارئ لها لو أكملها لعرف المراد ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِالله وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لله فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢) هؤلاء أهل نفاق أكبر إذا تابوا رجعوا إلى أهل الإيمان، أما المسلم الذي يقع منه أن يُحدِّث فيكذب أو أن يَعِدَ فيخلف؛ فهذا ليس من المنافقين المذكورين في الآية، وهكذا اسم الكفر، الكفر يطلق تارة على الكفر الأصغر وتارة على الكفر الأكبر، ولعلنا ذكرنا في المسجد هذا أو في غيره أن الماورديّ نقل أن بعض الشافعية لمَّا وقفوا على قول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في إمام الصلاة، يقول رحمه الله: إن إمام الصلاة إذا سمع صوت أحد داخل وهو راكع؛ فلا ينتظره، وانتظاره شرك. لا شك أن الشافعي لا يعني الشرك الأكبر، يقول الماورديّ رحمه الله: إن بعض أصحاب الشافعي لما رأى هذه المقولة من الشافعي ظن أن مراده بالشرك هنا الشرك الأكبر؛ فأفتى أن الإمام إذا انتظر فقد حلَّ دمه وقد خرج من الملة - نسأل الله العافية - بسبب ماذا؟ بسبب عدم الفهم للمراد من كلمة الشرك، فالشرك يُطلق ويُراد به الشرك الأكبر ويُطلق ويُراد به الشرك الأصغر، فينبغي عدم الخوض، وإذا خلط المرء بين هذا وهذا لا شك أنه يتسبب في فساد عريض بأن يَجعلَ المسلمَ من الكفار، فالذي يكذب ليس كافرًا، الذي يَعِدُ فيخلف ليس كافرًا حتى يُقال إنه عند نفاق أكبر كالذين في الدرك الأسفل من النار؛ وإنما هو مسلم من أهل العصيان أمره إلى الله تحت مشيئة الله تعالى.

---

(١) النساء: ١٤٥.

(٢) النساء: ١٤٥، ١٤٦.

- سؤال: يقول إن أحدهم إن النصارى كفار بنا، والمسلمون كفار بهم، ونجتمع جميعًا بإيمان هو الإيمان بالله!!

الجواب:

من قال: إنا نجتمع مع هؤلاء في الإيمان بالله؟ أما أن يكفروا بنا فنعم نكفر بهم كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾(١) فكفرنا بهم حق، وكفرهم بنا ليس بحق، لكن هو واقع، لكن القول بأنا نؤمن وإياهم بالله تعالى!! فحاشا لله تعالى أن يكون إيمان أهل الإسلام كإيمان النصارى، النصارى يقولون: إن الله ثالث ثلاثة، هل المسلم يقول: إن الله ثالث ثلاثة؟ أو يقول: هو واحد فرد صمد سبحانه وتعالى، فكيف يقال: إنا نؤمن بالله كما يؤمنون؟ فهذا الرجل يقصد الإيمان بربوبية الله تعالى، أنَّا نؤمن بأنه رب، وهذا موجود حتى عند الكفار أهل الجاهلية كما تقدم، فهم يُقِرُّون أن الله تعالى هو ربهم فهل كفار قريش مؤمنون؟ لا شك بأنهم ليسوا بمؤمنين، فالحاصل أن مجرد الإقرار بوجود الرب لا يعني أن الإنسان مؤمن، بل لا يكون مؤمنًا إلا على الحد الشرعي، فإذا آمن فقط بالله تعالى ربا وأشرك فلا ينفعه هذا، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾(٢) فبيَّن أنهم يؤمنون بالربوبية ومع ذلك ذكر أنهم مشركون كما بيَّن ابن عباس وقتادة ومجاهد في معنى الآية، فمجرد الإقرار بأن الله هو الرب هذا موجود حتى عند كفار أهل الجاهلية، فلا يحل أن يُقال مثل هذا، النصارى كفار، لا شك انهم كفار، واليهود كفار، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٣) فيَلْقَوْنَ الله تعالى هالكين، قال الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمَّة - يهودي ولا نصراني - ثم لا يؤمن بي إلا كان من أهل النار» (٤)هؤلاء من جثي جهنم، ولا ينبغي ولا يحل بتاتا؛ بل من الخيانة لله عزّ وجلّ ولدينه أن يُقال: إن اليهود والنصارى مؤمنون، لأن كلمة الإيمان

(١) الممتحنة: ٤.

(٢) يوسف:١٠٦.

(٣) آل عمران:٨٥.

(٤) صحيح مسلم (١٥٣).

إطلاق شرعي، فمجرد أن يؤمنوا بالربوبية لا يكفي أن يُطلق عليهم المؤمنون، لأن أبا جهل وكفار قريش كانوا يُقرُّون بالربوبية بنص القرآن وسماهم الله بالكفار؛ سماهم الله بالمشركين، ثم كيف يقول: إنهم مؤمنون؟ والله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾(١) كيف يقول: إنهم مؤمنون والله يقول إنهم كافرون، كيف يقول: إنهم مؤمنون والله يقول: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ الله هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾(٢)، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ الله ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾(٣) فمن قال مثل هذا يجب - لا شك شرعًا - أن يؤوب ويعود عن مقولته، وإذا كان تحت ولاية شرعية فالواجب أن يُستتاب من مثل هذا ويُحال إلى شرع الله عزّ وجلّ - نسأل الله العفو والعافية -، وصلّى الله عليه وسلّم على نبيّنا محمد وآله وصحبه.

---

(١) البينة:٦.

(٢) المائدة: ١٧.

(٣) المائدة: ٧٣.

المسألة الرابعة: أن دينهم مبني على أصول أعظمها التقليد، فهو القاعدة الكبرى لجميع الكفار أوَّلِهم وآخرهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ الله قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾(٢)، فأتاهم بقوله ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لله مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾(٣)،وقوله ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾(٤).

....

ذكر رحمه الله تعالى في هذه المسألة الرابعة أن الكفار قد بنوا دينهم على أصول، ولكن أي أصول؟ الأصول تارة تكون أصولا من الباطل وتارة تكون أصولا من الحق، بنوا دينهم على جملة من الأصول الباطلة، ولهم أيضا حجج ولكنها كما قال تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾(٥) وهم يتوهمونها أصولا تنفع تدل على شيء من الحجة وعلى شيء من الرسوخ في ما هم عليه من الباطل والواقع بخلاف ذلك، فهي أصول من أصول الكفر والفساد والضلال، ذكر أن من ضمن هذه الأصول التي بنوا عليها دينهم التقليد، والتقليد هو محاكاة الغير والتأسي به، وهو نوعان:

منه تقليد مَنْ يستحق التقليد، فإن كان المُقَلَّدُ نبيا فهذا تقليد في محله وهو اتباع الحق، لأن الله أرسل الرسل صلّى الله عليهم وسلّم وجعلهم على صراط مستقيم، فالماضي على هديهم لا يُرتاب في أنه على هدى، قال الله تعالى عن يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾(٦) فهذا

(١) الزخرف:٢٣.
(٢) لقمان:٢١.
(٣) سبأ: ٤٦.
(٤) الأعراف:٣.
(٥) الشورى: ١٦.
(٦) يوسف: ٣٨.

محل مدح؛ لأنه جعل الاتباع فيمن يستحق، وهكذا المُوَفَّقُون في هذه الأمة اقتدوا بنبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ومضوا على هديه، فهذا هو الذي بعث الله عزَّ وجلَّ الرسل مبشرين ومنذرين وجعلهم سبحانه وتعالى محل الأسوة، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(1) هو أسوة حسنة فيقتدى ويُمضى على أثره صلوات الله وسلامه عليه.

النوع الثاني من التقليد: اتباع من لا يستحق التقليد، كاتِّباع المشركين آباءهم لمجرد كونهم آباءهم، هذه حجتهم، يتبعون آباءهم لا لعلم عندهم، ولا لكونهم ذوي أثارة من آثار النبوة وإنما يتبع أباه لأنه أبوه، كالطفل الذي لا يعرف إلا أباه، فالحق عنده فيما عليه أبوه، هذا أمر لا يستغرب من طفل صغير، لكن مَنْ جعلهم الله موضعَ التكليف؛ يقول: أنا سأتبع أبي! وإن كان أبوك ضالا زائغا؟؟ فطريقتهم هي تقليد مَنْ يُعظمونه ولا سيما من آبائهم، ذكر الله عزَّ وجلَّ في الآية الأولى أن هذا أمر شائع في جميع الكفار، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ فدل - والعياذ بالله - أن هذه سُنَّة فيهم ماضية في أهل الكفر جميعا ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ وهم أهل التنعم قالوا ما يزعمونه حجة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ فهم ماضون على ما كان عليه آباؤهم.

ذكر تعالى عنهم أنهم لآبائهم مقتدون، في الآية الثانية ذكر تعالى أنهم يتبعون آباءهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ الله﴾ حيث العلم والهدى والبيان والشفاء والنور أعرضوا عن هذا ولم تكن عندهم حجة إلَّا قولهم ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ قال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾، في الآية الأخرى بيَّن تعالى أن آباءهم ليسوا محلا للتأسي - في آية أخرى في سورة المائدة لم يذكرها المصنف رحمه الله - ويقول الله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾(2) يتبعون آباءهم؛ فإذا كان آباءهم ليسوا من أهل الهدى ولا من أهل العلم؛ أيتبعونهم حتى يهلكوا هلكتهم! فالحاصل أن من طريقة

---

(1) الأحزاب: ٢١.

(2) البقرة: ١٧٠.

أهل الكفر ومن الأصول التي مضوا عليها ومن الحجج الداحضة التي ظلوا يرددونها أنهم وجدوا آباءهم على هدي وعلى سَنن معين فهم ملازمون له، يجمعهم الله تعالى مع آباءهم وأسلافهم في جهنم، فيجتمع المُقلِّدُ والمُقَلَّدُ، قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾(١) فيشترك المُقَلِّدُ ويشترك المُقَلَّدُ في العقوبة، المُقَلِّدُ لأنه مضى على آثاره يَعْمَه، والمُقَلَّد لأنه على ضلال في نفسه، فيجتمعون، ولا ينفعهم أن يجتمعوا جميعا في العذاب.

يقول رحمه الله: فأتاهم - يعني النبيّ صلّى الله عليه وسلّم - ثم إن من طريقة المصنف رحمه الله أن يذكر الخصلة الجاهلية ويبين الخصلة السليمة الصحيحة التي ينبغي أن تُسلك حتى يُتخلص من خصلة الجاهلية هذه، فلهذا قال: فأتاهم بقوله ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾، اتباع المُنَزَّل من الرب عزَّ وجلَّ هو الذي فيه العلم، كما قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾(٢) في الآية هذه الثانية أمرهم الله تعالى بالتفكر، التقليد يَحُوْلُ بين أهله وبين التفكر والتدبر والاعتبار، فإنه لو تأمل ما هو فيه من عبادة صنم نحته بيده وهو يعلم أنه ليس ربا للعالمين يدبره؛ وإنما هو صنم اتخذه هو بنفسه، فلو تفكر وتدبر وتأمل في أمره لعلم أنه في ضلال، وأدرك وأيقن أن هذا من أسوأ ما يكون من السفول والتردي؛ أن ينصب بيده صنما من خشب أو حجر ثم يقوم بالطواف له والسجود له وذبح القرابين له؛ أناس لا تفكر عندهم ولا فهم، فلهذا أمروا بالتفكر والتدبر لما هم فيه، فلذا لما تفكر من أراد الله تعالى هدايته وتدبروا في أمرهم علموا أنهم على ضلال مبين وتركوا ما هم فيه من الأصنام، ولهذا عمرو بن الجموح رضي الله عنه لما قام بعض شبان الأنصار بأخذ الصنم الذي كان يعبده وتدنيسه وتلويثه فأتى - وإذا به قد لُوِّث - فنظفه وغسله ثم إنهما - منهما معاذ بن جبل رضي الله عنه - أخذا هذا الصنم وربطاه في كلب ودلياه في بئر هو والكلب - والكلب ميت - فأخذا هذا الكلب ميتا وربطاه بالصنم ودلياه في البئر، أتى يبحث: ويحكم من أخذ ربنا وصار يبحث ويبحث فوجده مدلا مع

---

(١) الزخرف:٣٩.

(٢) الأعراف: ٣.

هذا الكلب الجيفة في بئر، فعلم أن هذا لو كان يدفع عن أحد لدفع عن نفسه فأسلم بعد ذلك، فإذا تفكروا وتدبروا فيما هم فيه أيقنوا هذا، وهكذا أهل الكفر الآن لو تدبر هؤلاء الملاحدة والزنادقة في أمر هذا العالم وما جعل الله عزَّ وجلَّ فيه من الآيات والعبر والدلائل العظيمة التي جعلها الله تعالى قائمة في الأنفس، وجعلها سبحانه وتعالى في الآفاق كما قال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(١) فلو تدبروا وتفكروا لعلموا أن الحق ليس إلا في هذا الدين العظيم، ولكن على آثارهم يعمهون أو في غفلة؛ في غفلة في دنياهم ومعاشهم فيغفلون عن هذه الحقائق العظام الجليلة الكبيرة، فمن أراد الله تعالى هدايته ربما حدث له حادث أو وقع له أمر تدبر وتفكر في أمره فترك ما هو فيه من الكفر، وإلا هل يعقل هذا الوضع الذي فيه البشرية في أمر الأعراض - إلا أهل الإسلام - هذا الوضع حتى البهائم لا تصل إلى هذا الحد من السفول، فلو تفكروا وتدبروا فيما فعلوه في النساء في الأرض لعلموا أنهم قد فعلوا ما لا تفعله البهائم، حين تُجعلُ النساء على هذا الوضع ويُزين لهن الفساد ويتبارين في إظهار مفاتنهن، ويتسابق المفسدون المجرمون في أرض الله عزَّ وجلَّ في العبث والتلاعب بهن؛ كأنهن لسن شقائق للرجال، يُلعب بهن لعبا كأنهن كرة يلعب بها الصبيان، لا كأنهن شقائق الرجال لهن عرض، ولهذا لاحظ ما يسموه بحقوق الإنسان؛ لاحظ أنه لا يوجد حق واحد في المنظمات العلمانية كلها اسمه حق العرض الشريف، لا يعرفونه نهائيا بتاتا، من حقها كذا ومن حقها كذا؛ ولكن لا يقولون من حقها العرض الشريف، هذا لا يُعرف، يقولون إن هذه المسألة راجعة إليها، فمادام أنها بذلت - والعياذ بالله - نفسها فإنها لها ذلك، وكأن العرض شيء يختص بالمرأة، العرض أمر عظيم جدا يتعلق بالمرأة ويتعلق بأبيها وبإخوانها وبقرابتها حتى، ولهذا جعله الشرع ضرورة من الضرورات الخمسة الكبرى، فلو تدبروا وتفكروا لعلموا أن ما فيه من الضلال والتيه العظيم، لكنهم قوم لا يتدبرون ولا يتفكرون، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لله مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ صلوات الله وسلامه عليه، كانوا كغيرهم من أعداء الرسل يقولون في أنبيائهم: إنهم قد أصابهم الجنون، يقول تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ الذي

---

(١) فصلت: ٥٣.

دعاكم إلى ما فيه صلاح دينكم ودنياكم وأتاكم بالمصالح وكمَّلها وأزاح عنكم المفاسد أيكون مجنونا لو كنتم تعقلون؟ لكنكم لا تتفكرون ولا تتدبرون، فهذا الشرع العظيم الذي جعله الله تعالى رحمة وأنقذ به البشرية؛ أيُقال في من أتى به إنه مجنون؟ وهل عُهد عن المجانين إلا الكلام غير المنضبط والأفعال غير المتزنة؟ كيف يوصف صلّى الله عليه وسلّم ويوصف إخوانه المرسلون عليهم صلوات الله وسلامه وقد أتوا بالحق المبين من عند الله تعالى رب العالمين كيف يوصفون بأنهم مجانين؟ إنما يصفهم بهذا من لا يعقل ولا يفهم ولا يتدبر ولا يتفكر وإنما يعمه يمضي على ما كان عليه سلفه الطالح الفاسد ويقول: إنما ما أتيت به من الحق هو الباطل، ولهذا تنتكس المفاهيم، المفاهيم تنتكس فيعود الحق باطلا ويعود الصلاح فسادا كما قال تعالى عن فرعون - موجها كلامه عن موسى عليه الصلاة والسلام -: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾(١) صار الحق الذي أتى به موسى عليه الصلاة والسلام في نظر عدو الله فرعون صار فسادا، فتنتكس المفاهيم مثل الوضع الحاصل في كثير من أرض الله الآن، مثل ما قلنا الآن في الأعراض حين يُعبث بها، هذا العبث يسمى من قبيل الحرية، أي حرية؟؟ ولا بهائم تفعل مثل هذا الفعل، وأي حرية في أن يُجهر بشتم الرب سبحانه وتعالى وشتم الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم والاستهزاء بما أرسلوا به ثم يقال: هذا حرية! هذه فوضى وهذا فعل البهائم بل من هم دون البهائم ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾(٢) لا يفقهون، ولهذا أمروا بالتفكر والتدبر، فالحاصل أن من خصال أهل الجاهلية التقليد الأعمى وأن يعمهوا ويمضوا على سنن من كان قبلهم، لا حجة لهم إلا ذلك.

---

(١) غافر: ٢٦.

(٢) الفرقان:٤٤.

المسألة الخامسة: أن من أكبر قواعدهم الاغترارَ بالأكثر، ويحتجون به على صحة الشيء، ويستدلون على بطلان الشيء بغربته وقلَّة أهله، فأتاهم بضد ذلك، وأوضحه في غير موضع من القرآن.

....

من أكبر قواعدهم أيضا، تقدم في الخصلة السابقة أنه ذكر أن دين هؤلاء القوم مبني على أصول أعظمها التقليد، هنا ذكر أن من أكبر قواعدهم - قواعد؛ قاعدة - ولكنها قاعدة لا أساس لها، واهية ليس لها أي حجة وإنما هي في نظرهم مما يرتكزون عليه ويعدونه من القواعد، من أكبر قواعدهم هذا الاغترار بالكثرة، فينظرون إلى الأكثر ويقولون: إن هذا المجموع الغفير الحقُّ فيه، وينظرون إلى الأقل ويقولون: هذا الأقل الباطلُ ملازم له على كل حال، وهذه موازين أهل الجاهلية، هكذا يقيسون الأمور، ما كان عليه الأكثر فهو في نظرهم الصواب، وما كان عليه الأقل فهو الباطل، هكذا يفعل من لا يعرف الحجج ولا يفقه موارد العلم والاحتجاج، هذه الكثرة لا شك أنها قد جاءت النصوص دالة على أن اكثر الناس على غير الصواب، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ الله إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾(١) فلما كانوا ليس عندهم حجج؛ إنما هي مجرد التخرصات والظنون صاروا على باطل وإن كانوا بالملايين؟ وإن كانوا بالملايين، يجتمعون على هذا الباطل وتهواه نفوسهم، ويميلون إليه بلا حجة ولا برهان فيكونون على باطل وإن كانوا بهذه الأعداد الغفيرة، قال تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾(٢) فأكثرهم على هذا، أكثرهم على هذا الحال؛ لا عهد لهم، فقال سبحانه: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾(٣) ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِالله إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾(٤) لا نزال الآن في صيغة اسم التفضيل – أكثر؛ أكثر - فأكثر الناس على هذا الحال، أكثرهم لا يعقلون، أكثرهم يتبعون ظنونهم تخرصاتِّهم، ومن أطاعهم أضلوه، أكثرهم - وإن حرص مَنْ حرص -

(١) الأنعام:١١٦.
(٢) الأعراف:١٠٢.
(٣) يوسف:١٠٣.
(٤) يوسف:١٠٦.

فإنهم ليسوا بمؤمنين، والمؤمن بربوبية الله تعالى؛ المؤمنون بربوبية الله، يعني ممن يقر أن الله ربه من اليهود والنصارى والمشركين عباد الأوثان أكثرهم مشركون، ولهذا في سورة الشعراء لما ذكر الله عزَّ وجلَّ الأمم قال: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(١) فأكثر الناس على هذا الحال، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾(٢) فأكثر الناس على هذا الوضع، فالأكثر على الباطل، لم؟ يتبعون الظن والتخرصات ويتبعون أهواءهم، والهوى يُردي صاحبه، فيميلون لأهوائهم فأنى لهم أن يكون على حق وهو يتبعون الأهواء، أما الأقل فهم الذين خالفوا أهواءهم وحققوا المسائل ونظروا إلى الموارد الصحيحة للاحتجاج فهم على البصيرة وعلى الهدى، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٤) فإبليس صدَّق عليهم ظنه بأنه سيضلهم، إلا فريقا؛ هذا الفريق هو الذي ثبت ولم يطع الشيطان في سعيه، وهو الفريق الذي ينبغي أن يُلزم، وهو الفريق الذي عليه أنبياء الله صلّى الله عليهم وسلّم ومن سلك المسلك الرشيد الصحيح، فأما بقية الناس فيعمهون، ولهذا ثبت عنه عليه الصلاة والسلام ما يدل على الكثرة الهائلة لأهل النار - عياذا بالله - فأهل النار كثرة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾(٥) فكثير من الناس على هذا الحال فلهذا يهلكون ويعطبون، والذي يريد النجاة هو الذي يخالف هواه ويلزم طريق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهم الأقل ولا شك، لأن مخالفة الهوى وإلزام النفس بما لا تريد لا يُوفق له إلا أقل الناس، وإذا تأملت أنت وضع الناس وأحوالهم وجدت وضع الناس وأحوالهم وجدت المنصاع لأمر الله عزَّ وجلَّ المؤثِرَ لأمر الله تعالى على هوى نفسه وجدتهم قليلا، ووجدت أكثر الناس مؤثرين لأهوائهم مقدمين لها حتى في فرائض الله العظام كالصلوات ونحوها يؤثرون أهواءهم من تجارة ومن نوم ومن لعب ولهو؛

---

(١) الشعراء: ٨.

(٢) الروم: ٤٢.

(٣) سبأ: ١٣.

(٤) سبأ: ٢٠.

(٥) الأعراف: ١٧٩.

يؤثرونها حتى على الصلاة، وهكذا إذا جاءت المسائل المالية؛ كثير من المعاملات المالية يعلم أصحابها أنهم آثمون بفعلها ومع ذلك - مَنْ لا يحصيهم إلا الله عزَّ وجلَّ - يدخلون في هذه المعاملات المحرمة، وهكذا الزكاة، الله تعالى في الزكاة أعطى العبد في كل مئة سبعة وتسعين ونصف وأمره بإخراج اثنين ونصف في المئة، ومع ذلك يترك الزكاةَ عددٌ غفير من الناس، ولو أن الله تعالى أمرهم بأن يخرجوا سبعة وتسعين ونصفا بالمئة زكاة لوجب ذلك ولزم، ولكن الله تعالى أمرهم أن يخرجوا القليل، ويكون في هذا القليل تزكية وتطهير وحفظ للمال ويكون فيه الأجر والثواب الجزيل ومع ذلك يشحون بالقليل جدا اثنين ونصف بالمئة، في كل أربعين ريال ريال واحد ولك البقية، والأربعين الأخرى لك كل الأربعين إلا ريال، والعشرون الأخرى لك كل هذه العشرين إلا نصف، اثنان ونصف، ومع ذلك يتخلى عن الزكاة كثيرون - نسأل الله العافية والسلامة - ويتلاعبون بها ويتحايلون ويعملون أعمالا من إسقاطها؛ ليسقط هذا القليل - اثنان ونصف بالمئة - اتباع للهوى؛ محبة للهوى وإيثار للهوى على أمر الله، الحاصل أن الكثرة لا يُغتر بها، ومن ذلك ما وقع في السنين الأخيرة من تساهل الناس الآن في أمر القنوات الفضائية، الفتوى التي كنت تسمعها من خمس وعشرين سَنَة هي الفتوى الحق، ما الذي غيَّر الناس؟ ما الذي - نسأل الله الثبات وحسن العاقبة الختام - غيَّر أناس كانوا يصرخون بأعلى أصواتهم ويوزعون الأوراق في تحريم القنوات الفضائية فلماذا صاروا من رُوَّاد القنوات الفضائية؟ اتِّباع الهوى، كل الناس وضعوا هذا - هكذا يزعمون - أولًا لا يزال - ولله الحمد - في الناس من يخاف الله ويتقيه ويحفظ سمعه وبصره من النظر إلى هذه المحرمات ويقيم ما أوجب الله تعالى عليه من رعاية بيته وحفظ عرضه وبناته ومن تحت يده وأطفاله من أن ينشؤوا النشأة القبيحة بالنظر إلى هذه القنوات الفاسدة المفسدة التي عملت في الناس أشد وأهول العمل في سنوات يسيرة، هول أصاب الناس في أخلاقهم وفي تَغَيُّرِ كثير مما هم عليه من الأمور الحق؛ تركوها، فصح فيهم قول حذيفة رضي الله عنه (الضلالة حق الضلالة أن تعرف ما كنت تنكر، وتنكر ما كنت تعرف)(١) كانوا يستنكرون هذه القنوات؛ هذا الفساد الذي فيها، ثم صار الواحد منهم يتكأ فيقول: رأيت في قناة كذا

---

(١) أخرجه ابن الجعد في مسنده (٣٠٨٣).

وكذا مقابلة وكانوا يتحدثون عن كذا وكذا، وهذه القناة أليس فيها نساء متبرجات على أخبث ما يكون، أليسوا يستضيفون حتى الملاحدة الذين يجهرون بإلحادهم، من الذي قال لك أن هذا يجوز؟ أكثر الناس، أكثر الناس فعلوا هذا، أولًا كما تقدم في الآية ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾(١) هذه ليست حجة، ثم أنت مسؤول عن نفسك ولست مسؤولا عن غيرك، الأمر الآخر تقدم حديث «لا تزال طائفة من أمتي على الحق»(٢) وكونهم على الحق يقتضي أنهم على الحق في الاعتقاد وفي المسلك، فليس معنى ذلك أنهم يقرُّون في الأسماء والصفات؛ واعتقادهم في القدر سليم؛ واعتقادهم في الصحابة سليم؛ وإذا أتينا إلى الأخلاق وإلى ما ينبغي أن يُسلك فإذا بهم على غير هدي السلف متكامل، هدي السلف متكامل، هدي السلف ليس المرء يأخذ منه ما يريد ويترك ما يريد، فمن ترك شيئا مما عليه السلف، فبقدر ما ترك ضلَّ في هذا الباب، فلو أن إنسانا لزم ما عليه السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم إلا في باب القدر؛ فقيل: إنه مبتدع، وإذا قال: إني على مذهب السلف الصالح رضي الله عنهم وهو يتهاون بالصلوات ويتهاون بأمر الله ويتهاون بالإقدام على المحرمات؛ نقول: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والصحابة رضي الله عنهم كانوا على هذا المسلك؟؟ منهج السلف رضي الله عنهم منهج متكامل، ليس منهجا يختار منه ما يريد الانسان ويترك ما لا يريد، منهج متكامل حتى في السلوك، ولهذا لاحظ في عقيدة أهل السُّنَّة كثيرا ما يَنُصُّون على مسائل متعلقة بالسلوك والأخلاق، فليس هو مجرد اعتقاد غيبي بل هو اعتقاد، ومعلوم عند أهل السُّنَّة أن الإيمان قول واعتقاد وعمل، فهذا مما وقع فيه كثيرون ولسان حالهم بل مقالهم أن يقولوا كل الناس فعلوا هذا، وهكذا من يسافرون بنسائهم إلى بلاد العهر والكفر والفجور، كَثُرَ هذا للأسف وكانوا يستنكرون، ماذا تريدون من الذهاب في هذه الإجازات الصيفية؟ قالوا: نريد السياحة، يعني ليس عندكم علاج وليس عندكم ضرورة وليس عندكم ما يقتضي أن تذهبوا، ومن الذي قال إن هذا يجوز، من جوَّز أن تذهبوا إلى بلاد العهر والفجور والكفر؛ الذي يُرى الفجور في الأسواق وفي

---

(١) الزخرف:٣٩.

(٢) سبق تخريجه.

الشوارع، من قال: إن هذا يجوز؟ ألا أن تخشى أن تهلك في وسطهم وأن تموت؟ قال صلّى الله عليه وسلّم: «أنا بريء من مسلم يقيم بين مشركين»[١] ألا تخاف من هذا؟ ألا يمكن أن تهلك هناك وتلقى الله عزَّ وجلَّ قَدْ مِتَّ في تلك البلاد، أو أن تحلَّ بهم نقمة من نقم الله عزَّ وجلَّ وتكون في وسطهم؟ من قال: إن الذهاب إلى بلادهم للنظر لما عندهم من مياه ومن أشجار ونحوه إن هذا جائز؟ والذين أفتوا بهذا لم يصيبوا بلا أدنى شك، والفتاوى للأئمة الكبار سواء من مشايخنا الكرام الشيخ عبد العزيز بن باز وأمثاله موجودة، وهذه مسألة مذكورة في كتاب الفقه أن بلاد الكفر إنما يذهب لها بضوابط، لا يذهب أي أحد، ليس كل أحد يصح أن يذهب، لأنه ذهب أناس لم تنطبق فيهم الشروط التي ذكرها أهل العلم ففقدوا أعظم شيء يُفقد وهو دينهم - نسأل الله العافية والسلامة -، بل بعضهم ارتدَّ وبقي في تلك البلاد وأبى أن يرجع، وآخرون أتوا ببلاياهم وأفكارهم فصاروا ينشرونها، ما الذي غيَّر الناس؟ الذي غيَّر الناس هو غُربة الدين وقلة المستمسك بالحق ونظر الناس إلى الكثرة، فينظرون إلى ما عليه الكثير ويقولون: الناس صاروا كذا وكذا - والله المستعان - هذا قديم لَّما كان الناس على كذا وكذا، هذه حجة تدلي بها عند الله عزَّ وجلَّ؟ ليست حجة، تغيُّر الناس ليس دليلا، الحاصل أن هذا مما يقع حتى للأسف من أهل الإسلام، فأصل هذه الخصلة الجاهلية موجودة في الكفار لكن لها - للأسف الشديد - كما قلنا: إن الخصلة وإن وجدت في المسلم إلَّا أنها تكون خصلة من خصال أهل الجاهلية وهو مسلم، فيُتفطن لمثل هذا ويحرص طالب العلم على العلم وأن يؤصِّل أموره بعد توفيق الله تعالى على مسائل من العلم وعلى السلامة مِنْ أن ينظر إلى الكثرة على أي شيء هم، وإنما ينظر إلى هدي النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقد ثبت عنه عليه الصلاة والسلام أن قال: «عُرضت علي الأمم، فرأيت النبيّ ومعه الرهط» والرهط الجماعة دون العشرة «والنبيّ ومعه الرجل والرجلان، والنبيّ وليس معه أحد»[٢] يعني أن يأتي نبي في أمة دعا فيها ما شاء الله من مدة وأظهر الله تعالى من الدلائل على صدقه ما شاء ولم يتبعه إلَّا رجل، النبيّ الآخر اتبعه رجلان، والنبيّ الآخر اتبعه الرهط، ويأتي النبيّ

---

(١) صحيح. أبو داود (٢٦٤٥)، صحيح الجامع الصغير (٢٣٤١).

(٢) صحيح البخاري (٥٧٠٥).

وليس معه أحد، لم يؤمن به في أمته أي أحد، دل على أن الكثرة هالكة، علـى أن أكثـر النـاس لا يعقلـون لا يؤمنون، فينبغي على طالب العلم أن يعلم أن الذي يُنجيه - بعد رحمة الله تعـالى - هـو الاستمـساك بهـدي النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أما كَوْنُ الناس يتساهل أكثرهم في كذا أو في كذا - سواء في الأمور العظام الهائلة أو في ما دون ذلك مما تساهل الناس فيه في مسائل الحرمة أو غيرها أو التهاون في الواجبـات - فهـذا لـيس الذي ينجو به الإنسان، قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾(١) لن تُسأل عن الناس ولن تُسأل عن الكثرة، إنما المسألة الاتباع لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

(١) القصص:٦٥.

المسألة السادسة: الاحتجاج بالمتقدمين، كقوله ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾(١)، وقوله ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾(٢).

....

هذه المسألة السادسة قريبة من المسألة الرابعة، فالمسألة الرابعة ذكر أن أعظم أصل عندهم هو التقليد؛ تقليد آبائهم، في هذه المسألة ذكر أن من خصال أهل الجاهلية الاحتجاج بالمتقدمين، الذي يظهر - والله أعلم - أن ثمة فرقا بين هذه المسألة والمسألة الرابعة حاصله أن هذه المسألة أخص لأن فيه إيراد الحال الذي كان عليها الأولون مورد الاحتجاج، فهو في المسألة الرابعة إنما هم مجرد مقلدين، أما هنا فهم يحتجون احتجاجا ويجعلون ما عليه المتقدمون حجة في نفسه، ولهذا أورد قول الله تعالى عنهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ الاحتجاج عندهم على هذا النحو وهكذا قول فرعون لموسى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ احتجاجا بما كان عليه أهل القرون الأولى التي تقدمت قبله، فهذا هو - فيما يظهر - الفرق بين هذه المسألة والمسألة الرابعة، وهذا قطعا صُنع من لا يفهم موارد الاحتجاج، فالحجة ليست في ما كان عليه المتقدمون، ما سمعنا بهذا! وإذا لم تسمع به – المتقدمين - ؟ يَضُرُّ العلم أن لا تسمع به؟ تكون أنت قد جهلته وجهل من قبلك، هذه الطريقة من الاحتجاج ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أو مثل قول بعض الناس إذا سمع حديثا: لم أسمع به!! وماذا عندك أنت من الدراسة للعلم والحديث وعلى مَنْ درسته وما الكتب الحديثية التي درستها؟ رجل عاميٌّ يسمع في خطب الجمعة أو في حديث في الإذاعة أو نحوه بعض الأحاديث فإذا مرَّ به حديث لا يعلمه قال: ما سمعت بهذا؟ وإذا لم تسمع به؟ أيضر الحديث الثابت أنك لم تسمع به؟ فهذه ليست إلا من موارد الاحتجاج الدال على ما هم فيه من الجهل، ولهذا أورد رحمه الله تعالى هذه الآيات ليبين أن الحجة في الدليل الْمُنْزَل من الله عزَّ وجلَّ، أما مجرد الاحتجاج بالمتقدمين من القرون الأولى، أو أنهم لم يسمعوا بما سمعوا به من الحق عند آبائهم المتقدمين فليس هذا من موارد الاحتجاج عند من يعلم.

---

(١) طه:٥١.

(٢) المؤمنون: ٢٤.

المسألة السابعة: الاستدلال بقوم أُعطوا قوى في الأفهام والأعمال وفي الملك والمال والجاه، فردَّ الله ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾(١)، وقوله: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾(٢)، وقوله ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾(٣).

....

ذكر رحمه الله في هذه الخصلة أن هؤلاء الجاهلين يستدلون بأناس أعطوا خمسة أشياء، الأمر الأول أنهم قوم أعطوا قوى في الأفهام، فعندهم ذكاء، وأعطوا قوى في الأعمال، فلديهم قوى في الأعمال ليست في غيرهم، وهكذا قوتهم في الملك والتمكين، القوة الرابعة القوة المالية كونهم ذوي ثراء، القوة الخامسة كونهم من أهل الجاه، فيحتجون بهؤلاء، أين الحق عند أهل الفهم؟ والمقصود بالفهم هنا يُراد به الفهم الدنيوي بأن يكونوا من ذوي الدراية والمعرفة والحذق، وقد يكونون أيضا من ذوي الفهم والدراية الدينية؛ لكنهم لم ينتفعوا بفهمهم كما سيأتي بيانه في الآية إن شاء الله تعالى.

فيقولون: إن ذوي الذكاء وذوي الفهم؛ المسار الذي يسيرون عليه هو الحق، كما اغترَّ كثيرون الآن بما عليه الغربيون من التمكين والوصول إلى أمور في مسائل الدنيا عجيبة وغريبة - ما كان كثير يتصورها في سنين مرت - فقال هؤلاء: الدليل على أنهم على حق وعلى صواب؛ هذا الانفتاح الذي فتحه الله عليهم في أفهامهم، ولم يعلم أن الله تعالى يفتح للناس من مثل هذه الأمور فتحا كثيرا ثم يزيدهم سبحانه وتعالى حتى يؤخذوا على حين غِرَّة، فمجرد كونهم ذوي فهم لا يدل على أنهم على حق، لأنه قد يكون عندهم فهم في أمور الدنيا وجهل بالغ في أمور الدين هذا أولًا، الأمر الآخر أنه قد يكون عنده - كما سيأتي بيانه الآن إن شاء الله تعالى - في أمور الدين لكنه لم يعمل به ولم ينتفع به، فليس مجرد الفهم دون عمل - على هدي النبوة - دالا على أن هذا صاحب حق، وهكذا في القوى والأعمال، قد آتى الله سبحانه وتعالى مَنْ قَبْلَنَا من التمكين ما لم يؤته من بعدهم ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا

---

(١) الأحقاف:٢٦.

(٢) البقرة: ٨٩.

(٣) البقرة: ١٤٦.

أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ الله وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ مُكِّنوا تمكينا عظيما، بل مُكِّن لبعض من قبلنا تمكينا عظيما لم يُمَكَّن لِمَنْ بعدهم، فما مَكَّن الله منه قوم عاد أمر عجب، ولهذا اغتروا بقوتهم وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ الله الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[1] فأوتوا قوة ولكنها لم تنفعهم، وهكذا الملك الواسع، بعض الفراعنة ظل ملكا سنين طويلة جدا من عمره، ومُكِّن لقوم فرعون من ناحية الملك تمكينا شديدا، وهكذا مُكِّن في القرون الأخيرة لعدد من الغربيين مُكِّن لهم تمكينا عظيما حتى يتفاخر بعضهم بأن الشمس لا تغيب عن مملكته، وأن مجموع الأميال الكبيرة في آسيا وفي أفريقيا وفي أوربا التي كان يملكها مثل البريطانيون وأمثالهم كانت الشمس لا تغيب، بمعنى أنه إذا غابت في هذا الموضع الذي احتلوه في هذه المناطق العربية فإنها تكون في مناطق أخرى في أوربا وفي غيرها تكون الشمس لم تغب، فمجموع ما يملكونه لا تغيب عنه الشمس ثم صاروا في بقعة صغيرة مضمحلة وذهب ذلك الملك الذي كانوا يتفاخرون به، وكونهم ذوي ملك واسع لا يدل على أنهم على حق، وهكذا أهل المال، قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدِّيْن إلا لمن يحب»[2] فالمال يكون للخيِّر وللفاسق، فكونه ذا مال لا يعني أنه على حق، وهكذا الجاه والمناصب والرفعة وتمكنه من القُرْبِ من القرار وأهله لا يدل على أنه على حق؛ لا من عنده الملك ولا من عنده الجاه ولا من عنده الأفهام ولا من عنده الأعمال، فرد الله ذلك، أي رد الله هذه الخصلة الجاهلية في استدلالهم على أن الحق عند من أُعطوا هذه القوى بقوله ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ بقية الآية توضح المراد، هو رحمه الله يعطي طرف الآية بعض الأحيان - كغيره من أهل العلم - ويريد لطالب العلم أن ينظر في بقيتها من باب الاختصار.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ الله وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فلم تفدهم

---

(١) فصلت: ١٥.

(٢) صحيح. أحمد (٣٦٧٢). الصحيحة (٢٧١٤).

ولم ينتفعوا بتلك الأمور التي مُكِّنوا منها، وهكذا قوله تعالى ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ الآية نزلت في اليهود كانوا قد أتوا المدينة لعلمهم أن مُهَاجَر النبيّ الذي ذكر الله تعالى في كتبهم سيكون في المدينة وإلَّا فقد كانوا في الشام، ولا أحد يأتي من الشام وما فيه من العيشة الرغيدة والراحة وكثرة المآكل والمشارب وكثرة الموارد المالية إلى المدينة ذات الحُمَّى التي يُضرب بها المثل فيقال: حُمى يثرب، ولا في الموضع الذي ذكرنا أن العرب لا يوجد عندهم نظام حيث كان الجانب القبلي هو الشائع وكانوا يتقاتلون وكانت الأوس والخزرج تنشب بينهم الحروب ويقتل بعضهم بعضا، وبينهم من الأحقاد ما الله به عليم، ثم إن العيشة في المدينة ضنك من جهة المعيشة المادية، فما الذي جعل اليهود يتركون تلك البلاد إلى المدينة؟ عِلْمُهُم أن مُهَاجَر النبيّ الخاتم صلّى الله عليه وسلّم في المدينة، وكانوا يعلمون هذا علما تاما كما في الآية بعدها ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾[1] فكانوا يعرفون النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بوصفه، فالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم ذُكِرَ باسمه في التوراة والإنجيل قال تعالى: ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾[2] وذكر كعب الأحبار رحمه الله أن اسم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في التوراة محمد، ومهاجره المدينة ومولده في مكة أو كما قال[3]، هذا كان معلوما عندهم علما تاما، وكانوا يستفتحون على الذين كفروا، كانوا إذا جاء بينهم وبين الأوس أو الخزرج شيء من الخصمة أو الخلاف قالوا: إنه قد أظل زمان نبي نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد، كانوا يظنون أن هذا النبيّ سيخرج منهم، والنبيُّ منصور، فالله تعالى سينصره، يعلمون أن دينه سيعم الأرض، فكانوا يتهددون الأوس والخزرج بهذا النبي، ومع ذلك ما استفادوا من علمهم، هذا هو الشاهد، فلما بعث الله نبيه محمدا صلّى الله عليه وسلّم كفر هؤلاء به مع علمهم به ودرايتهم التامة أنه رسول الله حقا كما قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾[4] ولهذا قد يحمل العلمَ من لا ينتفع به - نسأل الله العافية والسلامة - قد

---

(١) البقرة: ١٤٦.

(٢) الأعراف: ١٥٧.

(٣) رواه الدارمي (٥) وصحح إسناده محقق الشيخ حسين أسد حفظه الله.

(٤) البقرة: ١٤٦.

يحمل العلمَ ويؤديه إلى غيره ولا ينتفع هو به، لَّما كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في مكة كان يَعْرِضُ نفسه على القبائل يقول: «يا معشر العرب إن قريشا منعوني أن أبلغ رسالة ربي»(١)، يريد أن يحمله أحد من العرب إلى بلده حتى يخرج عن هؤلاء المشركين ويدعو إلى الله، فجاءت ستة من الخزرج موفقون وسمعوا كلامه صلّى الله عليه وسلّم، فلما سمعوا كلامه صلّى الله عليه وسلّم استفادوا مما كان يقوله اليهود، يقولون: إنه سيأتي نبي من وصفه كذا ومن شأنه كذا ومن هيئته كذا؛ فانتفع الخزرج الستة رضي الله عنهم هؤلاء بما كان يقوله اليهود، فقالوا بعضهم لبعض: يا قوم؛ والله إن هذا للنبيّ الذي كانت تهددكم به اليهود؛ يقولون: سيخرج نبي نتبعه ونقتلكم معه قتلا؛ فلا تُسبقن إليه، إن هذا للنبيّ الذي تذكر لكم اليهود فلا تُسبقن إليه، فآمنوا رضي الله عنهم(٢)، ثم رجعوا إلى المدينة وكانوا من خيرة السفراء إلى قومهم، فانتشر في المدينة الإسلامُ، ثم جاءت بيعة العقبة الأولى - وفيها بيعة النساء ليس فيها قتال - ثم جاءت بيعة العقبة الثانية التي فيها البيعة على حماية النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وحماية الإسلام، ثم هاجر صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة فكانوا أسعد الناس به رضي الله عنهم بعد المهاجرين، ولم ينتفع بها اليهودُ إلَّا قلة قليلة ممن آمن كعبد الله بن سلام رضي الله عنه وابن شعنة وأمثالهم، وإلا فبقيتهم لم ينتفعوا، فدل على أن الانسان قد يكون عنده فهم وقد يكون عنده دراية لكن لا ينفعه الله عزَّ وجلَّ بها، وكانوا يعلمون وعندهم عَجَبٌ في التمنع وعدم الاستفادة من علمهم، فحُيَيُّ بن أخطب والد صفية رضي الله عنها لما سمع عمُّها بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ أتى وظل يرقب النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم منذ الصباح وحتى الظهر ومنذ الظهر حتى أمسى وهو يرقب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالخصال الموجودة؛ ويعلمها بالتوراة، فلما رجع لأخيه حُيَي سأله سؤال المستوحش: أهو هو - لم يقل: أهو النبي؟ - قال: إي والله، قال: فما عزمت؟ قال: حربَه ما بقيت – نسأل الله العافية والسلامة -، نقلت هذا صفية رضي الله عنها، تسمع ما قال أبوها وما قال عمها، يقول: إي والله، هو هو، هو النبيّ المبعوث لا شك في ذلك، ما الذي عزمت عليه؟ قال: حربه ما بقيت، لم

---

(١) صحيح. أحمد (١٥١٩٢). الصحيحة (١٩٤٧).

(٢) تفسير الطبري (٧/٧٩).

ينتفعوا بعلمهم، ولما أراد عبد الله بن سلام - وكان أعلم يهودي على وجه الأرض بشهادتهم - لما أراد أن يُسلم كان يعلم أن قومه هؤلاء من أهل البهتان، فأتى النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم كما في الصحيح وقال: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت، وإنهم إنْ يعلموا بإسلامي يبهتوني، فادعهم وسلهم عني، واختفى ابن سلام رضي الله عنه في بعض البيت، دعاهم النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم واجتمعوا وقال: «أي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟» قالوا: خيرنا وابن خيرنا وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: «أرأيتم إن أسلم؟» قالوا: أعاذه الله من ذلك - قبحهم الله - وكأن الإسلام شيء يُستعاذ بالله منه، فقال: «اخرج يا ابن سلام» فخرج ابن سلام رضي الله عنه وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فسبوه وشتموه وقالوا: شرنا وابن شرنا[(١)]، هكذا أهل ابهتان، قبل مدة يسيرة يكون خيرنا، والآن لما أسلم قالوا: شرنا، فلم ينتفعوا بعلمهم؛ وإلَّا هم يعلمون؛ يعلمون أنه هو المذكور عندهم في التوراة والإنجيل، الشاهد هنا ما ذكره المصنف، هؤلاء عندهم فهم وعندهم علم وعندهم دراية فما انتفعوا بها، وهكذا كل علماء السوء الذين يكون عندهم الحق كما سيأتينا إن شاء الله في خصلة من خصال الجاهلية ولا ينتفعون بعلمهم.

(١) صحيح البخاري (٣٣٢٩).

المسألة الثامنة: الاستدلال على بطلان الشيء بأنه لم يتبعْهُ إلا الضعفاء، كقوله ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾(١)، وقوله ﴿أَهَؤُلاءِ مَنَّ الله عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾(٢) فردَّ الله بقوله ﴿أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾.

....

هذا من دأب أهل الجاهلية أنهم يستدلون - كما تقدم - طريقتهم في الاستدلال طريقة الجهول، تقدمت خصال تدل على عدم معرفتهم بالمورد السليم للحجة، استدلوا هنا على أن الحق الذي بعث الله به نبيه صلّى الله عليه وسلّم أنه ليس بصواب بأنَّ الذين اتبعوه ليس الملأ الكبار، غالب من اتبع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لا سيما في مكة غالبهم الضعفاء، ولا ينفي ذلك أن يكون بعض الشرفاء والكبراء منهم قد أسلموا كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، فهؤلاء رضي الله عنهم من الشرفاء الكبار، لكن المجموع العام من الكبار من أهل مكة لا يشك بأنهم أبوا وتمنعوا وهو الصناديد صناديد قريش، وهم في كل أمة قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(٣) فالملأ هم الذين يملؤون المجلس كبراء الناس، هؤلاء في الغالب متمنِّعون على الحق لأن لهم زعامات ورئاسات جعلوها وتسلطوا على الناس بها، والدين جاء بالعدل والإنصاف، وهم لا يريدون أن تسقط هذه الزعامات الباطلة التي تسلطوا بها على الناس، فقالوا: إن الدليل الذين أنت عليه ليس بصواب لأنك لم يتبعك إلا الضعفاء ولو كان الذي أنت عليه حقا لاتبعك الشرفاء والكبراء والوجهاء، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ هذا قاله قوم نوح لنوح، يقصدون الضعفاء والأرامل الذين لا يساوون شيئا، كيف نؤمن وأنت لم يتبعك إلا هؤلاء؟ هذه طريقتهم في الاحتجاج، وهكذا قولهم فيما يتعلق بالصحابة لما آمن بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعضُ المستضعفين كعمار وبلال وصهيب وأمثالهم، يقولون أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا، أيعقل؟ أيمكن أن يَمُنَّ الله عزَّ وجلَّ على هؤلاء الأعبد وهؤلاء الضعفاء ولا يَمُنَّ علينا نحن وأنتم من أنتم؟ نحن أهل المال وأهل الشرف وأهل الرفعة، هل يمكن أن يَمُنَّ الله عزَّ وجلَّ على هؤلاء المستضعفين ويتركنا نحن؟ نحن ذوو

(١) الشعراء:١١١.

(٢) الأنعام: ٥٣.

(٣) المؤمنون: ٣٣.

الرفعة والمكانة العلية لا يُمكن أن يَمُنَّ الله على هؤلاء ويدعنا، فهذا دليل على أن هذا الذي بُعث به باطل، هكذا موارد الجاهليين، رد الله عليهم بقوله ﴿أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ الله تعالى هو الأعلم بمن يستحق أنه يُهدى، وقد بيَّن الله تعالى أنه قد صرف أناس عن هدايته - عياذا بالله - لأنهم ليسوا موضعا للهداية، يقول تعالى في الرسالة: ﴿الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(١) فلا يُرسل أي أحد سبحانه، وكذلك هو أعلم حيث يجعل هدايتَه، فلا يهدي أي أحد، فهو يهدي مَنْ يعلم أنه - سبحانه وتعالى - محل للهداية، ويضل سبحانه وتعالى من لا يستحق أن يهدى، ولهذا قال تعالى في شأن الكفرة - لما ذكر سبحانه وتعالى شر الدواب -: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ الله الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾(٢) فهو يعلم سبحانه وتعالى أن هؤلاء المتغطرسين والمتكبرين هم الذين ليسوا أهلا للهداية فأضلهم ولهذا صاروا يستدلون بمثل هذه الأدلة الداحضة، فيقولون: الدليل على أن الذي بُعث به محمد صلّى الله عليه وسلّم باطلٌ أنه لم يتبعه إلَّا فلان وفلان ولم أتبعه أنا، فلو كان صوابا لاتبعته أنا ولاتبعه فلان وأبو جهل وأمية وفلان وفلان، أم أنْ يتبعه هؤلاء الضعفاء؛ هذا الدليل على أنه باطل فقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾.

---

(١) الأنعام: ١٢٤.

(٢) الأنفال:٢٢.

المسألة التاسعة: الاقتداء بفسقة العلماء وجُهَّال العُبَّادِ، فأتى بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾(١)، وبقوله ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾(٢).

....

العلم شرف لأهله والعبادة شرف لأهلها، والأصل أن أهل العلم مشاعل هدى ونور وأن الله تعالى جعلهم مُبَيِّنين ووارثين لهذا العلم العظيم الذي جاء به نبي الله صلّى الله عليه وسلّم كما قال: «إن الأنبياء لم يورِّثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»(٣) فالعلم زَيْنٌ لأهله ورفعة إذا عملوا، أما إذا تعلموا العلم ولم ينتفعوا بما علمهم الله عزَّ وجلَّ فإنهم يكونون فسقة يعلمون الحق ويتركونه ويعلمون الباطل والمنكر ويعملونه، هؤلاء هم فسقة العلماء، ولهذا لم يقل: الاقتداء بالعلماء، الاقتداء بالعلماء من قبل العامة حق، ولكنهم يبحثون عن الفسقة الذين يُرخصون لهم وينظرون إلى أهواء الناس، وهؤلاء فتنة لكل مفتون، بَلِيَّةٌ كبيرة جدا أن يوجد أحد لديه شيء من العلم ويستثمر هذا العلم في الفساد، وهذا مما خافه النبيّ عليه الصلاة والسلام: «أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان»(٤) يكون عنده علم ولكنه في واقع الأمر منافق فاسق، فيستغل هذا، وهذا حاصل وواقع من أناس لم ينفعهم الله تعالى بعلمهم – عياذا بالله - استثمروا هذا العلم في نشر الفساد والضلال والزيغ، ومن يتبعهم من العوام لهم هوى في الحقيقة، كثير من العوام يميز بين العالم المتقي لربه وبين الذي لديه علم ولكنه من ذوي الفسق، فتميل أهواءُهم مع هؤلاء ليرخصوا لهم في معاملات معينة وليقولوا لهم إن بعض الواجبات ليست بواجبات ويسهلوا لهم باسم التيسير وأن هذا الدين جاء باليسر، جاء باليسر حيث يسر الدليل لكن

(١) التوبة: ٣٤.

(٢) المائدة:٧٧.

(٣) صحيح. الترمذي (٢٦٨٢). صحيح الجامع الصغير (٦٢٩٧).

(٤) صحيح. أحمد (١٤٣). الصحيحة (١٠١٣).

حيث أوجب الله لا تأمرِ الناس بأن يتركوا واجبا وتقول: هذا تيسير، هذا إفساد، فما أوجبه الله تعالى واجب، ومن زعم أنه ييسر الحكم بحيث يكون واجب وغير واجب، هذا ليس ممن ييسرون، هذا ممن يفسدون في أرض الله تعالى، وهكذا المحرمات، يقولون: لا حاجة للتشديد، مسائل محرمة معلوم حرمتها ومعروفة ومع ذلك رخصوا فيها، هؤلاء هم فسقة العلماء، يقول: من طريقة أهل الجاهلية أن يقتدوا بفسقة العلماء لا بأهل العلم المُنضبطين على السُّنَّة، هذه خصلة من خصال أهل الجاهلية، قال: وجُهَّال العُبَّادِ، من العبَّاد من يغلب عليه انشغاله بالعبادة حتى تشغله العبادة عن العلم، ما الذي يقع من هذا العابد الجاهل؟ أنه يقتحم مسائلَ العلم للأسف ويتحدث عنها ويتكلم فيها، ويتكلم فيها وهو - وإن كان من ذوي العبادة والصلاح والديانة - لكنه جاهل، الناس يحبونه لعلمهم بأنه من ذوي العبادة والصلاح وربما كان من ذوي الخشوع والصلاة الطويلة والصيام ودأبه في الحج ونحوه فيُحَبُّ لما فيه من العبادة - وهذا في ذاته حق - ولكن الإشكال أنه يُقحم نفسه في ما لا يعلمه، وهذا أيضا حاصل أن بعض من يهتدون إلى الخير ويكونون في حال سابق عندهم غفلة عظيمة وإقدام على المحرمات فيُقْبِلُون على العبادة إقبالا شديدا ويكونون من ذوي الليل الطويل في صلاتهم ومن ذوي الاجتهاد الشديد في الصيام وفي العبادة وفي ختمات القرآن ونحو ذلك- وهذا طيب ولا شك إذا لم يجاوزوا به السُّنَّة - لكن الإشكال أنهم يُقْحِمُون أنفسهم في ما لا يعلمون، وهذا حاصل، فاقتحموا مجال التوجيه والإرشاد وصار يُسمع لهم على نطاق من ألوف الناس - ولم يهتدِ الواحد منهم إلَّا منذ فترة محدودة - إذا رأيته وهو يتوضأ علمت أنه وضوء عامي، تقول: انتبه إلى كذا، وضوئك فيه ملحظ كذا، إذا صلى فإنك تجد في صلاته عدة ملحوظات تنبهه عليها كما تنبِّه العامي الجاهل، لأن سابقته لم تكن عن علم، وبعضهم يكون قد غرق - عياذا بالله - في الشهوات والفساد سنينا من عمره فلم يتعلم ولم يتعبد أصلا، فجاء مقبلا على العبادة إقبالا شديد ولم يتعبد، وهذا ما حذر منه السلف، روى أحمد في الزهد خبرا كثيرا ما ننقله أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله قال: (من تعبد على غير علم؛ كان ما يُفسد أكثرَ مما يُصلح)[1] الذي سيفسده هؤلاء أكثر مما سيصلحون، وهكذا قال الحسن

---

(١) أحمد في الزهد (١٧٣٧).

البصري فيما رواه أيضا عبد الله في زوائد الزهد قريبا من هذا (أن من عمل بغير علم قال نظرنا في الأمر فوجدنا أن من عمل على غير علم كان ما يُفسد أكثر مما يصلح)[1]، فيفسدون وينشرون أحاديث موضوعة، يُحسنون للناس جملة من الأعمال وتكون بدعًا لا دليل عليها، ويتلفظون بألفاظ لا تحلُّ ولا تجوز، ويشيع هذا في الناس بسبب إحسانهم الظنَّ بهؤلاء العُبَّاد ولكنهم جُهَّال، ولهذا التصوف كيف نشأ؟ نشأ من خلال بُعد أهله عن العلم، كما قال ابن الجوزي في كتابه تلبيس إبليس: أول ما لبَّس الشيطان على أهل التصوف أنه صوَّر لهم أن المطلوب هو العمل - يعني العمل من العبادة والصلاة والصيام ونحوها - وليس المقصود إلَّا العمل دون العلم، فتَعَبَّدوا دون علم، فلعب بهم الشيطان في هذه الأودية لأنهم صاروا يتعبدون بلا علم، فاقتدى الناس بهم، فانتشرت هذه العبادات التي لا أساس لها والطرق الضالة وأنواع الأذكار التي يخترعونها مع وجود أذكار صحيحة، تتعجب تجد أناسا في السبعين والثمانين يحفظون منذ شبابهم جملة من الأوراد الصوفية، تقول له: ما أذكار الصباح التي وردت عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأذكار المساء، لا يعرف، لأنه استوعبه هذا الورد منذ صغره وهو يحفظه ويُرَدِّدُ أورادا طويلة جدا جدا لا أساس لها وتتضمن ألفاظا شركية، ماذا تريد؟ أريد ذكر الله، النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ثبت عنه من الأذكار شيء كثير جدا، ماذا تعرف منه؟ لا يعرف، تعبدوا على هذه الطريقة، فأضرُّوا في الناس إضرار بالغا، فالاقتداء بالفسقة ممن يحملون العلم أو بالعبَّاد ممن يتعبدون على جهل، فهذه من خصال أهل الجاهلية، لذلك قال: فأتى بقوله - هذه الذي يُزيل هذه الخصلة الجاهلية -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ الحبر هو العالم عند أهل الكتاب والراهب هو المتعبِّد، ومع ذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ﴾ لأنهم أحبار فسَّاق، و﴿وَالرُّهْبَانِ﴾ لأنهم رهبان جهال ﴿إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ المال لم يجعل الله تعالى لأحد عليه سبيلا إلا بالطريق الشرعي، أموال الناس للناس وليس لك أن تأكل باسم الدين فلسا واحدا، تبيع تشتري تتاجر هكذا يُؤخذ المال، لكن تجعل الدين أو العلم طريقا من طرق جلب المال!

---

(١) أحمد في الزهد (١٦٦٧).

هذا من فعل فسقة الأحبار وجهلة العبَّاد كما في الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ وما أكثر ما يجتمع الصدُّ عن سبيل الله مع أكل أموال الناس بالباطل، لأن صد الناس عن الحق وعن السبيل الصحيح يجعلهم إذا أُمروا بأن يعطوا هؤلاء المفسدين الأموال أعطوهم فيُصدون عن السبيل حتى يُستذلوا في أموالهم وهذا حاصل الآن حتى في الطوائف الضالة هذه كالرافضة، فالرافضة حين يأخذون الأخماس - خُمس المال - أمر عجيب جدا، ولهذا تجد ثراءَهُم - أهلكهم الله عزَّ وجلَّ وأراح منهم البلاد والعباد - تجد لهم ثراء هائلا لأن كل رافضي ملزم بأن يدفع خُمس ماله، ولهذا يثرون ثراء عظيما، ولهذا يحصل بينهم من الصراع - شياطينهم الكبار - على هذه الأموال صراع كبير جدا، لأنها أموال لا تتخيلها أنت - ولا بالخيال -، هناك مجموع من الروافض عندهم اموالا طائلة وكل رافضي يعطي خُمس ماله، فتجتمع هذه الأخماس، من أين حلَّ لهم أن يأخذوا هذه الأخماس؟ وهكذا من يستغلون الناس باسم الأولياء والصالحين وأن أصحاب هذه القبور إذا دعوتم - هؤلاء المقبورين - حصل لكم كذا كذا، ونحن السدنة بينكم وبين صاحب القبر، ادفعوا هذه الأموال، فتأتي هذه المرأة الجاهلة تريد الحمل فتعطيهم المال، ويأتي الذي قد أضاع شيئا فيعطيهم مالا، ويأتي الذي يريد تجارته أو يريد أن ينجح في دراسته أو في تجارته فيعطيهم الأموال فتتكوم عندهم هذه الأموال، يأكلون أموال الناس بالباطل ولهذا يصدون عن سبيل الله حتى يأكلوا، لأنه إذا بُشِّر الناس بالسبيل الحق فقالوا لهم: أعطونا مالا، قالوا: نعطيكم مالا؟ بصفتكم ماذا؟ بصفتكم صالحين! الصالح يتعبد لله مخلصا لا يريد من الناس أموالا، بصفتكم علماء؟ العالم يعطي علمه بالمجان، لا يقول للناس أعطوني، على أي أساس تعطون؟ ولهذا يصدون عن السبيل حتى يستغلوا هؤلاء ﴿إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ وقال تعالى: ﴿لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً﴾[1] فهم ضالون في أنفسهم وأضلوا غيرهم وضلوا عن سواء السبيل، ضلوا عن السبيل الصحيح والطريق المستقيم ضلوا عنه - عياذا بالله - في أنفسهم وأضلوا غيرهم، الاقتداء

(١) المائدة: ٧٧.

إنما يكون بأهل العلم الملازمين للسنة، الذين كما قال شيخ الإسلام رحمه الله: (إن أئمة السُّنَّة سمُّوا بأئمة السُّنَّة لأنهم مظاهر ظهرت فيهم السُّنَّة) ومن أعظم المظاهر التي تكون في أهل العلم تنزههم عن أن يأخذوا من الناس أموالهم، أو أن يكون المال مطمعا من مطامعهم، هذا هو المعروف عن أئمة السُّنَّة، ولهذا نشأ كثير من علماء السُّنَّة فقراء وماتوا فقراء، لأنهم يعلمون أن الله حرم عليهم هذه الأموال، إذا قرأت في تراجم كثير من أهل العلم تجد انه كان فقيرا بل بعضهم لم يستطع الحج لأنه ليس عنده نفقة، ولا يقول للناس: أعطوني حتى أحج، لأنه ليس له أن يسأل الناس، إذا عجز عن الحج فلا يسأل الناس، لم يلزمه الله تعالى، قال تعالى: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[1] وهذا لم يستطع، فالحاصل أن أهل العلم من أهل السُّنَّة هم أبعد الناس عن أن يصدوا عن سبيل الله وعن أن يأكلوا أموال الناس بالباطل، تأمل الرافضة وأهل الضلال تأملهم، الباطنية والرافضة والمتصوفة تجد أنهم يعيشون على أموال الناس وتجد أنهم ينهبون الناس نهبا، بل إن طريقتهم في أخذ المال؛ لم يقتصروا على المال؛ بل يُذِلُّون الناسَ حتى يأخذوا منهم المال، بأن يأتي ويستجدي هذا الرافضي استجداء حتى يأخذ منه المال، فلم يكتفوا بأخذ أموال الناس بالباطل حتى أذلوهم في طريقة إعطاء المال، هذا - نسأل العافية والسلامة - لهم نصيب من طريقة هؤلاء الأحبار الفساق والرهبان الجهال.

(١) آل عمران: ٩٧.

المسألة العاشرة: الاستدلال على بطلان الدين بقلة أفهام أهله، وعدم حفظهم، كقوله ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾(١).

....

هذا مما يرمي أهلُ الباطل أهل الدين قديما وحديثا، يقولون: إن هذا الدين دين باطل ويدلك - في زعمهم على بطلانه - أن أفهام أهله وعقولهم قاصرةٌ وهكذا علومهم، علومهم معدومة، لا علم لديهم ولا فهم ولا معرفة، كقوله تعالى عن قوم نوح ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾(٢) الأراذل المراد بهم كما تقدم الضعفاء، ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ ليس عندهم دراية وفهم، بل بمجرد أن دعوتهم وافقوا، فليسوا من ذوي العقول والعلوم والمعرفة، فهذا الداء موجود إلى يومك هذا، فأهل المناحي العلمانية والليبرالية كثيرا ما يتكلمون عن منهج السلف بالمذمَّة، وأن أفهام السلف متحجرة قاصرة وأن طريقتهم طريقة غير مناسبة وربما تطاول بعضهم وصرح حتى بالتعدي على جناب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأن ما أتى به غير مناسب ولا يليق أن يكون في مثل هذه الأعصار، فهذه أمور قديمة ينبغي أن تُهجر وتترك حتى قال أحد الزنادقة: ينبغي - من المعاصرين - ما نقول إنها تُجمع وتحرق، إنما تبقى بمثابة الذكريات، وإنما المُعَوَّل على الحضارة الغربية، هكذا تقول أهل الزندقة والإلحاد، يقولون: إن الدين في ذاته قاصر، والمستمسك به سيكون قاصرا! ولهذا يقولون: إن من الدلائل على بطلان الدِّيْن أنه لا يوصل أهله إلا إلى قلة الفهم، وقد أبى الله تعالى - من فوق سبع سموات - إلا أن يكذبهم سبحانه وتعالى وأن تتهاوى - بحمده ومنته - هذه المناهج الخبيثة الفاسدة، وأرى الله عزَّ وجلَّ عباده من ذلك عجبا، الشيوعية على سبيل المثال في سنوات مضت من نحو أربعين سَنَة كانت في أَوْجِهَا وكان دعاتها الزنادقة من العرب والعجم يتحدثون عن الذين يسمونهم بالرجعيين وعن الطبقات التي لا تفهم ولا تعي وأن الفكر الشيوعي هو المنقذ للبشرية وهو الذي سيعم بالقوة الأرض ثم هوت - بحمد الله تعالى - هذه الفكرة

---

(١) هود: ٢٧.

(٢) هود: ٢٧.

الخبيثة في فترة تُعد من أقل الفترات في التاريخ في نحو من سبعين سَنَة، هوت، فصار الذي يتحدث عن الشيوعية وينادي بها موضع سخرية من قِبَل الناس كلهم، وهكذا الرأسمالية الغربية المقابلة للفكرة الشيوعية، أضرت بالناس قطعا في دينهم ولكن أضرت بالعالم مرات وكرات وستظل تضر العالم في الجوانب الاقتصادية، لأن التركيز في الفكر الرأسمالي في الجانب الاقتصادي، وما أضر الاقتصادَ شيءٌ كالفكر الرأسمالي - الذي يزعمون أنه قمة التحضر - وصارت الهزات الاقتصادية في العالم تُسقط دولا وتسقط مؤسسات رأسمالية كبرى، حتى أنطق الله أعداءَه من نحو سنتين بأن الاقتصاد الإسلامي هو الذي فيه الحفظ الحقيقي للاقتصاد العالمي، أليس رجعية؟ أليس تخلفا؟ ما الذي جعلكم تلجؤون إليه صاغرين راغمين؟ لأن الفكر الرأسمالي أضر بأهله هناك في الغرب، وانعكاساتُه وارتداداتُه تضر بقية الدول والأفراد والمؤسسات المالية تتأثر كثيرا جدا، لأنه للأسف الشديد في وضع المهانة التي يعيشها المسلمون صاروا تبعًا حتى في الجوانب الاقتصادية لمثل هؤلاء، وإلا فلو كانوا أعزَّة لكانت الهزات تكون هناك وتضر أهلها، فالحاصل أن ما يزعمونه من أن الدِّين فيه قلة الفهم وقلة الدراية يأبى الله تعالى إلا أن تسقط مناهجهم رأي العين والناس يرون ويبقى الوضع الشرعي، ولهذا الوضع الذي يحصل في العالم في تلك الهزات الهائلة، تركوا حديثا واحدا فقط؛ لو طبق لضبط شيئا كثيرا من أنواع الاقتصاد وهو قوله «لا تبع ما ليس عندك»(١) هذا حديث مكون من ألفاظ يسيرة جدا «لا تبع ما ليس عندك» من أكبر ما يضرهم هذه المغامرات والتعاملات السريعة وبيع الإنسان بالوهم أشياء - كأنها عنده - فينهار هذا البائع، والذي أعطاه المال يكون قد صَرَّف ذلك البائعَ مالَه فينهار البائع وينهار المشتري وتظل مجموعة من العمليات على مبلغ مالي وهمية، مثل أن توضع عمليات ببيع ما ليس عندك وذاك يبيع ما ليس عنده وذاك يبيع ما ليس عنده في مبلغ مثلا عشرة ملايين، بِيْعَ بعشرة ملايين مثلا ما يقابل مئة مليون، وكل هؤلاء باعوا ما ليس عندهم فينهار هذا وهذا وهذا - في حديث واحد -، لو أنك لا تبيع إلا الشيء الذي تملكه - ولا يجوز أن تبيع بتاتا إلا ما تملكه وتحوزه شرعا - حتى كان التجار زمن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يضربون على بيع ما ليس عندهم،

---

(١) صحيح. الترمذي (١٢٣٢). صحيح الجامع (٧٢٠٦).

لا بد أن تبيع الشيء الذي تحوزه، لا تبع الشيء الذي تقول إني سأجده عند فلان، لا بد أن تحوزه، هذا ضمانة كبيرة للاقتصاد، الآن إذا حصلت الهزات الاقتصادية ماذا سيفعلون؟ يخفضون من نسبة الربا الذي يُسمُّونه الفائدة؛ فتنتعش الأسواق العالمية، إذًا الداء في ماذا؟ في الربا يا أعداء الله - الذي منعه الشرع بالكلية - والربا دائما يضر الأكثر وينتفع به مجموعات قليلة من الناس، فجاء الشرع بمنعه بالكلية، فهؤلاء الذين يزعمون أن عندهم الفهم فهم الذين أَرْدَو الناس، أمَّا ما أَرْدَوْه البشرية في الأخلاق والفلسفات الخبيثة التي هيَّئت الفجور وعدَّت فجور النساء مجرد حرية إذا رغبت فيها فلها ذلك؛ وما ترتب على ذلك من أنواع الفواحش التي دبَّت وانتشرت في تلك البلدان؛ وما ترتب عليه من أبناء الزنا وانتشارهم في الأرض؛ ثم ما ترتب على ذلك من عمليات الأجهاض التي تبلغ في أمريكا وحدها مليون طفل يُجهض في السَّنَةِ - كأنها حرب - يعني في عشرة سنين عشرة ملايين يجهضون؛ ثم تقولون: إنكم أنتم ذوو الفهم؟ والله إنكم أبعد الناس عن الفهم، فالحاصل أنهم يدعون دعوى أن الدِّيْن يدل على بطلانه قلة فهم أهله، فما الفهم الذي عندكم أنتم؟ ما الذي أوصلتم إليه البشرية، أوصلتموها إلى الحضيض في أخلاقها وفي اقتصادها ويكفي أنهم يُسعِّرون الحروب لأجل أن تعمل مصانع الأسلحة، أنظر إلى قلة الذوق وقلة الأدب وانعدام الأخلاق، مصانع الأسلحة في العالم تريد سوقا، ما السوق: الحرب، فيثيرون حروبا في العالم حتى تعمل مصانع الأسلحة، أمم بلا أدب وبلا أخلاق ويُسمون أنفسهم المتقدمين المتمدنين ذوي الحضارة، أي حضارة؟ لا يوجد عندهم شيء يُسمى حضارة، عندهم شيء يُسمى مدنية عندهم اكتشافات عندهم شيء من التمكين، أما أن يُسمى حضارة فلا يستحق أن تسمى حضارة وإن سموا أنفسهم ما سموا.

فالحاصل أن المسألة معكوسة عليهم - بحمد الله - فقولهم إن الدليلَ على بطلان الدِّيْن قلةُ فهم أهله، أقل الناس فهما هم أنتم، وما فعلتم بالبشرية وما أوصلتم إليها من الحضيض.

المسألة الحادية عشرة: الاستدلال بالقياس الفاسد، كقوله ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾(١).

المسألة الثانية عشرة: إنكار القياس الصحيح، والجامع لهذا وما قبله عدمُ فهم الجامع والفارق.

....

أمر القياس؛ إما أن يكون القياس قياسا صحيحًا يستوي الفرع والأصل في علّة تجمع بينهما فيكون حكمهما واحدا، فنقول هذا قياس صحيح سليم، استدللت على حكم الفرع بأن ألحقته بالأصل، لماذا؟ لأن العلّة الموجودة في الأصل الذي فيه الحكم موجودة في الفرع، إذًا فحكم الفرع كحكم الأصل، وهكذا ما ذكره أهل العلم من ضوابط القياس، هذا القياس الصحيح، هناك قياس فاسد، القياس الفاسد مثل أن يُلحق فرع بما يُتوهم أنه أصل له مع عدم ما يجمع بين الأصل والفرع، فلا بد من أمر جامع بين الأصل وبين الفرع حتى يُقاس هذا على هذا، أما ان يُلحق فرع بما ليس أصلا له فهذا قياس فاسد، ما مراده رحمه الله تعالى؟ الاستدلال بالقياس الفاسد كقولهم ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ يعني فلا يصلح أن تُبعثوا لنا إنما يُبعث لنا ملائكة، أما يُبعث لنا بشر مثلنا فلا يصلح، ما القياس عندهم؟ القياس أن تُبعث الملائكةُ إلى البشر، وهذا من القياس الفاسد بلا شك، بل القياس الصحيح أن يُبعث إلى البشر بشرٌ مثلهم يقتدون بهم ويأتسون بهم، أما المَلَكُ فلا يُمكن أن يقتدوا بهم ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ، لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾(٣) فلا يمكن أن يقتدوا بالملائكة فيبعث الله تعالى لهم بشرا من أنفسهم يسمعون كلامه ويرون أفعاله ويحذون على هديه، فهذا هو القياس الصحيح أما القياس الفاسد الذي طلبوه فهو أن يُبعث إليهم بشر لهذا يقول: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ﴾ يعني فلا يصلح أن تبعثوا لنا، وإنما يُبعث لنا ملائكة، فاستدلوا بالقياس الفاسد وأنكروا القياس الصحيح، إذا فسد الفهم جعل هذا الذي فسد فهمُه جعل الصواب خطأ وجعل الخطأ صوابا، فلما لم يُحسن التعامل مع القياس وقاس قياسا فاسدا لم يقبل القياس الصحيح، فالمسألتان متلازمتان ولهذا في بعض

---

(١) إبراهيم: ١٠.

(٢) الأنبياء:٢٦-٢٧.

(٣) الأنبياء:٢٠.

النسخ قال: (المسألتان الحادية عشرة والثانية عشرة) وذكرهما معا، وهذا أجود لأنه يجعل المسألتين معا، لأن الذي يكون عنده قياس فاسد يأبى القياس الصحيح، فالقياس الصحيح هو أن يُبعث إلى البشر بشر مثلهم يقتدون بهم ويعملون على هديهم أما أن تُبعث إليهم ملائكة، فلا شك أن الملائكة لا يمكن ان يأتسي بهم البشر، وإنما يبعث إلى البشر بشر، ولا يبعث إلى البشر رسلا.

المسألة الثالثة عشرة: الغلو في العلماء والصالحين، كقوله ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى الله إِلَّا الْحَقَّ﴾(١).

....

الغلو هو مجاوزة الحد في كل شيء، فمن جاوز الحد في أمر ما فقد غلى فيه، أهل الجاهلية يغلون فيمن يعظمونهم ومن أكثر من عظَّموا مَنْ يرونهم من أهل الصلاح ومن يرونهم من أهل العلم، وهكذا قد يُعظمون أيضا ويغلون في الملائكة وقد يغلون أيضا في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فالغلو صفة من صفات أهل الجاهلية في القديم وفي الحديث، والغلو هو السبب في وقوع الشرك - كما تقدم - في قوم نوح وهو السبب في وقوع الشرك في المتأخرين، فالغلو هو السبب في وقوع الشرك قديما وحديثا، وتقدم أن ابن عباس رضي الله عنهما قال في المراد بقوله تعالى ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾(٢): «أن هؤلاء أسماء رجال صالحين كانوا في قوم نوح هلكوا..»(٣) إلى آخر الأثر، فمن صفات أهل الجاهلية أن يغلو فيمن يرون فيهم صلاحا فيمن يرون فيهم علما، ولهذا جاء الشرع بمنع الغلو، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾(٤) أهل الكتاب غلو في عيسى عليه الصلاة والسلام فقالوا: ابن الله، قالوا إنه: ثالث ثلاثة، هذا كله من الغلو وتجاوز الحد، ولهذا جاء الشرع بالمنع من المبالغة في المدح، يُنهى عن المبالغة في المدح حتى لو للعالم، والمبالغة في تعظيم الناس، روى مسلم في صحيحه أن رجلا جاء إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه فصار يمدح، وكان المقداد رضي الله عنه حاضرا فنزل إلى الأرض وأخذ ترابا وحثاه في وجهه، استغرب عثمان رضي الله عنه من فعل المقداد وروى له المقداد أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «إذا رأيتم المدَّاحين فاحثوا في وجوههم التراب»(٥) فطبقه رضي

(١) النساء: ١٧١.
(٢) نوح:٢٣.
(٣) صحيح البخاري (٤٩٢٠).
(٤) المائدة: ٧٧.
(٥) صحيح مسلم (٣٠٠٢).

الله عنه تطبيقا، فالمدائح والمبالغة فيها غلط عظيم وقد تؤدي إلى مفاسد، منها ما يتعلق بالممدوح بأن يغتر ويترفع، إذا رأى الناس يعظمونه ويمدحونه، وتتعلق أيضا بغير الممدوح بأن يظن الجهلةُ أن هذا الشخص له من المكانة كذا وكذا مما لا ينبغي أن يوصف به البشر، ولهذا كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بنفسه - وهو سيد ولد آدم صلّى الله عليه وسلّم - يأبى أيَّ غلو فيه، فكان يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله»[(١)]، ولما قال له قوم: يا سيدنا وابن سيدنا ويا خيرنا وابن خيرنا، قال: «قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد ابن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عزَّ وجلَّ»[(٢)]، ولما قال له رجل: يا رسول الله؛ ما شاء الله وشئت؛ قال: «أجعلتني لله ندا، قل ما شاء الله وحده»[(٣)]، ولما استأذنه معاذ وقال معاذ: يا رسول الله إني قدمت الشام - أو اليمن - فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم فأنت أحق، فرَوَّأت[(٤)] في نفسي - رَوَّأ في نفسه؛ هيأ في نفسه - أنه إذا أتى المدينة أن يفعل ذلك عند النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالسجود له، فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد - من البشر - لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»[(٥)] ولكن لا يصلح أن يسجد البشر لبشر، هذا معنى الحديث، لو كنت آمرا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة، يعني: وأنا لن آمر؛ لأنه لا يصلح أن يسجد بشر لبشر، وهكذا أنواع التعامل الذي فيه غلو، ولما رأى عمرُ رضي الله عنه أبيَّ بن كعب صلّى الله عليه وسلّم - وهو من هو في العلم - رآه يتبعه الناس؛ علاه بالدرّة، فقال: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: ذلة للتابع وفتنة للمتبوع، التابع الذي يتبعك هذا ويمضي وراءك يقول: هذا ذلة له يمشي وراءك، وفتنة للمتبوع، فتنة لك أنت، صار الناس يمشون وراءك، قد يكون مثلا

---

(١) صحيح البخاري (٧٣٢٠).

(٢) صحيح. أحمد (١٣٥٢٩)، والنسائي في الكبرى (١٠٠٠٧). غاية المرام (١٢٧).

(٣) صحيح. النسائي في الكبرى (١٠٧٥٩). صحيح الأدب المفرد (٦٠٥).

(٤) قال في القاموس المحيط (ص٤٢): (رَوَّأَ في الأمْرِ تَرْوِئَةً وتَرْويئاً: نَظَرَ فيه، وتَعَقَّبَهُ، ولم يَعْجَلْ بِجَوابٍ، والاسمُ: الرَّوِيئَةُ والرَّوِيَّةُ).

(٥) صحيح. ابن ماجه (١٨٥٣). الصحيحة (١٢٠٣).

يمشي وراء الانسان حتى يصل إلى بيته قد يمشي وراءه مثلا خمسون إنسانا، هذا لا ينبغي أن يكون مثل هذا، لهذا كان بعض السلف يأبى هذا ويقول: لا يوطأ عقبي، لا تتبعوني، لا تمشوا خلفي، لأنهم إذا مشوا خلفهم مثلا من المسجد إلى بيته يقول هذا لا يليق، اسأل ما عندك وأنت قائم وامضي، أو اسأل إذا لقيتني، لكن لا يظل العالم كلما أتى يقول تبعوا، وإذا خرج تبعوا، يقول: لا تفعلوا مثل هذا لأن فيه فتنة للمتبوع، فينبغي أن يُلاحظ أمر المدائح، ومن أخطر ما يكون من المدائح المبالغة في مدائح الحكام، لأن الشيء الذي يحتاجه الحكام؛ ليس المدائح، الحكام بحاجة إلى أن يُصدق معهم وأن تُبين لهم الأمور على حقيقتها، وأن يُسأل الله عزَّ وجلَّ الدعاءَ الخالص الصادق أن يوفقهم ويسددهم ويجعلهم رحمة للناس وأن يكفي الناس شر من فيه شر، أما المدائح والمبالغات فيها والزيادة هذه خطر ولا تنبغي ولا تليق، ولهذا كما قلنا المادح - الذي ذكرنا أمره في صحيح مسلم - يمدح من؟ يمدح عثمان - رجل من أهل الجنة - وقال صلّى الله عليه وسلّم فيه لما أنفق ما أنفق في غزوة جيش العسرة وصبَّ في حجر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ألفَ درهما - أو ألف دينار - قال: «ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم» ومع ذلك لما رأى المقداد من يمدح عثمان وهو الخليفة الثالث وأفضل الصحابة بعد أبي بكر وعمر؛ حثى في وجهه التراب، فالمدائح خطرة، وهكذا ما يمدح بعض الدعاة وبعض العلماء، ينبغي أن يُمنع مثل هذا، المدح المعتاد لا بأس به، كأن يُقال كما قال عليه الصلاة والسلام - النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وجَّه - لما مدح رجل عند النبيّ صلّى الله عليه وسلّم رجلا آخر قال: «ويحك قطعت عنق صاحبك، قل: أحسب كذا ولا أزكي على الله أحدًا»[1] قل: أحسبه من أهل الخير، أحسبه من أهل العلم والحرص عليه، ولا أزكي على الله أحدا، لا تبالغ وتزكيه على الله تعالى؛ فالله أَعْلَمُ بحقائق العباد وما يجيش في نفوسهم، وَأَعْلَمُ سبحانه بمصيرهم الذي سينتهون إليه، فهذا من الخطر الكبير، والغلو من أسبابه المدائح، المدائح التي يُبالغ فيها، ولهذا كثير من مدائح الصوفية تحتوي على الشرك الأكبر بدعوى أنهم يمدحون، فما فعله صاحب القصيدة البردة - وهو البوصيري – لا شك أنه لو سمعه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وسمعه الصحابة رضي الله عنهم لأوجعوا من قاله ضربا واستتابوه من ذلك،

(١) صحيح البخاري (٢٦٦٢).

لأنه نسب إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أمورا لا تجوز إلا لله، يقول في شأن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم - ويدعي أنه يمدح: (فإن من جودك الدنيا وضرتها، ومن علومك علم اللوح والقلم) نعوذ بالله، يقول: من جود النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الدنيا والآخرة، ضرتها يعني الآخرة، ومن علومك وليس كل علومه؛ علم اللوح المحفوظ والقلم الذي أمره الله أن يكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن، فالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم اعترض على الذي قال: ما شاء الله وشئت، الذين قالوا: يا سيدنا وابن سيدنا ويا خيرنا وابن خيرنا، وقال: «والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي» ما منزلته؟ أنه عبد الله ورسوله - كما في الحديث - «أنا محمد عبد الله ورسوله»، لا ترفعوني فوق هذه المنزلة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾[(١)] بشر مثلكم: عبد، يوحى إليَّ: رسول، المبالغات في المدائح لا تحل حتى للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم فضلا عن غيره من العلماء أو من الحكام أو مدائح الناس فيما بينهم ولهذا ينبغي أن يُتّقى الله في هذه المدائح، والمدَّاحون كثيرا ما يكذبون، والذي يمدحك بما ليس فيك - كما قال بعض السلف - يذمك بما ليس فيك، لأنه كذاب، حتى قال بعضهم - نسأل الله العافية - يمدح الحكام: ما شئت لا ما شاءت الأقدار؛ فاحكم أنت الواحد القهار!! هذا كفر ليس مدحا، هذا ليس مدحا، هذا كفر بالله تعالى، فبعض المدائح تخرج إلى حد الكفر، فالحاصل أن الغلو والمبالغة في هذا في شأن العلماء وفي شأن الصالحين خطرة جدا، وهكذا في شأن غيرهم ولكنها في شأن العلماء والصالحين أخطر؛ لأن النفوس تحبهم وتميل إليهم أكثر من غيرهم، وهكذا مدح غير العلماء والصالحين بالباطل لا يحل، وإنما يتحدث الانسان حديثا معتادا فيقول: هذا الرجل من أهل العلم ومن أهل البصيرة ومن الملازمين للسُّنَّة ومن الداعين إليها نحسبهم إن شاء الله تعالى على خير ونحو ذلك، أما المبالغات بالعبارات الشديدة والتي حتى تجدها في مثل بعض المصنفات في التراجم ونحوها فيها منكرات، يتكلم في نحو نصف صفحة مدائح مدائح مدائح، من جهة علمه وإلمامه، كل هذا لا يليق ولا يصلح، وفيه من المبالغات والزيادات ما لا يفعله إلا العامة أو أهل الغلو والزيادة والإجحاف.

---

(١) الكهف: ١١٠.

المسألة الرابعة عشرة: أن كل ما تقدم مبني على قاعدة وهي النفي والإثبات، فيتبعون الهوى والظن، ويُعْرِضُون عما جاءت به الرسل.

....

يقول رحمه الله لو تأملت جميع المسائل الثلاث عشرة التي مضت ودققت فيها لوجدت أنها مبنية على قاعدة؛ قاعدة باطلة، وهي النفي والاثبات، النفي لأي شيء؟ النفي لما ينبغي أن يُثبت، والاثبات لأي شيء؟ الاثبات لما ينبغي أن يُنفى، الأمور عندهم معكوسة، فإذا تأملت - كما قلنا - القياس الفاسد والقياس الصحيح، كيف يرفضون القياس الصحيح ويعملون بالقياس الفاسد، وهكذا بقية المسائل، الأمور عندهم معكوسة، فلهذا قال: فيتبعون الهوى والظن الذي ينبغي أن لا يُتَّبع، فصار عندهم الآن هذا الذي ينبغي أن يُنفى ولا يُعمل به صار هو موضع العمل والتأسي، ويُعرضون عن هذا الذي جاءت به الرسل صلّى الله عليهم وسلّم وهو الذي ينبغي لهم أن يُثبتوه، فاتباعهم الهوى كان الذي ينبغي عليهم أن يكونوا بردِّه فيأبون الهوى وينفون الهوى، وما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام كان ينبغي أن يُثبتوه ويلزموه، فانعكست عندهم المسألة، فيقول: جميع المسائل التي تقدمت إذا تأملتها وجدت فيها المسألة فيها على هذا النحو، عكسوا فأثبتوا ما ينبغي أن يُنفى ونفوا ما ينبغي أن يُثبت.

المسألة الخامسة عشرة: اعتذارهم عن إتباع ما آتاهم الله بعدم الفهم، كقوله ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾(١)، وقوله ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ﴾(٢)، فأكذبهم اللهُ، وبَيَّن أن ذلك بسبب الطبع على قلوبهم، والطبعُ بسبب كفرهم.

....

من خصال أهل الجاهلية أنهم يقولون: إن سبب عدم قبولنا لما تقولونه أنا ما فهمنا، لا نستطيع أن نفهم هذا الذي تقولون ولا نستطيع أن نستوعبه، وبعبارة المتأخرين لا أستطيع القناعة به، لا يُمكن أن يُفهم، هذه من طرائق أهل الجاهلية إذا أتاهم الحق اعتذروا قالوا نحن فيما يتعلق بهذا الذي تقولونه إشكالنا أننا لا نستطيع فهمَه، تتحدثون وتبيِّنون وتمثلون أمثلة تدل على الأمر لكن لا نفهم هذا الذي تقولونه كله، استدل بأن اليهود قالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، ما المراد بقوله تعالى ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾؟ من المفسرين من قال - كما ذكر ابن كثير رحمه الله - ذكر أن من المفسرين من فسر قولهم ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي لا تفقه، وقال بعضهم هذه الآية ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ كقوله تعالى عنهم ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾(٣) ومن أهل العلم من قال: إنهم يقولون قلوبنا في غشاوة، والأقوال متقاربة، وهناك قول آخر أن المراد بقولهم ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي قلوبنا أوعية لكل علم فهي غُلُفٌ - بضم اللَّام - فهي لا تحتاج إلى علم، هذا ما قيل في الآية، والظاهر - والله أعلم - أن الصواب هو الأول وهو الذي رجحه ابن جرير رحمه الله تعالى بدلالة قوله تعالى عنهم ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ وبدلالة الآية بعدها ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ﴾ صريح، أي لا نفهم ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ﴾ فأكذبهم الله تعالى وردَّ عليهم بأن الذي حصل لهم ليس عدمَ القدرة على الفهم لأن هذا الذي يقال غير مفهوم، لا، الذي حصل أن الله تعالى طبع على قلوبهم وعاقبهم عقوبة والسبب كفرهم ومبادرتهم إلى رد الحق، ولهذا قال: بيَّن أن هذا بسبب الطبع على قلوبهم، وأن الطبع بسبب كفرهم، قال الله

---

(١) البقرة: ٨٨.

(٢) هود: ٩١.

(٣) فصلت: ٥.

تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾(١) فقلوبهم قد طُبع عليها - نسأل الله العافية -، ما السبب؟ السبب أنهم بادروا وكفروا ساعة سمعوا الحق فطبع الله تعالى على قلوبهم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً﴾(٢) - نسأل الله العافية والسلامة - فعوقبوا هذه العقوبة بأن طبع الله تعالى على قلوبهم فصاروا لا يؤمنون.

---

(١) النساء: ١٥٥.

(٢) محمد: ١٦.

المسألة السادسة عشرة: اعتياضهم عما أتاهم من الله بكُتُبِ السحر، كما ذكـر الله ذلـك في قولـه: ﴿نَبَـذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ الله وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، وَاتَّبَعُوا مَـا تَتْلُـوا الـشَّيَاطِينُ عَـلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾(١).

....

الظاهر أن المراد (اعتياضهم عما آتاهم الله بكُتُبِ السحر) جمع كتاب؛ وليس الكَتْبُ، من خـصال أهـل الجاهلية هذا، لاحظ أنه ذكر في أهل الجاهلية مَنْ؟ اليهود، الكتاب مصنف في مـسائل الجاهليـة ثـم خـصَّ اليهود فقال: اعتياض اليهود، اليهود يستبدلون الذي هو أدنى بالذي خير، فاستبدلوا الوحي العظيم الذي أنزله الله تعالى عليهم فيه الهدى والنور كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُـدىً وَنُـورٌ﴾(٢) اسـتبدلوها بِكُتُبِ السحر - نسأل الله العافية - وأين السحر وما فيه من كفر وشرك وفساد وكذب؟ أيـن الـسحر مـن الوحي؟ لكنهم - عياذا بالله - قد انتكسوا هذا الانتكاس، فتعوضوا عن كتب الله تعالى بكتب السحر، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ الله مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾(٣) هو النبيّ صلّى الله عليـه وسـلّم ﴿نَبَـذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ الله وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فنبـذوا الكتـاب عمـدا وتركـوه عمدا - نسأل الله العافية - ماذا أخذوا؟ ماذا اتبعوا؟ ما الشيء الذي جعلوه بديلا عـن هـذه الكتـب التـي أنزلها الله ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾(٤) السحر لا شـك أنـه لا يتـأتى لأحد إلا بمعونة الشياطين له، ولهذا السحر كفر ولا بد، الساحر كافر - وهذا الذي عليه أكثر اهـل العلـم - لأنه لا يتأتى له أن يسحر حتى يكفر، والدليل الآية ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَـةٌ﴾(٥) فلا يتعلم السحر حتى يكفر، وهذا هو الواقع أن الواقعين في السحر والمستعملين للسحر يبيعون ديـنهم -

---

(١) البقرة:١٠٢، ١٠٣.

(٢) المائدة: ٤٤.

(٣) البقرة: ١٠١.

(٤) البقرة: ١٠٢.

(٥) البقرة: ١٠٢.

عياذا بالله - للشياطين، فيتركون الدين من صلاة وعبادات ويتقربون إلى الشياطين كالذبح لهم من دون الله تعالى ويفعلون أفعالا موحشة عظيمة فظيعة منكرة، كما تجدهم عند القبض عليهم تجد الفجرة من السحرة قد أخذوا كتاب الله تعالى ورموه - عياذا بالله تعالى - في مواضع القذر والنتن ارضاء للشياطين لأنهم لا يعينونهم على السحر حتى يفعلوا هذا، فالسحر كفر، فما الذي استبدلوه؟ استبدلوا الهدى والنور والحق والخير بكُتُب السحر والشرك والكفر، وهذا يقع - نسأل الله العافية - لكل أحد - الخصلة هذه في اليهود - لكن كل أحد حَادَ عن الدِّيْن العظيم الذي أنزله الله تعالى على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم واستبدله وارتد عنه؛ إلى أي شيء يذهب؟ إما ان يذهب إلى إلحاد، كحال من يذهبون إلى الفلسفات الشرقية أو الغربية، فيعيشون عيشة أشد ضنكا في الأرض، ولهذا لاحظوا الملاحدة في العالم - نسأل الله العافية - أكثر الانتحار فيهم، أكثر من ينتحر في العالم الملاحدة، أناس مقطوعون عن ربهم، الانسان لو انقطع عن أهله وجماعته وصار في موضع لا يعرف فيه أحد أبدا ولا يتصل بأحد يشعر بوحشة مع أنه بين بشر، فما بالك بهذا الملحد الذي انقطع عن الله تعالى - نسأل الله السلامة والعافية - يعيش عيشة ضنكا، ويذوق النار في الدنيا قبل النار في الآخرة، نار العذاب وعيشة الضنك والهون، فلهذا يشتد فيهم الانتحار، تَرَكَ العلمَ والهدى والنور والإسلام والحق إلى الإلحاد، أو إلى النصرانية وما فيها من الخرافات والخزعبلات والتناقضات، وتَرَكَ التوحيد إلى التثليث أو إلى الشرك أو إلى أي منحى، فمن ترك الحق والهدى والخير؛ فإنه يستعيض عنه بالفساد والشر - نعوذ بالله من الزيغ -.

المسألة السابعة عشرة: نسبة باطلهم إلى الأنبياء كقوله ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾[1]، وقوله ﴿مَا كَانَ إِبْـرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً﴾[2].

....

من طريقة أهل الباطل وأهل الجاهلية أنهم لا يكتفون بفعل الباطل حتى يقولوا: إن ما نحن عليه من الباطل منسوب إلى العظماء كالأنبياء أو الصالحين، ليجعلوا لباطلهم مبررا وليقولوا: إنا ثابتون على ما جَعَلَنَا عليه الكبراء قبلنا ممن أُمِرْنا باتباعهم، فينسبون باطلهم وكفرهم مثلا إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فتقول: النصارى نحن أولى بإبراهيم، وإبراهيم منا معاشر النصارى، واليهود تقول: بل منا إبراهيم معاشر اليهود، رد الله تعالى عليهم ﴿لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[3] كيف تقولون: إن إبراهيم يهودي - حاشاه الله وأكرمه - وهو قد بُعث قبل أن يُبعث موسى، كيف يكون المتقدم تابعا للمتأخر؟ ولهذا قال يوسف: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾[4] فالمتأخر هو الذي يتبع المتقدم، أما أن تدَّعو أن إبراهيم تابع لدينكم ودينكم لم يأت إلا بعده، ولهذا قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ المقصود بالإسلام هنا الإسلام العام - كما قلنا - الذي عليه جميع الأنبياء، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ جميع الأنبياء دينهم هو دين الحنفية وهو إفراد الله تعالى بالعبادة ونبذ الشرك، هذا الذي عليه إبراهيم وعليه نوح وعليه موسى وعليه محمد وجميع الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم، فهذا المراد بالإسلام هنا، وليس المقصود أنه ليس يهوديا ولا نصرانيا ولكنه مسلم تابع لهذا الدين! وإنما المقصود الإسلام العام، فينسبون الباطل الذي هم عليه إذا قيل: أنتم عندكم كذا وكذا ومن الخلل كذا قالوا: هذا دين إبراهيم، وهكذا نسبتهم لسليمان السحر، فإنهم زعموا أن سليمان - أكرمه الله تعالى وأجلَّه - وكان منتشرا في اليهود

---

(١) البقرة: ١٠٢.

(٢) آل عمران: ٦٧.

(٣) آل عمران: ٦٥.

(٤) يوسف: ٣٨.

جدا؛ أنه تمكن مما تمكن منه بسبب أنه ساحر قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ فأهل الكفر هم الشياطين والسحرة، أما سليمان فمَكَّنَه الله تعالى لأنه دعا الله تعالى أن يهبه ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي، فآتاه الله ذلك وأخضع له حتى الشياطين ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ، وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾[1]، وظلوا يمتهنون العمل حتى خرَّ وتوفي عليه الصلاة والسلام فلما رأوه سقط ميتا - وكانوا يعملون في العذاب المهين، يظنونه أنه حي لأنه كان متكئا على عصاه عليه الصلاة والسلام - ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾[2] كانوا يظنون أنه حي، فأخضع الله تعالى حتى هؤلاء المردة والشياطين، ولهذا لَمَّا أراد أن يُؤتى بعرش ملكة اليمن ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾[3] فأخضعوا له إخضاعا وليس معنى ذلك أنه كان ساحرا، ومن أعتقد أن سليمان ساحر فلا شك أنه يكفر، بل سليمان عليه الصلاة والسلام نبي من أنبياء الله لكنهم يريدون أن ينسبوا باطلهم؛ يريدون أن ينسبوا السحر والباطل إلى سليمان حتى إذا قيل: أنتم على حال سيء وعلى حال من السحر قالوا: هذا مما جاء به سليمان.

---

(١) ص:٣٧، ٣٨.

(٢) سبأ: ١٤.

(٣) النمل: ٣٩.

المسألة الثامنة عشرة: تناقضهم في الانتساب، ينتسبون إلى إبراهيم مع إظهارهم تركَ اتِّباعه.

....

هذا من التناقض عندهم، الانتساب الصحيح أن تنتسب إلى نبي من أنبياء الله وتعمل بما قاله، التناقض هنا في الانتساب ينتسبون إلى إبراهيم، إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو إمام الحنفاء، وهو من أعظم الناس توحيدا؛ وأنتم مشركون، فكيف تنتسبون إليه وهو الذي جاء بالتوحيد والحنيفية، وأنتم تظهرون الشرك ويظهر عليكم ترك اتباع إبراهيم؟ فهذا من التناقض؛ أن تنتسبوا إلى إبراهيم الموحد وتكونون مشركين ومع ذلك تزعمون أنكم منه وهو منكم.

المسألة التاسعة عشرة: قدحهم في بعض الصالحين بفعل بعض المنتسبين إليهم كقدح اليهود بعيسى وقدح اليهود والنصارى بمحمد صلّى الله عليه وسلّم؟

....

هذه المسألة لها شأن عظيم لأن النبيّ الكريم والرجل الصالح والعالم البصير قد يكون هناك من يتبعه، فإذا وجدت منه غلطة نُسبت هذه الغلطة - من قبل أهل الجاهلية - إلى النبيّ نفسه، ولهذا قال نوح عليه الصلاة والسلام لما قالوا له ما قالوا في أتباعه: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١) فلو فرضنا أن بعض من تبعوا نبيا حصل منهم ما لا يليق؛ فإنه ينبغي أن يُنسب هذا الأمر إلى ذاك الذي فعل ما فعل لا أن يُنسب إلى النبي، ما ذني النبيّ؟ وهكذا أهل العلم إذا كان مثلا في طلبتهم من قد تصرَّف تصرفا غير جيدا وغير مناسب لا يُقدح في العالم نفسه، فمن طريقة أهل الجاهلية أنهم يقدحون في الأنبياء وفي العلماء وفي أهل الصلاح بأن بعض من هم أتباعهم أو من تلامذتهم فعلوا كذا وكذا؛ كقدح اليهود في عيسى عليه الصلاة والسلام وقدح اليهود والنصارى في محمد صلّى الله عليه وسلّم - وهذا واقع الآن - أُنظر كم يُكال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم من التُّهم والكلام الباطل في بلاد الكفر، ويقولون إن محمدا صلّى الله عليه وسلّم جاء بكذا وكذا مما فيه مضرة للبشرية بدليل أن هناك من يعمل أعمالا من اتباعه إنما أخذه من محمد صلّى الله عليه وسلّم، فهذه طريقة أهل الجاهلية، الرسول صلّى الله عليه وسلّم ليس مسيطرا على أتباعه إلى يوم القيامة، فيقع من أتباعه الحق - وهو الذي عليه أهل السُّنَّة وأهل العلم والبصيرة - ويقع من بعض المنتسبين إليه - سواء كان انتسابهم فعليا حقا لأنهم من أهل الإسلام؛ أو لم يكونوا من المسلمين؛ كالذين ارتدوا في بدعهم كالباطنية ونحوهم - يقع منهم أفعال قبيحة وربما تَعَدَّوا على الناس في أموالهم أو في دمائهم أو في أعراضهم فقالوا: هذا بسبب محمد صلّى الله عليه وسلّم، وما ذنب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟ هذه خصلة جاهلية، وهذا مما ينبغي أن يُلاحظ، نعم هذا من فعل أهل الجاهلية، لكن على المسلم أن لا يتصرف تصرفا يجر بسببه على الإسلام شيئا من هذه الأقوال، فبعض من يذهب إلى بلاد الغرب

(١) الشعراء: ١١٢.

يتصرف تصرفات همجية فوضوية، ويقولون: هذا من أيّ البلاد؟ هذا من البلاد الإسلامية، لـو كـان عنـد هذا دين يردعه ويضبطه لما تصرف هذه التصرفات، فيتسبب هذا في ما قاله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إن منكم مُنَفِّرين»[(١)] فينفر من الدين بسوء تصرفاته، وهكذا التعامل حتى داخل البلاد الإسلامية، فيوجد مِنْ بعض مَنْ يكون عندهم عمال ونحوهم - ويكونون كفارا - يعني أساء بأن جلب إلى بلاد الإسـلام كـافرا، ثم أساء في تعامله وصار يمنعه من حقه وصار يتسلط عليه ويخرج عن العقد الذي بينه وبينه فيـشغله أكثـر مما اتفق عليه، فيسبب هذا ردة فعل، وهكذا التعدي على المعاهَدين، معاهـد في بـلاد الإسـلام لا يجـوز أن يُتعرَّض له، ومن تعرَّض له فكما قال صلّى الله عليه وسلّم: «من قتل معاهـدا لم يجـد رائحـة الجنـة»[(٢)] فـإذا خُطف وقُتل ماذا يُفعل في تلك البلاد، يقول: هؤلاء الأمم أُمَّة فوضى يتعاقـدون مـع النـاس ويـأتون بهـم ويؤمنونهم ثم يأخذونهم ويقتلونهم، يتسبب هذا في الصد عن دين الله عـزَّ وجـلَّ، والنبـيّ صـلّى الله عليـه وسلّم كان حريصا جدا على أن لا يُساء فهم الإسلام، حتى إنه تصبَّر على عـدد ولـما طُلـب منـه أن يقـتلهم قال: «لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه»[(٣)] ينبغي أن يُراعى مثل هذا، ولهذا كـل مـن يتعامـل مـع هؤلاء الكفار يجب أن يتعامل معهم التعامل الشرعي، بعض الناس يقول - يعني يستحذي ويـزل هنـا -: ينبغي أن ينظر إليهم أنهم بشر ولهم مثل ما لنا، لا والله ليس لهم مثل ما لنا بل هم كفار، التعامل معهم عـلى هذا الأساس، والولاء والبراء عقيدة ثابتة، لكن فرق كبير بين الولاء والبراء وبـين الظلـم، الظلـم لا يجـوز حتى للذرِّ كما قال الحسن البصري في تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾[(٤)] قال: الـذين لا يظلمـون الذر - وهي النمل الصغير -، المسلم ما منه مضرة حتى للبهائم، فلا يضر أحدا، وإذا أريد إيقاع عقوبة على كافر فإنها توقع بالوضع الشرعي لا تكون هكذا بالمزاج وبحسب ما يحلو للإنسان، لا يحـل مثـل هـذا وإلَّا تسبب هذا في أن يُذم الدِّيْن وأن يُذم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيتسبب هذا في الصد عن سبيل الله.

---

(١) صحيح البخاري (٧٠٢).
(٢) صحيح البخاري (٣١٦٦).
(٣) صحيح البخاري (٤٩٠٥).
(٤) الانفطار: ١٣.

المسألة العشرون: اعتقادهم في مخاريق السحرة وأمثالها أنها من كرامات الصالحين ونسبته إلى الأنبياء كما نسبوه إلى سليمان عليه السلام.

....

الكرامات تُطلق ويُراد بها عند كثير من أهل العلم الأمرُ الخارق للعادة الذي يُجريه الله على يد أحد من أوليائه، كما وقع لمريم كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا مع أنه هو الذي يمونها! من أين أتى هذا الرزق؟ ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾(١)، قال بعض المفسرين: كانت تكون عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، وبقطع النظر عن كون هذا التفسير هو الصواب أو ليس هو الصواب؛ المؤكد أن في الآية ما يدل على كرامة من الكرامات، وهكذا ما ذكر الله تعالى عن أهل الكهف، نصَّ تعالى على أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمئة سنين وازدادوا تسعا؛ ومع ذلك كانت الشمس إذا غربت تقرضهم ذات الشمال، وإذا طلعت تَزَاورُ - تميل - عن كهفهم ذات اليمين، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال، وهم في فجوة - في متسع - لكن الله يُميل الشمس عنهم، كرامة وخرقا للعادة، وهكذا ما ثبت عن الصحابة رضي الله عنهم، وما جاء في السُّنَّة من كرامات من كانوا قبلنا من صالحي الأمم، كثير، فمن طريقة أهل الجاهلية أن يخلطوا بين الذي لأولياء الله وبين الذي يقع من السحرة، الذي يقع من السحرة في هذه الخوارق أنواع: منه ما هو تخييل، يخيلون على الأعين ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾(٢) ومنها ما هو بمعونة الشياطين، فيظهر منهم أشياء تكون عجيبة كأن يُحملوا ويُرتفع بهم لكن حملتهم الشياطين، فطريقة أهل الجاهلية أنهم لا يفرقون بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ولهذا صنف شيخ الإسلام رحمه الله كتابا عظيما اسمه الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وبيَّن الفرق بين هؤلاء وهؤلاء، وبيَّن الفرق بين الكرامات التي يجريها الله تعالى لعباده الصالحين وبين هذه الأمور التي تقع على يد السحرة، وقد ابْتُلِيَ بأمر الخوارق هذه والتوهم فيها الصوفية كثيرا جدا ابتلوا بها ولم يفرقوا بين الحق

(١) آل عمران: ٣٧.

(٢) طه: ٦٦.

والباطل في هذا، وظنوا أن ما يفعله هؤلاء الكذبة ومروِّجو الشرك وأهل السحر ظنوها من كرامات الأولياء، فكلما رأوا شيئا من الخوارق قالوا: هذا من فعل أولياء الله عزَّ وجلَّ، مع أن هذه الخوارق توجد حتى عند البوذيين وعند الهنود والمشركين، فمجرد خرق العادة ليس هو الدليل على أن هذا من أولياء الله، وقد ثبت عنه صلّى الله عليه وسلّم أن الدجال يكون من ضمن فتنته أشياء مهولة يأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، يمر بالخربة فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ونحو ذلك[1]، فمجرد الخوارق ليس دالا على أن هذا من أولياء الله، إنما تُعرف وَلاية الله بقوله تعالى ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2] من هم؟ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[3] العبرة بالإيمان والتقوى، أما لو حدثت خوارق فليست هي الدليل لأنها تقع على يد كافر - ولا شك أن ثمة فروقا عظيمة بين الكرامة التي يجريها الله وبين هذه الخوارق التي تكون من الشياطين - لكن أهل الجاهلية لا يفرقون.

(١) صحيح مسلم (٢٩٣٦).
(٢) يونس:٦٢.
(٣) يونس: ٦٣.

أسئلة:

- سؤال: يتحدث الأخ: هل التصوف كله بدعيّ؟

جواب: عليك بطريقة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ومن ضمن ما جاء في سنته صلّى الله عليه وسلّم ما تجده في مثل البخاري وغيره مما يسميه أهل العلم الرِّقَاق، الأمور التي تزهد في الدنيا وترغب في الآخرة وأمر الإقبال على العبادة ونحوه، هذا موجود في السُّنَّة، ما الحاجة إلى اختراع مثل هذه الأمور؟

- سؤال: هل يجوز للعالم أو لطالب العلم أن يقول للشخص: فيك خصلة جاهلية - من باب الزّجر والرّدع -؟

جواب: إذا كانت كما قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، إذا كان بالفعل عنده خصلة جاهلية، لكن لا يقولها إلا إذا تأكد أنها من خصال الجاهلية.

- سؤال: يسأل عما يسمونه خفة اليد، هل تُعتبر من السحر؟

جواب: منه ما يكون نوعا من الحيلة، يعني يُخفي شيئا فيتعجب الناس منه، ومنه ما هو سحر حقيقي لكن يسمونه خفة يد.

- سؤال: يسأل عن أفضل مَنْ شرح كتاب مسائل الجاهلية ولُمُعَةُ الاعتقاد.

جواب: مشايخنا رحمهم الله، هذه الكتب تجدها مشروحة من قِبَلِ أهل العلم، الشيخ صالح الفوزان، والشيخ محمد بن عثيمين رحمهم الله، وأهل العلم عموما، تجد أن عندهم هذه الشروح فاستفد منها، هناك تحقيق للدكتور يوسف السعيد لكتاب مسائل الجاهلية أيضا مُطوَّل؛ فيستفيد طالب العلم من هذه الشروح كلها.

- سؤال: يتكلم عن مسألة العذر بالجهل.

جواب: مسألة كما قلت في أكثر من موضع: المسائل هذه طوال جدا لأنك إذا قلت: يعذر بالجهل أو لا يعذر بالجهل، الجهل نوعان:

منه جهل بإجماع أهل العلم لا يُعذر به أحد وهو الجهل المكتسب، أن الإنسان يُعرض؛ فيقع في أخطاء تكون شركية بسبب أنه أعرض ولم يتعلم، ولو أُريد أن يُعلَّم أبى أن يتعلم، فهذا من حيث الواقع جاهل، لكن من حيث التسبب في الجهل هو متسبب بالجهل، ولو فُتح لمثل هذا أن يُعذر لكان معنى ذلك أن من أراد أن يَسْلَم أن يُعرض حتى يجهل.

تبقى مسألة الجهل غير المُكتسب، المسائل الخفية لا شك أنه يُعذر بها، تبقى المسائل الكبار هل يُعذر بها؟ كثير من أهل العلم يقول لا يُعذر بالمسائل الكبار كتوحيد الله ونبوة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ومن أهل العلم من يقول: إن من يستحوذ عليه أناس من أهل الشرك وأهل الضلال؛ نقول: أمر الجهل فيه هذا النوع الثاني، وهو الجهل الذي يكون غير مكتسب في عوام الناس وفي غيرهم، هناك كلام طويل لأهل العلم فيها، قلنا: المسائل الخفية لا إشكال فيها أنها يُعذر فيها، لكن هل يُعذر في المسائل الكبار؟ مِنْ أهل العلم من قال: إذا عُذِرَ بالمسائل الكبار فماذا يبقى؟ ومنهم من يقول: إن هؤلاء من يستحوذ عليهم أهل الشرك ويظن هؤلاء أنهم علماء فيأتسون بهم فالمسألة طويلة.

- سؤال: ذكرتم أن نصيحة ولي الأمر واجبة ولكن نريد كيفية النصيحة، هل سرا أم علنا؟ ومن الذي ينصح؟ وهل يجوز لبعض الناس أمام الناس: نحن نصحناه وما استجاب؟ هل قول الخوارج: وإذا منعوه من الدخول إليه يُنكر علنًا، وهل يجوز الإنكار علنًا إذا كان القانون يسمح بحرية الرأي والتعبير - مع ذكر الدليل -؟

جواب: قلنا لك في الدرس الماضي: إن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «من أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يبده علانية ولكن ليأخذ بيده فإن قَبِلَ منه، وإلّا كان قد أدى الذي عليه»[1] فالأصل أن النصيحة تكون سرا، هذا هو الأصل، ويقول: هل ينصح كل أحد؟ لا، لا ينصح إلا من كان عنده معرفة، ليس فقط للسلطان، حتى لغير السلطان، قال أهل العلم: إذا أردت أن تُنكر منكرا فيجب أن تتأكد أنه منكرا، لأنه قد تتوهم أنه منكرا وليس منكرا، فيكون النصح من جهة الوسيلة والطريقة بالطريقة الشريعة،

(١) صحيح. كتاب (السنة) لابن أبي عاصم (١٠٩٦). ظلال الجنة (١٠٩٦).

من جهة أن الناصح لا بد أن يعلم أن ما حصل منكر؛ لا بـد أن يعلـم، فـإذا سُـلكت الطريقـة الـشرعية في النصح فاستُجيب لذلك فالحمد لله، وإذا لم يُستجب لذلك - فلا ريب - أن من نصح فقـد برئـت عهدتـه، يبقى أمر إظهار الحق وبيانه للناس؛ لكن بغير الطريقة التي يكون فيها تشويش، تحدَّث عـن الرِّبـا، قـل: إن الرِّبا حرَّمه الله، قل: إن ما يقع في الإعلام من الكتابات السيئة هذه يجب ان يُردع هـؤلاء الـسفلة عنهـا ولا يجوز أن يُمكَّنوا من هذه الكتابات، لكن لا تجعل هذا على طريقة يكون فيها نوع مـن التجرئـة للنـاس عـلى السلاطين، لأنه ثبت عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه نهى عن إذلال السلطان، وأخبر أنه من أذله فـإن الله تعالى يُذَلُّه سبحانه في القيامة[1]، فنهى عن إذلال وإهانة السلطان، ففرق بين النصح وبـين محاولـة إسـقاط هيبة الحاكم، إسقاط هيبة الحاكم ليست خطرا على حكم فلان، إسقاط هيبة الحاكم يترتب عليها أن تنفلت الأمور، لا يوجد نظام يردع بعضهم عن بعض، فيأكل القوي الضعيف، فالقول الحق؛ قـل الحـق وأظهـره وأعلنه إذا كنت من ذوي العلم والبصيرة، وبيِّن للنـاس، رغِّـب ورهِّـب وحـذِّر وانْـهَ وأْمُـرْ، الحـق يبـيَّن، الاختلاط غلط خطأ لا يجوز ولا يحل، وهو خطير جدا على الناس، اجهر بهذا وأعلنه وتقرَّب إلى الله بمثـل هذا، ولكن فرق بين أن تحذر من الاختلاط وبين أن تحمل الناس حملا على أن يكون هذا الأمر الـذي وقـع سببا في محاولة زعزعة السلطة، لأن زعزعة السلطة يظن كثير من الناس أنها ضارة للحاكم، وهذا غلط هي ضارة للجماعة بأسرها، الحـاكم يـردع النـاس بعـضهم عـن بعـض، ولهـذا كـان الـسلف رضي الله عـنهم يتحملون من مثل الحجاج ومن غيره؛ لأنهم يعلمون أنه إذا انفلت الأمر فكما قال ابن مسعود: ما تكرهـون في الجماعة؟ أشياء كثيرة نكرهها في الجماعة من منكرات ومعاصي نكرههـا ونتقـرب إلى الله بـالجهر بهـا، لا نخاف في الله لومة لائم، لكن لو زالت الجماعة هذه المنكرات ستكون أضـعافا مـضاعفة، وسـتنفتح أمـور أشد بكثير منها، ولهذا قال ابن مسعود كلمة ثبتت عنه: ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفُرقة[2].

(١) حسن. أحمد (٢٠٤٣٣). صحيح الجامع (٦١١١).

(٢) المستدرك (٨٦٦٣)، وقال الشيخ الألباني رحمه الله في الضعيفة (٥٨٣٨): (قلت: هذا مع وقفه؛ فيـه مجالـد بـن سـعيد؛ ولـيس بالقوي، كما في التقريب.

الشيء الذي تكرهه الآن في الجماعة من أمور نعلم أنها محرمة؛ هذه الأمور التي تكرهها وأنت في حال من الجماعة لو أنها حصلت فُرقة لكان الذي في الفُرقة أشد وأنكى مما أنت فيه في الجماعة، ففرق بين زعزعة الجماعة وهدم البيت على أهله بدعوى إنكار المنكر وبين الجهر بالحق، الجهر بالحق هذا أخذ الله على أهل العلم العهد أن يقولوه ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾(١) فالذين نبذوه ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾(٢) أخذه الله تعالى على أهل الكتاب وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ الله وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾(٣) لا بد أن يُبيِّن، لا بد من التبيين، لا بد أن نعلِّم الناس أن الله حرَّم الربا وحرَّم الاختلاط وحرَّم كذا وأوجب كذا لا بد من هذا، لكن فرق بين أن أبيِّنَ وأن أجعل هذه الطريقة من الطرق للإحاطة بالوزارات وبالحاكم حتى نسقطه، فرق، هذه طريقة الخوارج، ففرق بين طريقة أهل السُّنَّة وطريقة الخوارج، وفرق بين طريقة المخذولين الذين يُبرِّرُوْن الخطأ، يجعلون خطأ الحاكم مُبَرَّرًا كما كانت الناصبة زمن بني أمية، ويقولون: إن الله تعالى أمرنا بطاعته مطلقا، وإن الله تعالى يغفر للسلطان ذنبه كله وإنه لا يحاسب ويقبل منه جميع حسناته، هذه كانت في النواصب، فأهل السُّنَّة ليسوا هكذا ولا هكذا، ولكن فرق بين أن تبين الخطأ وتوضح الحق وتوضح السُّنَّة وتكلم عن مسائل الجاهلية وغيرها وبين أن تجعل الخطأ طريقة من الطرق لإسقاط الحكم، فرق كبير جدا، زعزعة الحكم طريقة الخوارج، وزعزعة الحكم ليست إسقاطًا لحكم فلان - كما نقول هذا ونؤكده - زعزعة الحكم اسقاط للجماعة، لأن الجماعة مكونة من حاكم ومحكوم، فإذا سقط الحاكم فلا جماعة، وإذا وجد لا يُتصور أن يوجد حاكم ما عنده رعية، إذا لم توجد رعية، منطقة كبيرة ما فيها بشر، لو قال أحد: أنا الحاكم! حاكم على من؟ ما عندك أحد حتى تحكمه، وهكذا لو وجدت رعية ليس لها حاكم فهذا في غاية الخطورة، والشواهد والوقائع الحديثة وعبر التاريخ دالة على هذا وعلى أن إرشاد الشرع إلى لزوم الجماعة والصبر على ما قد يقع من جَوْر أو استئثار

---

(١) آل عمران: ١٨٧.

(٢) آل عمران: ١٨٧.

(٣) البقرة:١٥٩، ١٦٠.

بالأموال أو نحوه مع الصدع بالحق؛ هو المسلك الشرعي الصحيح، لا مسلك الخوارج ولا مسلك من يُبَرِّرُوْن الخطأ، وسيأتينا إن شاء الله تعالى بعض الكلام على هذه المسائل في نفس مسائل الجاهلية، ذكر الشيخ رحمه الله من مسائل الجاهلية أن أهل الجاهلية يأنفون ويأبون السمع والطاعة، قال: إن هذه من طريقة العرب في الجاهلية، ويأتينا أيضا - إن شاء الله تعالى - بعض المسائل المعاكسة ممن هم على ضد طريقة الخوارج، فمسلك أهل السُّنَّة لا مسلك هؤلاء ولا هؤلاء، فالمنكر يُنكر والحق يصدح به ويجهر به لا يُخاف في الله لومة لائم، لكن لا تُسقط الجماعة ولا يُؤمر الناس بأن يجتمعوا جماعات ويسببوا طريقة ضغط حتى يُقْصَرَ الحاكمُ على كذا وكذا، لأن الحاكم يجلس لك ويخطط لك على مدى بعيد حتى تعجز عن أن تنشر السُّنَّة لاحقا، والشرع ما جاء بين العلماء والحكام ما جاء بالمصادمة أبدا، المصادمة أتتنا من فرنسا وبريطانيا، حزب حاكم وحزب معارضة، هذا الذي في تلك البلاد، وهو الذي الآن يُطالب به بعض المخذولين، الشرع ما أتى بهذا، الشرع أتى بالنصيحة وأتى بالجهر بالحق وبالبيان والإخبار والإيضاح والنصح، أما أن يَتصور الإنسانُ أنه هو والحاكم في حد هكذا؟ هذا ليس من الشرع، الثورة الخبيثة الفرنسية جملة من انعكاساتها على الأرض لا تزال إلى يومك هذا، فليس في الشرع هذا حاكم وهذا معارضة، ليس هذا بصواب وليس هذا من الدِّيْن في شيء، لكن هذا حاكم يصيب فيُعان على صوابه ويُخْطِئ فيُنصح ويُجهر فيما بين العالم والحاكم ويُبين للناس الحق، أما أن تؤخذ أمور على أنها معارضة وعلى أنها بهذه الطريقة؟ فلو فتشوا في طريقة السلف ليل نهار لما وجدوا مثل هذا، لكن هذه الثورة الفرنسية قاتل الله اليهود هو الذين وراءها ليس الفرنسيين، الذين وراء الثورة الفرنسية هم اليهود، جعلوها في قالب فرنسي ثم انعكست على أوربا ثم جاءت إلى مصر وانعكست كثير من أقوالها وآرائها على كثير من الناس وصار يُدعى لها وربما لُبِّست لُبُوسا من الإسلام، وربما أُخذت بعض المواقف القوية والجريئة من السلف رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم على أنها على سبيل المعاضة، ليس بصحيح، من أكثر من كان قويا في الجهر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سفيان الثوري رحمه الله وغيره من السلف، حتى إنه رحمه الله أبى أن يأتي إلى الخليفة المهدي ورفض أن يأتي إليه رحمه الله وكان يأبى أن يأتي، ومع ذلك قال: (والله إني لأدعو الله لهم ولكني لا

أستطيع إلا أن أقول الحق - يقول من حيث الدعاء - وما بي أني لا أرى أن لهم طاعة)[١]، يقول أنا أرى أن لهم طاعة، وأنا أدعو لهم لكني سأقول الحق، هكذا الجمع الصحيح، لكن أن يُنظر أن المسألة مناطحة ومصادمة هذا لا يكون إلا في الوضع المتناسب مع الأوضاع في البلاد الغربية التي هي فكرة سيادة الشعب – التي تُردَّد الآن - ما معنى فكرة سيادة الشعب؟ أي أن السلطة عند الشعب، وأعظم وأخطر سلطة عند الشعب هي سلطة التشريع، ولهذا تُسمى المجالس بالمجالس التشريعية، تُشَرِّع وتُحَلِّل وتحرِّم، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ﴾[٢] التشريع حق الله تعالى، ومع ذلك يُقال: الأُمَّة مصدر السلطات، أي السلطات؟ الثلاث؛ التنفيذية والقضائية والتشريعية، للشعب أن يُشرِّع بالأكثرية النظامَ الذي يريد، فلو شرَّع نظاما غير إسلامي فكما قال بعض المخذولين مما يُسمون أنفسهم بالإسلاميين يقول: إذا رأى الشعب عدم قبول الدولة الإسلامية؛ فلتذهب ولتأت غيرُها؛ فإنها تستحق ما حصل بها، ما معنى فلتذهب؟ ولتأت حتى الملحد، هذا المعنى، أي أن الأُمَّة هي مصدر السلطات ومن ضمنها السلطة التشريعية، التشريع بيد الله عزَّ وجلَّ ولا يجوز أن يُقال هذا، فينبغي أن يُعرف الأمر، أن يكون الإنسان متوسطا؛ لا الذي يُبَرِّر الخطأ للحاكم كنواصب بني أمية، ولا الذي يتصور أن الشعب بيده أن يُشرِّع، ومن ضمن ذلك أن تُستجلب من بلاد الكفر الطرق في التعامل مع الحكام، الطرق في التعامل مع الحكام مضبوطة بضابط شرعي، لعل الله يسر فيها كتابة بإذنه ومنته تجمع هذا وهذا حتى تتضح الأمور - إن شاء الله - على جليَّتها.

- سؤال: يقول هل يُعتبر قدح الرافضة في الصحابة من مسائل الجاهلية؟

جواب: رضي الله عن الصحابة، أخي؛ الرافضة جملة جاهلية، من جهة شركهم بالله عزَّ وجلَّ، قدحهم في القرآن، غلوهم في آل البيت، طعنهم في الصحابة، حقدهم الدَّفين على الأمة، الجانب الشعوبي وحقدهم

(١) حلية الأولياء (٧/٤٥) بنحوه.

(٢) الشورى: ٢١.

على الفتوح الإسلامية، حتى كان ابن المُطَهَّر يقول: إن بني حَنيفة مؤمنون، وإن أبا بكر قتل المؤمنين، مع أن بني حَنيفة ادَّعوا أن مسيلمة رسول - نسأل الله العافية والسلامة - أُمَّة مليئة بالأخطاء؛ الروافض.

- سؤال: يتكلم عن تعلم السحر

جواب: لا يجوز، تعلم السحر لا يحل، لا يتأتى تعلم السحر إلا بشيء من الشرك.

- سؤال: هل لبس البشت للخطيب سُنَّة؟

جواب: نقول: إن التزين وأن يلبس الخطيب شيء كما قال تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[1] هذا شيء طيب ويتفاوت الناس فيه، لكن لا نقول: إن الخطيب لو خطب بلا لبس البشت: إنه قد ترك السُّنَّة! لكن من حيث العموم الناس يتفاوتون، ففي البلاد الإفريقية قد لا يلبسوا مثل هذا، وفي البلاد الآسيوية يكون عندهم زي معين، ما دام أنه من زي المسلمين وليس من زي الكفار؛ فليس موضوع البشت بنفسه سُنَّة لكنه من الزينة.

- سؤال: يقول: ذكر الشيخ في مسألةٍ التَّفَرُّقَ في الدِّين والدنيا، كيف يكون التَّفَرُّق في أمور الدنيا؟

جواب: نعوذ بالله، بأن ينشغل الناس بعضهم ببعض، ويُهلك الناس بعضهم بعضا، وتكون الفتنة بين الناس، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾[2] يلبسكم في الفتنة؛ فيُهلك الناس بعضهم بعضا، و صلّى الله عليه وسلّم.

(١) الأعراف: ٣١.

(٢) الأنعام: ٦٥.

المسألة الحادية والعشرون: تعبُّدهم بالمكاء والتصدية.

....

هذه المسألة تضمنت أمورا ثلاثة:

الأمر الأول: التَّعبد بما لم يشرعه الله عزَّ وجلَّ.

الأمر الثاني: المكاء.

الأمر الثالث: التصدية.

التعبد بما لم يشرعه الله عزَّ وجلَّ ابتداع، لأنه لا يجوز أن يُتقرب إلى الله عزَّ وجلَّ إلا بما شرع، فمن تقرب إلى الله تعالى بشيء لم يأت به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فالأمر فيه كما قال صلّى الله عليه وسلّم: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»(١)، فيكون مردودا عليه وإنْ بذل فيه الأموال وبذل فيه الجهود وسافر فيه السفر الطويل، فهو مردود عليه، إذا لا يُتقرَّب إلى الله تعالى إلَّا بما شرع، ولهذا ذكر أهل العلم قاعدة في العبادات والمعاملات أنّ الأصل في العبادات هو المنع، فلا يُتقرب إلى الله بعبادة إلَّا بدليل، ليس لك أن تتقرب إلى الله تعالى بأي قُربة إلَّا إذا كانت على هدي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وإلا فإنك داخل في حد البدعة، وما معنى البدعة؟ هي طريقة في الدين مخترعة تضاهي الطريقة الشرعية؛ يُقصد بالسلوك عليه التقرب إلى الله، فالتعبد لا يكون إلَّا بما شرع الله.

الأمر الثاني: هو المكاء، المكاء هو الصفير.

الأمر الثالث: هو التصدية، والتصدية هي التصفيق.

كان المشركون كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ (٢) كانوا إذا طافوا بالبيت صفقوا، كما يأتي لليدين فيضرب واحدة منهما في الأخرى، ويصفرون بأفواههم يميلون رؤوسهم هكذا - فعل أهل التغني والتخنث - ويبدؤون يصفرون بجانب البيت العتيق، يتعبدون إلى الله

---

(١) مسلم (١٧١٨).

(٢) الأنفال: ٣٥.

عزَّ وجلَّ عند بيته سبحانه وتعالى بهذه البدع والضلالات، فهذه من خصال أهل الجاهلية: التعبد بما لم يشرعه الله، وتحديدا بما ذكر الله سبحانه في الآية؛ التعبد بالمكاء والتصدية.

تكلم أهل العلم رحمهم الله تعالى في حكم التصفير والتصفيق - من حيث العموم - عندنا مسألتان:

التعبد بالتصفير أو التصفيق ابتداع لما قرَّرنا من أنه لا يُتقرب إلى الله تعالى إلَّا بما شرع.

الأمر الثاني: التصفير والتصفيق بدون عبادة - كأن يُشجع أحد - فيُصفق له أو يُصفَّر، من أهل العلم من قال إن التصفيق في غير أمر العبادة أمر معتاد لا إشكال فيه، كالتشجيع لأحد أو نحو ذلك، أجاد في جواب، أو تشجيع الصغار ونحو ذلك على أمر معين.

ومنهم من قال: إن التصفيق لما كان من أفعال المشركين - وهكذا التصفير أيضا - كان فعلهما ولو على غير العبادة من التشبه بالكفار، وعلى هذا يكون التصفيق والتصفير لهما حالان:

الحال الأول محل إجماع أنه لا يجوز أن يُتقرب إلى الله تعالى بالتصفير والتصفيق.

الحال الثاني: التصفير والتصفيق من حيث هما - بدون تقرب - فالذي يختاره بعض أهل العلم أنه لا يحل، وكلام شيخنا الشيخ ابن باز رحمه الله جار على هذا، أنه لا يجوز، قال: لأنه من فعل الكفار، والله تعالى ذكره عليهم في مقام الذمّ وبيان أن هذا من خصالهم، فلا ينبغي للمسلم أن يقع في التصفير والتصفيق ولو لغير العبادة.

المسألة الثانية والعشرون: أنهم اتخذوا دينهم لهواً ولعباً.

....

هذه المسألة مبنية على فهم قوله عزَّ وجلَّ في بيان كونهم اتخذوا دينهم لهـوا ولعبـا ﴿وَذَرِ الَّـذِينَ اتَّخَـذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً﴾(١) تكلَّم المفسرون رحمهم الله تعالى في المراد باللّهو واللعب، من أهل العلم من المفسرين من قال: إن المراد باتخاذهم الدين لهوا ولعبا استهزاؤهم بآيات الله إذا سمعوها، ومنهم من قال: المراد أنهـم دانوا بما اشتهوا؛ كما يلهون بما يشتهون، فإذا اشتهوا أمرا لهو به وهكذا تدينوا بما اشتهوا، قـول ثالـث: أنهـم محافظون على دينهم إذا اشتهوا، كما يلهون إذا اشتهوا.

ذكر بعضهم أنه ليس من قوم إلَّا لهم عيد فهم يلهون في أعيادهم إلَّا أمة محمد صلّى الله عليه وسلّم فإن أعيادهم صلاة وتكبير وبر وخير، هذا بإيجاز من زاد المسير، وليس معنى القول الأخير أن أمة محمد عيدهم صلاة وتكبير وبر وخير؛ أنّ العيد الشرعي ليس فيه لهو! بل فيه لهو مباح بضوابط شرعيـة تكـون فيهـا كـما قال صلّى الله عليه وسلّم: «ليعلم أهل الكتاب أنَّ في ديننا فسحة»(٢) فيحل للنساء أن يـضربن في الأعـراس وفي الأعياد أن يضربن بالـدف، ويكـون ذاك خاصـا بالنـساء؛ لأن الرجـال لـيس مـن شـأنهم أن يـضربوا بالدفوف ولا بالطبول قطعا، ولهذا جاء عن عدد كثير من السلف أنهم إذا رأوا مـع الرجـل الطبـل خرَّقـوه وأتلفوه، هذا كثير جدا عن السلف، لأن الرجال ليس من شـأنهم الـضرب بـالطبول ولا الـدفوف حتـى، الدف يحل للنساء وليس من شأن الرجال أن يتولوا مثل هذه الأمور، يكون في أعيـاد المـسلمين أيـضا شيء من المرح والفرح والسعادة؛ لأن من المعلوم أن العيد فيه الفرح وفيـه الـسعادة والـسرور، لكـن لاحـظ انَّ الأعياد الشرعية أول ما يُبدأ فيها بالصلاة، وتكون ليلة العيد مشروع فيها التكبير، وهذه من المزايا العظيمة في الفرق بين الأعياد الجاهلية والأعياد الشرعية، فالأعياد الجاهلية مليئة بالمفاسد من شرب الخمور وفعـل الفواحش وإظهار شيء من الصراخ والخَبَل، وفي دين الله عزَّ وجلَّ يشرع الفرح بـضوابطه ويُبـدأ بـذكر الله

---

(١) الأنعام: ٧٠.

(٢) صحيح البخاري (٩٨٧) بنحوه.

عزَّ وجلَّ بالصلاة والتكبير، فالفرق كبير جدا بين المنضبط في دينه من جهة عيده وبين المنفلت، فالحاصل أن من شأن أهل الكفر أنهم يتخذون الدين لهوا، اللهو هو الباطل الذي يُلْهى به عن الحق، فكيف يُتخذ دينا؟ واللعب دائما ضد الجد، فاللاعب غير جاد، ولهذا تجد المرء إذا قال كلمة قالت: أنا لاعب في هذا ولست بجاد، فرق بين اللعب والجاد، الدين يقول الرب عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾[1] الدين ليس محلا للعب ولا محل للهو، ولهذا من الأغلاط العظيمة أن يُجعل أمر الدعوة إلى الله أمرا متخذا ضمن طرقه طرق الهزل والضحك والاستخفاف، فهذا ليس من شأن الداعي إلى الله عزَّ وجلَّ، الداعي إلى الله تعالى يعلم أن الله تعالى قد أنزل وحيا عظيما حمَّل أهل العلم أمانة أدائه وإبلاغه وألا يشوبوه بما يشينه من أنواع السخف وأنواع الهزل الفارغ؛ فإن هذا يُضعِّف دائما من شأن ما تتحدث فيه، فبين الرجل يتحدث في اليوم الآخر وما فيه من نعيم وعذاب ووقفات عظام هائلة في القيامة ويتحدث عما قَبْلَه مما في القبر من ضمّة القبر والسؤال والنعيم والعذاب؛ أي محل للهزل في هذا؟ لا محل للهزل ولا المزاح، العيون ينبغي أن تذرف دمعا للمواقف الهائلة العظام، أما إذا انقلب الجالسون إلى ضاحكين لاهين؛ فهذا لم يخدم الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ، ليس المقام مقام هزل، ولهذا كان الأوزاعي رحمه الله تعالى إذا تكلم في القدر أو في اليوم الآخر لم يُجب سائلا ولم يقطع حديثه حتى يتمه – من اهتمامه بالموضوع -، ولما طُلب من بعض المحدثين أن يذكر صفة تغسيل الميت - فقط صفة تغسيل الميت - أراد أن يتحدث عجز من بكائه فالمقام ليس مقام مزاح، تذكر موقفه هو إذا توفي ومات، فالدين ليس محلا للمزاح بمسائل الدين العظام، المزاح له موضع والضحك له موضع والجد له موضع، ولهذا دائما يستشين الناس ويستنكر العقلاء على من يضحك في الموضع الذي ليس محلا للضحك، فالمقابر على سبيل المثال من الأمور الممجوجة من بعض الناس أنه يجد الهزل والمزاح والضحك في المقبرة - وهو يرى هؤلاء الذين سبقوه وسيكون معهم يوما ما - ثم إن هذا الميت الذي شيعته أخ لك في الله عزَّ وجلَّ وله أقارب قد أصابهم الحزن فأي معنى للمزاح والضحك والهزل في هذا الموضع؟ ولهذا كان الأعمش يقول: كنا إذا ذهبنا بالجنازة لا ندري من نعزي، يعني الجميع

---

(١) الطارق:١٣-١٤.

من أقارب الميت ومن غيرهم قد أصابهم شيء من الخضوع لله عزَّ وجلَّ وتذكُّر هذا الموضع الذي سيرده الواحد منهم فلا تجد آثار الخضوع أو دمع العين على أقارب الميت، لأن المقام ليس مقام حزن فقط على الميت، المقام مقام استذكار أنك حملت هذا الرجل إلى هذا الموضع وسَتُحمل أنت يوما إلى هذا الموضع، فهو من المقامات التي تستوجب من العاقل أن يتفكر ويتنبه، الحاصل أن أمر الدين وأمر العلم ينبغي أن لا يُمَجَّ وأن لا يُشان، وأن يُدعى إلى الله عزَّ وجلَّ بالأسلوب السليم، ويتحجج بعض الناس بأن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يمزح، ومن قال إن أهل العلم يقولون: إن المزاح لا يليق أو لا يجوز، المزاح هدي وطريقة، رسول الله صلّى الله عليه وسلّم له طريقة محددة يعرفها أهل العلم إذا صلى، يعرفها أهل العلم إذا باع؛ إذا سافر؛ إذا حزن؛ إذا مزح؛ إذا ضحك صلّى الله عليه وسلّم، لا تخلط الأمور، فمواضع الجد أين في أحاديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حديث من أحاديثه ذكر القيامة وذكر القبر ونعيمه وعذابه ذكرها بصيغة فيها نوع من الضحك - حاشا له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من أن يفعل هذا - فينبغي أن يُعلم أن أمور الدين تؤخذ بالجد ولا تُخذ بالهزل الذي يُشان الدين بسببه عند الناس، وإنما للمزاح موضع كما كان صلّى الله عليه وسلّم يمزح ولا يقول إلَّا حقا(١)، فكان يمزح صلوات الله وسلامه عليه، ولا أحد يقول للناس: لا تمزحوا، لكن يُمزح بمقدار ويُمزح بألفاظ وبتصرفات لا تخرج المازح عن الجائز وعن الحد الشرعي إلى ما لا يجوز، فأما الدين فليس محلا بتاتا للعب والهزل، ولهذا كان من خصال أهل الجاهلية أنهم اتخذوا دينهم لهوا ولعبا، فينبغي أن يُلاحظ هذا وأن يعلم المؤمن أنَّ للجد موضعه وللمزاح موضعه ولا يخلط هذا بهذا.

---

(١) صحيح. الترمذي (١٩٩٠). صحيح الأدب المفرد (٢٠٠).

المسألة الثالثة والعشرون: أن الحياة الدنيا غرَّتهم، فظنوا أن عطاء الله منها يدل على رضاه، كقوله ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾(١).

....

هذه من خصال أهل الجاهلية أنه يغترون بالدنيا وقد حذَّر الله عزَّ وجلّ من الاغترار بالدنيا ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾(٢) الدنيا زخرف يغرُّ كثيرا من الناس فيها كثير من أنواع المتع وأنواع المشتهيات أشياء كثيرة تضر كثيرين حتى يتحول - والعياذ بالله - من الحال الحسن إلى الحال السيء، من حال التذكر إلى حال الغفلة بسبب الاغترار بالدنيا، فقال تعالى: ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ قد حذَّر الله تعالى من الاغترار بالدنيا كثيرا، الدنيا فيها المناصب؛ فيها الأموال؛ فيها الشُّهرة، فتَحْفِزُ كثيرين على أن يبحثوا عن مثل هذا الأمور، فإذا حصلوها اشتغلوا بها، فاشتغلوا بأموالهم أو بمناصبهم أو بأمر الشُّهرة حتى يزدادوا شهرة، واشتغلوا بالدنيا نفسها فأشغلتهم عن الدين، حذَّر الله تعالى من الاغترار بالدنيا، قال: أن الحياة الدنيا غرَّتهم، ولاغترارهم بالدنيا انقلاب المفاهيم عندهم فظنوا أن ما يعطيه الله عزَّ وجلَّ في للناس في هذه الدنيا دال على رضاه عمن أعطاهم، وتقدم الحديث الذي فيه أن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب؛ ولا يعطي الدين إلَّا لمن يحب، فالدنيا كما ترى تكون عند الصالح من عباد الله تعالى وتكون عند الكافر الفاجر ويُمْلَي لأهل الكفر والفجور إملاء عظيما حتى تتوارد عليهم النعم وتتوالى ويزدادوا والله تعالى يستدرجهم ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾(٣) فإذا أخذهم أخذهم على حين بغتة، فالحاصل أنْ من خصال أهل الجاهلية الاغترار بالدنيا ومن نماذج ذلك أنهم يظمون انَّ الله تعالى إذا أعطى أحد فهو دال على رضاه، ولو كان الأمر كذلك لكان المعنى أنه قد رضي - سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا - على فرعون وعلى أهل الطغيان كقارون وأمثاله ممن أعطاهم الدنيا، فالدنيا قد حُذِّرنا من الاغترار بها، وقد صرعت كثيرين؛ صرع الاغترار بالدنيا كثيرين - عياذا بالله - فانقلبت عندهم الموازين

---

(١) سبأ: ٣٥.

(٢) فاطر: ٥.

(٣) الأعراف: ١٨٢.

والمفاهيم، تخلوا عن السُّنَّة إلى البدعة، تخلوا عن الهدى والالتزام بالحق والخير إلى التنصل من ذلك، قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾(١) وإذا تأملت الأمرين - نعوذ بالله من الزيغ – إضاعة الصلاة واتباع الشهوات، تجد هذا في كثير من الناس، أمران مقترنان يضيعون الصلاة ويتبعون الشهوات، مُهَدَّدُون بقوله ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ إما إنه فتح له في مال؛ ولَمَّا لم يكن عنده مال كان أكثر إقبالا على دينه وأكثر إقبالا على صلاته؛ فلما انفتحت عليه الأموال بدأ يتلاعب في الصلاة واتبع الشهوات ودخل حتى في الشهوات المحرمة مما كان ينكره في السابق - نعوذ بالله من الزيغ - ويعيب على أهله فصار من أوائل المتنافسين والمتسابقين في هذا الدرب والباب، فهذا من الاغترار في الدنيا، ولهذا قال الله عنهم: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ فجعلوا كثرة هذه الأموال والأولاد محل الفخر ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً﴾ ورتبوا على هذا أنهم ليسوا بمعذبين، وكل هذا من الاغترار الذي حذَّر الله.

---

(١) مريم:٥٩.

المسألة الرابعة والعشرون: ترك الدخول في الحق إذا سبقهم إليه الضعفاء تكبراً وأنفةً، فأنزل الله تعالى ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾[1].

المسألة الخامسة والعشرون: الاستدلال على بطلانه بسبق الضعفاء كقوله ﴿لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾[2].

....

المصنف رحمه الله تعالى يذكر جملة من مسائل الجاهلية يكون بينها شيء من الشبه الدقيق، من ضمن ذلك ما ذكر في هاتين المسألتين، من خصال أهل الجاهلية أنهم يتركون الحق إذا سبقهم إليه الضعفاء أنفة وتكبرا أنْ يكونوا مع هؤلاء الضعفاء في حال واحد، هذا هو الحق؛ يعلمونه لكن يقولون: مادام هؤلاء قد سبقونا إليه فلن نخالطهم، أو أنْ يستدلوا على بطلان ما جاء به الرسول صلّى الله عليه وسلّم بأنْ الضعفاء سبقوا الكبراء، فالمسألة الأولى فيها بيان أنهم يتركون الدخول في الحق إذا سبقهم إليه الضعفاء تكبرا واغترارا، بمجرد أنْ يكون الضعفاء قد قبلوا الحق يتكبرون ويأنفون فلا يدخلون في الحق ابتداء، الأمر الذي بعد ذلك أنهم يبدؤون يدافعون فيقولون: الدليل على بطلان الحق أنّا معاشر الكبراء لم نسبق إليه، مِنْ سبق إليه؟ سبق إليه هؤلاء الضعفاء، ولو كان خيرا وحقا لكنا نحن السابقين ولم يسبق إليه هؤلاء الضعفاء، فالمسألتان متقاربتان لكن لا شك أن كل واحدة منها تختلف عن الأخرى، مورد المسألتين أنّ الضعفاء في العموم الأغلب هم الذين يسبقون إلى الحق، ترتب على هذا أنّ أهل التكبر والاغترار يتركون الدخول في الحق لمجرد أنَّ الضعفاء سبقوهم إليه، ثم يركبون على ذلك الاستدلال على صحة تركهم هم للحق وبطلان الحق بأن هذا لو كان من الحق لما سبق إليه الضعفاء والمساكين هؤلاء، قوله تعالى ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ سبب نزولها كما روى أحمد رحمه الله - وهو أيضا في مسلم مختصرا - سبب نزولها أنّ سعدا وابن مسعود وصهيبا وعمارا والمقداد وبلال رضي الله عنهم قد قالت قريشا للنَّبيّ صلّى الله عليه

---

(١) الأنعام: ٥٢.

(٢) الأحقاف: ١١.

وسلّم: إنّا لا نرضى أن نكون اتباعا لهؤلاء فاطردهم عنك، يريدون أن لا يكون هؤلاء الضعفاء مع الكبراء كأبي جهل وأمية وأضرابهم، يقول فدخل رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم من ذلك ما شاء الله، كأنه من شدة حرصه صلّى الله عليه وسلّم على أنْ يؤمن هؤلاء الملأ كان صلّى الله عليه وسلّم كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾(١) فكان حريصا جدا على قومه أنْ يؤمنوا فلما قالوا له ما قالوا بشأن هؤلاء - الذين يعلم صلّى الله عليه وسلّم أنهم آمنوا وفي قلوبهم من اليقين والإيمان ما يعلمون معه أن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لو فعل مثل هذا إنما فعله من باب الحرص على هؤلاء الكفار - يقول سعد رضي الله عنه: فدخل رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم من ذلك ما شاء الله أنْ يدخله من ذلك فنزلت الآية ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾(٢) هؤلاء يريدون الله عزَّ وجلَّ فلا تطرد هؤلاء الضعفاء رجاء أنْ يؤمن أولئك المتغطرسون المتكبرون، أما قوله تعالى عنهم ﴿لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ فتقدم أنهم يستدلون على بطلان الحق بمجرد سَبْقِ الضعفاء إليه، فيقولون: لو أنَّ هذا من الحق لما سبق إليه هؤلاء الضعفاء ولكنا نحن السابقين، وهذه مسألة عجيبة جدا وهي أنْ يجعل الواحد نفسه دليلا، يجعل الدليلَ نفسَه، هو موضع الدليل، وهذا كما يقول بعض مَنْ لا يفقه؛ يستدل على أوضاع خاطئة - على أمر من الأمور - فمثلا يقولون في مَنْ يدافع عن أمر الاختلاط؛ يقول بعض السفهاء والجهلة: إنَّه لا يوجد أحد إلَّا مست يده ممرضة! ماذا تريد؟ يقول: هذا دليل على أنَّ هذا الأمر منتشر وعلى أنّه أمر موجود عند الجميع، ومتى كنا أدلة يُستدل بوضعنا نحن؟ أرأيت أولا هذه التعميمات الفارغة بأن كل أحد قد مسته امرأة؛ هذا كلام فارغ، الأمر الآخر هَبْ أنَّ الناس كَثُرَ فيه أمر من الأمور، هل الناس أدلة؟ هل وضع الناس الآن دليل؟ ليس هذا دليلا، ولهذا الاستدلال إنَّما يكون بالكتاب والسُّنَّة وبالحال الذي كان عليه النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والسلف الصالح رضي الله عنه، ثم يُنْظَر في الأحوال لاحقا، فالوضع السليم في أي مكان أو في أي زمان هو الذي يكون على هدي ذلك المجتمع الكريم، فإذا وجد في مجتمع كثرةٌ كاثرة

(١) فاطر: ٨.

(٢) الأنعام: ٥٢.

تعودوا مسألة من المسائل فيُقال: هذا التَّعود الكبير يدل على أنها مسألة لا بأس بها وسائغة، متى كان الناس أدلة؟ ولهذا بعض من يتساهلون في سلام الأقارب من أبناء العم على بنات العم، لا يكادون يفقهون حديثا، يعجز الإنسان عن إفهامهم، يقول الواحد منهم: هذا أمر كنا عليه نحن وآباؤنا وأجدادنا ومن قبلنا وكل الناس، كل الناس مخطئون؛ هؤلاء مخطئون؟ كل الناس على هذا الحال، هذا من العجائب في الاستدلال، من عجائب الاستدلال هذا، الحاصل أنَّ هؤلاء الجهال وأهل الجاهلية يستدلون على بُطلان الحق بمثل هذه الأمور ﴿لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ ما المعنى؟ المعنى أنَّا لو سبقنا لدل ذلك على أنَّه من الخير، فلم يَعُدِ الخير شيئا ثابتا حتى يُستدل به، بل يُنظر في مدى تقبل الناس له، فإذا تقبلوه فهو خير - ويُعنى بهم الكبراء والزعماء - وإذا لم يتقبلوه دل على أنه باطل، هكذا يفكر ويدلل أهل الجاهلية.

المسألة السادسة والعشرون: تحريف كتاب الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون.

....

كتاب الله عزَّ وجلَّ المقصود به ما أنزله سبحانه وتعالى على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، من شأن أهل الجاهلية أنَّهم يُحرِّفون الكلم عن مواضعه، والمراد بأهل الجاهلية هنا اليهود والنصارى ومن سلك مسلكهم، أما الوثنيون من كفار قريش فإنهم ما يعرفون كتابا ولا يعرفون نبيا، فالمقصود بهذه الخصلة أناس من أهل الجاهلية عندهم كتاب وهم المُعَبَّر عنهم بأهل الكتاب وهم اليهود والنصارى عندهم التوراة وعندهم الإنجيل، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾[1] وَرِثَ هذا الداء الطوائفُ الضالة في تحريف الكلام عن مواضعه، الله عزَّ وجلَّ سمى هذا الكتاب العظيم القرآن سماه بأسماء إذا تأملها المسلم علم أن الحق في القرآن جلي واضح، فسمى الربُّ سبحانه هذا الكتاب بالشفاء والنور والقَيِّم والفصل والبيان والهدى، هذا دال على أنَّ من أراد به الاهتداء فإنه يجده في القرآن مباشرة، ومن أراد النور فإنه يجده في القرآن مباشرة، ومن أراد الفرقان الذب يُفَرَّق به بين الحق والباطل فإنه يجده في القرآن مباشرة، ولهذا أُمِرْنا بالإقبال على القرآن والإكثار من قراءته وتدبره، لأنه بقدر ما تُقْبِلُ على القرآن بقدر ما تجد من هذه الأمور العظام في كتاب الله تعالى من الشفاء والنور والهدى والفصل والبيان، فأتت الطوائف الضالة إلى هذا القرآن العظيم فعدوه في حكم ما ليس بنور ولا هدى ولا بيان ولا فصل وصاروا يتعاملون مع نصوصه الجلية الواضحة بما يُحَرِّفها ويخرجها عن مدلولها، الذي فهمه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأفهمه الصحابة رضي الله عنهم؛ الصحابة رضي الله عنهم أفهموه التابعين، وفهم القرآن بفضل الله ومنَّتِه مضبوط، يقول العلامة الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2] يتضمن أمرين:

---

(١) المائدة: ١٣.

(٢) الحجر:٩.

الأمر الأول هو المعلوم عند جميع المسلمين وهو حفظ ألفاظ القرآن فلا تضيع الأمة ولله الحمد، يظل القرآن محفوظا.

الأمر الثاني - وهو قلَّ أن يُشار إليه - وهو أنَّ الله حفظ معاني القرآن فلا تضيع، فلو أنه تحفظ الألفاظ وتضيع المعاني لما استفيد من حفظ الألفاظ، لكن بحمد الله تعالى ألفاظ القرآن العظيم بيِّنة محفوظة لا تضيع، وهكذا معاني القرآن العظيم مضبوطة محفوظة، إذا أردت أن تعرف معاني هذا الكتاب فأمامك سبل واضحة: السبيل الأول تفسير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو أعلم الناس بكتاب الله تعالى، فقد فسر النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عددا من الآيات، والمصنفون في كتب السُّنَّة يعتنون بتفسيره صلّى الله عليه وسلّم ولهذا تجدهم يُفردون قسما للتفسير النَّبويّ يروونه بالأسانيد عنه عليه الصلاة والسلام، أعلم الناس بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هم الذين ربَّاهم وعَلَّمَهم - تلاميذه - الصحابة رضي الله عنهم فهم أعرف الناس بكتاب الله بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقد دعا النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لابن عباس بأنْ يعلمه الله تعالى الكتاب «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»(١) فهو من أعلم الناس وهكذا علماء الصحابة كابن مسعود وغيرهم ممن يُرْوى عنهم التفسير، بعد الصحابة تلاميذ الصحابة من التابعين رضي الله عنهم وأرضاهم؛ الذين علمهم الصحابة رضي الله عنهم معاني القرآن، حتى إنّ مجاهدا عرض القرآن على ابن عباس ثلاث مرات، فهو مِنْ أعلم الناس بالتفسير، فتفسير القرآن بيِّن وواضح، فعلى سبيل المثال: الاستواء على العرش، الصحابة رضوان الله عليهم فسروا الاستواء بأنه بمعنى الارتفاع والعلو على العرش، وهذا مضبوط معروف محفوظ عنهم بالأسانيد، وهكذا بقية الصفات، عدد من الصفات تجد تفسيرها في كتاب الله، أَمْرُ القدر بيانه وتوضيحه موجود عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعن الصحابة رضي الله عنهم في النصوص وفي الآثار، فالأمور بيِّنة ولله الحمد، ولذلك نَبَّهْنَا الأخوةَ في بداية الدرس على انَّ طالب العلم لا بد أن يهتم جدا من جهة العقيدة ببيان العقيدة بالإسناد، أَنْ تعرف الكتبَ التي تروي الاعتقاد بالإسناد ككتاب شرح العقيدة لللالكائي رحمه الله، فهو من أوسع هذه الكتب، يذكر سياقا في

---

(١) صحيح. أحمد (٢٣٩٧). الصحيحة (٢٥٨٩).

الوارد عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ثم يذكر سياق ما روي عن الصحابة رضي الله عنهم، سياق ما روي عن التابعين رضي الله عنهم، سياق ما روي عن بقية أئمة الإسلام ويَذْكُرُ علماء الأمة، فالأمور محفوظة مضبوطة ولله الحمد، وليس كتاب الله عزَّ وجلَّ خفي المعنى، بل هو واضح جليّ المعنى بفضل الله عزَّ وجلَّ، وقد أُمرنا بتدبر هذا القرآن، ما الذي حدث؟ الذي حدث أنَّ أهل الضلال والزيغ والانحراف لما لم تَرُق لهم هذه المعاني العظام الثابتة عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعن أصحابه رضي الله عنهم أبقوا الألفاظ وغيَّروا المعاني، فصاروا يأتون إلى الألفاظ التي تَحْفَظُهَا ويحفظونها كما تحفظها ويفسرونها بغير التفسير النَّبويّ وبغير تفسير الصحابة رضي الله عنهم، فذكر الشيخ رحمه الله أنَّ هذه الخصلة خصلة جاهلية موجودة عند اليهود والنصارى، يحرفون الكتب من بعد ما عقلوا المعنى وتبينوه واتضح لهم وهم يعلمون، هؤلاء الذين حرفوا من المعتزلة والجهمية - وأضرابهم كثير - يعلم كثير منهم - وإن كان بعضهم يجهل - كثير منهم يعلم أنَّ النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فسر القرآن وأن الله تعالى قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(١) فالنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إليه مهمة التبين، الذكر هو القرآن ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ﴾ فالتَّبْين للنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالقول وبالفعل وبالتقرير صلوات الله وسلامه عليه، مع ذلك تركوا هذه المعاني المضبوطة المحفوظة بالأسانيد وبدأوا في تحريفها، وهم في ذلك بين مُقلّ ومكثر، اتَّجه أسوأ من حرَّف من الباطنية كالدروز والنصيرية وأسلافهم الفاسدون في السابق حرَّفوا معاني كتاب الله عزَّ وجلَّ وزعموا - ولذلك سموا بالباطنية - زعموا أنَّ القرآن والسُّنَّة جميع المعاني الظاهرة لها ليست مرادة، ما المراد؟ المراد معنى باطن، ولهذا سمُّوا بالباطنية لأنهم ينتسبون إلى الباطن، فعبثوا عبثا عظيما جدا بالنصوص، حتى إنَّهم غيَّروا معاني العبادات العملية، الصلوات الخمس قالوا: هم خمسة أشخاص؛ علي وفاطمة وحسن ومحسن وحسين، هذه الصلوات الخمس عندهم، قالوا: هذا المعنى؛ هذا التفسير، ماذا فعلوا؟ حرَّفوا، وقالوا إنَّ مجرد ذِكْرِ هؤلاء يكفي عن الوضوء وعن غسل الجنابة وعن الصلاة لأنَّها هي الصلاة، فما حال المسلمين هؤلاء الذين يصلون؟ يقولون: هؤلاء بمنزلة البهائم، هؤلاء ليسوا شيئا، ولهذا

---

(١) النحل: ٤٤.

لاحظ الباطنية - قديما وحديثا - مِنْ أشرس الناس ومِنْ أشدهم ومِنْ أعظمهم فتكا بالمسلمين، لأنهم يَرون أنَّ المسلمين على غير الهدى والسبيل، ولهذا لما جاءت القرامطة؛ ماذا فعلوا بالمسلمين في مكة في الحج؟ قتلوا الحجَّاج ورموا جُثثهم في بئر زمزم ودُفِنَ وهلك في المسجد الحرام عدد كبير من الناس واجترأوا على الحجر الأسود وقلعوه من مكانه وذهبوا به إلى بلدهم في شرق الجزيرة لأنهم يستنكرون الحج، يقولون: الحج ليس هذا، ما هو؟ قالوا: الحج هو قصد - لأن الحج هو القصد - ليس قصد مكة، ولكنه قَصْدُ شيوخ الطائفة الباطنية، فالباطنية من أكثر مَنْ عبث بالمعاني، ولهذا أنكروا اليوم الآخر بأسره والجنة والنار وكل ما ورد في النصوص، ماذا فعلوا؟ حرَّفوا الكتاب.

المتكلمون من الجهمية والمعتزلة والأشعرية والماتريدية قطعا لم يبلغوا هذا المبلغ العظيم؛ لأنه من بلغ مثل هذا لا يُشك في ارتداده وكونه من غير المسلمين أصلا، لأن الباطنية ليسوا من المسلمين ولا يُعدَّون من الثنتين والسبعين فرقة أصلا؛ كالدروز والنصيرية وأضرابهم من الإسماعيلية لأنهم يعتقدون أصلا أنَّ دِيْن محمد صلّى الله عليه وسلّم منسوخ وأنه في كل سبعة أطوار يَجِدُّ إمامٌ يُغَيِّرُ ما كان عليه مَنْ قَبْلَه، ولهم في هذا أشعار خبيثة وعبارات معروفة، ولذلك يستحلون - عياذا بالله - حتى المحرمات، الزنى لا يرون حرمته، ويرون الخمر من الأمور - ليس فقط من الأمور المباحة - بل يرون أنها من الأمور التي يُتقرب ويُتعبد بها، فهم أمة لا شك أنهم ليسوا من المسلمين في قليل ولا في كثير، ماذا فعلوا؟ حرَّفوا، ممن حرَّف ولم يحرف الأشياء العملية وإنما حرفوا المسائل الاعتقادية - أو جملة غير قليلة من المسائل الاعتقادية – المتكلمون، وهم الجهمية والمعتزلة والأشعرية والماتريدية وأمثالهم ممن ركزوا بالذات على نصوص الأسماء والصفات كما سيأتينا إنْ شاء الله تعالى في واحدة من هذه المسائل، فصاروا يُغَيِّرُون معاني الأسماء والصفات، قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[1] يفسرون الاستواء بأنَّه الاستيلاء، قالوا: أي الرحمن على العرش استولى، طيب ماذا تفعلون بالنصوص والآثار الواردة عن الصحابة والتابعين، وأنتم لا تقولون في الصحابة والتابعين إلَّا خيرا وتترضون عنهم - لستم روافض ولا باطنية - ماذا تقولون في هذه المعاني التي

---

(١) طه:٥.

فسر بها الصحابة والتابعون رضي الله عنهم هذه الصفات وهذه النصوص الكثيرة - سواء في أبواب القـدر أو في باب الأسماء والصفات أو في أبواب أخرى خالفوا فيها الحق - انفتح على هؤلاء الذين حرفوا معـاني الصفات؛ انفتح عليهم الباب مع الباطنية ومع الفلاسفة الذين عبثوا بالـدين عبثـا تامـا، فلـما رد الجهميـة والمعتزلة وأمثالهم على الفلاسفة وعلى الطوائف الباطنية وغيرهم قـالوا: إنكـم حـرفتم كتـاب الله؟ قـالوا: وأنتم أيضا حرفتم، فإنْ كان التحريف باطلا فعندنا وعندكم، فإمَّا أن تَلْزَموا ما كان مَنْ قبلكم ممن لم يحرف وإنما أخذ النصوص على المعنى الظاهر الجلي الذي فسره به الصحابة رضي الله عنهم، وإلا فإنكم إذا نـسبتم إلينا الضلال بسبب أنَّا حرفنا الكلم عن مواضعه فقد حرفتم الكلم عن مواضـعه، فـإنْ قلـتم: إنَّ الـصلاة والزكاة مسائل أجمعت عليه الأمة ولا يمكن أنْ يكون معناهـا عـلى مـا ذكـرتم؟ أجـابهم أولئـك بقـولهم: والسلف قبلكم أجمعوا على أنَّ الصفات تُثبت ونصوصهم في هذا كثيرة جدا، فإنْ كان فعل الباطنية خطأ - ولا شك أنَّه خطأ بتأويلهم المسائل العملية كالحج والصوم والصلاة - فإنَّ فعلكـم خطـأ، ولهـذا قـال ابـن القيم رحمه الله تعالى بيانا لكون هـؤلاء لمـا فتحـوا عـلى أنفـسهم بـاب التحريـف الـذي يـسمونه تـأويلا لم يستطيعوا الجواب على أولئك الذين أوَّلوا مسائل الجنة والنار كالفلاسفة والباطنية وأضرابهم؛ أوَّلوا حتـى الجنة والنار وأوَّلوا المسائل العملية - كما قلنا - كالصلاة والعبـادات العمليـة، فقـالوا: إنَّ دربنـا ودربكـم واحد، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله على لسانهم: (إمَّا تأولنا وأنتم قد تأوَّلتم؛ فهاتوا واضح الفرقان، ألكـم على تأويلكم أجران حيث لنا على تأويلنا وزران!) يقول: قـالوا إنْ كـان التأويـل خطـأ علينـا فـأنتم أيـضا تأوَّلتم، أنتم تؤجرون على التحريف فيكون لكم أجران ونحن نأثم فيكون لنا وزران؟ نحـن جميعـا أوَّلنـا، فإما أنْ يُكف عن التأويل بالكلية - التأويل الذي معناه تحريف الكلم عن مواضعه - الحقيقـة أنَّـه تحريـف لكن لا يسمونه تحريفا؛ وإنَّما يسمونه بهذا الاسم التأويل، وهـذا يـدلك عـلى أنَّ هـذا البـاب لَّمـا فُـتح عـلى المسلمين لم يمكن إيصاده ولم يمكن غلقه، لأنه باب باطل، فكونك تقول سأقبل مـن الباطـل ربعـه، الـذي أخذ من الباطل ثلاثة أرباعه أو كله سيقول: أنت قبلت الربع كما قبلت أنا النصف أو ثلاثة أربـاع، فـسبيلنا واحد، فإما أنَّ السبيل واحد فنشترك جميعا في الخطأ وإما أنْ لا تخطئني وقد سلكت مـسلكي، الفـرق بينـي

وبينك أني أكثر منك في هذا الباب، لكنَّ أصل التحريف نشترك جميعا به - عياذا بالله - لهذا في الحقيقة لم يحسنوا الجواب ولا الرد على الفلاسفة، وانفتح عليهم هذا الباب وقالوا: إنَّ تأويل مسائل الجنة والنار يصعب، لم؟ قالوا: قالوا لكثرة النصوص الواردة فيها، فقالت الفلاسفة: أدلة العلو - علو الله عزَّ وجلَّ - التي أوَّلتموها أكثر وأشهر وأقوى دلالة حتى من مسائل الجنة والنار، فإذا تأوَّلتم أنتم العلو - وهو أكثر دلالة - فلا تستغربوا أنْ يتأوَّل غيرُكم ما هو دونه بالدلالة، ولهذا قال ابن القيم على لسانهم: (والله تأويل العلو أشد من تأويلنا بقيامة الأبدان)، يقول: تأويلكم أنتم يا معاشر المتكلمين لعلو الله - مع كثرة ما ورد من النصوص الدالة على أنَّ الله تعالى في العلو - أشد من تأويل القيامة، والحاصل أنَّ هذه طريقة أصلها من اليهود والنصارى، هم أهل التحريف وأهل التبديل، حرفوا الكلم عن مواضعه، ومما حرفوه ما يتعلق بالنَّبيّ عليه الصلاة والسلام لأنَّ ثمة نصوصا في كتبهم دالة على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فَحُرِّفَت هذه النصوص، الذين ورثوا هذه الخصلة الفاسدة ممن أتى بعدهم كما قلنا يتفاوتون فيها قلَّة وكثيرة، فأصلها خصلة جاهلية مأخوذة من اليهود والنصارى، والواجب أنْ يُتعامل في فهم النصوص على ما كان عليه النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، والعجب كل العجب أنْ توجد تفسيرات لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ويُرغب عنها، ويُذهب إلى تفسيرات المعتزلة أو الجهمية، إذا فسر النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لسنا بحاجة لأحد يفسر بعده، فتفسير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ هو الذي وُكِلَ إليه أصلا بيانُ الذكر كما قلنا في قوله عزَّ وجلَّ ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ المُبَيِّن في الأساس والأصل هو رسول الله ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ ثم كما قلنا: الصحابة ثم التابعون وهكذا، فالذين يرغبون عن مثل هذا إلى تأويلات المعتزلة والجهمية لا شك أنَّهم قد استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

المسألة السابعة والعشرون: تصنيف الكتب الباطلة ونسبتها إلى الله، كقوله ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾(١).

....

مِنْ ضمن خصال أهل الجاهلية الافتراء على الله، وافتراؤهم على الله كثير، ذَكَرَ منه في هذا الموضع نوعا، وهو أنْ يصنفوا الكتب الباطلة ثم ينسبون هذه الكتب الباطلة إلى الله تعالى، هذا فعل اليهود، ماذا أرادوا به؟ أرادوا به أن يشتروا ثمنا قليلا؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾(٢)، هذه الخصلة موجودة في اليهود وهي معلومة عنهم وطريقتهم؛ التوراة فيها مواضع كثيرة جدا وكذا الإنجيل لا يريدها اليهود ولهذا تقدم في الخصلة السابقة أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، فكانوا ينسخون، لا يأتون بالتوراة الأصلية، ينسخون في أوراق ويقولون هذه من كتاب الله عزَّ وجلَّ ولهذا في خبر الزانيين - لما زنى يهودي بيهودية - فقال اليهود - لأنَّهم يعلمون أنَّه نبي الله حقا -: اذهبوا إلى محمد فإنْ أفتاكم بالجلد والتحميم فخذوا به فإنه نبيّ - لأنهم يعلمون أنه نبيّ صلّى الله عليه وسلّم - وإذا أفتاكم بالرجم فلا تأخذوه، فنزل فيهم قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾(٣) فلمَّا أتوا للنَّبيّ عليه الصلاة والسلام قال: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(٤) فأتوا بالتوراة فلما قرأ القارئ ما في التوراة - وهو إلى الآن في التوراة - مِنْ حُكْمِ الزاني وجاء إلى آية الرجم ووضع يده عليها، فقرأ ما قبلها ثم تجاوز وقرأ ما بعدها، فأمره رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم أنْ يرفع يده؛ فإذا بآية الرجم تلوح، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما الذي حملكم على ذلك؟» ما الذي حملكم على أنْ لا تقيموا حد الرجم؟ فقالوا: نَصْدُقُكَ يا أبا القاسم، إنَّ الزنى كثر في أشرافنا فقلنا: لنجتمع حتى نضع عقوبة؛ فاجتمعوا وتركوا التوراة

---

(١) البقرة: ٧٩.

(٢) البقرة:٧٩.

(٣) المائدة: ٤١.

(٤) آل عمران: ٩٣.

وحُكْمَ الله الوارد فيها وصاروا يستبدلون ذلك بالعقوبات كالتحميم - يعني تسويد الوجه - والتشهير بالزاني بأنْ يُرْكَبَ على حمار ويُطاف به ويُشهَّر به، فأمر عليه الصلاة والسلام برجم اليهودية واليهودي الذين زنيا(١)، لأنهم إذا تحاكموا إلينا فإنه يجب أن يُقام فيهم حكم الله، فأحيا صلّى الله عليه وسلّم حُكم الله تعالى فيهم، فالحاصل أنهم يكتبون كتبا يزعمون أنها من عند الله عزَّ وجلَّ ويصنفون هذه الكتب، وكما قال عزَّ وجلَّ في طريقتهم في التعامل مع هذه الكتب: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾(٢) يأخذون على سبيل القراطيس، لا يأتون بالكتاب الأصل، وإنما ينسخون أوراقا مستقلة ﴿قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾ هل هذه الخصلة موجودة في أحد من المنتسبين للقبلة؟ نعم، يكثر عند المتصوفة ادِّعاء أنَّ الله عزَّ وجلَّ أعطاهم كتابا أمرهم أنْ يَبُثُّوْه في الناس، ومِنْ أشهر من ادعى هذه الدعوى صاحب الدعاوى الباطلة ابن عربي صاحب فصوص الحكم، فإنه يزعم أنَّ كتاب الفصوص قد دُفع إليه في المنام وأنه أُمر من قبل الرب سبحانه وتعالى بأنْ ينشر هذا الكتاب وهو كتاب في غاية الفظاعة ويُقَرِّرُ فيه - عياذا بالله - طريقة أهل وحدة الوجود الذين ينتهي قولهم إلى أنه لا يوجد شيء محرم أصلا، وأنَّ جميع ما على وجه الأرض من الاديان يُصَحَّح – نسأل الله العافية والسلامة - مِنْ عبادة اليهود وعبادة المجوس وأهل الأصنام، يزعم أن هذا الكتاب دُفع إليه من قِبَل الله عزَّ وجلَّ وأن الله تعالى أمره أنْ ينشر هذا الكتاب، وهكذا دعاوى كثيرة يدعونها فيما يصنفونه فيما يكتبون، فهذه من خصال أهل الجاهلية ينسبون أشياء إلى الله عزَّ وجلَّ وهم فيه كاذبون.

---

(١) صحيح البخاري (٣٦٣٥).

(٢) الأنعام: ٩١.

المسألة الثامنة والعشرون: أنهم لا يقبلون من الحق إلَّا الذي مع طائفتهم، كقوله ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْـزِلَ عَلَيْنَا﴾(١).

....

هذه من خصال أهل الجاهلية، صاحب الجاهلية لا يريد الحق من حيث هو؛ وإنما ينظر إلى - كما قلنا - ما يميل إليه من الحق، الشيء الذي يميل هو إليه من الحق يقبله، من ذلك أنَّ أهل الجاهلية لا يقبلون من الحق إلَّا ما يكون مع طائفتهم، أما إذا وَقَفوا على شيء من الحق ليس عندهم فإنهم لا يقبلونه، واستدل بقوله تعالى ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ﴾(٢) فيكفرون - اليهود - يكفرون بما أنزل الله تعالى على محمد صلّى الله عليه وسلّم مع أنَّ الذي في كتبهم إيجابَ الإيمان برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأنه قطعا على الحق لكنهم لا يريدون أنْ يقبلوا إلَّا ما كانوا عليه من الحق، أيضا مما يشتهونه - كما سيأتي - مما يشتهونه من الحق، لأن هناك أمورا من الحق يعلمونها - كما تقدم وكما سيأتي إن شاء الله تعالى - ومع ذلك لا يأخذون بها، وبه نعلم أنهم لا يقبلون من الحق إلَّا الذي مع طائفتهم إذا هَوَوه واشتهوه، هذا المعنى، فإذا جمعت الخصال - خصال أهل الجاهلية - وجدت هذه الخصلة تفهم هذا الفهم، لا يقبلون من الحق إلَّا الذي مع طائفتهم مما هووه واشتهوه، وإلا فثمة أمور من الحق يعلمونها لكنهم لا يعملون بها، لذا نبَّه أهل السُّنَّة وزرعوا في المسلمين أنَّ مَنْ رأى الحق وتبيَّن له - ولو على لسان خصمه - فإنه يجب أن يأخذ به، ولهذا قال أبو الدرداء - أو أُبَي رضي الله عنهم -: اقبل الحق وإن كان الذي جاءك به بغيضا بعيدا، لأنَّ أهل الانصاف يريدون الحق، فلو تبيَّن حق قال به مَنْ تبغضه ومن تخالفه فإنك لا ترده لأن الذي قال به ليس من أهل السُّنَّة، فعلى سبيل المثال: من رد من المنحرفين على الملاحدة وكان رده جيدا يقال: هذا مما أصاب فيه هذا الذي رد، يختلف الحال قطعا بين أنْ يُصوَّب في هذا الأمر وبين أنْ يُروَّجَ للكتاب، لأنَّ الترويج للكتاب شيء آخر، قد يظن العامي أنَّ صاحب الكتاب هذا من أهل العلم،

(١) البقرة: ٩١.

(٢) البقرة: ٩١.

لكن طلبة العلم وأهل العلم يقولون: هذا الكتاب مناسب مفيد، وردود صاحب الكتاب على الملاحدة أو على اليهود أو على النصارى أو على غيرهم من البراهمة أو البوذيين وأمثالهم؛ هذا الكتاب جيد، وصاحبه قد أجاد فيه وقد أحسن الرد، فلا يتركون الحق لأنَّ غيرهم قال به، بل يأخذون بالحق إذا تبيَّن، وقد ثبت عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنْ حبرا - وهو من اليهود - جاء إلى النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقال: يا محمد، إنكم تنددون وتشركون، قال: «وما ذاك؟»، قال: تقولون ما شاء الله وشاء محمد، وتقولون والكعبة - يعني وتحلفون بالكعبة -، فقال عليه الصلاة والسلام: «من حلف فليحلف بالله، وأمرهم أن يقولوا ما شاء الله ثم شئت»[(١)] أو كما قال عليه الصلاة والسلام، فلما قال كلمة من الحق لم يَرُدَّها عليه الصلاة والسلام بل بيَّن أنها من الحق، ولهذا في حديث أبي هريرة رضي الله عنه لما جمعوا زكاة الفطر في رمضان وجاء رجل يحثي منها فأمسك به أبو هريرة رضي الله عنه - لأنه في كل مرة يدعي أنَّ عنده ولدا - فلما قبض عليه في الليلة الثالثة وهمَّ أنْ يرفعه للنبي عليه الصلاة والسلام قال: دعني وأنا أخبرك بشي من الحق - وكانوا حريصين جدا على الخير - فأوصاه إذا أوى إلى فراشه أنْ يقرأ آية الكرسي، وأخبره أنه إذا قرأها فإنه لا يزال عليه من الله تعالى حافظ ولا يقربه شيطان، فلما أخبر النَّبيَّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «صدقك وهو كذوب»[(٢)] لأنَّ الشيطان يعلم أنَّ هذا المسلم إذا قرأ آية الكرسي لا يقربه، هذا شيء يعلمه الشيطان من واقعه؛ أنه إذا قرأ المسلم آية الكرسي فإنه لا يستطيع أنْ يدنو من هذا المؤمن، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «صدقك وهو كذوب» فَمَنْ قال الحق؛ فلا يُرَدُّ الحق لأنَّ القائل به ليس من أهل السُّنَّة، فإذا قال الحق؛ فالحق حق، ولا يمكن أن يتغير الحق وأنْ يرد الحق لأنَّ الذي قال به ظالم أو مبتدع او فاسق، الحق مقبول مادام قد وافق الصواب ووافق الحق وإنْ كان الذي قال به على خلاف السُّنَّة، ولهذا من طريقة أهل الجاهلية أنهم لا يقبلون من الحق إلَّا بالذي مع طائفتهم ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ وفي الذي أُنْزِلَ عليهم الأمرُ بالإيمان بالنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ومع ذلك لم يقبلوا، ولهذا قلنا: إنَّ

(١) صحيح. النسائي (٣٧٧٣). الصحيحة (١٣٦).

(٢) صحيح البخاري (٣٢٧٥).

هذه المسألة - أنهم لا يقبلون من الحق إلَّا الذي مع طائفتهم - ينبغي أنْ يُعلم أنها مقيدة، أنهم لا يقبلون من الحق إلَّا الذي مع طائفتهم مما يشتهونه ويهوونه، وإلا فعندهم حق تعمدوا تركه واجتنابه.

المسألة التاسعة والعشرون: أنهم مع ذلك لا يعملون بما تقوله طائفتهم كما نبَّه اللهُ عليه بقوله ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(١).

....

هذه يقول: مع ذلك - أنهم لا يقبلون إلَّا الحق الذي مع طائفتهم كما تقدم - أنهم مع ذلك لا يعملون بما تقوله طائفتهم، كثيرا ما يخالفون ما عليه الطائفة نفسها، قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ما المراد بالآية؟ المراد بالآية؛ أتجدون في التوراة قتل الأنبياء؛ أم إكرام الأنبياء وإعزازهم؟ هم يدَّعون أنهم على الحق وأنهم عاملون بالحق، فهل يجدون في التوراة الأمر بقتل الأنبياء؟ من أين أتوا بقتل الأنبياء؟ أدلَّهم على ذلك أنبياء الله؟ أَدَلَّهم على ذلك موسى؟ ولذلك الظاهر أنَّ الصواب - أنهم مع ذلك لا يعملون، وليس لا يعلمون - فاليهود يدَّعون الاتباع لما أنزل إليهم ومع ذلك يقتلون الأنبياء، فيقال لهم: قتلكم الأنبياء الذين تنتسبون - إلى موسى وأنبياء بني إسرائيل - هل قال لكم موسى: اقتلوا الأنبياء؟ لماذا قتلتم الأنبياء؟ فأنتم تقولون: لا نقبل الحق إلَّا الذي مع طائفتنا، والواقع أنكم لا تعملون حتى بالحق الذي مع طائفتكم لماذا؟ لأنه لن يعملوا بالحق مرة أخرى إلَّا بما يشتهون، وبه نعلم أنهم يجعلون الحق محصورا بطائفتهم ويزعمون أنهم لن يعملوا إلَّا بالذي مع الطائفة، ثم إذا دققت في أمرهم ونظرت فيهم وإذا بالحق الذي يقولون إنه في طائفتهم لا يعملون به، وإنما يعملون بما اشتهوا منه، وإلا فمن أين أتوا بقتل الأنبياء؟ أدلَّكم عليه التوراة؟ لا شك أنَّ هذا من دلائل أنهم يقولون القول ويدَّعون الدعوى ولكن واقعهم على خلاف ذلك.

---

(١) البقرة: ٩١.

المسألة الثلاثون: وهي من عجائب آيات الله أنهم لما تركوا وصية الله بالاجتماع وارتكبوا ما نهى الله عنه من الافتراق صار ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(١).

....

هذا أمر لا بد منه، وهي من الأمور العجيبة الدالة على عقوبة من حَادَ عن ما أمر به الله عزَّ وجلَّ به، وصية الله عزَّ وجلَّ هي الاجتماع كما تقدم في شرحه في موضعه، نَهْيُ الله عن الافتراق، ماذا فعلوا؟ تركوا الوصية بالاجتماع، والمنهي عنه من الافتراق رَكِبُوْه وتعمدوا أنْ يفترقوا، ما النتيجة؟ النتيجة للأسف هي التي تعانيها الأمة اليوم وقبل اليوم صار كل حزب بما لديهم فرحون، صار الناس أحزابا وشيعا، المعتزلة حزب والخوارج حزب والروافض حزب والمرجئة حزب والمخرفون من عبَّاد القبور وأمثالهم حزب، فصاروا أحزابا لأنهم تركوا ما أوجب الله تعالى عليهم من الاجتماع وركبوا طريق الافتراق فصار لا بد؛ لا بد ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: النصوص من شأنها أنَّها تجمع - نصوص القرآن والسُّنَّة - من شأنها أنها إذا عُمِل بها أنها تجمع الناس، فإذا تُرك شيء من النصوص افترق الناس إذا لم يبق هنا حق جامع يجمعهم.

السبب في الفُرقة هو هذا، النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لما بُعث كان الناس كما تقدم في جاهلية جهلاء، ما الذي جمع هؤلاء؟ جمعهم الكتاب والسُّنَّة كما تقدم ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾(٢) اجتمعوا على ماذا؟ على القرآن والسُّنَّة، فتركوا خرافاتهم وتركوا قناعاتهم الجاهلية وتركوا جملة من الأباطيل وعملوا بما في القرآن والسُّنَّة فاجتمعوا، فلما صارت الطوائف لاحقا، المعتزلة تترك النصوص الواردة في القدر وتترك النصوص الواردة في الصفات، والمرجئة تترك النصوص الواردة في الإيمان، والرافضة تترك أكثر النصوص الواردة في الإيمان وفي الصحابة وفي القدر فهم أشد الناس مخالفة، ما الذي حدث؟ صار كل حزب بما لديهم فرحون، ولهذا قلنا: إنه لا يمكن أن تجتمع الأمة بتاتا وأن تتوحد

---

(١) الروم: ٣٢.

(٢) الأنفال: ٦٣.

ولو بُذِلَتْ في هذا المليارات ولو جامل الناس بعضهم بعضا إلَّا إذا عادوا إلى الذي يجمعهم وهو القرآن والسُّنَّة، فإذا لم يعودوا إلى القرآن والسُّنَّة فهي عقوبة مستمرة حتى يعودوا إلى كتاب الله تعالى فيؤلف الله عزَّ وجلَّ بين قلوبهم كما ألف بين تلك القلوب المتنافرة، كان بين العرب من القتال والبغضاء والثارات القديمة الهائلة شيء هائل، حروب مستديمة سنوات وقبائل متباغضة متناحرة ثم ألَّف الله تعالى بينهم بالقرآن والسُّنَّة، الفُرقة التي دبَّت إلى الأمة هي بسبب ترك شيء من النصوص، ولهذا لن تجتمع الأمة اجتماعا سليما حقا إلَّا إذا عادوا إلى هذه النصوص، ولهذا ذَكَرَ أنَّ هذه من عجائب آيات الله، وذلك لأنَّ الله تعالى لا يمكن أنْ ينصر أهلَ فرقة، أهل الفرقة لا ينصرون، وحتى لو نصروا ينصرون نصرا جزئيا، ولا يلبثون أنْ تكون الخصمة بينهم، ولهذا لا تقوم لهم قائمة، وحتى لو وجد لهم كيان وقوة في فترة معينة يكونون كما قيل: النار تأكل بعضها إنْ لم تجد ما تأكل، تجد أنَّ أهل الفُرقة هؤلاء يتنازعون حتى فيما بينهم، ولهذا كون الناس الآن كل حزب بما لديهم فرحون؛ بسبب ما قبله، تركوا وصية الله تعالى بالاجتماع، ارتكبوا ما نهى الله عنه من الافتراق، فالنتيجة المؤكدة أنْ يصير كل حزب بما لديهم فرحون، ولهذا يجب أنْ تُجمع الأمة على الكتاب والسُّنَّة بفهم السلف الصالح رضي الله عنه، ولهذا قلنا: إنَّ من مهام طالب العلم الكبيرة في مثل هذا الزمن - الذي أكرمه الله تعالى بالسُّنَّة - أنْ يعتني عناية بالغة ببيان العقيدة من خلال كلام الرسول صلّى الله عليه وسلّم ومن خلال كلام الصحابة ومن خلال كلام التابعين، فإنَّ هذا من أكثر ما يجمع الأمة، مِنْ أكثر ما يجمع الأمة أن يُجمع الحق من قِبَلِ مَنْ هم محل إجماع الأمة، فإذا نقلت كلاما عن بعض العلماء المتأخرين تجد أنَّ كثيرا من الناس لا يقبل، فتقول: أنا أترك النقل عن هؤلاء ليس لأنهم ليسوا أئمة، هم والله أئمة وعلى السُّنَّة والحمد لله، ولكن أنت تستنكر كذا وكذا مما نقلتُه عنهم، خذها من كلام عمر ثابتة في البخاري، خذها من كلام الصديق أو من كلام عثمان أو من كلام علي أو من كلام الصحابة أو من كلام التابعين واجمع هذا لهم، فإنَّ هذا من أكبر ما يجعل من يريد الحق يعود إليه، لأن بعض من جانبوا الحق - من أهل البدع والضلال - لا شك أنهم جانبوه جهلا، فإذا قيل: إنَّ هذا ليس اعتقاد فلان وفلان بل اعتقاد الصحابة رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم تغيَّر وضعهم، لهذا ترك أناس كثيرون باطلهم بعد أن

يُبيِّن لهم أنَّ هذا هو حقيقة قول الله وقول الرسول صلّى الله عليه وسلّم وهو فهم الصحابة رضي الله عنهم، ولذا يقول شيخ الإسلام رحمه الله - لما جاء الكلام عن الإمام أحمد - قال: مذهب السلف قبل أنْ يخلق اللهُ أحمد ومالكا وأبا حنيفة والشافعي، الحق قبل هؤلاء، الحق قديم، جاء به النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وجاء به الصحابة رضي الله عنهم، وإنما نَبُلَ وارتفع قدرُ أئمة الإسلام لأنهم استمسكوا بالحق فقط، أما الحق فهو قبلهم قطعا، لا يُقال: إن الحق جاء به أحمد - حاشا لله - الحق قبل أحمد، ولهذا أيضا قال شيخ الإسلام: لم يأخذ أهل السُّنَّة من أحمد بن حنبل حرفا واحدا في الاعتقاد، لأن الاعتقاد لا نقول: يا أحمد بن حنبل ماذا نعتقد؟ لا، ما يمكن أن يقال هذا لا لأحمد ولا لغير أحمد، الاعتقاد في القرآن والسُّنَّة وبيَّنه النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وفهمه الصحابة رضي الله عنهم لهذا قال: لم يأخذ أهل السُّنَّة عن فلان عقيدة، العقيدة ما تؤخذ من فلان، فلان يُبيِّن العقيدة، يستدل على العقيدة، لكن نقول يا فلان ماذا نعتقد في كذا؟ يقول: والله اعتقدوا كذا، لا يمكن أن تقبل مثل هذه الأمور من شخص إلَّا إذا دلل عليها فقال: قال الله، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، هكذا قال الصحابة رضي الله عنهم والتابعون، فالحاصل أنَّ العودة الحقيقية للأمة إلى ما كان عليه السلف الصالح رضي الله عنهم هي التي تُزيل هذا الوضع الحاصل في الأمة، ولهذا لاحظ أعداء الله من اليهود ومن النصارى أشد ما يخافون من مذهب السلف، والله لا يخافون من الروافض ولا من الخزعبلات والخرافات الصوفية، بل هم يدعمونها وإن لم يشعر كثير من الصوفية، نابليون في فترة الاحتلال الفرنسي لمصر كان يدعم التصوف ويُظهرُ الدروشة ويحضر مع المتصوفة في الموالد، فلما عرف بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى - والأوراق موجودة - كتب إلى الفاتيكان يُحذِّر من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، هذه الدعوة ستعود بالناس إلى ما كان عليه الصحابة والتابعين، ينبغي أن تُحذر هذه الدعوة، أما الدروشة والكلام الفارغ هذا كان معهم، وكان يدخل معهم في الموالد وفي الخزعبلات؛ لأنه يعلم أن مثل هذه الأمور هي التي تُضعف الأمة أصلا، إنما يقوي الأمة أن تعود إلى ما كان عليه السلف الصالح الذين فتح الله لهم البلاد ونصرهم تعالى النصر المؤزر، أما الدروشة والكلام الفارغ والخرافات فهذه قرة أعينهم يفرحون بها، ولهذا هناك مصنفات في طريقة المحتلين مما يُسمَّون

بالمستعمرين في طريقتهم الخبيثة في دعم التصوف والخزعبلات والخرافات، ومناصرتهم للأوضاع التي تكون على هدي السلف، وبَثُّهم قدر ما يستطيعون مما يسمونه بالإسلام الحديث الجديد في نظرهم الذي يتماشى مع الغرب، لأنهم يعلمون أنَّ الإسلام أعظم وأكبر من الجبال فلا يمكن أن يُهدم، فبدلا من أنْ يصنعوا المستحيل قالوا: ليغير هذا الإسلام ويؤتى بإسلام يتناسب مع ما نحن فيه في الغرب من البلايا والماديات التي نحن فيها حتى يمكن أنْ يُنشر ويُبث بين المسلمين أما أنْ يعاد بالناس إلى ما كان عليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم والصحابة والتابعون رضي الله عنهم لا شك أنَّ هذا هو أشد وأنكى ما يخافون.

المسألة الحادية والثلاثون: وهي من أعجب الآيات أيضاً؛ معاداتُهم الدين الذي انتسبوا إليه غاية العداوة، ومحبتهم دين الكفار الذين عادوهم وعادوا نبيهم وفئتهم غاية المحبة، كما فعلوا مع النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لما أتاهم بدين موسى عليه السلام واتبعوا كتب السحر، وهي من دين آل فرعون.

....

يقول: من خصال أهل الجاهلية كاليهود وهي من العجائب العجيبة جدا، هذا الدين الذي انتسبوا إليه، دين من؟ يقولون: دين موسى، العجيب أنهم عادوه، كيف عادوا دين موسى؟ لأن الذي جاء به النَّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم في التوحيد - كما قلنا - هو الذي عليه موسى وهو الذي عليه ابراهيم وهو الذي عليه نوح وهو الذي عليه آدم عليهم جميعا صلوات الله وسلامه، فهم متفقون - كما قلنا - في الدين، ثم إنَّ موسى عليه الصلاة والسلام وعيسى عليهم الصلاة والسلام جميعهم؛ الأنبياء قبل محمد صلّى الله عليه وسلّم أمروهم بأنْ يتبعوا محمدا صلّى الله عليه وسلّم، فالذي جاء به محمد صلّى الله عليه وسلّم هو مما أوصتهم به أنبياؤهم وكثير مما فيهم يلتقي حتى في الأحكام مع الأحكام التي كان عليها موسى وكان عليها عيسى عليهم جميعا صلوات الله وسلامه، يقول: فمن عجائب الآيات أنهم عادوا الدين الذي انتسبوا إليه هم غاية العداوة وأحبوا دين أعداءهم من الكفار الذين عادوهم غاية العداوة وهم فرعون وطائفتهم، وذلك أنهم اعتاضوا بكتب السحر – كما تقدم -، وكتب السحر من فرعون وقومه، وتركوا ما جاء به محمد صلّى الله عليه وسلّم مما يلتقي ويتفق مع دين موسى عليه الصلاة والسلام، ولهذا كان الكفر بمحمد صلّى الله عليه وسلّم كفرا بموسى وكفرا بعيسى وكفرا بجميع الأنبياء، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾[1] لم يبعث لهم إلَّا رسول واحد، ومع ذلك بيَّن تعالى أنهم كذبوا جميع المرسلين مع أنهم لم يدركوا هودا ولا شعيبا ولا صالحا ولا ابراهيم ولا محمدا ولا عيسى عليهم الصلاة والسلام، كيف كذبوهم؟ لأن تكذيب نبي واحد هو تكذيب للبقية، حينما كذبوا نوحا فيما أمرهم به من التوحيد، موسى يدعو للتوحيد، إبراهيم يدعو للتوحيد، محمد يدعو للتوحيد والجميع يدعون صلوات الله وسلامه عليهم

(١) الشعراء:١٠٥.

للتوحيد، فمن كذب نوحا حين أمره بالتوحيد فهو مكذب لبقية الرسل الذين أتوا من بعده بالتوحيد، فمن كذَّب نوحا فيما أمره بالتوحيد فهو مكذب لبقية الرسل الذين أتوا من بعده بالتوحيد، فالحاصل أنَّ هذا من طرائق أهل الجاهلية أنهم يعادون الدين الذي ينتسبون إليه، وهذا من صنيع اليهود ويحبون دين أعدائهم من قوم فرعون الذين كان السحر فيهم منتشرا ومُستشريا، فمالوا إلى طريقة أعدائهم وتركوا الدين الذي ينتسبون إليه.

المسألة الثانية والثلاثون: كفرهم بالحق إذا كان مع من لا يهوونه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾(1).

....

هذه قريبة مما تقدم أيضا، كفرهم بالحق إذا كان مع من لا يهوونه، تقدم أنهم لا يقبلون من الحق إلَّا الذي مع طائفتهم، هنا يكفرون بالحق لأنهم لا يحبون الذي يقول، ولا يهوونه ولا يميلون إليه، فردوا الحق الجلي البيِّن بعد أن تبين واتضح لأن الذي قال به ممن يبغضونه ولا يحبونه، فصار الحق بهذه الطريقة خاضعا للأذواق وللأهواء، فإذا أبغض فلانا لم يقبل الحق، والحق أرفع وأعلى من أن يكون مربوطا بهذه الأهواء وبهذه النَّزَعَات، وهكذا هذه الخصلة دالة على فساد ما هم فيه من الاعتقاد ودالة أيضا على ضعف عقولهم، لأن الذي لم يقبل الحق لأن فلانا قاله - مع علمه أن الذي قاله هو حق - لا شك أنه مع فساد مذهبه وطريقته فهو دال على فساد عقله.

قوله تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ النصارى يعلمون أنَّ اليهود معهم بعض الحق واليهود يعلمون أنَّ النصارى بعض الحق، لكنهم فيما بينهم يردون الحق لأجل أن أولئك قالوه، فترد النصارى الحق الذي مع اليهود، ويرد اليهود الحق الذي مع النصارى، ويردون كلهم جميعا الحق الذي جاء محمد صلّى الله عليه وسلّم.

---

(1) البقرة: ١١٣.

المسألة الثالثة والثلاثون: إنكارهم ما أقرُّوا أنه من دينهم، كما فعلوا في حج البيت فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾(١).

....

الآية - كما قال ابن جرير رحمه الله تعالى - يُراد بها اليهود والنصارى لاختيارهم ما اختاروه من اليهودية والنصرانية على الإسلام، لأن ملة إبراهيم هي الحنيفية المسلمة، كما قال الله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٢) هذا موجز كلامه رحمه الله تعالى.

اليهود رغبوا عن دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، يقال: رغب عن كذا: إذا أبعد عنه ولم يرده، يقال: رغب في كذا: إذا مال إليه وأراده، اليهود يَدَّعون أنهم على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك يرغبون عن ملته عليه الصلاة والسلام، تعجب الله من سفاهة هؤلاء ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ لأنَّ إبراهيم على الحق المبين وقد أرسله الله تعالى، وما أرسله إلَّا بالحق، فالذي يرغب عن هذا الحق سفيه، قد سفه نفسه.

يبقى في كلام الشيخ موضع وهو قوله كما فعلوا في حج البيت، اليهود لا يُقرُّون بالحج ولما حُوِّلَتِ القبلة إلى الكعبة أنكروا ذلك، لأنهم يرون أنَّ الكعبة لا تستقبل ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾(٣) فيحتمل أنَّ في كلام الشيخ هنا اختصارا وهو أنهم يزعمون أنهم على ملة إبراهيم ومع ذلك ينكرون ما هو معلوم من دينه كالحج، هذا الذي يظهر لأنهم لا يُقِرُّون بالحج ولا يُقِرُّون باستقبال القبلة، فالحج للكعبة التي بناها إبراهيم بنفسه ومع ذلك ينكرون الحج وهو من دين إبراهيم، هذا الذي يظهر في المراد بهذه المسألة.

---

(١) البقرة: ١٣٠.
(٢) آل عمران:٦٧.
(٣) البقرة: ١٤٢.

المسألة الرابعة والثلاثون: أن كل فِرقة تَدَّعِي أنها الناجية، فأكذبهم الله بقوله ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]، ثم بيَّن الصواب بقوله ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[2].

....

هذا لا شك أنه يدَّعيه كل أحد، فاليهود ادَّعوا لأنفسهم أنهم هم الناجون، والنصارى يدَّعون هذا لأنفسهم وهكذا فِرَق الضلال، أخبر صلّى الله عليه وسلّم أنَّ هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة أو على ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلَّا واحدة، هذه الواحدة هي الناجية، فجميع الفِرَق تدَّعي أنها هي الناجية، فالرافضة يدَّعون أنهم الناجون، والمعتزلة يدَّعون أنهم هم الناجون، والخوارج يدعون أنهم هم الناجون، والنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد بيَّن هذه الناجية فليس أمرها عسرا، ولهذا من فقه الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم لما أخبر صلّى الله عليه وسلّم «أنَّ هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة» لم يسألوا عن الفرق الهالكة، لأنَّ الهلكى كثير، قال: «إلَّا واحدة»، قالوا: من هي؟ أما الهلكى فكثير جدا، فمن سلك مسلك أهل الكفر من سلك مسلك أهل الرهبنة والفساد ومن خرج عن الملة ومن ابتدع ومن ضل، هؤلاء خرجوا عن مسلك أهل النجاة، فسألوا عن الفرقة الناجية، فقال: «هي الجماعة» وفي لفظ قال صلّى الله عليه وسلّم: «هم من كانوا على مثل ما أنا عليه وأصحابي»[3] فالناجون واضحون بحمد الله بيِّنون جليون كما قال صلّى الله عليه وسلّم: «لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق» كل أحد يدَّعي أنه هذه الفرقة الناجية حتى الرافضة، الرافضة أبعد الناس عن الجماعة وأبعد الناس عن أن يكونوا على ما كان عليه النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه لأنهم يُكَفِّرون الصحابة أصلا، ومع ذلك يدَّعون أنهم هم الناجون، فادِّعاء كل فرقة أنها هي الناجية هذا أمر مشترك، ما الذي يحسمه ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ المسألة ليست مسألة ادِّعاء، إنما المسألة مسألة برهان ومسألة تدليل، أنْ تدلل، جميع المنسوبين إلى القبلة يتفقون على أن محمدا صلّى الله عليه وسلّم على الصراط المستقيم، يكفي هذا، هل ما أنت عليه هو ما عليه الرسول صلّى الله عليه

(١) البقرة: ١١١.

(٢) البقرة: ١١٢.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (١٠)، وقال الحافظ العراقي رحمه الله في المغني (ص١١٣٣): (وأسانيدها جياد).

وسلّم؟ كلهم أيضا يقولون: نعم، نقول: هاتوا البرهان، هاتوا الأسانيد التي تُسندها إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دالةً على أنَّ ما تعتقده وما تقوله هو الحق، نحن نعطيك الأسانيد التي صنفها مصنفو السُّنَّة رحمة الله تعالى عليهم وحفظ الله تعالى بها العقيدة منقولة عن الصحابة عن نبيهم صلّى الله عليه وسلّم، ونبيهم قد جاء به عن جبريل عن ربه تعالى، هاتوا برهانكم، ولهذا إذا قيل للمخرفين من الصوفية: هاتوا برهانكم، هاتوا أسانيدكم، قالوا: عندنا كشوف وأذواق وأمور تقع في قلوبنا، هذه أمور تتفق للمسلم والكافر فيقول: وقع في قلبي كذا وأنه هو الحق، هذا كل أحد يدعيه، لكن أوصل هذا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا يجدون قطعا، بل يهزؤون بمن يقول هذا فيقولون: إنَّ عِلْمَكُم هذا تأخذونه ميتا عن ميت، ونحن نأخذ عِلْمَنَا عن الحي الذي لا يموت، من أين أتاك العلم؟ يقول: يقع في خاطري، وينكشف لي انَّ الحق كذا، ولماذا لا يكون هذا من وسوسة الشياطين - وهو واقع كما بيَّن أهل العلم -؟ الوساوس يلقيها الشيطان في قلوبهم فيظنون أنها من عند الله عزَّ وجلَّ، ويدعي هذا كل أحد، اليهود يدعون أنَّ عندهم من المعارف التي يجدونها والأذواق والنصارى بل والبوذيون والوثنيون، هذا أمر يدعيه كل أحد، فهاتوا برهانكم، قال: ثم بيَّن الصواب بقوله ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾(١) هذان شرطا قبول العبادة إذا وقعت من مؤمن، الشرط الأول: أن يُسلم وجهه لله عزَّ وجلَّ، وإسلام الوجه لله عزَّ وجلَّ يراد به إخلاص الدين لله تعالى، قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي مُتَّبِع للنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فإسلام الوجه يكون بإخلاص العمل لله عزَّ وجلَّ وأنْ لا يريد به إلَّا رب العالمين ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ كيف يكون محسنا؟ لا يكون محسنا إلَّا إذا كان على طريقة النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيكون قد أحسن وسلك الصواب، أما إذا أتى بشيء من تلقاء نفسه فيقال: أساء؛ ابتدع؛ ضل، فما أبعده عن الإحسان، إذًا هذه الآية فيها - كما بيَّن ابن كثير - فيها شرطا قبول العمل، وهكذا قوله تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾(٢) أيضا هذه الآية فيها شرطا قبول العمل، متى يكون العمل

(١) البقرة: ١١٢.

(٢) الكهف: ١١٠.

صالحا؟ إذا كان على هدي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ أي لِيُخْلِص ولْيُرِد الله تعالى بعبادته، أيضا هذه الآية فيها شرطا قبول العمل، وهذا من المفيد لطالب العلم، نحن نعلم أنَّ شرطا قبول العمل - أن للعمل شرطين - الإخلاص والمتابعة، لكن ما الدليل على الشرطين من كتاب الله تعالى؟ هذه الآية وهكذا الآية الأخرى التي ذكرنا.

المسألة الخامسة والثلاثون: التعبد بكشف العورات، كقوله ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾[1].

....

كان هذا من طرائق أهل الجاهلية أنهم يتعبدون بكشف العورات - عياذا بالله -، وكانوا يفعلون هذا أيضا عند الكعبة، إذا أتى الواحد منهم إلى الحج أو العمرة يقول: هذا الثوب قد عصيت الله تعالى فيه؛ فلا أطوف فيه، فإما أنْ يأخذ ثوبا جديدا ويطوف ثم إذا طاف نبذه ورماه ولا يتعرض أحد بعد ذلك لهذا الثوب، وإما - والعياذ بالله - أن يطوف عاريا؛ إلَّا أنْ يكون أحد القرشيين من أهل مكة يعيره ثوبا يطوف فيه، خرافات جاهلية خزعبلات، فكانوا يطوفون عراة - حتى النساء عياذا بالله - تطوف عاريات، فكن يطفن بالليل حتى لا يرين، فكانت امرأة منهن تقول - عياذا بالله لما طافت بالبيت عارية -: اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله، تضع نسعة على فرجها والباقي – عياذا بالله – تطوف متعرية، تقول: اليوم يبدو بعضه أو كله؛ وما بدا منه فلا أحله، كلام فارغ، إذا - عياذا بالله - تعرَّت؛ وهكذا الرجال إذا تعرَّوا؛ فالذين في المسجد يطوفون يرون هذه، وما الذي يجعل الجاهليَّ يغض البصر، فالحاصل أنهم يتعبدون بكشف العورات، وما تزال هذه الخصلة الجاهلية موجودة في عدد من الطوائف الوثنية كالجينيَّة وأمثالهم - عياذا بالله - يستمرون في التعري، قبحهم الله ولعنهم، في تعر دائم، فزعماء الطائفة الجينية في الهند هؤلاء لا يلبسون ثيابا نهائيا، يتعبدون تعبدا بالتعري، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾[2] سمى الله تعالى كشف العورة فاحشة، وهذا يدلك على أنَّ كشف العورة من الأمور العظام، ادَّعوا دعوتين في فعلهم هذا: قالوا: وجدنا عليها آباءنا، يعني هذه الخصلة الخبيثة من التعري كان عليها آباءنا، وقد تقدم أنهم يحتجون بآبائهم في كل شيء، ثم افتروا على الله تعالى أنَّ الله أمرهم بها ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾[3] وهذا من الافتراء على الله وعلى دينه، والله تعالى لا يأمر بالفحشاء كما بينت بقية

(١) الأعراف: ٢٨.

(٢) الأعراف: ٢٨.

(٣) الأعراف: ٢٨.

الآية ﴿قُلْ إِنَّ اللهَّ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهَّ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(١) فنسبوا هـذا إلى الـشرع وهـذا مـن الباطل، الله تعالى لا يشرع مثل هذا الشر ومثل هذا الفساد.

في زمنك هذا لما انقلبت المفاهيم صارت البلدان الأجنبية ترى أن التعري او شـبه التعـري أمـر راجـع لاختيار الشخص فله أنْ يفعل ذلك، ويرون أنَّ هذا من الحرية وأنَّ هذا من إعطاء الانسان حقوقـه، ولهـذا صار هذا البلاء والفساد منتشرا فاشيا فيهم إما بأن لا يلبسوا من الثياب إلَّا أقل ما يستر العورة- عياذا بالله - وإلا بأن يتعروا تعريا تاما - نسأل الله السلامة والعافية - ويتظـاهرون بمثـل هـذا ولا يـرون أنَّ في هـذا شيئا يدل على المنقصة، وهذا كما قلنا ونقول دائما يدلك على أن الوضـع الموجـود في الـبلاد الغربيـة وضـع الجاهلية، الجاهلية تلتقي في جملة من الخصال، فحين يرى الانسان أن التعري أمر معتاد وأنه داخـل ضـمن ما يسميه بنطاق الحرية؛ فلا يمكن إلَّا أن يكون جاهليا، وكان أهل الجاهلية العربية لا يأنفون مـن التعـري ولا سيما عند العمل، عندما يعملون ويحملون مثلا الأشياء الثَّقال قد يلقي أحدهم إزاره ولا يكترثون بأمر التعري فجاء الشرع العظـيم بـستر العـورات، ومـن أعظـم وأفحـش وأقـبح المنكـرات التـساهل في أمـر العورات؛ لأنه يؤدي إلى الفحش وانتشار الزنى - عياذا بالله - والفساد، ولهذا أيضا جـاء الـشرع بتحديـد أمر العورة، فليس الأمر فقط في العورة المُسمَّاة بالعورة المغلظة لأنَّ هذه في فطـر العقـلاء دائـما لا ينبغـي أن تظهر، لكن حتى غير المغلظة كالفخذ هذه لا يصح أنْ تُبدى، فالرجل من سرته إلى ركبته لا يصح أنْ يبـدو منه شيء، لو أنه كان مثلا في موضع يقلُّ فيه الثياب يقال: لا بد أنْ تستر ما بين السرة إلى الركبـة، فيعمـد إلى هذا الموضع لا بد أنْ يُستر، فإن كان عنده ثياب أرفع كـما كـان الـصحابة رضي الله عـنهم يعلقـون القطعـة الواحدة من الثوب، يعني ما عند الواحد منهم إلَّا ثوب فقط، ومعنى الثوب قطعة قماش يأخذها رضي الله عنهم وأرضاهم فيمسكها بيده خشية أن تبدو عورته فيعلقها برقبته، ما عنده إلَّا هذا يـضعه، يعنـي هنـاك إزار وهو الذي يستر النصف الأسفل من الجسم، والأعلى الذي يوضع على الظهـر يـسمى رداء كـالمحرم، المحرم يحرم في إزار وهو الذي يستر به النصف الأسفل من جسده، والرداء هو الذي يكون على الجسد من

(١) الأعراف: ٢٨.

الأعلى، فإذا لم يجد إلَّا قطعة واحدة - كما يكون في حال الجوع وفي حال القلّة - فلا بد أن تستر عورتك، فيستر ما بين السرة إلى الركبة، فإن وجد ما هو أكثر من ذلك فإنه ينستر، ويضع - كما فعل الصحابة - كانوا يعلقون قطعة القماش هذه في أعناقهم ويجعلونها تتدلى فتصل إلى نصف الساق منهم، فجاء الشرع بالتغليظ الشديد في أمرِ العورات والتساهلِ في كشفها، فمن وجد يتعمد أن يُظهر عورته؛ لا شك أنه يجب أنْ يُعاقب شرعا بعقوبة تردعه، إذا لا يُتصور أن يفعل هذا إلَّا رجل غير سوي - غير عاقل - إما أنَّ في عقله شيئا أو في ذوقه ومزاجه - والعياذ بالله - شيئا ولا يجوز أن يُترك مثل هؤلاء يجهرون بمثل هذا، ولهذا من يلبسون مثل هذه الملابس التي تظهر منها أنصاف الفخذين ونحوها يجب شرعا أن يؤدبوا ولا يحل أنْ يُمكنوا ويمشوا بين المسلمين، بل إن هذا ليس من هدي المسلمين في قليل ولا في كثير، يجب أنْ يُوقف مثل هؤلاء وأن يُحالوا إلى شرع يؤدبون عليه وتؤخذ عليهم العهود أنْ لا يفعلوا مثل هذا، فإنَّ ابداء مثل هذه العورات لا شك أنه مؤذن بانتشار الفاحشة، لأنَّ إظهار الفخذين؛ الناس - نسأل الله العافية والسلامة - فيهم من مزاجه فاسد لا يأنف - نعوذ بالله من الزيغ والضلال - لا يأنف من اللواط، فإذا وجد مثل هؤلاء الفاسدون المفسدون وصاروا يمشون بمثل هذه الطريقة قد بدت أنصاف أفخاذهم فلا ريب أنَّ هذا قد يُشعل هذه الفتنة، فالواجب أن يُحال بين هؤلاء وبين مثل هذه الملابس، وقد كان صلّى الله عليه وسلّم أحبُّ شيء إليه القميص، القميص هو هذا الذي تلبسه، القميص المقصود به؛ كثير من الناس يظن أنَّ القميص إذا أُطلق قميص النوم، القميص لغة هو ذو الأزرار الذي يكون منه الفتحة هذه التي يُدخل منها الرأس، فكلمة القميص هو هذا، وكان النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أحبُّ شيء إليه القميص، وجاء في الحديث عنه أيضا عليه الصلاة والسلام أنه قال: «فصل ما بيننا وبين أهل الكتاب العمائم القلانس»(١) القلانس هي الطاقية هذه والعمامة هي التي تكون غطاء للرأس، فهذه من خصال المسلمين التي ينبغي أن تكون فيهم، فيتفاوت الناس، فمثل ملابس الإخوة الآن الأفارقة تُعَدُّ قميصا، لأنَّ القميص هو ذو الأزرار؛ فيتفاوت، يعني هذا يلبس بهذا الشكل، كل هذا سليم، ما فيه إشكال، لأنَّ هذا نوع من أنواع

(١) ضعيف. أبو داود (٤٠٧٨). ضعيف الجامع (٣٩٥٩).

القميص وهكذا ينبغي ولا سيما طلبة العلم ينبغي أنْ يظهر عليهم أمر لبس العمائم والقلانس وأنْ لا يكونوا مثل عوام الناس الذين يمشون هكذا قد حسروا عن رؤوسهم، فإنَّ الحسر عن الرأس هذا كان من العقوبات التي كان يُعاقب عليها الناس قديما، وكان عمر رضي الله عنه عندما أراد أن يُعاقب صبيغا حسر عن عمامته، هذا نوع من الأدب؛ أنْ يحسر عنه حتى يبدو رأسه، قد يتفاوت الناس وبعض الجماعات في هذا، لكن مثل طالب العلم ينبغي أن يكون له هديه وسمته وطريقته لأنه محل أسوة.

المسألة السادسة والثلاثون: التعبد بتحريم الحلال، كما تُعُبِّدَ بالشرك.

....

التحريم والتحليل حق الله عزَّ وجلَّ، هو الذي إليه التحريم والتحليل سبحانه وتعالى، ولا يحل بتاتا أنْ يُدخل في هذا الباب إلَّا بدليل، فلا تُحَرَّم على الناس إلَّا ما حرم الله، ولا تبح للناس إلَّا ما أباحه الله، فمن عكس وحرَّم ما أحل الله أو أحل ما حرَّم الله فقد شرع، شرع ما لم يأذن به الرب سبحانه وتعالى ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾(١) الجاهليون سواء من أهل الكتاب أو من عرب الجاهلية حرَّموا شيئا كثيرا من الطيبات قال تعالى: ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾(٢) وصاروا يتشهون ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾(٣) على أي أساس، هكذا ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾(٤) كما قال عزَّ وجلَّ في بقية الآية، هذا من الضلال وعدم الهدى، فمن الضلال المبين تحريم الحلال، فإذا تُعبد بتحريم الحلال فهذا ابتداع عظيم جدا، فالحلال لا يجوز أنْ تتعبد بتحريمه، هناك فرق كبير بين أنْ لا ترغب في الحلال، لا تحب مثلا الحليب واللبن، لا تشتهيه نفسك هذا إليك، لكن أنْ تحرمه لا يجوز، وإذا كان هذا الذي حرمته معلوما من الدين بالضرورة فهذا ارتداد، ولو أن انسانا قال: إنَّ الخبز محرم؛ يكفر، لأنه قد حرم أمرا معلومة إباحته من الدين، فمن حرم الحلال البيِّن المعلوم حرمه وقال إنَّه لا يجوز أن يُتناول أو يؤكل فلا شك أنه قد حرم ما أحل الله، فإذا تعبد بتحريم ما أحل الله فهذا من خصال أهل الجاهلية، يقول: كما كانوا يتعبدون بالشرك، يشركون بالله تعالى غيره من الأنبياء والصالحين ويزعمون أنهم يتقربون إلى الله بذلك، فمن تقرب بالشرك لا يُستغرب عليه أنْ يتقرب بتحريم الحلال، فالحاصل أنَّ تحريم الحلال أو إباحة الحرام لا يحل بتاتا، وهذا إلى الله تعالى، فمن عكس في مثل هذه الامور فلا شك أنه يكون قد شرع للناس ما لم يأذن به الله.

---

(١) الشورى: ٢١.

(٢) الأنعام: ١٤٠.

(٣) الأنعام: ١٣٩.

(٤) الأنعام: ١٤٠.

المسألة السابعة والثلاثون: التعبد باتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله.

....

هذه من طريقة أهل الكتاب قبلنا، قلنا: إنَّ الأحبار هم علماؤهم والرهبان هم عُبَّادُهم فحرموا لهم حلالا، وأحلوا لهم حراما، فتعبدوا لله عزَّ وجلَّ بأنْ أطاعوهم في ذلك، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾(١) ، جاء في الحديث أنَّ عديَّ بن حاتم رضي الله عنه انتهى إلى النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو يقرأ هذه الآية؛ فقال: ما عبدناهم! – يعني ما كنا نعبدهم العبادة المعروفة هذه - فقال عليه الصلاة والسلام: «أليس يُحلون لكم الحرام فتستحلونه؛ ويحرمون عليكم الحلال فتحرمونه؟»(٢) فقال: بلى، قال: «فتلك عبادتهم» لأنهم بهذه الطريقة جعلوهم أربابا يحلون لهم الحرام ويحرمون عليهم الحلال فيطيعونهم في ذلك، وبه نعلم أنَّ من أفتى بتحريم حلال أو إباحة حرام - وكان من المنسوبين إلى العلم - فإنه لا يجوز أن يُطاع، ومن أطاعه في تحريم الحلال أو العكس فإنه يكون قد اتخذه ربا كما اتخذ أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله عزَّ وجلَّ، فمن خصال أهل الجاهلية أنْ يتخذوا زعماء كبراء يتعبدون بطاعتهم حتى فيما يُعلم أن الله تعالى أمر بخلافه، فإذا أحلوا لهم الحرام أستحلوه، وإذا حرموا عليهم الحلال حرَّموه وهذا من اتخاذهم أربابا من دون الله.

---

(١) التوبة: ٣١.

(٢) صحيح. الطبراني في الكبير (٩٢/ ١٧) والترمذي (٣٠٩٥) وحسنه. الصحيحة (٣٢٩٣).

المسألة الثامنة والثلاثون: الإلحاد في الصفات، كقوله تعالى ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَّ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾(١).

المسألة التاسعة والثلاثون: الإلحاد في الأسماء كقوله تعالى ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾(٢).

....

الإلحاد يُراد به في اللغة الميل - باللام - ومنه سمي اللحد لحدا لأنَّ الميت إذا حُفر له قبره لا يُشق حفرة ويُرمى فيها، بل يُحفر له قبره وإذا أتى الحافر إلى موضع وضع الجثة التي يُتجه بها إلى القبلة مال بالحفر حتى تُجعل الجثة فيها، هذا الميل يسمى لحدا، منه سمي اللحد لأن مائل عن سمت القبر، فالإلحاد هو الميل، من خصال أهل الجاهلية الإلحاد في الصفات وهذا موجود حتى عند كفار قريش، وجاء في سبب نزول الآية يقول تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَّ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٣) جاء في سبب نزول الآية أن رجلين من قريش وختنهما ثقفي، أو رجلان من ثقيف وختنهما قرشي اجتمعوا في المسجد الحرام، قال: كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم اجتمعوا في المسجد الحرام، فقال أحدهم: أترون أنَّ الله يسمعنا، فقال الثاني: إنْ رفعنا أصواتنا سمعنا؛ وإنْ أسررنا لم يسمعنا، فقال الثالث: إنْ كان يسمعكم إذا رفعتم أصواتكم فإنه يسمعكم إذا أسررتم؛ فنزلت الآية، فالشاهد منه أنَّ هذا من الإلحاد في الصفات من خلال دعواهم أنَّ الله تعالى - يعني متشككون - هل الله تعالى يسمع أو لا يسمع، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَّ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ، وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٤) ،فهذه من طرائق ودأب أهل الجاهلية، والإلحاد في أسماء الله وصفاته ذكر أهل العلم أنه على خمسة أنواع:

---

(١) فصلت: ٢٢.

(٢) الرعد: ٣٠.

(٣) فصلت:٢٢.

(٤) فصلت:٢٢، ٢٣.

من أشهرها نفي ما أثبت الله، الذي أثبته الله؛ المنهج السوي والصراط المستقيم أنْ تثبته، الميل والإلحاد عن هذا الصراط أنْ تعكس؛ فتأتي إلى ما أثبته الله فتنفيه - هذا النوع الأول -.

النوع الثاني أنْ تُثبت ما نفى الله، الذي نفاه الله؛ الصراط المستقيم أنْ تنفيه، الميل عن الصراط المستقيم أنْ تأتي إلى شيء نفاه الله فتثبته، وثمَّة أنواع أخرى تجدها في الشروح كشرح الواسطية وغيره، هذان النوعان من الإلحاد: نفي ما أثبت الله وإثبات ما نفى الله هو الذي وقع فيه المعطلة والمشبهة، المشبهة ماذا فعلوا أتوا إلى ما نفاه الله - وهو المثلية – في قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1] فجعلوا صفات الله مثل صفات المخلوقين، ماذا فعلوا؟ أثبتوا ما نفى الله من المثلية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ نعم هو السميع وله سمع، وبصير له بصر، لكن سمعه وبصره ليس مثل سمع وبصر المخلوقين، المُمَثِّلة يقولون: له سمع مثل سمع المخلوقين – عياذا بالله -، فأثبتوا ما نفى الله، عَكْسُهُم المتكلمون من المعتزلة والجهمية ومن مشى على حذوهم من الأشعرية والماتريدية يجتمعون - وإنْ تفاوتوا في النفي - يجتمعون في أنهم نفوا ما أثبت الله، فأتوا إلى ما أثبته الله من الصفات في كتابه أو أثبته له رسوله صلّى الله عليه وسلّم في السُّنَّة الثابتة؛ أتوا إلى هذا الذي أثبته الرب وأثبته الرسول صلّى الله عليه وسلّم فنفوه مع أنه مما أثبته الرب تعالى وأثبته النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في النصوص، فالحاصل أنَّ الإلحاد في الصفات هذا منه.

ومن ذلك أيضا الإلحاد في الأسماء، تقدم أنَّ من الإلحاد أنْ تنفي ما أثبته الله، استدل عليه بقوله تعالى ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ كان كفار قريش لا يُقِرُّون بهذا الاسم لله تعالى، ولما كان في صلح الحديبية أمر رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم الكاتبَ أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فأبى سهيل بن عمرو وقال: ما نعرف الرحمن، اكتب باسمك اللهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾[2] فكانوا ينكرون هذا الاسم، ولهذا قال أهل العلم: إنَّ أول من أنكر بعض الأسماء والصفات هم الكفار، فيقال لمن نفاها ممن ينتسبون إلى السلام: اتقوا الله تعالى، فإنَّ سلف

(١) الشورى: ١١.

(٢) الفرقان:٦٠.

من نفى الأسماء والصفات هم هؤلاء، هم الذين ينفون بعضا من هذه الأسماء والصفات، وسلف الأمة الأخيار بدءا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم والصحابة والتابعون لا شك أنهم يثبتونها، فاتقوا الله، لا يكن سلفكم هؤلاء الكفار، والزموا هدي سلفكم الصالح بدءا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثم الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، الزموا هديهم وأثبتوا ما أثبتوا، أما أنْ تنفوا ما أثبت الله فانظروا إلى الكفار ينفون اسم الرحمن، وأنتم إذا نفيتم عن الله تعالى اسم الرحمن أو السميع أو العليم أو نفيتم صفة العلم أو صفة السمع أو البصر أو الاستواء فأنتم لم تتأسوا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولا بأصحابه فانظروا مَنْ سلفكم، فهذا من دلائل خبث أمر الإلحاد في الأسماء والصفات وأنه كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[1] فهددهم سبحانه وتعالى في أنهم سيجزون ما كانوا يعملون.

(١) الأعراف: ١٨٠.

المسألة الأربعون: التعطيل، كقول آل فرعون.

....

التعطيل يُراد به إخلاء الشيء، يقال عطل المكان إذا أخلاه، التعطيل أنواع، لكنه أراد هنا رحمه الله تعالى التعطيل الكلي الذي كان عليه آل فرعون وهو أنهم كانوا يجحدون الرب، كما قال عدو الله فرعون لما قال له موسى وهارون: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١) فقال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(٢) وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾(٣) فكان يظهر جحد الرب سبحانه وتعالى ويعطل إثباته، ولهذا لما أخبره موسى بأن ربه في العلو: قال: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾(٤) لأنَّ موسى أعلمه أنَّ الله تعالى في العلو، قال: ابْنِ لي هذا الصرح حتى أنظر في ما يقوله موسى أنَّ له إلها، فالحاصل أنَّ التعطيل هو الجحد الكلي للرب، هذا من عمل فرعون وأضرابه، ولا ريب أنَّ هذا الجحد هو في الظاهر فقط، لا يمكن أنْ يجحدوه تعالى في الظاهر وفي الباطن، وإنما يجحدونه في الظاهر فقط قال الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾(٥) فهم في الداخل موقنون لكنهم يجحدون جحدا ظاهريا، وهكذا قول موسى عليه الصلاة والسلام لفرعون ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(٦)، ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ أي يا فرعون، أين علمت؟ في قرارة نفسك، ولهذا لما غرق فرعون ظهر ما كان يخفيه ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٧) فهؤلاء الذين يجحدون لا شك أنَّ جحدهم في الظاهر فقط، وإلا فإنهم يعلمون أنَّ الذي أوجدهم من العدم وركب هذا الخلق وأوجده بعد أنْ لم يكن

---

(١) الشعراء: ١٦.

(٢) الشعراء: ٢٣.

(٣) القصص: ٣٨.

(٤) غافر: ٣٦.

(٥) النمل: ١٤.

(٦) الإسراء: ١٠٢.

(٧) يونس: ٩٠.

يعلمون أنه لا بد أنه لهذا الخلق ولهذا العالم من خالق خلقه وأوجده سبحانه كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي من غير شيء ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾(١) أي الذين خلقوا أنفسهم، فالأول احتمال باطل، والثاني احتمال باطل، فيتعين أنَّ الله تعالى هو الذي خلقهم، وأمر الإلحاد - عياذا بالله - وجَحْدُ الرب مما تفاقم وانتشر واستشرى بسبب الانفتاح على أعداء الله من الكفار، الانفتاح على أهل الكفر، على هذا الوضع الحاصل الماثل الآن لا يُستغرب أنْ يشيع معه الانتحار والأمراض النفسية والأخلاق الردية والقبيحة؛ لأنَّ الأصل أن المسلمين لا ينفتحون على الكفار، وأنَّ الذهاب إلى بلاد الكفر يكون وفق ضوابط، لا يكون الذهاب إلى بلاد الكفر لمن هبَّ ودبَّ، بل وفق ضوابط محددة وبشروط بيَّنها أهل العلم رحمهم الله، فلما ذهب مَنْ قلَّت بضاعته من العلم وقلَّ نصيبُه من التقوى وخوفِ الله عزَّ وجلَّ أعجب بما عليه أولئك من مساوئ الأخلاق ومن الأحوال الردية بما في ذلك الإلحاد، فصاروا ينقلون إلى أمة الإسلام تلك البلايا وتلك المخازي فانتشرت في الأمة، لأنَّ الخطأ هو في الانفلات، فإنَّ الأصل أنْ لا يذهب إلى بلاد الكفر إلَّا وفق ضوابط من أعظمها وأهمها أنْ يكون الذهاب أمرا لا بد منه، فلا يُذهب إلَّا لأمر ليس للذاهب منه بد - كما بيَّن أهل العلم - كدراسة علم لا يوجد في بلاد المسلمين فيذهب ليدرسه، فإذا وُجِد في بلاد المسلمين فليس له أنْ يدرسه عند غير المسلمين.

الأمر الثاني: أنْ يكون الذاهب قادرا على أنْ يدفع عن نفسه الشبهات، لا أنْ تقال له الشبهة من أول مجلس ثم يعجز عن الدفاع ثم يتلف عليه دينه، فدينه أعز وأكرم، فلا يذهب أي أحد؛ إنما يذهب من لديه قدرة أنْ يدفع عن نفسه الشبهات.

الأمر الثالث: أنْ يظهر دينه، لا يستخفي ويستحي كأنه - عياذا بالله - عنده شيء مما يستجلب المنقصة، لا بد أنْ يظهر دينه، وأنْ يشهره وأنْ يكون جاهرا به معتزا به، وما أقل من تتحقق فيهم هذه الشروط.

---

(١) الطور:٣٥.

فيذهب الناس لأسباب ليست مبررة شرعا، الشيء الذي لا بد منه كالعلم الذي لا يوجد إلَّا في بلادهم، وكمرض استعصى على الأطباء علاجُه فقد يوجد عند أطبائهم علاج له؛ فهذه حالات ضرورية لا بد منها، وهكذا الأحوال التي لا بد منها مما ذكره أهل العلم، أما الذهاب للسياحة فلا يرتاب في أنه لا يجوز، لا يجوز ثم لا يجوز ثم لا يجوز، وإنْ غضب من غضب ورَغِمَ مَنْ رَغِمَ، وكان هذا أمرا معروفا لدى المسلمين من لدن الصحابة رضي الله عنهم إلى سُنَيَّات قليلة جدا، ليس هناك شيء يُسمى حلُّ الذهاب إلى بلاد العهر والكفر لأجل أنْ ينظر إلى الأنهار والمياه وما في بلادهم، لا يمكن أنْ يكون هذا مبررا شرعا، لأنَّ الأصل عدم الذهاب إلى بلاد الكفر إلَّا بالأحوال والشروط والضوابط التي ذكرنا، فكان من آثار التفريط في هذه الأمور أنْ تسرَّب إلينا من بلاياهم وأمراضهم استشراءُ الانتحار على هذا الوضع الماثل، لا يستغرب لأنَّ إذا انفتح الباب دون ضابط انعكس ما عندهم حتى قال صلّى الله عليه وسلّم: «حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»(١)، فلما كان من البلايا والمصائب التي عايشوها بعد أنْ أعرضوا عن الله تعالى تلك الأمراض النفسية التي أهلكتهم وأرهقتهم وانتهت بكثير منهم إلى الانتحار؛ جاء في بلاد المسلمين الانتحارُ، انعكس هذا الشر الذي وصلوا إليه جاءوا به معهم، وهكذا الإلحاد - وهو الشاهد هنا -، لَّما ذهب مَنْ لا يُحسن رد الشبهة عن نفسه وقعوا في الإلحاد، ولو كانوا من المتبصرين لأسلم على أيديهم الكثير هناك؛ لأنهم في حال من الضلال المبين، لو أنَّ الذي يذهب؛ يذهب متحصنا عالما دارسا فاهما واعيا لَمَا ضل، يأتونهم ويقولون: أنتم أمة عندكم سوء في التعامل مع النساء، ماذا نفعل بالنساء؟ أنتم تعددون وتتزوجون أكثر من امرأة، والواحد عنده ثلاث وأربع نساء، نقول: وأنتم - لو كان الذاهب من أهل العلم - نقول: وأنتم ما عندكم تعدد؟! يقول: لا، يقول: عندكم التعدد الأخس، وهو تعدد الزناة، الواحد منكم يُعاشر في حياته ألف امرأة ويملأ أرحامهن بالأجنة التي تُرمى وتجهض فينتشر من فسادكم وفواحشكم الزنى وانقطع عنكم العفَّة - إلَّا في القليل منكم - وأُهْلِكت الأجنة التي جُني عليها لأجل أنَّ هذا يريد أنْ يزني بهذه المرأة، أما التعدد عندنا فمنضبط بحقوق؛ مبيت؛ نفقة؛ سكن، فكيف يتكلم أمثالُكم عن التعدد،

---

(١) صحيح البخاري (٣٤٥٦).

آخر من يتكلم عن نقض التعدد أنتم، لأنَّ التعدد عندكم هو التعدد الفوضوي، النساء تملأ أرحامهن بعد الزنى، ثم هؤلاء الأجنة إما أنْ يكونوا لقطاء ويُرمون في دور تتولى جمع هؤلاء اللقطاء، أو أنْ يُنسب - عياذا بالله - ابن الزنى إلى ذلك الزاني ويتسمى باسمه ويتبناه، بينما التعدد في الشرع منضبط، يجب على الانسان أنْ يعدل في قَسْمِهِ؛ في نفقته، ثم إنَّ الله عزَّ وجلَّ جعل التعدد من أسباب قلة الطلاق، لأنَّ الرجل يجد في التعدد في بعض الأحيان متنفَّسا حتى لا يطلق، لأنه إذا كان لن يتزوج إلَّا امرأة واحدة وساءت العشرة مع امرأته وعنده منها ذرية فقد يلقيها ويتزوج امرأة أخرى، أما إذا لم يجد إلَّا امرأة فإنه سيطلق هذه وسيكثر الطلاق.

أمر آخر بعض النساء مريضات لا يمكن العشرة معها، ماذا يفعل الرجل بهذه المرأة المريضة المسكينة؛ يا أهل حقوق الانسان؟؟ هل يطلقها ويرميها؟ لا، يبقيها ويتزوج أخرى سوية ليست مريضة ويكون له زوجتان، هذه الأولى يشفق عليها ويبقيها عنده.

أمر ثالث: ماذا تقولون في رجل تزوج امرأة لا تنجب؟ بين خيارين: أنْ يطلقها ويتزوج امرأة تنجب، أو أنْ يبقى بلا ذرية، هذا في بلادكم، في بلاد الإسلام يُبْقي المرأة التي لا تنجب وتبقى زوجة له؛ ويتزوج امرأة تنجب.

وهكذا الرجل الكثير الأسفار، بعض الناس مُتنقل يُكثر التنقل بين بلدين أو بين أكثر من بلد، فإذا سافر إلى بلد قد يمكث في ذلك البلد ثلاثة أو أربعة أشهر بلا زوجة، أيهما أحسن؟ أنْ يزني أو أنْ يتزوج امرأةً يُنفق عليها ويقيم لها سكنا، ويكون له منها الذرية، أيها أيسر في نظركم؟ لو وجدوا من يتكلم بهذا هذا المنطق لرد عن نفسه الشبهة، لكنه إذا قيل: إنكم تتعاملون تعاملا سيئا وإنكم على خلاف حقوق الانسان، جاء لينقل داءَه فقال: التعدد فيه مضرة، وبدأ يعدد ويذكر بعض الأحوال من أنَّ الْمُعَدِّدين فعلوا كذا وكذا، تُعددُ ما تُعددُ - مهما ذكر - بعض مَنْ ليس عندهم إلَّا زوجة واحدة عذَّبوا هذه الزوجة عذابا أليما وليس عندهم إلَّا هذه الزوجة، فالبلاء مِنْ سوء التعامل وليس الإشكال من وجود التعدد، فالإشكال من عدم العشرة الحسنة، فإذا لم يحسن العشرة فحتى لو عنده امرأة واحدة لآذاها وأتعبها، فإذا أحسن العشرة فإذا

تزوج باثنتين او ثلاث أو أربع وأقام ما أوجب الله عليه أصلح الله تعالى له الحال، وإنْ وُجِدَ شيءٌ من التنابز فهذا أمر لابد منه، ولكن الرجل الموفق يُحْسِنُ أنْ يدير مثل هذه المسائل، فلو أنه رد عليهم بمثل هذا الرد لأسكتهم ولأخرسهم.

في دينكم ضد حقوق الانسان! عندكم الرق! فيقال لهم: هذه الغلطة التي تسمونها غلطة هي غلطة في ديننا فقط، أو إذا فعلها أهل الكتاب قبلنا تكون غلطة؟ فإذا قالوا: ما المقصود؟ المقصود هل الرق عندكم قبلنا أم لا؟ لا بد أن يقولوا نعم، فلماذا صار خطأ علينا في ديننا وعندكم صواب؟ هذا أمر. الأمر الآخر أنَّ الرق فيه بلا أدنى شك شيء من حفظ هؤلاء الذين تُفتح بلادهم، فإذا فتحت البلاد وقد يُقتل كثير من الكفار إذا سُبيت الذرية والنساء فلا شك أنَّ لهم حقوقا عظيمة على مِنْ سَبَاهُم، فليس له أنْ يتعامل معهم بضرب مبرح مثلا، ولهذا جاء الشرع أنَّ «من ضرب عبده ضربا مبرحا عَتَقَ عليه»[1]، ما معنى عتق عليه؟ يعتق رغم أنفك، ولا يحتاج أنْ تقول: أنا الآن أعتقك لوجه الله، يَعْتَقُ رغما عنك لمجرد أنَّك ضربته ضربا مبرحا، قال ابنُ عمر مرة - وضرب غلاما له - ورفع عودا: (والله ما لي فيه من الأجر مثل هذا)[2] يعني أعتقه الشرعُ - يعتق لزاما - ثم إنَّ الشرع بعد أنْ توجد هذه السبايا يُعلَّمون ويُفَهَّمون كما قال عليه الصلاة والسلام في الذين يؤتون أجرهم مرتين: «رجل من أهل الكتاب آمن بنبيِّه وبالرسول - صلّى الله عليه وسلّم -، ورجل كانت عنده جارية فأدَّبها فأحسن تأديبها، وعَلَّمَها فأحسن تعليمها، ثم تزوجها فأعتقها»[3] يمكن أنْ تتزوج هؤلاء المسبيَّات أيضا، مِنَ الكفارات الكثيرة التي تقع أنْ يُعتق الرقاب، كفارة اليمين؛ كفارة الظهار؛ كفارة قتل النفس، فيؤخذون ويحصل شيء من إعادة تأهيلهم. أمر آخر: المُكَاتَب، إذا أراد الرقيق أن يُكاتب سيده يقول: أنا عندي قدرة على أنْ أعمل، أنا أشتري نفسي منك، مثلا بعشرة آلاف درهم، أعطيك كل شهر ألف درهم، أتركني أسافر وأتَّجر، أنا صاحب حرفة؛ أنا صاحب مهنة، فيشتري نفسه بنفسه، وهكذا سُبُل ووسائل الاعتاق الكثيرة، وثبت عنه عليه الصلاة

---

(١) صحيح الأدب المفرد (١٣٣) بنحوه.

(٢) صحيح مسلم (١٦٥٧).

(٣) صحيح البخاري (٣٠١١).

والسلام الترغيب الشديد في إعتاق الرقاب، فيُؤْخَذُون ثم يحدث عتقٌ كبير، ثم ماذا كان من آثار ذلك؟ أنَّ عددا كبيرا ممن سُبُوا صار من ذراريهم أئمةٌ كبارا في الدين، فكثير من العجم الذين استولى الصحابة رضي الله عنهم على بلادهم صار في ذراريهم وأحفادهم أئمةٌ كبار في الدين، فتحققت حقوق الإنسان الحقيقية واتضحت، فمثل هذه الأمور إذا وُجِهُوا بها ورُدَّ عليهم، وهذا ما قال أهل العلم: إنه يُشترط في الذاهب إليهم أنْ يكون عنده علم يدفع به الشبهة، أما إذا سمع مثل هذا الكلام - وكان صغيرا في مثل الثانوية ونحوها - ثم أتى متأثرا قال: عندهم كذا وكذا ونحن عندنا من الإشكال كذا وكذا ونحن أمة مُتخلفة وعندهم كذا وكذا، لأنه لم يحسن الدفع ولا يحسن الجواب، إذ لم يُزَوَّد بما يدفع عن نفسه الشبهة، فلهذا جاء الإلحاد من هذا الباب، الإلحاد جاء بسبب التفريط في شرط وهو أنْ يكون الذاهب إلى بلاد الكفر قادرا على أنْ يدفع الشبهة، لم يقدر على دفع الشبهة جاء بها إلى بلاد المسلمين فأفشاها ونشرها، بسبب التساهل بهذا الشرط العظيم، وهكذا أمور كثيرة؛ يُتَساهل بها ثم ينفتح منها إشكالات، ومنها ما ذكره رحمه الله تعالى هنا من التعطيل، لأن مقصوده هنا بالتعطيل قال: التعطيل كتعطيل آل فرعون؛ التعطيل الكلي بأنْ يُجحد اللهُ كما هو حال الهمل والهمج في تلك البلاد التائهة الضائعة.

أسئلة

- جواب على سؤال: نعم إذا وجد له علاج في بلاد المسلمين لا يجوز له أنْ يذهب إلى بلاد غير مسلمة.

- سؤال: يسأل عن البلاد التي يكون فيها التبرج والسفور وربما التعري.

جواب: ابحث يا أخي عن السلامة في نفسك ودينك، تريد أنْ تذهب - والحمد لله - تستطيع أنْ تذهب وترى المناظر الطيبة والحسنة في غير البلاد التي فيها مثل هذه المواضع.

- سؤال: نرى التوسع في مفهوم الخوارج، استحلت دماء كثير من المسلمين بحجة أنهم خوارج وأنَّ النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قتلهم.

جواب: دائما يا إخوة؛ الفِرَق ينبغي عند نسبة أحد إليها أنْ يكون الناسب إليها مِنْ أهل العلم الذين يَعُوْن معنى الفِرقة، لا تكون مسألة النبذ بفرقة نوع من التعيير، أنت خارجي، أنت مرجئي، المسألة ليست

لعبا، أنت تخرجه من السُّنَّة، لا بد أنْ يكون فيمن وصف أنه من الخوارج ما يدل على أنه من الخوارج، أما أنْ تكون المسألة نوع من الترامي وهذا يُعير هذا بكذا، ثم ذلك يرد عليه بعكس، الخوارج دائما عكسهم المرجئة، فيقول هذا: أنت خارجي، ويقول: بل أنت مرجئة، المسألة ليست لعبا، أنت بهذه الطريقة تخرجه من السُّنَّة، فيجب أنْ يكون مَنْ تطلق عليه هذه العبارة واقعا بالفعل في مثل هذا، ولهذا لا يصلح أنْ يلقيها أي أحد، لا بد أنْ يكون من أهل العلم الذي عَرَفَ أنَّه حاد عن السُّنَّة وأنه ذهب إلى طريق المبتدعة.

- سؤال: ما الدليل على تقييد ما ذكرت في المسألة المتعلقة بعدم قبول الحق إذا أتى من غير طائفته، المتبعين لهم بأنهم لا يقبلون إلَّا ما اشتهوا.

جواب: لو تنظر في المسائل، المسائل بينها فروق دقيقة جدا، فيذكر ما يتعلق بعدم قبول الحق وأنهم مع ذلك لا يعملون به، المسألة التي بعدها، قال عنهم: هذا الحق الذي يدعونه لا يعملون به، ما معناه؟ أنَّ ثمة أشياء من الحق يشتهونها فيعملون بها، كما ذكرنا في الآية ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾(١).

- سؤال: هل يدخل في المسألة ما يقع من بعض المذاهب الفقهية من عدم عملهم بالنصوص لأنه مخالف لقول إمام المذهب.

جواب: الذي تتبين له السُّنَّة لا يحل له أنْ يتركها لقول أحد كائن من كان من الناس، والأئمة رحمهم الله كلهم أوجبوا على أتباعهم إذا جاءهم حديث عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وكان في المذهب ما هو بخلافه أنْ يتركوا قولهم إلى قول النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، والأئمة رحمهم الله أورع وأتقى لله من أنْ يقولوا: اتبعونا واتركوا الحديث، فالمروي عنهم كثير جدا في لزوم الحديث حتى قال الشافعي رحمه الله: (إذا قلت قولا وقال النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بخلافه فمذهبي قولُ النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم)(٢)، ولهذا كان بعض الشافعية إذا جاء حديث عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم - وقول الشافعي على خلافه - قال:

(١) المائدة: ٤١.

(٢) تاريخ ابن عساكر (٥١/٣٨٩).

مذهب الشافعي كذا، كيف تقول مـذهب الـشافعي كـذا؛ والـشافعي نـصَّ في الأم عـلى كـذا؟ قـال: لأنَّ الشافعي قال: إذا وجدتم الحديث فهو المذهب لي، اتركوا قولي وخـذوا بالحـديث فـإنَّ هـذا هـو مـذهبي، وهكذا بقية الأئمة رحمهم الله، لكن مَنْ يتعصب للأئمة ويخالف قول الأئمة فهذا خـرج عـن مـا أوصى بـه الأئمة أنفسُهم.

- سؤال: ما حكم الاستماع للدف؟

جواب: في الأعراس إذا كان استعمال الدف من قِبَل النساء وليس من قِبَل الرجال؛ ووصل الصوت - بدون صوت المُغنية - لكن مجرد دف يُضرب ويصل الصوت فلا بأس، لأنَّ المقـصود بالـدف مـا هـو؟ أنْ يُظهر النكاح، فلا يقال: يَضْرِبْنَهُ بينهن! لأنه لا يظهر، بشرط عدم الإيذاء أيضا، ما يُـضرب إلى آخـر الليـل ويُزعج الناس من حوله، لكن يُضرب الدف ضربا، لماذا صار إعلان النكاح بالدف؟ لأنه غير معروف عند المسلمين استخدام الدف في الأحوال العادية، فإذا سمعنا دفا في بيت آل فلان فمعنـاه أنَّ عنـدهم زواجـا؛ فلهذا أذن الشرع فيه في الزواج، أما لو كان استعمال الدف - وهذا من أدلة عدم استعمال الدف - لـو كـان المسلمون يستعملون الدفوف في بيوتهم لما تميَّز النكاح، لماذا أمر النَّبيّ صلّى الله عليه وسـلّم بتمييـز النكـاح بالدف؟ لأنَّ المسلمين لا يستعملون الدفوف، فإذا سمعنا في ذاك البيت دفا علمنا أنَّ عندهم زواجا، أما لو كان مستعملا دائما كنا لا نعرف، فلهذا صار من شعار النكاح الدف، فإذا ضربته المرأة دون أذيـة للجـيران كأن يبقين إلى آخر الليل ولا ينام الناس وضربته بطريقة لا تؤذي الناس ولم يظهر صوتُها، يعنـي لا تـضرب الدف وترفع صوتها بالغناء، لأن صوتها لا يجوز أن يُسمع، وإنما هو الـدف فقـط ووصـل إلى الرجـال فـلا يُنكر، لأنَّ النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لما ضربت الجارية الـدف يـوم العيـد كـان يـسمعه - وكانـت جاريـة صغيرة - بالمناسبة ليس هذا من أدلة جواز ضرب الدف للكبار ولكن جارية صغيرة، فلا يقـال: إنَّ النـساء يُعَلَّمْنَ ويُفتح لهن أماكن للتعليم، مجرد أنْ تضرب الدف ضربة معينة يُعرف به إظهار الفـرح ونحـوه، فـإذا وصل للرجال – لا شك أنه لا يُنكر - دون صوت المـرأة، وهـذا في الاحـوال التـي ذكرنـا في الـزواج وفي العيد، أما ما سواه فلا، لأنَّ الأصل عدم استعماله إلَّا في هذه المناسبة.

- سؤال: هل الأحزاب السياسية تدخل في قوله تعالى ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[1].

جواب: نعم، الأحزاب السياسية قائمة على العلمانية، قائمة على اقصاء الدين عن الحياة، ماذا تكون؟ تكون على السُّنَّة؟! لا شك أنها داخلة في هذا.

- سؤال: أنا متخرج من الجامعة ومرَّ علينا كتب في العقيدة في الجامعة والمساجد، أريد أنْ أضبط مسائل العقيدة، ماذا تنصحون من كتب العقيدة؟

جواب: مثل ما قلنا يا إخوة، بحسب موقع هذا الشخص من العلم، يُوصى طالب العلم المبتدئ بنوع من الكتب المختصرة، بعد ذلك يتدرج، فمثلا الأصول الثلاثة والقواعد الأربعة وأمثالها في البداية، بعد ذلك يتدرج؛ كتاب التوحيد بعد ذلك الواسطية، ثم إذا أعطاه الله تعالى من العلم يأخذ ويُلاحظ هذا أيضا - وهذا أمر يُلاحظ - هذه ليست كتب لمجرد القراءة، هي تُقرأ على أحد أهل العلم، لأنك قد تَقرأ ولا تُحسن الفهم، وتُقرأ وتسأل أهل العلم عنها، وإذا قرأت تسأل ما المراد بكذا؟ هل المقصود كذا؟ فتفهم هذا الأمر، ليست بمثابة الصحف تقرأ، فبعض الناس يظن أنَّ العلم يذهبُ إلى المكتبة ويحضر كتبا ويقرأ، قد تُسيء فهمَ المسألة، فلا بد أنْ تكون المسألة بالتدرج ثم بعد ذلك يعطيه الله عزَّ وجلَّ ما يَسَّرَ سبحانه من العلم لاحقا مثل كتب الشروح، ومن أقواها وأحسنها شرح الطحاوية لابن أبي العز رحمه الله، وكذا الشروح على الواسطية وعلى الحموية ونحوها، ولكن يحرص على التدرج حتى لا يظن أنه غير فاهم، بعض الناس يدخل في مطولات منذ بداية طلبه للعلم ويجد أنه ما فهم، فيظن أنَّ ذلك بسبب أنَّ الله ما كتب له علما، لا، السبب أنك لم تتدرج، فلو أخذت العلم بالتدريج لكان ذلك أيسر عليك والله أعلم، و صلّى الله على محمد وسلّم.

---

(١) الروم: ٣٢.

المسألة الحادية والأربعون: نسبة النقائص إليه سبحانه كالولد والحاجة والتعب مع تنزيه رهبانهم عن بعض ذلك.

....

تقدم أنَّ الإلحاد في الأسماء والصفات أنواع منها نفي ما أثبت الله كما تقدم بيانه، ومنها أنْ يُثبت لله عزَّ وجلَّ ما نفاه عن نفسه، فهذا من الإلحاد لأنا قلنا: إنَّ الإلحاد هو الميل عن الطريق المستقيم في مثل هذه الأسماء والصفات، من ذلك أنْ أثبتوا لله عزَّ وجلَّ ما يجب أنْ يُنفى عنه عزَّ اسمه كهذه المذكورات بالنسبة للولد لله عزَّ وجلَّ، وأهل الجاهلية الذين نسبوا لله تعالى الولد هم: اليهود وقالوا عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، ومشركو العرب قالوا: الملائكة بنات الله، وهذه قطعا من النقائص والله تعالى يتنزه عنها، قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾(١) ، وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾(٢) والولد لاشك أنه شبيه لأبيه، والله تعالى لا مثل له، فمن طرائق الجاهلية - كما تقدم - أنهم يلحدون في هذا الباب فيُثبتون ما نفى الله وينفون ما أثبت سبحانه وتعالى.

من ذلك نسبتهم لله عزَّ وجلَّ - والعياذ بالله - الحاجة، ومعلوم أنَّ المحتاج مفتقر إلى ما يزيل ويرفع حاجته، والله سبحانه وتعالى هو الذي إليه تُرفع الحوائج لكمال غناه وكمال قدرته سبحانه وتعالى، فإذا نُسبت له الحاجة - والعياذ بالله - فمعنى ذلك أنه نُسب إليه النقص، ولهذا سمَّى الشيخ رحمه الله هذه المذكورات بالنقائص، من ذلك أيضا أنْ نسبوا لله تعالى التعب ومعلوم انَّ التعب دال على النقص أيضا وعلى أنَّ القوة غير كاملة، فإنَّ المخلوق إنما يتعب وينصب لأنَّ له مدى ولقدرته مدى، والله سبحانه وبحمده نفى عن نفسه هذه المقولة التي أصلها من اليهود - أخزاهم الله - حيث قالوا: إنَّ الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استراح يوم السبت، قال الله تعالى ردا عليهم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾(٣) أي مِنْ إعياء ولا تعب ولا نصب، كما قال

---

(١) المؤمنون: ٩١.

(٢) الإخلاص:٣.

(٣) ق:٣٨.

سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، يقول رحمه الله: من عجائب هؤلاء أنهم ينسبون إلى الله النقائص مع تنزيه رهبانهم عن بعض ذلك، ما مراده؟ مراده أنَّ النصارى يتنزه رهبانُهم عن أنْ يتزوجوا وعن أنْ يُوَلَدَ لهم قطعا، لأنهم إذا لم يتزوجوا فإنه لا يولد لهم، ومع ذلك ينسبون لله تعالى الصاحبة والولد، فنزهوا أنفسهم عما نسبوه لله، وهذا يدل على مبلغ جاهليتهم؛ إذ نسبوا لله تعالى ما يرونه منقصة، ولهذا كان بعض علماء الشافعية يُناظر بعضَ النصارى، فلما دخل عليهم - وكان يعلم أنهم لا يتزوجون - قال لرهبانهم: كيف الزوجة وكيف الأولاد؟ فأظهروا الغضب، كيف تقول هذا لهؤلاء الذين يتنزهون عنها؟ هؤلاء لا يصلح أنْ يتزوجوا ولا يصلح أنْ يأتيهم ولد، قَسُس ذوو قدر رفيع قال: سبحان الله العظيم؛ تنسبون لله ولد وتنزهون أنفسكم عن مثل هذا، فكان ذلك مدعاة للسخرية بهم، كيف تنسبون لله الولد وتتنزهون أنتم عنه، تعدونه في حقكم منقصة ومع ذلك تنسبونه لله تعالى؛ تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

(١) الأحقاف:٣٣.

المسألة الثانية والأربعون: الشرك في الملك؛ كقول المجوس.

....

هذه المسألة تبين لك أنَّ المصنف رحمه الله تعالى يتكلم عن خصال أهل الجاهلية بعموم، تارة يكون أهل الجاهلية من اليهود والنصارى – كما تقدم في الخصلة السابقة - وتارة يكونون من المجوس وعباد الأوثان وتارة يمكن أن تقع حتى من المسلم كما بيَّنا.

المجوس هو الذين يقولون: إنَّ للعالم خالقين اثنين - عياذا بالله - النور خلق الخير والظلمة تخلق الشر، فشركهم شنيع جدا لأنه في الربوبية، هؤلاء المجوس من جاهليتهم وقوعُهم في أمر في غاية الوقاحة وهو نكاحهم المحارم، فكان الواحد منهم يتزوج أمه - عياذا بالله - أو بنته أو أخته أو عمته - ولا يرون في ذلك بأسا - لما فتح الله بلادهم وهي بلاد فارس التي فيها الروافض الآن - في إيران وغيرها - وجد المسلمون هؤلاء على هذا الحال؛ يعبدون النار وفيهم هذه الخصال القبيحة من نكاح المحارم فكتب عمر رضي الله عنه وأرضاه أنْ فرِّقوا بين كل ذي رحم من المجوس(١)، لا يُمكنون حتى لو كانوا كفارا، يقول: لا يُسكت على مجوسي يقول - والعياذ بالله - هذه أمي وهي زوجتي، لا يُسكت على هذا نهائيا وإنْ كانوا كفارا، معلوم أنَّ أهل الكتاب ومن يُلحق بهم - من جهة أخذ الجزية - قد يُقَرُّون على أمور فيما بينهم كأمور ولاية الأب على بنته التي هي على دينه وأمور طلاقهم وزواجهم هي أمور فيما بينهم فيتركون، لكن لم يرض المسلمون أبدا أنْ يبقى المجوس يتزوجون محارمهم، الذي خلَّصَهُم من هذه الخصة هو الإسلام بشرعه العظيم على يد عمر رضي الله عنه وأرضاه، من فضائل عمر رضي الله عنه وأرضاه أنه لما فتح على أولئك القوم بلادهم دخلوا في الإسلام، دخل كثير جدا في الإسلام وعرفوا السُّنَّة، وما كان الفرس إلَّا سُنَّةً ما كانوا أبدا روافض، ما كان الفرس إلَّا سُنَّة كغيرهم من الأعراق الأخرى كالعرب والترك والبربر وغيرهم يدخل عليهم الصحابة أو التابعون ويفتحون بلادهم فالذي يبقى على دينه ويُعطى العهد على دينه، الذي يدخل في الإسلام لا يعرف إلَّا السُّنَّة فكانوا على السُّنَّة بلا شك، حتى تغيَّر الحالُ ونشأ فيهم مذهب

---

(١) صحيح البخاري (٣١٥٦).

الروافض وزاد الأمر شدة وحِدَّة عدو الله اسماعيلُ الصفوي في الدولة الصفوية قبيل الألف من الهجـرة - وإنْ كان التشيع في الحقيقة قبل ذلك - لكنه أجبر أهل إيران إجبارا على التشيع، وإلا إيران كانـت كغيرهـا من البلاد فيها روافض والغلبة فيها للسُّنَّة، وكان السُّنَّة ظاهرين جدا، حتى إنه أخزاه الله لما دخل هراة قتـل من علماء الشافعية والمالكية وغيرهم من الذين ليسوا على مذهب الروافض؛ قتل فقط في هراة ثلاثـين مـن علمائها وقضاتها، فأباد الناس إبادة كـما هـي طـريقتهم وطريقـة الـروافض التـي أظهـرهم الله تعـالى عـلى حقيقتهم، وكان علماء السُّنَّة يصدحون بمثل هذا منذ سنين ويحذرون من الروافض وينبهـون مـن يُـسمون بدعاة التخريـب - الـذين يُـسمى بالتقريـب - ينبهـونهم مـن خطـر الـروافض، وأنهـم يـستكينون حتـى يستمكنون، فأظهرهم الله على مخزاتهم في العراق وفي سوريا وفي غيرها على حقيقتهم التـي يعرفهـا العلـماء عنهم، وكانوا يحذرون منها، فظهروا على حقيقتهم، فنشأ في هؤلاء الروافض هذه البغضاء الـشديدة لعمـر رضي الله عنه وأرضاه مع أنه هو الذي أدخل رضي الله عنه الإسلامَ على إيـران وهـو الـذي خلـصهم مـن خصال القذر والدنس من نكاح المحارم وأمثالها، فهذه خصلة من خصال المجـوس، يعتقـدون - والعيـاذ بالله – أنَّ مع الله تعالى شريكا في ملكه، ويرون أنَّ هذا الشريك يخلق الشر دون الخير، يقولون الـرب يخلـق الخير، أما الشر فلا يخلقه، إنما يخلقه رب آخر والعياذ بالله، ولهذا كما سيأتي سمَّى النَّبيّ صلّى الله عليه وسـلّم القدرية سماهم بمجوس الأمة، لأنَّ المجوس يعتقدون بوجود خالقين، خـالق خلـق الخـير وخـالق خلـق الشر، يأتينا إنْ شاء الله تعالى عند الكلام على القدر أنَّ القدرية زلُّوا في باب القدر بطريقة أشبهوا من بعـض الوجوه المجوس، والحاصل أنَّ من الجاهليين المجوس القائلين بأنَّ مع الله تعـالى شريكـا في ملكـه - عيـاذا بالله من حال أهل الضلال والكفر والجحود- .

المسألة الثالثة والأربعون: جحود القدر.

المسألة الرابعة والأربعون: الاحتجاج على الله به.

المسألة الخامسة والأربعون: معارضة شرع الله بقدره .

....

هذه المسائل الثلاث كلها متعلقة بالقدر، ولا بد من وضع مقدمة ولو موجزة عن القدر من خلال النصوص حتى يُعرف الحق فيه بإيجاز ثم تتبين هذه المسائل الجاهلية عند هؤلاء المخالفين، نختصر مسألة القدر في بيان أقسام النصوص الواردة في القدر، أقسام النصوص الواردة في القدر – في الكتاب والسُّنَّة - ثلاثة أقسام:

القسم الأول: النصوص التي تُثبت ما يتعلق بالرب تعالى.

القسم الثاني: النصوص المتعلقة بإثبات ما يتعلق بالعبد، هذا النوع الثاني.

القسم الثالث: النصوص الناهية والمحذرة من النزاع والجدال والخصومة بالباطل التي في القدر.

نعود إلى النوع الأول؛ إثبات ما يتعلق بالرب، ما الذي يُثبت للرب في ما يتعلق بالقدر؟ يُثبت للرب أربعة أمور:

١ - أنَّ الله تعالى علم كل شيء جملة وتفصيلا.

٢ - أنَّ الله تعالى كتب ذلك في اللوح المحفوظ.

٣- أنه لا يمكن أنْ يقع أمرٌ إلَّا بمشيئة الله عزَّ وجلَّ.

٤ - أنه ما من شيء إلَّا والله خالقه.

فإذا أثبت العبد هذه الأمور - المراتب الاربعة - العلم والكتابة والمشيئة والخلق؛ فقد أثبت ما يتعلق بالرب، وهو القسم الأول.

القسم الثاني: إثبات ما يتعلق بالعبد، من جهة ماذا؟ من جهة مسؤوليته عن أفعاله الاختيارية، العبد أفعاله نوعان، أفعال اختيارية وهي كثيرة بالملايين في حياته، فأَخْذُه الماء ليشرب اختياري، وإعادة الإناء

الذي شرب منه اختياري، طرفه ونظرته يمينا وشمالا، وتكلمه بأمر، وإعطاؤه وأخذه، أشياء كثيرة جدا في حياته اختيارية، يحاسب بالأفعال الاختيارية.

النوع الثاني من أفعال العبد: الأفعال غير الاختيارية، وهي التي تقع منه دون اختيار، مثالها: سقوط العبد وزلة قدمه - وربما هلك ومات من سقطته تلك - هو ما تعمد أنْ ينتحر لكن زلت به قدمه من موضع مرتفع فسقط، هذا فعل غير اختياري، وكثيرا ما يُمثَّل على الأفعال غير الاختيارية بحركة المرتعش، المرتعش الذي تتحرك يداه أو جسمه يعجز عن أنْ يتحكم فيها، تستمر يده تتحرك منذ أنْ يُكَبِّر إلى أنْ يُسَلِّم - قبل الصلاة وبعد الصلاة - هو في حركة مستمرة، لو تحرك أحد هذه الحركة عمدا بطلت صلاته، وهو لماذا لا تبطل صلاته؟ لأنَّ الارتعاش فعل غير اختياري بالنسبة له، الله عزَّ وجلَّ إنما يؤاخذ العباد بأفعالهم الاختيارية، أفعال العباد الاختيارية تقع عن مشيئة منهم وعن قدرة، فالعبد يشاء أنْ يأخذ هذا الإناء ولديه القدرة بأنْ يأخذه ويضمه إليه، فهذا فعل اختياري وعلى هذا قس، صلاته؛ زكاته؛ حجُّه؛ أمره بالمعروف؛ نهيه عن المنكر؛ ذِكْرُه؛ من الأفعال الاختيارية الصالحة التي يؤجر عليها، زناه؛ سرقته؛ شربه للخمر؛ فعل اختياري، هو ذهب بنفسه ذهب للموضع القذر وزنى - نسأل الله العافية والسلامة - هو بنفسه وضع الخمر في الإناء ورفعه إلى فمه وشرب - شرب الخمر - وهكذا السرقة هو الذي مَدَّ يده إلى هذا المال الذي لا يحل له أنْ يأخذه، وربما كسر الحرز وأخذه، أفعال اختيارية فيؤاخذه الله بأفعاله الاختيارية، لديه مشيئة وعنده قدرة، هذه المشيئة للعبد لا يمكن أنْ يوقعها في ملكوت الله جبرا على الله، لهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾(١) فالعبد له مشيئة لكن لا يمكن أن يُنفذ العبد مشيئته جبرا على الله، وإنما تقع أفعال العباد بمشيئة الله تعالى، والله تعالى جعل هذه الدار دار امتحان ويُحاسب عباده في القيامة ولهذا جعل الشرع العقوبات والحدود على هؤلاء الذين يَتَعَدَّوْن ما أوجب الله عزَّ وجلَّ ويَتَّخَطَّون إلى ما حرم الله عزَّ وجلَّ وذلك لأنهم مؤاخذون ومحاسبون، ثم إنَّ الله تعالى يجعلهم يوم القيامة من المعاقبين فيعاقبون في قبورهم وفي عرصات القيامة وفي النار قد يُدخلون إياها حتى لو كانوا من عصاة

(١) الإنسان: ٣٠.

المؤمنين، أما الكفار فمردهم إليها، لأنَّ هذه أفعال اختيارية، يعيش في الدنيا رجل مجنون كلامه؛ أفعاله - مهما بلغت في القبح والسوء - لا يؤاخذه الله تعالى بحرف واحد من هذا، لأنه ليس في حكم المكلفين فلا يؤاخذ، إنما يؤاخذ الله تعالى العقلاء الذين يصدر الأمر عن مشيئتهم وعن قدرتهم، ولا يمكنهم أن يُنفذوا هذا الأمر إلَّا بمشيئة الله ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

القسم الثالث من النصوص: النهي عن النزاع والجدال في القدر، وقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام عدد من النصوص في هذا منها قوله صلّى الله عليه وسلّم «أُخِّر النزاع في القدر لشرار أمتي آخر الزمان»[(١)] فلا يتنازع في القدر ويشوش على الناس فيه إلَّا الأشرار، «لشرار أمتي آخر الزمان» دل على أنه لا يقع في الصحابة رضي الله عنهم وإنما يقع في المتأخرين، كما قال صلّى الله عليه وسلّم: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي أقوام تسبق شهادةُ أحدهم يمينَه ويمينُه شهادتَه، ثم يفشو الكذب»[(٢)]، «بدأ السلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ»[(٣)] فيكثر في المتأخرين، يكثر فيهم المخالفة للشرع، ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم مرات على منهج وعلى عقيدة سليمة، فالذي يريد الحق يعود إلى النبع الصافي الذي كانوا عليه رضي الله عنهم وأرضاهم.

أمر القدر خلط في المخلطون من أكثر من وجه، وذكر الشيخ رحمه الله من تخليطهم أنواعا ثلاثة:

النوع الأول من تخليطهم وهو ما ذكره في المسألة الثالثة والأربعين وهو جحود القدر بالكلية - عياذا بالله - والذين جحدوا القدر من المنسوبين لأهل القبلة نوعان:

النوع الأول: القدرية الأوائل من أتباع معبد الجهني وسوسن النصراني وسيسويه المجوسي، فإن هؤلاء هم أول من أحدث القول بالقدر، معبد الجهني أخذه - والعياذ بالله - عن سوسن النصراني وعن سيسويه المجوسي وهذا يدلك على أنَّ التخليط في القدر أتى من غير المسلمين ووقع على يد معبد هذا وكان من المشهورين بالصلاح في الظاهر بين الناس فلهذا فشا مذهبه، وإلا لما كان سوسن وسيسويه - كما روى ابن

(١) صحيح. الحاكم (٣٧٦٥). الصحيحة (١١٢٤).

(٢) صحيح البخاري (٢٦٥٢).

(٣) صحيح. الترمذي (٢٦٣٠). الصحيحة (١٢٧٣).

بطة - لم يكن معهم إلَّا الملاحون وهم عامة جهال، جمعهم هذا الخبيث وصار يلقي فيهم مثل هذا الكلام، فما تبعه إلَّا أناس من العوام، ما تبعه أحد ممن يُشار إليه حتى تبعه معبد الجهني، لما تبعه معبد الجهني فشت المقالة عن طريق معبد نفسه لأنه منسوب إلى الإسلام ليس مجوسيا وليس نصرانيا ففشت هذه المقالة، القدرية الأوائل ينكرون مراتب القدر الأربع كلها؛ العلم - عياذا بالله – ينكرون العلم والكتابة والمشيئة والخلق، لهذا قال أئمة الإسلام أحمد والشافعي رحمهم الله قالوا: ناظروهم بالعلم - بعلم الله - فإنْ جحدوه كفروه، وإنْ أقرُّوا به خصموا، فإذا جحدوا العلم يكونون كفارا، وإنْ أقروا بالعلم خُصموا، لأنَّ معنى ذلك أنك أقررت أنَّ الله تعالى عَلِمَ أنه سيكون كذا وكذا إذاً فقد شاءه - سبحانه وبحمده - وهكذا نقاش القدرية طويل وكثير، إذاً القسم الأول من نفاة القدر هو القدرية الأوائل وقد قُتل معبد على مقولته الخبيثة هذه، وتبعه غيلان الدمشقي أيضا أخذها عن معبد ثم قُتل غيلان وصُلب عليها، فهؤلاء ينفون مراتب القدر الأربع، خَلَفَهُم المعتزلة، المعتزلة لما رأوا فظاعة مقالة القدرية الأوائل وأنَّ المسلمين لم يمهلوهم أخذوا ببعض مقولة القدرية ولم يأخذوا بها كاملة ...(١)، فأثبتوا مرتبتين: العلم والكتابة، ونفوا المشيئة والخلق، وقالوا: إنَّ العبد هو الذي يشاء وهو الذي يخلق فعله مستقلا عن الله، فيوقع الفعل والله لا يريده، وبذلك قال صلّى الله عليه وسلّم: «القدريَّة مجوس هذه الأمة»(٢) لأنَّ المجوس – كما تقدم - هم الذين يقولون: إنَّ الظلمة هي التي توقع الشر دون الله عزَّ وجلَّ، ولهذا قال أهل العلم: إنْ كان المجوس قد أثبتوا خالقَين؛ فقد أثبت القدرية خالقِين، لأنهم يقولون: كل عبد مستقل بفعله، هذا يخلق فعله وهذا يخلق فعله وهذا وهذا بملايين الناس، فإذا كان المجوس مشركين لأنهم أثبتوا خالقَين اثنين؛ خالق للنور خالق للخير، والظلمة خالقة للشر فصاروا بذلك مجوسا؛ فما بالك بمن يثبت لكل الأفعال خالقا مستقلا عن الله؟ فيوقع العبدُ فعله والله لا يشاؤه - نعوذ بالله من قالة السوء - ولهذا جاء الحديث فيهم بأنهم مجوس هذه الأمة.

(١) جملة غير مفهومة.

(٢) صحيح. أبو داود (٤٦٩١). صحيح الجامع (٤٤٤٢).

الخصلة الجاهلية الثانية - وهي توجد في كثيرين - وهي الاحتجاج على الله تعالى بالقدر، بعد أن يُثبت القدرُ يحتجون على الله تعالى بالقدر، كقولهم ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾(١) إلى قوله عزَّ وجلَّ ردا عليهم﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾(٢) ، القدر لا يمكن أنْ يُحتج به على الرب سبحانه وبحمده، الله تعالى آتى العبد مشيئة وقدرة يزاول بها الأفعال، فنحن الآن أتينا إلى هذا المسجد جميعنا لم يجبرنا أحد حتى دفعنا دفعا إلى هذا المسجد، نستشعر ونعرف من أنفسنا أننا أتينا إلى هذا المسجد مختارين بمشيئتنا، وأنَّ لنا قدرة زاولنا بها الوصول إلى المسجد حتى وصلنا إليه بأقدامنا أو بسياراتنا فدخلنا إلى المسجد وجلسنا فيه، لنا مشيئة ولنا قدرة على هذا، في نفس الوقت هذا الذي مر علينا في صلاة الفجر؛ هناك من عندهم مشيئة وقدرة لم يدخلوا المسجد ولم يصلوا ولا ينوون الصلاة أصلا، هؤلاء صلوا وأتوا لهذا المسجد باختيارهم، وأولئك تركوا المجيء إلى المسجد باختيارهم، فكيف يحتج على الرب بالقدر؟ لأنَّ للعبد مشيئة وله قدرة، ولهذا قلنا: إنَّ الذي لا يكون له مشيئة كالنائم مثلا مهما قال، المجنون مهما تكلم ومهما فعل فهو في حكم من عُدمت له القدرة والمشيئة لأنَّ الله ما كلفه أصلا، فالمجنون لا يؤاخذ مهما قال ومهما كانت ألفاظه ولا يقام عليه أي حد من حدود الله تعالى، لأنه مسكين قد سُلب عقله، فلما سلب الله تعالى عنه هذه النعمة أسقط عنه ما أوجب على عباده، إذا أخذ ما وهب سقط عن العبد ما وجب، الذي وهب هو العقل، سقط عنه ما وجب؛ سقط عنه الواجب عليه من ملازمة الأحكام الشرعية، فكيف يُحتج بالقدر؟ القدر لا يمكن أنْ يُحتج به على الرب سبحانه تعالى، لأنَّ الله تعالى أعطاك المشيئة والقدرة، لو أنَّ الله يؤاخذ المجانين ومَنْ لا مشيئة لهم لكان ثمة وجها للاحتجاج، لكن الله لا يؤاخذهم لأنه الله أعلم وأحكم سبحانه من أنْ يؤاخذهم وقد عَلِمَ - وهو علام الغيوب - ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾(٣) عَلِمَ أنَّ هؤلاء ليس لهم أي تكليف فلا يؤاخذهم، أما العباد المكلفون الذين عَلَّمَهم الله؛ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا

---

(١) الأنعام: ١٤٨.

(٢) الأنعام: ١٤٩.

(٣) الملك: ١٤.

تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾[1] عَلَّمَهُم سبحانه وتعالى ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾[2] ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[3] عَلَّمَك وعرفت النجدين ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[4] عرفت الطريق الذي يوصل إلى الخير والطريق الذي يوصل إلى الشر، ثم تركب الطريق الذي تعلم أنه يوصل إلى الشر وأنَّ الله تعالى تهدد صاحبه وتوعده بدخول النار ثم تقول: القدر، ليس لك حجة في القدر.

الخصلة الثالثة من خصال أهل الجاهلية في أمر القدر: معارضة الشرع بالقدر، الشرع هو الأحكام من واجبات ومحرمات يجب على العبد أنْ يُلاحظ ما جاء به الشرع فيها فيمتثل الأوامر فعلا ويجتنب النواهي تركا، هذه الأوامر من الشرع لا يحل لأحد إذا جاء أمر الله تعالى في مسألة من مسائل الشرع أنْ يحتج عليها بالقدر، فعلى سبيل المثال: إذا حضر وقت الصلاة؛ هذا الوقت فيه أمر من أوامر الله تعالى وهو إقام الصلاة، أقيموا الصلاة، ليس له أنْ يحتج ليُسقط الشرع وليتخلص من أحكام الشرع ليس له أنْ يحتج بالقدر فيقول: قد قدَّر الله عليَّ أن لا أصلي، اتركوني، أنا ممن قدَّر الله عليَّ أنْ لا أصلي!

قال أهل العلم: الرد على المحتج من وجوه: أقوى هذه الوجوه على الإطلاق أنَّ النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بنفسه أجاب عن هذا السؤال، لما أخبر عليه الصلاة والسلام أنَّ الأمور مقضية قد كتبت، قال الصحابة رضي الله عنهم: يا رسول الله؛ فيم العمل؟ يعني مادامت الأمور قد قُدِّرت لماذا نعمل؟ فقال: «اعملوا فكل مُيسَّر لما خُلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة» ثم قرأ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[5](1)، فهما طريقان، من ركب الطريق الخيِّر فهو بإذن الله

---

(١) النحل: ٧٨.

(٢) النساء: ١١٣.

(٣) العلق: ٤، ٥.

(٤) البلد: ١٠.

(٥) الليل: ٥-١٠.

ورحمته يصل إلى كرامة الله وإلى الجنة، أعطى واتقى وصدق بالحسنى فيثبت على هذا الحال إلى أنْ يلقى الله تعالى فالله تعالى فضلا منه ورحمة يجعله من أهل دار كرامته، وأما من بخل واستغنى وكذَّب بالحسنى؛ هذا الدرب إلى أين يصل به بصاحبه؟ إلى جهنم وبئس المصير ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ والله تعالى قد أمر العباد في ما يتعلق بالشرع بأوامر، أمر القدر العباد لا يعلمونه، أمر مخفي لا يدري العبد بالوضع الذي كُتب له بالسابق ولا بالمصير الذي سيصل إليه في القيامة، وامتحن اللهُ العبادَ بالحال الذي هم فيه ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[٢] فيأتي الشيطان إلى الناس فيُشْغِلُهُم عن الذي خلقوا له ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ فيتحدثون عن المكتوب السابق، ويحتجون بالمكتوب السابق على وضعهم، أنهم ليسوا من أهل الصلاح وليسوا من أهل أداء الأوامر، من قال لك: إنَّ المكتوب لك في السابق هو كذا؟ ومن قال لك: إنَّ مصيرك في الآخرة هو كذا؟ أنت لا تعلم، أنت لست ممن قال الله تعالى فيهم مثل قوم نوح: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾[٣] ولست ممن وصل إلى الهلكة وأُعْلِمَ بهلكته في الدنيا ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ، مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ، سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾[٤] هذا عرف أنه هالك وهو في الدنيا، لكن أنت - كما قال أهل العلم - وهو الوجه الثاني من وجوه الرد على المحتج بالقدر: هل اطلعت على اللوح المحفوظ وعرفت أنك لن لا تصلي؟ مَنْ قال لك: إنك قد كتبت في اللوح المحفوظ أنك لست من أهل الصلاح؟ ولهذا إذا جاءت الزواجر الشريعة وأُلْزِمَ هؤلاء بأحكام الله صلوا وكفوا عن الزنى وعن الفواحش وعن الفساد وصار ادِّعاؤهم الاحتجاج بالقدر ادِّعاء باطل.
الأمر الثالث في الرد على المحتج بالقدر: أنْ يقال: أنت مقر بهذا المنطق أنه منطق صحيح وليس بأعوج؟ فيقال: نحاكمك إلى نفسك، طبق أنت هذا المنطق على أمور الدنيا، أنت تطبق هذا على أمور الدين الآن،

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٤٨).

(٢) الملك:١، ٢.

(٣) هود: ٣٦.

(٤) المسد: ١-٤.

طبق هذا المنطق على أمور الدنيا، أنت تقول: إنْ كان الله تعالى كتب لي أن أصلي؛ صليت، وإنْ كان كتب لي أنْ لا أشرب الخمر لن أشرب، فيقال طبق، قل: إنْ كان الله تعالى كتب لي أنْ أُرْزَقَ فسأرزق واقبعْ في بيتك، لا تخرج ولا تبذل سببا، وقل ما هو أسوء من هذا، قل: إنْ كان الله كتب الذرية فستأتيني الذرية بدون أنْ أتزوج، يقول: هذا جنون، وأشد جنونا منه أنْ تعرض نفسك للنار وتركب طريق الهلكة وتقول: إنْ كان الله كتب أنْ أكون من أهل الجنة فسأكون من أهل الجنة، فيقال لك: ابق في بيتك، لماذا أنت أشد كدحا من الدواب في السعي في الرزق، يُمثلون بالقُطرب يقولون هو دابة تستمر؛ كما قال ابن مسعود: (لا يكن أحدكم قطربا - كالقطرب - ينام ليله ويسعى نهاره)[1]، يعني لا يكون له نصيب من الليل، يكون له نصيب، يقول: لا تكونوا كهذه الدابة، لكم رب ولكم نصيب، ليجعل أحدكم من ليله نصيبا يصلي فيه، لا تكونوا كالدابة هذه - القطرب - فيقال: هؤلاء الذي يتكلمون بهذا المنطق ويحتجون بالقدر ليتخلصوا من أحكام الشرع؛ هل يطبقون هذا في أمور الدنيا؟ لا، إنما يطبقونه في مسائل الدين، فإذا قيل لهم: صلوا، قالوا: إنْ كان الله جعلنا من أهل الصلاة سنصلي، فيقال: اجلس في البيت، وقل: إنْ كان الله تعالى كتبنا من أهل الرزق والسعة فسيأتينا رزقنا ونحن في بيوتنا، وابق في بيتك وقل: إنْ كان الله كتب لي الذرية فستأتيني الذرية وأنا في البيت، لا أحد يقول هذا مطلقا، لا من مسلم ولا من كافر، لأنَّ الله تعالى جعل أسبابا ونتائج، جعل تعالى للرزق أسبابا وأمر العباد بالسعي فيها ويَصِلُوْن بإذنه تعالى إلى الرزق، فالذرية لا يمكن أنْ تأتي الذرية إلَّا بزواج، فأمرنا بقوله صلّى الله عليه وسلّم: «تزوجوا؛ فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»[2] فلا يمكن أنْ تأتيك الذرية حتى تتزوج، لأنَّ الزواج سبب والذرية نتيجة لهذا السبب، وهكذا العمل الصالح سببٌ نتيجته بعد رحمة الله هي الجنة، والعمل السيء سبب نتيجته بعد عدل الله تعالى هي النار، فليس لأحد بتاتا أنْ يحتج بالقدر لأنه كما يقول أهل العلم: المحتج بالقدر كاذب ويعلم من قرارة نفسه أنه كاذب لأنه لا يطبق هذا إلَّا في أمور الدين، كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى: (وعند مراد الرب

---

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك (١١٨).

(٢) صحيح. أبو داود (٢٠٥٠). صحيح أبي داود (٢٠٥٠).

تحتج بالقضاء، وعند مراد النفس تسدي وتلحم)[(١)]، إذا جاءت أمورك الشخصية والخاصة بأمور الدنيا صرت تسدي وتلحم كالخياط الذي يخيط هنا وهنا، فصار عندك حركة وسعي لأنها مراد النفس، أما عند مراد الرب فتفنى كميت وتسقط وتقول: هذا شيء قدره الله عليّ، أنتم ما شاء الله أهل خير وصلاح كتب الله لكم أنْ تكونوا مِنْ أهل الخير، أنا أتمنى أنْ أكون مثلكم لكن كتب الله أنْ لا أكون من أهل الصلاح، قال: لماذا لا تطبق هذا الكلام على أمور الدنيا لهذا قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[(٢)] وفي قراءة ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كذابون، المحتج بالقدر على ترك الشرع كذاب ليس بصادق لأنه لو كان صادقا لطبق هذا في أمور الدين والدنيا معا، لكنه لا يطبق هذا إلَّا ليسكت الآمر بالمعروف، إذا قال له: صلِّ، قال: ليس لي، أنا أحب أنْ أصلي، لكن كتب الله أنْ لا أصلي، فإذا جاء أمر الدنيا أو أمر التماس الرزق أو جاء الهرب والخوف وجدته أجبن الناس وأشدهم هربا، وإذا جاء البرد اشتد في الاستدفاء واللباس، لماذا تلبس هذا اللباس في البرد؟ لأنَّ البرد يقتل الإنسان، إنْ كان الله كتب لك أنْ تموت بالبرد فستموت، لماذا تلبس؟ لا تلبس، لا تستدفئ، يقول: البرد مهلك، وهذا اللباس واقي، سبب جعله الله تعالى فيقال: كذلك الأعمال سبب ونتيجتها - بعد رحمة الله عزَّ وجلَّ - الأعمال الصالحة الجنة، والأعمال الطالحة سبب ونتيجتها - عدلا من الله تعالى - إلى جهنم وبئس المصير، فلا تحتج لتسقط الشرع بالقدر ولكن قل: أنا صاحب هوى، أنا لا أريد أن أصلي، أنا أريد أنْ أقع في المحرمات؛ فيأتيك الزاجر الشرعي لحدود الله التي شرعها لعباده حتى يُضبط هذا وأمثاله، أما أنْ يدعي الصلاح وأنه راض بقضاء الله وقدره فهو كاذب، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، فالحاصل أنَّ أمر القدر على ما ذكرنا لك فيه الأقسام الثلاثة هذه، يأتي الإشكال دائما في الاحتجاج بالقدر بأنْ يُرِّكز أحد على القسم الأول المتعلق بالرب حتى يُسقط المتعلق بالعبد، ثم إنَّ القسم الأول المتعلق بالرب - إثبات أنَّ الله تعالى علم وكتب وشاء وخلق.

---

(١) طريق الهجرتين (ص٥٣) بنحوه.

(٢) الأنعام: ١٤٨.

القسم المتعلق بالعبد -وهذا نسيت أنْ أذكره- القسم المتعلق بالعبد أنَّ ذلك -يعني أنَّ القسم الأول- لا يعني خلو العبد وسكوت مسؤوليته عن أفعاله، فتثبت ما يتعلق بالرب ويبقى لك أنت - فيما ذكرنا من الأشياء التي تكون وفق استطاعتك ومشيئتك - تبقى مسئولا عنها، فلهذا أهل السُّنَّة جمعوا النصوص بحمد الله، المتعلقة بالرب حق والنصوص المتعلقة بالعبد حق، فجمعوها جميعا فتبيَّن لهم واتضح لهم أمر الشرع والقدر، أما الذين ركزوا على القسم الأول فهم الجبرية، قالوا: الرب مادام كتب هذه الأشياء فالعبد مجبور، وانفتح للناس بهذه الطريقة أنْ يتسوروا على أحكام الشرع العظام ويخالفوها، وبالغ - عياذا بالله - غلاة الجبرية حتى عذروا الكفار ثم بالغوا حتى عذروا إبليس، هذا السبب الآن؛ هذا هو الذي يجعل هذه الخصلة خصلة جاهلية؛ أنَّ مثل هذا المنطق الخبيث يؤدي إلى أنْ ينفتح على العبد هذه العقائد كلها، وبالتالي يقال أيضا: - وهي من الردود التي يُردُّ بها على المحتج بالقدر - أرأيت لو أنَّ أحدا ضربك وأخذ مالك؛ ماذا تفعل؟ لو قال لك: أعذرني، أنا كتب الله أنْ آخذ مالك! وكتب الله أنْ أضربك! وكتب الله أنْ أسفك دم أهلك! مقدور! قَدَّرَ عليَّ! أليس تحتج بالقدر وتقول: إني كتب لي أنْ لا أصلي؟ أنا كتب لي أنْ أقتل أبناءك وأنْ آخذ مالك وأنْ أتعرض لك بالضرب، هل يرضى؟ لا يرضى، يكون أشد الناس شكاية من مثل هذا، وسعى في الانتقام منه، يقال: لماذا لم ترض بمنطقه؟ هو يحتج بنفس المنطق الذي ذكرته أنت ويقول: هذا الشيء كُتب عليّ وقتلتُ أبناءَك وسلبتُ مالك وضربتك أنت وهذا أمر قد كتبه الله، لا يرضى، ولهذا قال أهل العلم: إنَّ الجبري كذاب؛ لأنه يحتج بالقدر في أمور يشتهيها؛ ليتملص من أحكام الشرع ثم إذا عُمِل معه بنفس منطقه وقيل له: ارض بنفس المنطق الذي استعمله غيرك؛ لا يرضى ولا يقبل، فالحاصل أنَّ أمر القدر لا يحتج به إلَّا أهل الجاهلية، ولا ينفيه أيضا إلَّا أهل الجاهلية، وليس فيه أي اعتراض يستطيعون أنْ يعترضوا به على الله تعالى.

المسألة السادسة والأربعون: مسبة الدهر كقوله تعالى ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[1].

....

مسبة الدهر كثيرة جدا في الناس، في الجاهلية وحتى للأسف مع ورود النصوص الكثيرة التي منعت من مسبة الدهر؛ إلَّا أنها لا تزال في أفواه الناس إلى يومك هذا، ويكثر هذا في الشعراء، ما أكثر ما يذكرون الدهر: يا دهر ويحك ما أبقيت لي أحدا، وأنت والد سوء تأكل الولد، يا دهر يا دهر، هكذا، عبارات كثيرة وكذلك لعن اليوم ولعن الساعة وبعضهم يقول: لعن الله الساعة التي عرفت فيها فلان، هذا من مسبة الدهر وإنْ كانت شائعة، الساعة ما علاقتها، الدهر هو الزمان والليالي والأيام، الليل والنهار، الله تعالى يُقدِّر في هذا الليل والنهار ما شاء، فمنه أقدار يفرح بها الناس، ومنه أقدار تكون عكرة صعبة عليهم، الواجب على العبد إذا قدَّر الله تعالى عليه شيئا من هذه الأقدار المؤلمة أنْ يصبر، أما أنْ يسب الدهر - وهو الليل والنهار - ليس إليه شيء من الأمر فكونه وقع لك حادث هذا اليوم - الساعة الفلانية - هذه الساعة لا علاقة لها، لأنَّ هذه الساعة وقع فيها أقدار لأناس آخرين فرحوا بها وسعدوا، ونفس الساعة مثلا التاسعة من يوم الثلاثاء هذه وقع لك فيها أقدار فرحت بها، فأي علاقة للساعة وأي علاقة لليوم - الليل والنهار - أيُّ علاقة له بما صار لك حتى تسبه وتشتمه، تكون المسبة - عياذا بالله - مسبة للرب، لهذا جاء النهي في الحديث قال الرب عزَّ وجلَّ: «يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر؛ بيدي الأمر أقلب الليل والنهار»[2] وأنا الدهر: أي أنني أصرفه، بدليل قوله «أقلب الليل والنهار»، فالله سبحانه هو الذي يقلب الليل والنهار، يعزُّ ويذل ويغني ويفقر ويشفي ويمرض ويعطي ويمنع ويحيي ويميت، فهذا إليه سبحانه وبحمده، فإذا سُبَّ الدهر لأنه وقع في الساعة الفلانية كذا فالمسبة تعود إلى من أوقع هذا في الدهر لأنَّ الدهر لا شأن له، ليال ساعات لحظات لا شأن لها بهذا الذي قدره الله تعالى لك، ولهذا ذكر قول الدهرية ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ قول: وما يهلكنا إلَّا الدهر يقوله الدهرية الجاحدون لوجود الرب، ويقولون: هي

---

(١) الجاثية: ٢٤.

(٢) صحيح البخاري (٤٨٢٦).

أرحام تدفع وأرض تبلع؛ ليس هناك رب وخالق يخلق وإنما هكذا تلقائيا - نسأل الله العافية من قالة الكفر - وفُسِّرت أيضا بمقولة المشركين من أهل الجاهلية وأنه ليس هناك بعث، فالواجب على المسلم أنْ يتقي الله تعالى وأن لا يتزيَّ بزي أهل الجاهلية، سب الدهر هذا كثير جدا في الناس شعرا ونثرا وكلما أتى بأحدهم قدرٌ لا يلائمه لعن اليوم لعن الساعة لعن الزمان لعن الوقت الذي حصل فيه كذا وكذا، فنهينا عن هذا لأنَّ المسبة في الواقع تعود على الله - نعوذ بالله من ذلك - .

المسألة السابعة والأربعون: إضافة نعم الله إلى غيره كقوله ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾(١).

....

هذا أيضا مما يكثر في الناس، أنْ ينسبوا النعم إلى غير الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾(٢) ما يمكن أنْ يصيب العبد من نعمة في دنياه أو في آخرته إلَّا من فضل الله تعالى وإحسانه، فمن خصال أهل الجاهلية أنَّ الله تعالى إذا أوصل هذه النعمة بدلا من أنْ يشكروها ويحمدوا الله عليها ويتحدثوا بهذه النعمة ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾(٣) ينسبونها لغير الله، فتارة ينسبونها إلا أنفسهم، فالطالب إذا نجح وأخذ درجة عالية قال: هذا سهر الليالي؛ وهذا الكد؛ وهذا الجهد؛ أنا لست كالطلاب الذين أضاعوا أوقاتهم؛ هذا سعيي وجهدي وذكائي ونباهتي، وقد أرانا الله عزَّ وجلَّ وأرى الناس كيف أنَّ الأمر إليه وحده لا شريك له، وأنَّ بعض المُمَيَّزين جدا لم يتمكنوا أنْ يُجيبوا في بعض الاختبارات، هذه عبرة لهم ولغيرهم، حتى يُعْلَم أنَّ حتى الإجابة في الاختبارات هي فضل من الله سبحانه وتعالى، وأنه يمكن أنْ يُذاكر ويجد ويجتهد فلا يُمَكَّن، لأنَّ النعمة إذا لم تُكتب له فإنه لن يُمَكَّن؛ إذا لم يُوْصِل له الله عزَّ وجلَّ النعمة حتى لو وجد عنده الاستعداد فإن الله إذا لم يكتب له هذه النعمة فإنها لا تصل إليه ولو كانت بجانب يده، وهكذا التجار إذا خطط أحدهم لتجارة وهيَّأ لصفقة ثم تيسرت له أسبابها وجاءت على أكمل ما يكون من الربح قال: هذا لأني إنسان نبيه ذكي؛ ولست مثل هؤلاء الذين لا يعون طرق التجارة وأساليبها ثم يري الله تعالى هذا الذي يتحدث بهذا المنطق كيف أنه في أُخريات عمره صار موضع الصدقة والشفقة فأفقره الله سبحانه، فيُعْلَم أنَّ النعمة من الله، العبد نعم له سعي؛ إذا لم يُهيأ الله للسعي التوفيق فإنه لا ينفع العبد، ولهذا يوجد أذكياء كُثُر في الأرض ومع ذلك ليسوا بأغنياء لأن الله سبحانه وتعالى ما كتب لهم أنْ يُرزقوا، حاصل الأمر أنَّ النعمة لا يجوز أنْ تُنسب لغير الله تعالى، فنسبتك النعمة إلى نفسك أو إلى غيرك كما يحدث كثيرا أنْ تُنسب النعمةُ إلى الطبيب فإذا شفى الله تعالى العبد قالوا: هذا الطبيب الذي في

(١) النحل: ٨٣.

(٢) النحل: ٥٣.

(٣) الضحى: ١١.

البلاد الفلانية هذا فيه كذا وكذا وهو الذي يعرف وغيره لا يعرف، الطبيب لا يمكن أن يشفي بتاتا، الشفاء من الله وحده لا شريك له، ومن أسمائه تعالى الشافي، الطبيب يعالج ما يشفي، الشفاء منه سبحانه وبحمده، ولهذا لا يصح أنْ يُقال: إنَّ الطبيب شفاه، ولا يجوز أنْ يُطلق مثل هذا اللفظ لأنَّ الشفاء من الله، دليل على هذا - وهذا من آيات الله عزَّ وجلَّ موضع العبرة والتدبر - الأطباء في المستشفيات يكون عندهم عدد من المرضى يمرهم الطبيب يكونون مصابين بآفة واحدة يمرهم طبيب الباطنة فأعراض المرض في لأول هي نفس أعراض المرض في الثاني وفي الثالث وفي الرابع، يعطي الأول من العلاج نفسَ ما يعطيه الثاني فيموت الأول ويُشفى الثاني، لأنَّ الطبيب لا يشفي، الطبيب يعالج، إذا قيل له: لماذا مات هذا؟ قال: أنا لا أشفي، أنا لا يمكن أنْ أشفي، لكن انظر الآن ماذا أعطيت؟ أعطيت هذا نفس العلاج وأعطيت هذا نفس العلاج لكنَّ الله تعالى قضى أنْ يموت هذا لأنَّ له أجلا ينتهي عنده، وأعجبُ من هذا أنْ يموت الطبيب بالمرض الذي تخصص بعلاجه - من آيات الله سبحانه وتعالى - فيموت طبيب الباطنة الذي عالج ألوفا من الناس يموت بالباطنة، طبيب الصدر يموت بأزمة في صدره، الطبيب الذي اختص بالقلب يموت هو بأزمة أصابته في قلبه، فلو كان يشفي لشفى نفسه، وهكذا قول الناس مثلا إذا نجو من حوادث أو من نحوها نسبوا هذا إلى مهارة السائق، كما ذكر بعض السلف يقولون: (كانت الريح طيبة، وكان الملاح حاذقا)[1]، يعني إذا كانوا في البحر ووصلوا قالوا: الملاح - قائد السفينة - حاذق يُحسن القيادة، والريح أيضا كانت هادئة، ما كأن الله تعالى أسكن الريح فظلت على ظهر الأرض ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾[2] هذا من فضل الله عزَّ وجلَّ فنسبوا الأمر إلى الريح، وهكذا الملاح قالوا: إنه حاذق، ما بال هذا الملاح في سفرة أخرى تكسرت به السفينة فغرق ومن معه؟ فالأمر لله عزَّ وجلَّ، هكذا كثير في الناس أنْ ينسبوا النعمة لغير الله تعالى وهي من خصال الجاهلية ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾، قيل: إنَّ المراد بقوله تعالى ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ أي محمد صلّى الله عليه وسلّم؛ عَرَفَه كفرةُ مكة

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٣/ ٨).

(٢) الشورى: ٣٣.

وجحدوه، وقيل: إنَّ المراد عموم النعم، لأنَّ سورة النحل تسمى سورة النعم لكثرة ما ذكر فيها من صنوف النعم، أصناف النعم ذكرت في هذه السورة العظيمة، فيعرفون أنها من الله تعالى ثم ينكرونها، يأتي من يقول: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾(١) أي على علم عندي بأصناف المكاسب، وأني أَعِي وأفهم الطرق أو أني أهل لأنْ يقع هذا الخير لي كما قال قارون، فالحاصل أنَّ نسبة النعم لا يجوز أنْ تكون إلَّا لمن أَوْلَاها وأسداها سبحانه وتعالى ولا ينسبها العبد إلى نفسه، وإنما يلهج بحمد ربه سبحانه وتعالى ويشكره ويُقِرّ أنه منه سبحانه، والنعم لا يمكن أنْ تشكر إلَّا إذا تحققت ثلاثة أمور، إذا لم تتحقق هذه الأمور فبقدر ما ينقص من هذه الأمور ينقص من الشكر:

أَوَّلُهَا وأخطرُها ما يتعلق بالقلب وهو الإقرار بأنَّ النعمة من الرب، إذا لم يقر بأنَّ النعمة من الرب سقط - عياذا بالله - الشكر عندهم تماما، هذا متعلق بالقلب.

الأمر الثاني متعلق باللسان، أنْ يلهج بحمد الله وشكره ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فتحمد الله على السُّنَّة، تحمد الله على الأمن، تحمد الله على العافية، حتى في الأكل إذا تأملت هذا الحديث العظيم «الحمد لله الذي أطعم وسقى وسوَّغ وجعل له مخرجاً»(٢) كل هذا من الله، أنْ أطعمك وأنْ سقاك وأنْ جعله سائغا، وجعل له سبحانه وتعالى مخرجا، إذ لو بقي في بطنك لهلكت، فكلها منه سبحانه وتعالى، ولهذا قال النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إنَّ الله ليرضى عن العبد أنْ يأكل الأكلة فيحمده عليها، وأنْ يشرب الشربة فيحمده عليها»(٣).

الأمر الثالث: هذه النعم آتاك الله عزَّ وجلَّ إياها وحرم كثيرين منها فإيَّاك أنْ تستعملها في معصيته، لا يتم لك شكر إلَّا إذا استعملت نِعَمَ الله تعالى في طاعته، ومنها الأسماع والأبصار، يقول ابن سعدي رحمه الله تعالى في قوله تعالى ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾(٤) قال: هذه أصناف

(١) القصص: ٧٨.

(٢) صحيح. أبو داود (٢١٩٧). الصحيحة (٧٠٥).

(٣) صحيح مسلم (٢٧٣٤).

(٤) الملك: ٢٣.

النعم الثلاث، أصول النعم الثلاث: الفؤاد والسمع والبصر، يقلُّ الشكر فيها جدا، العباد يأكلون فيشبعون فيشكرون، يرزقون فيشكرون، ينجح الطالب فيشكر، لكن قلَّ أنْ يتفطن العبد لهذه النعمة المستديمة، البصر هذا نعمة مستديمة، الشبع تشبع إذا أكلت في اليوم فترات محدودة فتشبع فإنْ كنت لن تشكر إلَّا إذا شبعت فسيقلُّ عندك الشكر، الشكر ينبغي أنْ يكون عند العبد في نِعَمٍ مستديمة ظاهرة وباطنة كالبصر وكالسمع والفؤاد، القلب الذي يكون به الانسان عاقلا، يقل شكر هذه النعم، ولهذا هذه النعم سيحاسب الرب سبحانه وتعالى عليها ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾(١) ولهذا إذا أرسلت الأبصار في النظر إلى النساء في الشاشات مثلا كما هو حاصل الآن - مليئة جوالات بعض الناس بصور النِّساء - والانترنت يتنقل فيه بالنظر بين النِّساء ولربما كان للأسف الشديد طالب علم، ونبَّهْنا مرات عديدة على أنَّ هؤلاء يدعون أنهم يسمعون الأخبار ويتابعون أخبار المسلمين، وهذا من الشيطان الرجيم، تستطيع أنْ تعرف أحوال المسلمين من المشرق إلى المغرب دون أنْ تنظر إلى امرأة واحدة، من منعك من أنْ تنظر إلى الأخبار، لكن لن تعرف الأخبار إلَّا إذا عصيت بالنظر إلى النساء؟! تستطيع أنْ تصلك الأخبار وتعرف ما الذي يقع دون أنْ تنظر إلى ما حرم الله، وهكذا الأسماع لا ترسل في المحرمات ولا يجعل الانسانُ للشيطان عليها سبيلا، يقول: أنا حين أسمع هذه الأخبار - ويكون في أثنائها الموسيقى ونحوها - أنا ليست الموسيقى هذه مقصدا لي؛ إنما أقصد الأخبار! فتستطيع أنْ تسمع أخبارا وتقرأ أخبارا وتطلع على أخبار أكثر بكثير من هذه التي تُخلط بالمعاصي، لكن هذا من الشيطان الرجيم والله يقول: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ لكن الناس إذا اعتادوا شيئا استسهلوه، قد قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾(٢) الناس يستسهلون أمورا ويتوارد فيهم ويأخذها المتأخر عن المتقدم فيستسهلونه، ولهذا قال أنس رضي الله عنه - كما في البخاري: (إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر - من صغرها في نظركم - كنا نعدها على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من

(١) الإسراء: ٣٦.

(٢) النور: ١٥.

الموبقات)[١] أي من المهلكات، قال ابن سيرين - كما في مسند أحمد -: (صدق، وأرى أنَّ جرَّ الإزار منه)[٢]، أنظر إلى هذا المثال، الإسبال في نظر كثير جدا من الناس كأنه شعرة لا يكترث ولا يبالي به، مع أنَّ الإسبال ورد فيه الحديث الصحيح بأنَّ «ما أسفل من الكعبين فهو في النار»[٣]، ومع ذلك تساهل به كثير من المسلمين للأسف وربما كان من أهل الصلاة والخير والصدقات والنفقات ومع ذلك يتساهلون في سنتي واحد، ما الفرق بين المسلم وغير المسلم أنْ يرفع هذا فوق الكعب وهذا ينزله إلى أسفل الكعب، وفيه الحديث العظيم هذا، فالحاصل أنَّ هذه النعم يجب أنْ تستعمل في طاعة الله تعالى، وأنْ تُجعل معونة على ذكره وشكره، لهذا ورد في المسند أنَّ الرب سبحانه وتعالى قال: «إنما جعلنا النعم - أو نحوه - لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة»[٤] الله تعالى أمدَّ العباد بهذه النعم لماذا؟ لأجل أنْ يعبدوه؛ لأجل أنْ يصلوا؛ لأجل أنْ يزكوا؛ لأجل أنْ يقيموا عبادة الله، فمن الاغترار أنْ تنشغل بهذه النعم عن الواجبات، أنت لم تعط النعم إلَّا لأجل أنْ تقيم الواجبات أصلا، فأشغلتك هذه الوسائل عن الغاية التي لأجلها خُلقتَ، فالحاصل أنَّ من خصال أهل الجاهلية هذا الحال؛ بأنْ ينسبوا النعم بعد أنْ أوصلها الله تعالى إليهم بأنْ ينسبوها إلى غيره عزَّ اسمه.

---

(١) صحيح البخاري (٦٤٩٢).

(٢) أحمد (١٥٨٥٩).

(٣) صحيح البخاري (٥٧٨٧).

(٤) أحمد (٢٤٢٧٦) بنحوه.

المسألة الثامنة والأربعون: الكفر بآيات الله.

المسألة التاسعة والأربعون: جحد بعضها.

....

هذا من تفاوتهم - والعياذ بالله - في الكفر، ومراده بالكفر بآيات الله – فيما يظهر - الآيات المنزلة في الكتب التي أنزلها الله عزَّ وجلَّ فهم يكفرون بالرسل وبالكتب، منهم من لا يكفر بجميع الآيات لكنه يجحد بعضها، إذاً فهم متفاوتون في أمر كفرهم وجحدهم، منهم من يكفر بالآيات جملة ومنهم من يجحد بعضا ويُقِرُّ ببعض، كحال اليهود مع الآيات التي أنزل الله على عيسى؛ جحدها اليهود، وحال اليهود والنصارى مع الآيات التي أنزلها الله تعالى على محمد صلّى الله عليه وسلّم؛ فجحدوها، فاليهود جحدوا الآيات التي أنزلها الله تعالى على محمد وعلى عيسى عليهما الصلاة والسلام، واليهود والنصارى جحدوا الآيات المنزلة على محمد صلّى الله عليه وسلّم، واليهود جحدوا الآيات المنزلة على عيسى صلّى الله عليه وسلّم، ولهذا فرَّق فقال: إنَّ بعضهم يكفر بها جميعا، وبعضهم يجحد بعضها، معلوم أنَّ الكفر - كما تقدم - بنبيّ واحد كفر بجميع الأنبياء، وفيما يتعلق بالآيات مَنْ جحد آية واحدة كان جحده لهذه الآية كجحد جميع الآيات كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: (أنَّ الكفر بحرف من القرآن كفر به كله)(1)، لا يقال إنه مؤمن بنسبة ثلاثة أرباع أو تسعون بالمئة، لا، بمجرد أنْ يكفر بشيء من هذا الكتاب العظيم يكون كافرا به كله، لأنه ما الفرق بين أنْ تجحد بهذه الآية العاشرة في سورة طه وتُقِرَّ ببقية الآيات قبلها في السور وبعدها في السور وما بعدها، ما الفرق بين هذه الآية وما سواها؟ كلها قد أنزلها الله، فمن جحد آية واحدة فإنه يكون قد جحد وكفر بالقرآن كله.

---

(1) السنن الكبرى للبيهقي (19901).

المسألة الخمسون: قولهم ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾(١).

....

هذه المقولة اختلف أهل التفسير مَنِ الذي قالها؟ منهم مَنْ قال: إنَّ الآية نزلت في قريش، اختار هذا ابن جرير وابن كثير، قال ابن كثير رحمه الله: لأنَّ الآية مكيَّة، ولأنَّ اليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء حتى يقولوا ما أنزل الله على بشر من شيء، أما العرب فكانوا ينكرون إرسال محمد صلّى الله عليه وسلّم لأنه من البشر يقولون: كيف يرسل الله تعالى بشرا - كما تقدم عند الكلام على القياس الفاسد - وبناء عليه قالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ لأنهم يجحدون أصلا أنْ يرسل الله تعالى أحدا من البشر.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً﴾(٢) هذا القول الأول من أقوال المفسرين، من المفسرين من قال: إنَّ الآية نزلت في اليهود في طائفة منهم، وقيل: إنها نزلت في رجل منهم هو فِنْحَاص اليهودي أو مالك بن الصيف لما ذكر له النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم شيئا مما هو في كتبهم غضب وقال: ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾، قال أصحاب هذا القول: سورة الأنعام نعم مكية؛ لكن السورة المكية يكون في أثنائها آية مدنية، وهذا يوجد في القرآن أنْ توجد سورة مكية ويوجد فيها آيات مدنية، ولهذا تجد في كلام أهل العلم رحمهم الله تعالى في السور أنَّ هذه السورة مكية إلَّا الآية كذا والآية كذا مما نزل في المدينة، وعِلْمُ النازل في مكة والنازل في المدينة عِلْمٌ من العلوم التي تُذكر في كتب علوم القرآن، فالحاصل أنَّ أصحاب هذا القول قالوا: نعم إنَّ هذه السورة مكية لكن هذه الآية مدنية والذي قالها هم اليهود، أو قالها أحدهم مالك بن الصيف أو فِنْحَاص اليهودي، وبكل حال فهذه المقولة ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ مقولة جاهليين لأنَّ مقتضاها أنَّ الله تعالى خلق البشر وجعلهم عقلاء يستطيعون أنْ ينتفعوا بما يأتيهم من ربهم لكن أهملهم وجعلهم تائهين ضائعين لم يرسل لهم رسلا ولم

---

(١) الأنعام: ٩١.

(٢) الإسراء:٩٤.

ينزل كتبا فأبقاهم تائهين، هذه لا يقولها من يعرف الله تعالى، إنما يقول هذه المقولة السفلة الذين لا يفقهون عظمة الله تعالى، الرب سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ، فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾(١) الله تعالى يتعالى ويتنزه عن أنْ يخلق الخلق ويتركهم سدى هملا ضائعين هاملين، ماذا يفعل سبحانه وتعالى؟ ينزل الكتاب ويرسل الرسل، فالذين جحدوا النُّبوّة كالبراهمة من الهنود والملاحدة عموما الذي يجحدون حتى - عياذا بالله - الربوبية والنبوة؛ هؤلاء همل تائهون لا يعرفون الله سبحانه وتعالى، سواء قيل إن الآية نزلت في اليهود أو في أهل مكة الكفار فإنَّ هذه مقولة جاهلية، فالله تعالى لا يضيع العباد بعد أنْ خلقهم.

(١) المؤمنون:١١٥،١١٦.

المسألة الحادية والخمسون: قوله في القرآن ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾(١).

....

هذه المقولة قالها الوليد بن المغيرة والد خالد، خالد رضي الله عنه أسلم وخالد بن الوليد بن المغيرة، يقول عدو الله تعالى - بعد أنْ سمع القرآن: إنْ هذا إلَّا قول البشر، هذه مقولة جاهلي كذاب أفَّاك، الفرق العظيم جدا بين القرآن وبين قول البشر فرق يعلمونه هم، ولهذا تحداهم الله تعالى عن أنْ يأتوا بسورة، أنت تقول: إنه قول البشر معنى ذلك - وأنت من البشر - أنك تستطيع أنْ تأتي بشيء مثل هذا لأنه مثل قولك، فاتوا بعشر سور، لا يتمكنون، فأتوا بسورة، لا يتمكنون، فإذا كان من كلام البشر - وأنتم بشر - فهاتوا مثل هذا الكلام، لا شك أنهم كذبة في هذا، وأنهم لا يمكن أنْ يكونوا صادقين لأنهم قد أعجزهم القرآن وقد تعجبوا عجبا بالغا من عظمته، ولهذا هذا القرآن العظيم إذا تأمَّله المسلم وقرأ ختمة من الختمات وقرأ في التفسير يقرأ ثانية فيجد من عجائبه وعظيم العلم الذي يجده في قراءته الثانية ما لم يكن مَرَّ به في مرته الأولى، ولهذا لو فسر القرآن بما فسر فإنَّ علومه غزيرة جدا وعظيمة لأنها من عند الله عزَّ وجلَّ، فالرب سبحانه وتعالى هذا كلامه ولأجل هذا صار بهذه العظمة، لا يقرأه الجنب، لا يمس المصحف إلَّا طاهر ونحوه لأنَّ هذا كلام الله، فلا شك أنَّ هذا كلام الله، هذه الآية ذكرها أهل العلم عند المناقشة في موضوع الصفات - صفة الكلام - حيث قال الجهمية وخلفاؤهم في صفات الله عزَّ وجلَّ - صفة الكلام - قالوا الاعتقاد الباطن الذي أشبه قول الوليد بن المغيرة، وذلك أنَّ من الطوائف التي قالت في القرآن المقالة السوء الكلابية ومن تفرع عنهم الأشعرية وغيرهم أنهم قالوا: إنَّ معنى القرآن من الله ولفظه من محمد، قال أهل العلم - كعثمان بن سعيد الدارمي والسلف وأمثالهم -: هذا المقولة تشابه مقولة الوليد بن المغيرة - عياذا بالله - في قبحها وسوئها، لأنَّ ابن المغيرة يقول: إنْ هذا إلَّا قول البشر - يعني من محمد صلّى الله عليه وسلّم - وأنتم الآن قلتم: إنَّ الألفاظ من محمد فمعنى ذلك أن مقولتكم مثل مقولة الوليد بن المغيرة، ثم قال أهل العلم: كيف تقولون إنَّ هذا اللفظ من محمد والله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

---

(١) المدثر:٢٥.

اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾(١) الآية معناها أنَّ المشرك المحارب لو أنه طلب جوار النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتى يأتيه ويتعرف على الإسلام من أهله، يقول: أنا في بلد محارب لكم أريد أنْ أتعرَّف على هذا الدين، تقولون: إنَّ عندكم نبي وإنَّ عندكم قرآن؛ فأنا أريد أنْ آتي وأتعلم الدين من عندكم أنتم، وأنا أسمع قومي يهرفون ويكذبون ويشتمون، أنا أريد أنْ أعرف الدين منكم وأنا محارب لو أتيت إليكم لقتلتموني فأريد أنْ تجيروني حتى أسمع القرآن وحتى أتعرف على الدين منكم، فإن قبلت صرت واحدا منكم، وإنْ لم أقبل فردوني وارجعوني إلى بلدي، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ يعني إنْ أبى أنْ يسلم لا يقتل لأنك أعطيته الجوار فأرجعه إلى مأمنه الذي جاء منه، الشاهد ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾ فالقرآن كلام الله بلفظه ومعناه ولأجل ذلك نُسب لله سبحانه وتعالى، أما إذا نُسب - والعياذ بالله - إلى محمد صلّى الله عليه وسلّم كما يقول الذين يقولون: إنَّ الألفاظ من محمد أشبهت هذه الكلمة كلمة الوليد بن المغيرة - والعياذ بالله. -

(١) التوبة: ٦.

المسألة الثانية والخمسون: القدح في حكمة الله تعالى.

....

الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾(١) فالله تعالى حكيم فيما شرَّع وحكيم فيما قدَّر، وأفعاله سبحانه وتعالى على أكمل ما يكون من الحكمة، تارة تظهر الحكمة وتتبين في الحكم الذي أمر الله تعالى به، وتارة لا تظهر، فهل في ما أمر الله به حكمة مما تظهر لنا؟ نعم، لا شك أنَّ أفعال الله تعالى كلها على وفق الحكمة، لكن الحكمة تارة تظهر وتارة لا تظهر، وهكذا أقدار الله سبحانه وتعالى، لا يمكن أنْ يُقَدِّرَ الله تعالى أمرا إلَّا لحكمة بالغة، حتى الهزيمة يوم أحد قدَّرَها الله سبحانه وتعالى حكمة منه، لأنَّ النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عُصي في أمر واحد وهو أنْ لا يتجاوز الرماة أماكنهم، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾(٢) يعني كيف يقع هذا وفينا رسول الله ونحن مسلمون كيف يتمكن منَّا الكفار، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾(٣) يعني أنتم السبب، ولهذا قدره الله تعالى حين عصيتم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في أمر واحد، فلا يُعصى، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(٤) فلما عُصي صلّى الله عليه وسلّم في أمر تأوَّلُوه رضي الله عنهم - ما تعمدوا مراغمته - حاشاهم رضي الله عنهم، لكن ظنوا أنَّ الحرب انتهت فنزلوا فأتى الكفار من الموضع الذي كان فيه الرماة فوقعت المصيبة ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني بسببكم فالله حكيم قدَّر هذا حكمة منه سبحانه وبحمده، فأفعاله وأحكامه كلها على الحكمة سبحانه وبحمده، من طريقة أهل الجاهلية أنْ يقدحوا في حكمة الله تعالى، وهذا يقع للأسف حتى من بعض العوام فتجدهم في ألفاظكم عندهم شيء من التسخط على القدر مصحوبا بالطعن في الحكمة، فيقول الواحد منهم: يكتب الله عزَّ وجلَّ كذا وكذا عليَّ وأنا لا أستحق أنْ يقع لي مثل هذا، أنا ما الذي فيه؟ ما الذي

(١) الأنعام: ١١٥.

(٢) آل عمران: ١٦٥.

(٣) آل عمران: ١٦٥.

(٤) النساء: ٦٤.

فعلت؟ هذا قدح في الحكمة مباشر، فيه أمران: فيه التسخط على القدر لكن لا شك أيضا يتضمن أمرا ثانيا وهو القدح في حكمة الله تعالى، يعني كأنه يقول إنَّ الله تعالى أوصل إليَّ هذا الأمر وأنا لا أستحقه، وهذا من جعل الأمر في غير موضعه، لأنَّ الحكمة ما معناها؟ وضع الشيء في موضعه المناسب، فإذا قيل - والعياذ بالله -: إنَّ هذا الفعل من الله تعالى ليس من الحكمة - نعوذ بالله من هذه القالة - فمعنى ذلك أنه قد قدح في حكمة الله تعالى، ولهذا يجب على المسلم أنْ يلاحظ هذا الأمر لأنَّ كثيرا ممن يتسخطون على القدر يتسخطون متضمنا عندهم التسخط هذين الأمرين، يتضمن عدم الصبر والاحتجاجَ على القدر، ويتضمن أنَّ هذا الذي وقع لم يكن في محله، هذا المعنى، سواء فيما يتعلق بالعبد أو فيما يتعلق بغيره، فتجد العبد يتسخط حتى في ما يتعلق بغيره، فيقول: فلان هذا الذي وُفِّق ورزق لا يستحق، ما معنى لا يستحق؟ يعني أنَّ الله تعالى قدَّر له هذا الذي حصل له من التوفيق جعل التوفيق في غير محله، القدح في الحكمة كثير في الناس، لكن كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى: (كثير من الناس عندهم تمنُّع على القدر وتسخط؛ لِمَ يكون هذا؟ ولِمَ لا يكون هذا؟ ثم قال رحمه الله: وفتش نفسك هل أنت سالم؟)[1] يقول: لو دققت حتى في بعض تعاملك مع ربك قد تجد أنك لست بسالم من التسخط على قدر الله تعالى وتَضَمُّنِ ذلك نوعا من المقولة بأنَّ هذا القدر ليس وفق الحكم - نعوذ بالله، نسأل الله العافية والسلامة -، من فرق الضلال الجبرية: مَنْ نفوا الحكمة أصلا، الجبرية نوعان: جبرية غلاة وهم أتباع الجهم بن صفوان؛ الذين ينفون أيَّ قدرة واستطاعة بل أيَّ فعل للعبد، الصنف الثاني من الجبرية: الجبرية الذين سُمُّوا بالجبرية المتوسطة - وهم الأشاعرة - وسماهم بالجبرية المتوسطة الإيجي في المواقف - وهو منهم - قال: إنَّا معاشر الأشاعرة جبرية متوسطة، الجبرية ينفون الحكمة أصلا، يقولون: إنَّ الله تعالى يمكن أنْ يجعل المؤمنين المتقين في الدركات في جهنم، ويجعل الشياطين والعصاة والكفرة في أعلى عليين، لو وقع منه هذا لأنه ليس عنده - نعوذ بالله من مقالهم - إلَّا مشيئة لا حكمة، كما قال ابن القيم في بيان اعتقادهم: ما ثم غير مشيئة قد ركبت مِثْلًا على مِثْلٍ بلا فرقان، فهذا من القدح في حكمة الله، لهذا حتى ينفون حتى حروف التعليل، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

---

(١) (زاد المعاد) (٢٠٧/ ٣).

وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(١) ليعبدون: بيان للحكمة، وهكذا قوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٢) أي لأجل أنْ تتقوا، فينفون جميع ما يتعلق بالأدوات الدالة على أنَّ الله تعالى يفعل لحكمة - نسأل الله السلامة والعافية - فهذا أشد من مجرد القدح في الحكمة، لأنَّ هؤلاء ينفون الحكمة من أصلها، لأنهم يقولون: إنَّ الله تعالى ما عنده إلَّا مشيئة، قد نفى الله هذا عن نفسه فقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ، مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(٣) لأنَّ الله تعالى يتنزه عن هذا، وقال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾(٤) بدون حكمة يعني ﴿فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾(٥) نـزَّه سبحانه وتعالى نفسه عن مثل هذا، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(٦) فالذي يزعم أنَّ الله تعالى يجعل المتقين كالمجرمين يجعل الذي اجترح السيئات كالمؤمن العامل للصالحات قد أساء في حكمه وقد جهل ربه سبحانه، فكيف يقال: إنَّ الله يفعل الشيء ويأمر بالأمر بلا حكمة، نعوذ بالله من هذه المقالة فهذه مقالة جاهلية.

---

(١) الذرايات:٥٦.

(٢) البقرة: ١٨٣.

(٣) القلم:٣٥، ٣٦.

(٤) المؤمنون: ١١٥.

(٥) المؤمنون: ١١٦.

(٦) العنكبوت:٤.

المسألة الثالثة والخمسون: إعمال الحيل الظاهرة والباطنة في دفع ما جاءت به الرسل كقوله ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾(١) وقوله تعالى ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾(٢).

....

هذه المسألة وهي تحايلهم في الظاهر وفي الباطن وإعمالهم المكر والخديعة ليدفعوا ما جاءت به الرسل صلّى الله عليهم وسلّم، ذكر قوله تعالى ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ الآية ذكر المفسرون أنها نزلت في حيلة احتالها اليهود ليُقْتَل عيسى عليه الصلاة والسلام فأتوا إلى ذلك الملك الوثني فقالوا: إنَّ هذا سيفسد عليك مملكتك وسيقع من آثار إفساده كذا وكذا فسعى الملك الوثني إلى القبض على عيسى صلوات الله وسلامه عليه وأرسل من يقبض عليه، هذا مكر اليهود لأجل أنْ يوقعوا عيسى عليه الصلاة والسلام في شَرَكِ هذا الملك، مكر الله بأنْ ألقى سبحانه وتعالى الشبه لعيسى على غيره، فأخذوا شبيه عيسى وظنوه هو عيسى وصلبوه والله تعالى قد بيّن أنَّ عيسى لم يُصلب قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ﴾(٣) فمن طرائق أعداء الله من الجاهليين أنهم يمكرون ليسقطوا ما جاءت به الرسل وليدفعوه كما ذكرت الآية، الآية الثانية أيضا في اليهود، اليهود لما فشا الإسلام وانتشر غضبوا وعزَّ ذلك عليهم وسَعَوا لإسقاطهم بكل حيلة، قالوا: تعالوا نؤمن وجه النهار - يعني أول النهار - أمام أهل المدينة، وأهل المدينة يعلمون أنَّ اليهود أهل كتاب، فإذا آمن اليهود أول النهار ﴿وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ يعني قولوا: اكتشفنا واتضح لنا أنه ليس الدين الذي ذكر عندنا واتضح أنَّ هذا الذي ظنناه رسولا؛ اتضح أنه ليس برسول – هذه الحيلة -، يعني حتى يحدث من جراء هذا ردة عظيمة فيمن ظنوا أنَّ هؤلاء اليهود آمنوا صادقين فيترتب على هذا نوع من الخلل والارباك الشديد، ولا يزال أعداء الله إلى يومك هذا يمكرون مكرا عظيما بالمسلمين، والغرب في هذا

(١) آل عمران: ٥٤.

(٢) آل عمران: ٧٢.

(٣) آل عمران:١٥٧، ١٥٨.

الزمن يمكر بالأمة مكرا عظيما هائلا يتعلق بدينها، يتعلق بأعراضها، يتعلق بخيراتها، يتعلق حتى بموقعها الجغرافي هذا، فيعملون الحيل في الليل والنهار، ومن ذلك هذه الحيل التي أثارها ليوجد في المنطقة بأسرها قلائل عامة لا يخلو منها بلد وقد سموها - عسى الله أنْ يردها إليهم أضعافا مضاعفة – سموها الفوضى الخلاقة، وعدوا بهذا، كلامهم مُحَرَّر ومكتوب وليس خرصا، وَعَدُوا بهذا بأنْ تكون المنطقة في حال من الفوضى، خلاقة لتخلق وضعا آخر يكون الكيان الخسيس الصهيوني هو المُتَسَيِّد فيه وتكون هذه الدول قد مزقتها وقطعتها هذه القلاقل، هذا أمر مُعلن ومظهر ووفق نظريةٍ قادتها الإدارة الخبيثة السابقة الأمريكية، وفي كل خُبْث - الحالي والذي قبله - لكن أولئك أشد خبثا، والخطط في ذلك عجيبة وغريبة وتمضي على كثير من الناس وتصرع عديدين يعملون وفق هذه الحيل وهم لا يشعرون، وربما كانوا من أحسن الناس عبادة وصلاحا، أعداء الله لن يتركوا الدين وأهله، وسيظلون في حال من المكر الكبَّار بأهل الإسلام في دينهم وأعراضهم وفي أموالهم وفي دمائهم وفي المواقع والمناطق التي جعلها الله لهم، فينبغي الحذر وأنْ لا يكون المرء غِرًّا جاهلا، ينبغي أنْ يكون المؤمن نبيها، فالمؤمن ليس خِبا، يقول عمر رضي الله عنه: لست خِبا وليس يخدعني الخِبُّ، ما يكون الانسان غبيا لا يقطع، يعني هذه الأوضاع التي تقع لو أنها انتشرت في كل البلاد ماذا يحدث؟ أنْ لا يأمن أحد نهائيا، وأنْ تتدهور هذه البلدان غاية التدهور وتضعف ويَتَسَيَّد أعداء الله من اليهود، هذا أمر واضح جدا، واسترساله وفرح بعض الناس به يرون عواقبه لاحقا، لأنه إذا صار طبعا صار هناك عدم استقرار سياسي نهائيا في جميع البلدان وهذا الذي يُخاف على هذه المناطق، ينبغي أنْ يكون طالب العلم واعيا مدركا أنَّ مثل هذه الأمور لا يمكن أنْ تخدم الإسلام وأهله، وأهل العلم رحمهم الله بيَّنوا أمر طرق إنكار المنكر والنظر في المآلات والعواقب، لا يُرتاب أنَّ استمرار هذه الأوضاع في بلاد المسلمين، في كل يوم تدبُّ في بلد عاصفةٌ هوجاء يحدث معها زعزعة وانفلات في الأمن ودمار في الاقتصاد وتهديم في البيوت والممتلكات لا يُرتاب أنَّ هذا يؤدي إلى ضعف عام في الأمة، لكن من طريقة المتحمس أنه يفرح في الأمر في أوله ولا يلبث أنْ يندم إذا تبيَّنت له النتائج ولهذا كانوا يتمثلون بقول امرؤ القيس: (الحرب أول ما تكون فتية تسعى بزينتها لكل جهول، حتى إذا اشتعلت وشب ضرامها ولَّت عجوزا غير

ذات حبيب، شمطاء يُنكر لونها وتغيرت، مكروهة للشم والتقبيل)، ولهذا قال السلف: الفتنة شبيهة - تشتبه - فإذا أدبرت رآها الناس كلهم، وقال أهل العلم: العالم فَرْقُهُ عن الجاهل أنه إذا أقبلت الفتنة عرفها؛ فإذا أدبرت استوى العالم والجاهل، يقول الجاهل: صحيح هذا ما كان يقوله أهل العلم صواب، لكن بعد ماذا بعدما عصفت الفتنة بالناس، فأول ما تُقبل الفتنة العاقل من شأنه أنه يتحرز ولا يدخل في الفتن، الفتنة من طبعها - كما قال امرؤ القيس - فتية تسعى بزينتها للجهال - لكل جهول - فينبغي أنْ يُتفطن للمكائد التي يضعها أعداء الله عزَّ وجلَّ ولهم كتب في مثل هذا ولهم مذكرات، ذكروا ما فعلوا في هذه البلدان وكيف كانوا يتنقلون ويفعلون وأنهم فعلوا كذا وأسسوا كذا وأنشأوا كذا، أشياء عجيبة كأننا نائمون لكن كثيرين لا يقرؤون، وتؤثر فيهم للأسف وسائل الإعلام التي هي من أفسد ما يكون في الأمة فيوجَّهُون توجيها، كثير من الناس توجهه وسائلُ الإعلام، لو توقفه وتقول: أنت رجل مصلي صائم مزكي تتقي الله عزَّ وجلَّ، وتنفق النفقات، تعظ؛ هذا الكلام الذي تتكلم به وهذا الموقف الذي وقفته عندك دليل بَنَيْتَهُ على دليل؟ ما بناه على دليل، أنت الآن عندك عدة اتجاهات، تؤيد كذا وترفض كذا وتدعو إلى كذا؛ سألت أهل العلم؟ ولهذا يُسمى الإعلام - وهو خطير جدا - الإعلام الموجه - نبَّهْنَا عليه عدة مرات - الإعلام الموجه هو الذي يُقصد به فكرة معينة، ويبذل فيه الغرب مليارات الدولارات في ضوء اقتصاد في غاية الصعوبة، لكنه يعلم أنه إذا وجَّه من خلال الإعلام فإنه يؤثر ولهذا هذه الإذاعة نُحَدِّدُها باسمها - المسماة بالـ بي بي سي - هي إذاعة استعمارية منذ الحروب الأولى بين العرب وبين الإسرائيليين، هي إذاعة توجيه وعملت على بث شيء كثير جدا من زعزعة العرب حتى في أثناء الحروب بين العرب واليهود، ولا تزال إلى يومك هذا، متى كانوا ينفقون لوجه الله عزَّ وجلَّ؟ فيضعون لك إذاعة باللغة العربية تكلفهم مليارات الجنيهات على مدار السنين زادت على السبعين سنة، لوجه الله؟ ليثقفوك؟ ليعلموك؟ ليجعلوك تتبنى أمس بطريقة ما يريدونه، ولهذا الإعلام خطر للغاية على من لا يفقه مداخله ولا يفقه ما يخطط من خلال الإعلام عليه، هناك تخطيط شديد جدا، ولهذا الانفاق الهائل في الإعلام - والذي يبلغ المليارات - أنت تعلم أنه ليس لوجه الله عزَّ وجلَّ، هذه القنوات التي وراءها مجموعة من الدول بما فيها الفاتيكان في

إيطاليا لديها مجموعة من القنوات، يريدون أنْ يُثَقِّفوا المسلمين؟ يُوَعُّوا المسلمين؟ لا، يريدون أنْ تتبنى هذه الأفكار بلسان عربي، لأنه لا يقف بلسانه الأعجمي فيقول: افعل كذا وكذا، كما قال عليه الصلاة والسلام: «هم من بني جلدتنا ويتحدثون بألسنتنا»(١) فينبغي الحذر وأنْ لا يكون الإنسان غِرا، فإنَّ من خصال أهل الجاهلية إعمال الحيل، وكما ذكرنا عن اليهود مع عيسى عليه الصلاة والسلام ومع الإسلام حين يؤمنون أول النهار ويكفرون آخره، ولا يزالون في حال من الحيل.

آخر فقرة في هذه المسألة هي التفطن أنَّ هناك من يتحايل من المسلمين لاستحلال الحرام، الحرام حرام لا يمكن أنْ يَحِلَّ إلَّا في الضرورة، فهناك جملة من الفتاوى التي عملت على أساس من الحيل، ولهذا قال أبو حنيفة رحمه الله: إنكم إنْ أخذتم بأقوال زفر استحللتم الحرام - يعني من خلال الحيلة -، لأنَّ بعض الأقوال - حتى التي لا تكون منضبطة على السُّنَّة - تكون مبنيّة على أساس من التحايل ليسقط الحكم الشرعي، فالحيلة التي على هذا الأساس لا شك أنها محرمة ولا يجوز أنْ تُغشى والحكم باطل والرجل آثم، حتى قال الإمام أحمد رحمه الله لما قيل له: إنَّ رجلا سئمت منه امرأته وأرادت منه أنْ يُطلقها فعجزت، أبى أنْ يطلقها، فأفتاها رجل - بما يرى أنه حيلة - تدري بما أفتاها؟ نسأل الله العافية، أفتاها بأنْ ترتد، فإذا ارتدت صارت كافرة وهو مسلم، والكافرة لا يصلح أنْ تكون تحت مسلم، فقال أحمد رحمه الله: من أفتى بهذه الفتوى يكفر، لأنه يفتي بالكفر، يقول: اكفري بالله عزَّ وجلَّ لأجل أنْ تتخلصي من هذا الرجل؛ فإذا عجزت عن أنْ يطلقك فاكفري، قال: من أفتاها بالكفر يكفر، إذا أفتيت أحدا أنْ يكفر فإنك زيَّنت له الكفر، يسمون هذه حيلة، ولهذا قال ابن المبارك وغيره: من كان عنده كتاب الحيل فليحرقه، لأنه صُنِّفَت كتب كلها قائمة على حيل، كيف تتخلص المرأة مثلا من الزوج إذا أبى أنْ يطلق، المعاملة هذه ربوية كيف تتحايل حتى تكون في الظاهر كأنها معاملة مباحة، وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود؛ فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»(٢) أو كما قال صلّى الله عليه وسلّم، اليهود لما حُرِّمَ عليهم

---

(١) صحيح البخاري (٣٦٠٦).

(٢) قال الشيخ الألباني رحمه الله في الضعيفة تحت حديث (٤١٦): (رواه ابن بطة في "جزء الخلع وإبطال الحيل" وإسناده جيد كما قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢ / ٢٥٧)).

الصيد يوم السبت ماذا فعلوا؟ نصبوا الشباك يوم الجمعة ثم تركوا الشباك أتت الأسماك، فوقعت الأسماك في الشباك يوم السبت، فجاءوا يوم الأحد فأخذوها، متى صادوا؟ صدناه يوم الأحد، لا صدتموه يوم السبت لأنه حرم عليهم ﴿وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً﴾ كثيرة ﴿وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم﴾ ابتلاهم الله بهذا، فلما رأوا الحيتان تكثر في السبت وضعوا الشباك يوم الجمعة حتى تصيد يوم السبت ثم يأخذونها يوم الأحد، فأبطل الله عزَّ وجلَّ وعدوا قد صادوا يوم السبت، الحاصل أنَّ التحايل أنَّ الله تعالى لا يمكن أنْ يخدع ﴿يُخَادِعُونَ اللهَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾(١) المخادع والمتحايل يخادع نفسه ولا يخدع الله تعالى.

---

(١) البقرة: ٩.

المسألة الرابعة والخمسون: الإقرار بالحق ليتوصلوا إلى دفعه كما قال في الآية.

....

هذه أيضا من حيلهم أنهم يقرون بالحق أي في الظاهر، ماذا يريدون من إقرارهم بالحق؟ ليس التزام الحق، لأجل أنْ يكون إقرارهم بالحق في الظاهر طريقا من طري العود على الحق وإزهاقه وإبطاله، هذا هو المراد، يقول كما في الآية - كما في الآية السابقة - ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾(١) ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾ أي أَقِرُّوا بالحق في أول الأمر، لأجل ماذا؟ لأجل أنْ تكفروا في آخره؛ فتتوصلوا إلى دفع الحق، فهذه قريبة من المسألة السابقة لكن فيها نوع من الخصوصية.

هكذا أهل الباطل قد يظهرون إقرارهم بشيء من الحق، ويعلنون أمام الناس أنهم اهتدوا إلى السُّنَّة وأنهم يحمدون الله عزَّ وجلَّ على هذا، فإذا مضت مدة بدأوا يُظْهِرُون في أهل السُّنَّة - بالنظر إلى أنه: نحن منكم أهل السُّنَّة - يبدؤون يُظْهِرون في أهل السُّنَّة جملة من الأباطيل التي لو أظهروها - وهم روافض مثلا - لقيل: هذا رافضي، أو لو كانوا كفارا وأظهروا الإسلام، فلو أنَّ كافرا قال كلمة من الباطل قيل: لا عجب، ليس بعد الكفر ذنب، هذا كافر، فيدخل في الإسلام في الظاهر، أو يلتزم السُّنَّة في الظاهر؛ لا للسُّنَّة وللإسلام ولكن لأجل أنْ يتوصل إلى دفع الحق، فهذه من طرائقهم ومن حيلهم، والشيخ صالح الفوزان حفظه الله - صاحب الشرح هنا - ذكر كلاما جيدا في هذا الموضع أنَّ المسلمين لا تزال هذه الحيل تحاك بشأنهم، وأعداء الإسلام إلى يومك هذا يحيكون هذه الحيل ويظهرون نوعا منه، الموافقة والاقرار ببعض الأمور لأجل أنْ يتوصلوا بذلك إلى رد الحق وجحده.

---

(١) آل عمران: ٧٢.

المسألة الخامسة والخمسون: التعصب للمذهب لقوله فيها ﴿وَلا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾[1].

....

المذهب إما أنْ يكون مذهبا باطلا من أصله كتعصب اليهود إلى مذهبهم في ما كفروا بـه مـن آيـات الله ورسله، فتعصبهم تعصب كافر لباطل، وإما أنْ يكون المذهب من مذاهب أهل الإسلام، قـول مـن أقـوال أهل العلم رحمهم الله، اجتهدوا - وهم محل للاجتهاد - وهو مأجورون على اجتهادهم؛ أجرين إنْ أصـابوا أو يؤجرون أجرا واحـدا إنْ أخطـأوا، الـذي يقـع؛ أئمـة الإسـلام رحمـة الله تعـالى علـيهم بـشر يـصيبون ويخطؤون، يأتي بعض أتباعهم فيتعصبون لمقالاتهم، مع أنَّ كـما قلنـا بـالأمس: أئمـة الإسـلام ينهـون عـن التعصب لأقوالهم ويمنعون من أنْ يُقَلَّدوا إذا وجدت في مقولاتهم ما يخالف الدليل، فيأتي أتبـاع يتمنعـون على النصوص الشرعية التي أوجبت لزوم ما قاله النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ويتمنعـون حتـى عـلى الأئمـة الذين ينتمون إليهم، فيتعصبون لأقـوالهم مـع نهـي الأئمـة لهـؤلاء الاتبـاع عـن أنْ يتعـصبوا، فالتعـصب الممقوت السيء هو أنْ يُدافع الانسان عن مقولة ويدعو إليها مع علمه بأنهـا لـيست بـصواب، فيكـون قـد تعصب تعصبا مذموما، أما الاستمساك بالحق والاستعصام به فهذا مما يمدح، كقوله تعالى ﴿وَلا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ تقدم أنَّ اليهود - هـذا مـن دأبهـم - أنهـم لا يؤمنـون ولا يُقِـرُّون إلَّا بحـسب مـا يوافـق أهواءهم مما تؤمن به طائفتهم ﴿وَلا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ يعني فإنْ جاء الحق من قِبَل أحد من غيركم فلا تقبلوا، تعصبوا واستمسكوا بما أنتم عليه وإنْ كان باطلا.

---

(١) آل عمران: ٧٣.

المسألة السادسة والخمسون: تسمية اتباع الإسلام شركا كما ذكره الله تعالى ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ﴾(١).

....

هذا من الأمور العظيمة التي حصلت أنْ قُلِبَ الحق باطلا، وجعل الباطل حقا، فالإسلام هو التوحيد الخالص الصافي النقي، فسموا من استمسك به بالمشرك، وهكذا سموا أهل التوحيد الذين منعوا أنْ تُصْرَفَ العبادة لغير الله تعالى كما يفعله عباد القبور وكما يفعله الروافض مع علي والحسن والحسين، لما أنكر عليهم أهل الحق - على هؤلاء جميعا - أنْ تُصرف العبادات لغير الله تعالى؛ كفَّروهم وقالوا: إنكم أنتم المشركون وأنتم الكفار، فقلبوا المسائل، فجعلوا التوحيد وجعلوا الإخلاص جعلوه هو الشرك، ومن ذلك ما فعلته المعتزلة أيضا، فإنَّ المعتزلة لما نفت الصفات سمت نفيها توحيدا وقالوا لمن أثبت الصفات: إنك مشرك، فقُلِّبَت هذه الأسماء وعُبث بها هذا العبث مع أنها أسماء شرعية ولها تحديد وضبط شرعي، لكنهم أفسدوها وقلبوها، وهذا لا يجري إلَّا على العامة وعلى الجهال، ذكر بعد ذلك قوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ﴾ الآية نزلت في شأن وفد نجران اجتمع أحبارهم عند النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم - وهم نصارى كانوا - فدعاهم إلى الإسلام فقال أبو رافع القرظي: أتريد يا محمد أنْ نعبدك كما تعبد النصارى عيسى؟ فقال رجل من نصارى نجران - يقال له الرئيس -: أَوَ ذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعونا؟ فقال صلّى الله عليه وسلّم - معاذ الله أنْ نعبد غير الله أو أنْ نأمر بعبادة غير الله تعالى: «ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني»(٢) أو كما قال صلّى الله عليه وسلّم، فأنزل الله الآية ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾، كيف يجترأ هؤلاء الأوقاح على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الذي يدعوهم إلى التوحيد الخالص ويقولون: إنك تريدنا أنْ نعبدك، وهو يُقَرِّر أنه عبد أرسله الله تعالى مهمته البلاغ كما قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ﴾(٣) ما الذي قاله صلّى الله

---

(١) آل عمران: ٧٩.

(٢) تفسير الطبري (٦/٥٣٩).

(٣) الشورى: ٤٨.

عليه وسلّم حتى يقال: إنه يراد أنْ يُعْبَدَ، وهو الذي حذر أصحابه من أي نوع من أنواع الغلو - حتى في الألفاظ - لما قال رجل: ما شاء الله وشئت، قال: «أجعلتني لله ندا؟»[1]، لما أراد معاذ رضي الله عنه أنْ يَسْجُدَ له - كما كان النصارى هؤلاء يسجدون لكبرائهم - أبى صلّى الله عليه وسلّم، وكان عليه الصلاة والسلام ينهى عن أنْ يزاد في الكلام، فكان يقول: «لا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عزَّ وجلَّ»[2] القصد أنَّ من خصال أهل الجاهلية قَلْبُ الأمور، فيأتون إلى الموحد الذي يدعو إلى التوحيد ويسمونه بالمشرك، ويسمون دعوته إلى التوحيد شركا.

---

(١) صحيح. النسائي في الكبرى (١٠٧٥٩). صحيح الأدب المفرد (٦٠٥).

(٢) صحيح. أحمد (١٢٥٥١)، غاية المرام (١٢٧).

المسألة السابعة والخمسون: تحريف الكلام عن مواضعه.

المسألة الثامنة والخمسون: ليُّ الألسنة بالكتاب.

....

تحريف الكلام: التحريف معناه تغيير الكلام، وتارة يكون التحريف باللفظ، وتارة يكون بإبقاء اللفظ مع تغيير وتحريف المعنى، وقد تكلمنا في ما مضى في طرائق القوم في التحريف.

المسألة التي بعدها الثامنة والخمسون: ليُّ الألسنة بالكتاب، قيل: المراد بلَيِّ الألسنة بالكتاب أنهم يحرفونه أيضا كما قال هذا عدد من المفسرين، ذكر ابن الجوزي في قوله عزَّ وجلَّ ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ﴾[1] أنَّ المراد أنهم يقلبونها بالتحريف والزيادة، فَبَيْنَ الخصلتين قُرب.

(١) آل عمران: ٧٨.

المسألة التاسعة والخمسون: تلقيب أهل الهدى بالصباة والحشوية.

....

هذا من فعل أهل الجاهلية، المشركون كانوا يطلقون على النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعلى أصحابه رضي الله عنهم يطلقون عليهم أنهم صبأوا وتركوا دينهم، والصابئ يعني أنهم تركوا الدين الذي عليه كفار قريش، فسموا المسلمين بالصابئة الذين صبأوا عن دينهم، وَرِثَ هذا خصومُ أهل السُّنَّة؛ لأنَّ الأمر كما قال الأول: لكل قوم وارث، فإذا كان المشركون قد نبذوا النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه بأنهم صبأوا؛ فالذين ورثوا منهج أهل الباطل صاروا يطلقون على من وَرِثُوا منهج النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أسماء كثيرة يعيرونهم بها وينبذونهم بها، من ذلك أنهم سموا أهل السُّنَّة بالحشوية، الحشو هو الشيء الذي لا خير فيه لا فائدة فيه، فسموهم بالحشوية مع أنهم أئمة الإسلام الذين حفظ الله بهم دينه، وحفظوا على الأمة كتاب ربها وسُنَّة نبيها صلّى الله عليه وسلّم ونقلوها للأمة فقالوا: إنهم حشو لا فائدة فيه، الفائدة فيمن؟ في المعتزلة والجهمية وأضرابهم إذاً؟ فيمن تكون الفائدة؟ في هؤلاء الذين أفسدوا على أمة دينها؟ فهذا من الاطلاقات، ولا يزال هذا موجودا إلى الآن، أنْ يُطلق على أهل الحق جملة من الاطلاقات، وصنف ابن درباس الشافعي مصنفا في الألقاب الباطلة التي أُطلقت على أهل السُّنَّة، فالرافضة تطلق على أهل السُّنَّة أنهم نواصب - يعني ينصبون العداء لآل البيت - وأين نَصَبَ أهل السُّنَّة العِدَاء لآل البيت وهو يترضون عنهم؟ وفي كل صلاة يقولون: السلام عليك أيها النَّبيّ ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أين يكون أهل السُّنَّة صابئة وهم إذا صلوا على النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يُصلون عليه وعلى آله، قالوا: لأنهم لا يكونون سالمين من النصب حتى يلعنوا الصحابة ويُكَفِّروا الصحابة، يقال: هذا عُرفكم أنتم - أخزاكم الله - أما أهل السُّنَّة فيتولون الصحابة والآل جميعا، كلهم، اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد، هذا الذي يفعله أهل السُّنَّة في صلاتهم في كل يوم، يصلون على آل النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فكيف يكونون ناصبين للعداء، قالوا: حتى هذا لا ينفعكم حتى تشتموا الصحابة، يقال: هذا مصطلحكم الخبيث أنتم وليس هذا هو النصب، النصب هو عداء آل البيت كما فعله الخوارج وأمثالهم، وهكذا يطلق

القدرية على أهل السُّنَّة أنهم جبرية، وهكذا كل طائفة تطلق على أهل السُّنَّة النبذ الذي تراه، وإلى اليوم وأهل الشر يطلقون هذه الاطلاقات، فكان الغربيون يطلقون على أهل الإسلام المستمسكين به اسم الأصوليين، فتكلم شيخنا الشيخ ابن باز رحمه الله قال: هذا مدح، الأصولي هو الذي يرجع إلى الأصل ويمسك به، فغَيَّرَ هؤلاء المفسدون الكلمة، لا تكاد تسمعها الآن، كنا نسمعها الأصوليون الإسلاميون كثيرا ما تقال في أهل العلم، فغَيَّرُوها وطَوَّرُوْها إلى الإرهابيين وأنواع أخرى من الاطلاقات، لأنهم يَلْحَظُون الوضع، كان الشيوعيون يطلقون كثيرا على أهل الإسلام الرجعيين، كانت إذاعاتهم تصدح بهذا، الرجعية والرجعيون ونحو ذلك من هذه العبارات، فالحاصل أنَّ أهل الباطل يَظَلُّون يطلقون ألفاظا يُنفرون بها من أهل الحق، والمؤمن العبرة عنده بالمضمون، أما الاسم الذي يتدين الله به فهو كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾(١) هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا: يعني أنَّ الله سمانا المسلمين في الكتب التي قبلنا، وفي هذا: أي في كتابه تعالى، فالاسم من الله عزَّ وجلَّ، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «سمُّوا المسلمين بما سَمَّاهم الله»(٢) المسلمين المؤمنين عباد الله، حتى يكون اسما عاما ولا يكون اسما يدل على نوع من التحزيب لأنه يكون اسما مبتدعا، ولهذا قال أهل السُّنَّة: إنه لا ينتسب إلَّا إلى الإسلام والسُّنَّة، السُّنَّة سنة النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يُنتسب إليه، لأنَّ أهل السُّنَّة سموا بأهل السُّنَّة لأنهم استمسكوا بالسُّنَّة، أما أهل الباطل فاستمسكوا بأنواع من الباطل، فهذه الاسماء يجب على أهل الإسلام أنْ يستمسكوا بالأسماء التي تدل على المدح الذي جاء في أدلة الشرع، أما أنْ يجتمع مجموعة فيسمون أنفسهم باسم، هذه جماعة كذا وهذه جماعة كذا وهذه جماعة كذا؛ فلا شك أنَّ هذا مما أضعف الأمة وأوهنها، والواجب على هذه الجماعات الموجودة الآن - المسماة بالجماعات الإسلامية - أنْ تجتمع جميعا فتكون جماعة واحدة، لأنه بذلك أمرنا، وتأتمر هذه الجماعات بما يقوله أهل العلم لا بما يقوله هذا المهندس وهذا الطبيب وهذا أستاذ بالإلكترونيات، كيف يستطيع هؤلاء وأمثالهم - ممن لم يعرف العلم - كيف يستطيعون أنْ

---

(١) الحج: ٧٨.

(٢) صحيح. الترمذي (٢٨٣٦). صحيح الترمذي (٢٨٣٦).

يعرفوا النوازل العظام في مسائل العقيدة، هذه المسائل لا تُقاد بمجرد أنْ يكون الشخص طَيِّبًا وفيه محبة للإسلام، وقد أمضى جُلَّ عمره في دراسة الطب، وهذا أمضى عمره في دراسة الهندسة، وذاك أمضى عمره في دراسة الحاسب، وعندهم محبة للخير، مساكم الشرعي أنكم عوام، لأنَّ العَامِّيَ هو الذي لم يتميز عن عموم الناس بعلم، والله تعالى جعل الناس في العلم درجات و﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾(١) فكيف تُقاد هذه الجماعات من قِبل أناس ليسوا من أهل العلم، ميدان الدعوة كما نعلم فيها جملة كبيرة من النوازل تحتاج إلى علم، موقف يوقف، فتوى يفتى بها، قوة في محلها، صفح وعفو في محله، فإذا لم يكن من أهل العلم جعل القوة في غير موضعه، وجعل الصفح في غير موضعه، وجعل المنع في غير موضعه، وجعل الاعطاء في غير موضعه، فالأمر ليس بالهَيِّن، لهذا هذه الجماعات لا شك أنها أضعفت المسلمين، حتى لو كان الذين قاموا بها يريدون خيرا، لكن إذا أخذت أنت مليون انسان، وذلك أخذ عشرين ألفا، وذاك أخذ ثلاثة آلاف، ماذا الذي يحدث؟ تتقطع وتتمزق الأمة، فبدل أنْ تكون الامة جماعات مُفَرَّقَة يعود الجميع إلى النبع الصافي وسُنَّة النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وتبقى الطاقات، هذه الجماعات فيها طاقات قوية وعندها إمكانيات كبيرة، فأبقوا طاقاتهم ولا تهدروها، وعودوا لتكونوا جماعة واحدة ليس لهذا اسم ولذاك اسم لأن الله سمانا بالمسلمين، هذا اسم وننتمي للسُّنَّة، أما هذه الانتماءات والتحزبات فأضعفت الناس وبغَّضت الابن لأبيه والزوجة لزوجها، وأحدثت من الشقاق بين المسلمين شيئا كثيرا، شرخ كبير في المسلمين، يتباغضون ويتعادون لأنَّ هذا ليس من جماعته، وأنا من جماعة كذا، ألستم جميعا من المسلمين؟ ألستم تريدون إعزاز سُنَّة محمد صلّى الله عليه وسلّم؟ اجتمعوا عليها ولا تُفَرِّقُوا الناس هذا التفريق، فالحاصل أنَّ هذه الأسماء ينبغي - سواء مما يُنبذ به أهل الحق من أهل الباطل - أو هذه التقطيعات للمسلمين على هذا الوضع لا شك أنها تمزق الأمة، ينبغي أنْ يكون أهل العلم وأهل الخير على جانب من الدراية بالوضع الحاصل على الأمة، الأمة الآن يُفَوَّق لها من السهام ومن التخطيط الهائل أشد مما كان في الفترات المسماة بالاستعمار، الحاصل الآن أشد بكثير لكن لا نرى جيوشا احتلت البلدان، لكن الحيل

(١) يوسف: ٧٦.

والمكر الكبَّار هائل، ففي ضوء هذا التخطيط الهائل والشديد؛ هذه جماعة فلان وهذه جماعة فلان وهذا حزب فلان، هذا يُضعف، لو كانت الأمة أمة واحدة لنهضت أمام أعداء الله، أما هذا التقطيع وهذا التحزيب للناس وتبغيض الناس بعضهم لبعض حتى إنك تعجب أناس حريصون على الدين وعلى الخير وتظهر فيهم السُّنَّة حتى في لحاهم حتى في ثيابهم حتى في صلاتهم، بينهم تباغض عجيب جدا، كأن هذا مسلم وذاك كافر، بسبب أنَّ ذلك من جماعة وذاك من جماعة، ومن قال لك: إنَّ لك أنْ تتدين لله بأنْ تنخرط في جماعة محددة، أنت مسلم أسلمت لله عزَّ وجلَّ وهؤلاء إخوانك، فيجب أنْ يَلْتَئِم المسلمون جميعهم ليكونوا جماعة واحدة، أما أنْ تأتي جماعة وتأخذ طاقات هائلة من الشباب ومن ما يسمى بالكوادر وغيره ويكونون يعملون في نطاق، وأولئك يعملون في نطاق، فهذا تمزيق وتقطيع، أنت لو كان عندك ماء قوي في حقلك ثم شعبت شعبة من هنا وشعبة من هنا ضعف الماء، بينما إذا كان يجري مجرى واحدا يكون قويا، وهذا الذي يحدث لهذا الأمة، لأجل أنْ تلتئم وأنْ تزول مثل هذه الأسماء وأنْ تتحد هذه القلوب على الكتاب وعلى سنة النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

المسألة الستون: افتراء الكذب على الله.

المسألة الحادية والستون: التكذيب بالحق.

....

هاتان خصلتان في أهل الباطل، افتراء الكذب على الله، يكذبون على الله عزَّ وجلَّ ويزعمون - مثل ما تقدم - ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا﴾(١) فيفترون على الله افتراء - عياذا بالله - أنَّ الله تعالى أمرهم بالفاحشة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾(٢).

الخصلة الثانية: التكذيب بالحق، هم لما افتروا على الله الكذب؛ الحق الذي أتى من عند الله يكذبونه ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾(٣) فهم يكذبون على الله ويفترون عليه عزَّ وجلَّ أنه أمر بكذا ويُزَيِّنُون أمرا وينسبونه إلى الله تعالى، مع أنَّ الله تعالى ما أمر به بل هو من الفحش الذي لا يأمر الله به، ويُكَذِّبُون الحق الذي أتى من عند الله، فلهذا ذكروا في هذه الآية ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾.

---

(١) الأعراف: ٢٨.

(٢) الأنعام: ٢١.

(٣) الزمر: ٣٢.

المسألة الثانية والستون: كونهم إذا غلبوا بالحجة فزِعوا إلى الشكوى للملوك كما قال: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾(١).

....

الضعيف إذا غَلَبَتْهُ الحجةُ خرج من نطاق المناقشة وصار يتقوى بأمور خارج المناقشة، تناقشه في مسألة علمية فيتضح أنه مبطل وتَظْهَرُ السُّنَّةُ وتتضح، لَمَّا سقط قوله ماذا يفعل؟ يخرج عن المناقشة ليضعف صاحب الحق بأمور خارج نطاق عن المناقشة، أتينا لنتناقش عن الصحابة رضي الله عنهم فأسقطنا مقولتك الرافضية فيهم، أو أنت يا معتزلي أسقطتنا مقولتك في موضوع الصفات؛ يكيد ويذهب إلى الحاكم ويتقوى بالحاكم، ما دخل الحاكم الآن في مسألة علمية؟ إنْ كنت ترى أنَّا - أهل السُّنَّة - قد أبطلنا وقلنا الباطل فلماذا لا ترد باطلنا، ما الذي يخرجك من نطاق المناقشة وتفزع إلى السلطان، فهذه طريقة أهل الجاهلية، إذا غُلبوا ولم يستطيعوا الجواب فزعوا إلى السلاطين وأظهروا أمام السلاطين أنَّ أهل الحق يريدون كذا ويخططون كذا ويسعون لتشويش الأمر على السلطان ويريدون زعزعة الحكم ويريدون منصبك أنت وهم يخططون على مثل هذا، السلطان يهاب ويخاف أنْ يتسبب هؤلاء في زوال حكمه؛ فيقبض عليهم ويودعهم السجون فيخبو ويقل الحق لا لأنه ضعيف ولكن لأنَّ المبطل لما عجز عن مقاومة الحق ماذا فعل؟ لجأ إلى أمر خارج مجال العلم وخارج المناقشة العلمية وهي التقوي بالسلاطين، ومن ثم قال الشيخ هنا لا يزال هذا قائما وموجودا عند أهل الباطل إذا عجزوا افتروا على أهل الحق بأنهم يخططون وبأنهم يقصدون إزالة دولة السلطان ومحاولة زعزعة الجماعة افتراء وإلَّا أهل السُّنَّة أبعد الناس عن مثل هذا، أهل السُّنَّة يُقَرِّرُوْن هذا لا خوفا من السلطان ولا تملقا له، يقولون: إنَّ السمع والطاعة للسلطان في الحق أمر أوجبه الله سبحانه وتعالى، وليس لأحد أنْ يتسبب في تشويش الجماعة كما شرحنا مفصلا بالأمس، لكن يتوصلون من خلال بعض المعارف - وربما كان السلطان يميل إلى بعضهم، أو يظن فيهم الصدق، أو يُظهرون شيئا من التدين أو نحوه أو يكون لهم به قرابة أو نحوه أو قبيلته كذا فيأتون إليهم ويقولون: هؤلاء سيفسدون

---

(١) الأعراف: ١٢٧.

عليك الملك نحن نعرفهم، يقولون: ألسنا من أهل العلم؟ يقول: بلى، يظهر للسلطان أنَّ هؤلاء بعمائمهم وبمظهرهم يظن أنهم من أهل العلم الذي يستحقون الوصف بأهل العلم، هؤلاء يريدون منك ويخططون عليك، فيفزعون إلى السلاطين فيتقوَّون بهم على أهل الحق، قال كما قالوا: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ هذه مقولة قوم فرعون، إذا غُلِبُوا ولم يستطيعوا، لَمَّا سجد السحرة وآمنوا وبطل ما كانوا يعملون، قال قوم فرعون لفرعون: أَتَذَرُ موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك؟ فجعلوا ما عليه موسى من الحق جعلوه فسادا وحرضوا عليه فرعون، لا تتركه لا تجعله يفسد في الأرض – هذا هو الشاهد - هذا من تحريض السلاطين على أهل الحق، وإنْ كان السلطان نفسه هذا فرعون هو سلطان كافر لكن الشاهد منه أنَّ الرعية استفزَّت السلطان هذا ليهلك بني إسرائيل قال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾(١) فهذا الأمر خصلة من خصال أهل الجاهلية، ولهذا لما غُلِبَت المعتزلة في عقيدتها الخبيثة في صفات الله تعالى اقترب أحد الوزراء وهو أحمد بن أبي دؤاد من المأمون ووثق به وجعل الثقة في غير موضعها فكان من آثار ذلك أنْ زيَّن له أن يقبض على علماء السُّنَّة ويمتحنهم في أرجاء الخلافة، وقبض على عدد كبير من علماء السُّنَّة كالإمام أحمد وأصحاب الإمام الشافعي كأبي يعقوب البويضي رحمهم الله تعالى وهم من أنبل تلاميذ الإمام الشافعي وعدد من علماء السُّنَّة كنُعيم بن حماد وأحمد بن نصر الخزاعي ومحمد بن (...)(٢) النيسابوري وأعداد غفيرة من علماء السُّنَّة قُبِضَ عليهم، أهكذا يفعل من يناقش علميا؟ تتقوى بالسلطان! ما دخل السلطان في الموضوع؟ لماذا لم تقم أمام أحمد بن حنبل وتدحض مقولته وتبين أنَّ الحق معك، ولهذا ناقشوا الإمام أحمد عند المعتصم ورد عليهم وألجمهم وأخرسهم رحمه الله، فكانوا يقولون للمعتصم: دمه في رقبتي اقتله، حرَّضُوه على قتله، لأنهم كلما قالوا كلمة ردها عليهم الإمام أحمد رحمه الله تعالى عليهم، فعجزوا فلم يتمكنوا من الرد عليه، فماذا فعلوا؟ فزعوا إلى السلاطين، وهذه طريقة أهل الباطل قديما وحديثا أنهم يصورون أهل الحق أنهم يريدون اسقاط الحكم وأنهم يخططون لشيء من

(١) الأعراف: ١٢٧.

(٢) الاسم غير واضح.

الزعزعة لأنهم يعجزون عن أنْ يُجيبوا على هذه الحجج العظيمة، ابن القيم رحمه الله سمى حجج أهل السُّنَّة بالصواعق وصنف كتابه رحمه الله الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لأنهم يعجزون عن الردود فيخرجون عن النقاش العلمي إلى مسائل أخرى فيقولون إنكم تخططون على كذا وتريدون كذا وأهل السُّنَّة واضحون جدا في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لو كانوا يعتقدون؛ أهل السُّنَّة يتميزون كما نقول دائما للروافض أهل السُّنَّة ليسوا مثلكم يا معاشر الروافض أنتم أهل تقية والْتِوَاء، أهل السُّنَّة لو كانوا يعتقدون أنَّ السلطان ينبغي أنْ يُسْعَى في إسقاطه لقالوه عَلَنا، لأنَّ عقائد أهل السُّنَّة واضحة يجهرون بها في العيد وفي الجمعة ويلقنونها صغار الأطفال، أهل السُّنَّة غير، أهل السُّنَّة ليسوا ممن تخفى عقيدتهم ويندسون لا يعرفون، واضحون جدا، فلو كانوا يعتقدون أنَّ السلاطين ينبغي أنْ يُسعى في اسقاطهم - إذا ظلموا - لجهروا بهذا وأظهروه وهم أشجع الناس وأقوى الناس وهم أكثر من تَحَمَّل وتَصَبَّر من الحكام لأجل أنْ تَسْلَمَ الجماعة، فمعلوم أنَّ أهل السُّنَّة بعيدون تماما عن هذا، لكن أهل الباطل إذا عجزوا عن الرد العلمي لجأوا إلى مثل هذه الطرائق.

المسألة الثالثة والستون: رميهم إياهم بفسادهم في الأرض كما في الآية.

المسألة الرابعة والستون: رميهم إياهم بانتقاص دين الملك كما قال تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾[1] ، وكما قال تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾[2].

المسألة الخامسة والستون: رميهم إياهم بانتقاص آلهة الملك كما في الآية.

المسالة السادسة والستون: رميهم إياهم بتبديل الدين كما قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[3].

المسألة السابعة والستون: رميهم إياهم بانتقاض دين الملك، كقولهم ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾[4].

....

هذه الخصال متقاربة جدا، يرمون أهل الحق بمجموعة من الصفات الذميمة، يرمونهم بأنهم أهل إفساد في الأرض كما تقدم في الآية السابقة ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾[5] فسموا الإصلاح إفسادا لِمَا قلنا لك مِنْ أَنَّ مَنِ انقلبت عنده المفاهيم صار الصلاح عنده فسادا والفساد عنده صلاحا، وهذا مثل قول فرعون أيضا ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[6] يقوله بشأن موسى عليه الصلاة والسلام الذي أرسله الله بالصلاح لا بالفساد، فهذا من صفات أهل الباطل أنهم يرمون أهل الحق بالفساد في الأرض، يرمون أهل الحق أيضا؛ يأتون إلى الملك أو الحاكم ويقولون: إنهم ينتقصونك أنت، وتارة يقولون: إنهم ينتقصون دينك، وتارة يقولون إنهم ينتقصون معبوداتك آلهتك، وتارة يقولون إنهم يريدون أنْ يبدلوا الدين - متقاربة جدا - وهي مما استنبطها رحمه الله تعالى مما ذكرها الله تعالى عن

---

(١) الأعراف: ١٢٧.

(٢) غافر: ٢٦.

(٣) غافر: ٢٦.

(٤) الأعراف: ١٢٧.

(٥) الأعراف: ١٢٧.

(٦) غافر: ٢٦.

فرعون وقومه ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ هذه قالها فرعون، وقال قوم فرعون: إنه يتعرض لآلهتك ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ يعني يتركك ويترك المعبودات التي هي الأصنام تعبد، وقيل في قراءة ﴿وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ﴾ أي وعبادتك، الحاصل أنَّ هذه من الدعاوي الكثيرة على أهل الحق، دائما يتَّهمون بجملة من الأوابد والبلايا حتى يُنَفَّر منهم ويستعلمون السلاطين في مثل هذا، والله تعالى أعلم.

أسئلة

- سؤال: يتكلم الأخ ما الفرق بين الإرادة الكونية والشرعية، وهل تنقسم المشيئة إلى كوني وشرعي؟

جواب: المشيئة هي الإرادة الكونية، فالإرادة الكونية تَنْفُذُ لأنَّ الله تعالى إذا أراد أمرا نَفَذَ ولا بد، الإرادة الشرعية الأحكام الشرعية، ولهذا لو رجعت إلى تفاصيلها في شرح الطحاوية تجدها إن شاء الله واضحة إن شاء الله.

- سؤال: هل الإلحاد كله كفر؟

جواب: لا، ليس كل إلحاد كفر، لأنه قد يكون جزئيا، فيلحد في مسألة من المسائل فيكون إلحادا جزئيا، الإلحاد المعروف عند الناس الآن معناه هو جحد وجود الرب، هذا هو الموجود والمتعارف عليه، لكن قد يلحد، ما معنى الإلحاد؟ الميل، قد يميل في مسألة من المسائل.

- سؤال: فتوى في التفريق بين المستمع والسامع، فإذا كان الإنسان ينظر الأخبار وبقربه يستطيع أنْ يكتم الصوت أما إذا كان بعيد فلا يحاسب على ذلك.

جواب: ومتى صارت الأخبار ضرورة من الضرورات، ومتى صارت الأمور يُذكر فيه التفريق بين القريب والبعيد، إذا كنت بعيدا فأغلق الجهاز، الحمد لله، تستطيع أنْ تسمع الأخبار أو تراها في موضع آخر، نصل إلى هذا الحدود بين التفريق بين المستمع والسامع؟! التفريق بين السامع والمستمع متى؟ أنك في موضع لا تستطيع أنْ تنكر على من يعزف المعازف أو نحوها، فهل أنت سامع أو مستمع؟ أنت مار هكذا مرورا والمنكر هذا لا تستطيع أنْ تطفئه فأنت سامع، المستمع هو الذي يتكأ ويستمع، أما الأخبار فقلنا مرات عديدة تستطيع أنْ تقرأها، تستطيع أنْ تجد إذاعات بديلة غير هذه الإذاعة لا يوجد فيه شيء، ثم الإذاعات - الله المستعان – الناس الآن وصلوا إلى التتبع للأخبار بشيء من المتابعة الدقيقة من خلال الوسائل الحديثة، من خلال الوصول إلى مواقع إخبارية ليس فيها أصلا صور وإنما هي مجرد قراءة أو تصل إلى استماع وأنْ تغض دون أنْ تسمع الموسيقى، فلا تُجعل المسألة كأنها ضرورة، لأنَّ معنى أنك إذا كنت

بعيدا معنى ذلك أنه إذا لم يغلق سيستمعه القريب من أطفالك ونحوه فينشؤون هذه النشأة، فلا تُجعل أمورك كأنها ضرورات هكذا.

- سؤال: يقول أخ: إنك ذكرت أنَّ ابن مسعود قال: إنَّ من جحد آية واحدة من القرآن فقد كفر به كله، وقد قرأت أنَّ هذا المقولة تُنسب إلى علي رضي الله عنه، لا، ليس ببعيد، يمكن أني وهمت وتكون لعلي، لكن الذي أذكره أنها جاءت عن ابن مسعود، ويمكن أنْ تكون أتت عن ابن مسعود وعن علي رضي الله عنهما، ويمكن أنْ تكوت أتت عن علي رضي الله عنه، إذا كان الأخ متأكدا وليته يراجع هذا ويفيدنا والأخوة إنْ شاء الله.

- سؤال: أوجه الرد على من عارض الشرع بالقدر.

جواب: مرَّ يا أخي ثلاثة وجوه ذكرناها.

- سؤال: ما الفرق بين سجود التحية وبين سجود العبادة، وهل سجود التحية العلة فيه الكفر؟

جواب: يستحيل استحالة تامة أنْ يأمر الله بالكفر، الذي أمر الله به الملائكة من السجود لآدم ليس التعبد لآدم، هذا لا يكون في شريعة آدم ولا في غيرها، ولكن كان فيمن كان قبلنا يُحَيِّي بعضهم بعضا بالسجود ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾(١) قطعا سجود تحية وليس عبادة، يعني مثل ما أنك الآن تأتي إلى رجل كبير وتُقَبِّل رأسه - نوعا من الإكرام - ففي هذا الشرع العظيم نُهي عن هذا وبتر بترا أيَّ سجود لغير الله تعالى، لا يجوز لا بتحية ولا بغيرها، السجود السابق مثل سجود يعقوب وأبنائه ليوسف ليس سجود عبادة - قطعا - وكذا الملائكة، ولهذا قال إبليس: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾(٢) ما قال: أمرتني بعبادته! لأنه نوع من التكريم، فسجود الملائكة لآدم كان تكريما وكذا من بعده.

- سؤال: يسأل عن الوضع في سوريا.

جواب: عسى الله أنْ يُفَرِّجَ لهم ويرحم مرضاهم.

---

(١) يوسف: ١٠٠.

(٢) الإسراء: ٦٢.

- سؤال: أليس لبعض التيارات الإسلامية تأثير ملموسا في مشروع النهضة بالأمة؟

جواب: بلى، لهم، ولهذا نقول: كونوا أمة واحدة حتى يكون تأثيرك وتأثير تلك الجماعة والثالثة والرابعة والخامسة تأثيرا واحدا، وحتى لا تتفرغ للصراع والصدام فيما بينكم، بينهم صدام كبير شديد جدا، وحتى تصدروا عن أهل العلم، لأنَّ لهم تأثيرا لا ينكر، لكن هذا التأثير ممكن أنْ يكون أضعافا مضاعفة لو أنهم التئموا جميعا، وبدل أنْ يكون التأثير بنسبة معينة يكون بنسبة أضعاف أضعاف ذلك، ثم إنهم يؤثرون تأثيرا نافعا وتأثيرا غير نافع بسبب مجموعة من المواقف قاد إليها الجهل، لذلك قلنا: إنَّ الذي يحدث إهدارٌ للطاقة إضاعة جهود وأموال وشباب وطاقات كبيرة جدا ممكن أنْ تعمل وتبذل تريد الخير وتريد الجنة، لماذا لا يوجهون التوجيه العلمي ويصدر الناس عن علمائهم، ولا يكون هناك جماعة وجماعة وجماعة حتى في البلد الواحد مجموعة من الجماعات، ثم هذا البلد فيها جماعة ولها فرع في ذاك الموضع ولها فرع في البلاد الأخرى، فلسنا أصحاب شركات نبيع ونسوق، دعاة إلى الله عزَّ وجلَّ ندعو إلى شيء واحد من الحق، إما أنْ نكون على السُّنَّة فنلتئم ونجتمع عليها، أما إذا وجد روافض أو غيره فأولئك ليسوا منَّا ولسنا منهم، لكن أنْ يأتي المنتسبون إلى أهل السُّنَّة وتتقطع الحبال بهذا الوضع ويكون الناس على هذا الحال! فهذا هو المنكر، وأما الجهود فموجودة - وهذا هو محل العتب والأسف - أنَّ هذه الجهود تكون بهذا الوضع وتُصْحَب بجهود أخرى تمزق الأمة أيضا وتشتت ما بين الأخوة والمتحابين والأقارب، وأيضا جملة من الجهود صدرت عن نوع من الجهل وعدم العلم، هذا الذي يجعل أهل العلم يقولون: اجتمعوا جميعا وكونوا على طريق ودرب واحد.

- سؤال: هل كفَّر الصحابة والتابعون معبد الجهني وغيلان الدمشقي؟

جواب: السلف رضي الله عنهم: إنَّ القدرية الأوائل كفار لأنهم يجحدون العلم، وبناء عليه قُتل معبد وغيلان.

- سؤال: يسأل عن منظومة ميمية القدر لابن القيم؟

جواب: الذي أعلم أنها لشيخ الإسلام رحمه الله، له منظومة أتاه أحدهم وادَّعى أنه من أهل الكتاب وأنه عنده إشكال في القدر ودفع إليه أبياتا يقول فيه: (أَيَا علماء الدين ذميٍّ دينكم تحيَّر، دلوه إلى خير حجة تائية) فرد عليه شيخ الإسلام - ظنه رحمه الله يرد نثرا وإذا به يرد شعرا - ووضع أكثر من مئة بيت: (سؤالك يا هذا سؤال معاند، مخاصم رب العرش، باري البرية، وتدعى خصوم الله يوم معادها إلى النار طرا؛ معشر القدرية) لا أذكر منها إلَّا هذين البيتين، والمنظومة موجودة تائية لابن تيمية رحمه الله، أما الميمية لابن القيم فعامة.

- سؤال: هناك من يقول من أهل العلم: إنَّ أهل العلم في القرن السادس كانوا رافضة؟

جواب: لا، ليس كذلك، ليس بصحيح، لو وجد للرافضة شيء من الظهور في بعض المواضع وبعض البلدان لا يقال: إنَّ تلك القرون، ليس بصحيح، قد يكون للرافضة ظهور في بعض المواضع بعض الأماكن سواء في مكة وفي غيرها لا يقال: إنهم على مدار القرون، الرافضة من أضعف الناس مذهبا، وما اشتد الرافضة بقوة إلَّا في فترات محددة ثم يخبو - نسأل الله تعالى أنْ يطفئهم - شدَّ زمن بني بويه وزمن العُبيدين وزمن الدولة الصفوية وزمن الثورة الفاسدة هذه ثورة الخميني، يكونون في فترات، وأكثر أهل الإسلام ليسوا رافضة، أكثر المنتمين للإسلام - سواء كانوا على سُنَّة أو على بدعة – ليس برافضة ويبغضون من يتعرض للصحابة وضدٌّ للرافضة، وتفخيمك أمر الرافضة هذا غير صحيح، وهكذا الأعداد يقولون: نحن نصف أهل المنتمين للإسلام، كذبتم والله، لا تبلغوا إلَّا دون هذا بكثير، متى نشأ الرفض؟ إفريقيا كلها لا يوجد فيها رافضي قبل الثورة الفاسدة في إيران، ما لهم ذاك الوجود وإنما يشترون الناس، يستغلون جوعهم وجهلهم، فما كان للرفض هذا الانتشار أصلا، وإنما كان في مواضع في لبنان في سوريا في بعض المواضع، في إيران، لكن انتشاره بهذا الوضع كان بسبب بذل الأموال والتدليس على الناس حتى ظهروا على حقيقتهم في الحروب التي أهلكوا فيها أهل الإسلام في العراق وفي سوريا وفي غيرها فضحهم، كما قلنا علماء السُّنَّة في هذه البلاد وفي غير هذه البلاد كانوا يحذرون من الروافض حتى وهم ضعفاء ويقولون: إنهم أمة متحايلة تعمل بالتقية وتضحك على الناس، وأبى مجموعة ممن دخلوا في موضوع التقريب هذا وقالوا: إنَّا

نسعى إلى التقريب ما بين الأمة حتى اتَّضحوا على حقيقتهم وظهر من شرهم وشدة بطشهم حتى بالأطفال وبالنساء وإهلاك للناس ما كان أهل السُّنَّة يقولون، لهم سلف، لهم سلف من القرامطة وغيرهم، القرامطة أهلكوا الناس في مكة وأخذوا جثث الحجاج ورموها في بئر زمزم وقلعوا الحجر الأسود، هؤلاء امتداد لأولئك، فالمبالغة في تضخيم أمرهم هذا غير صحيح، أكثر أمة في سائر حقبها وتاريخها ضد للروافض.

- سؤال: يسأل عن ظهور الدعاة في القنوات الفضائية.

جواب: له ضوابط إذا ضبطوها، وقد سبق الكلام عنها مطولا.

- سؤال: هل يجوز التشبه باليهود.

جواب: التشبه باليهود لا يجوز.

- سؤال: الاستعمار الفكري وما يسمى بالطابور الخامس، ما صفاتهم؟

جواب: ما دام تقول أنهم من العلمانية، فالعلمانية صفاتهم واضحة، الدعوة إلى أنْ يُعْزَلَ الدين، والدعوة إلى اقصاء الحق والخير وجلب النموذج الغربي الفاسد الفاجر.

- سؤال: يسأل عن مقولة أرحام تدفع وأرض تبلع؛ أنَّ بعض العامة يقولها إذا سمع أنَّ فلانا مات.

جواب: ليس بالضرورة قد أطلقوها كما يطلقها الفلاسفة، لكنهم قد يقولونها بعض الأحيان للاعتبار، كأنهم يعتبرون - سبحان الله - أرحام تدفع ومردهم إلى الأرض التي تبلعهم، ولا يقصد أنهم لن يبعثوا، لكن المقولة قد يطلقها العامي وقد يطلقها أيضا الملحد، ولكن العامي لا يطلقها كما يريد الملحد.

- سؤال: الأخ يقول: إنَّ الأثر (من جحد آية من كتاب الله فقد كفر) من مقولة ابن مسعود رضي الله عنه، ذكره الهروي في ذمِّ الكلام وذكره صاحب التفسير في سنن سعيد بن منصور، جزاك الله خيرا، أنا أذكر عن ابن مسعود رضي الله عنه، لكن الأخ الذي قال عن علي يحتمل لأنَّ الصحابة رضي الله عنهم مقولتهم واحدة في العقيدة فممكن أنْ يكون ورد عن هذا وعن هذا رضي الله عنهم أجمعين.

المسألة الثامنة والستون: دعواهم العمل بما عندهم من الحق كقوله ﴿نُـؤْمِنُ بِـمَا أُنْـزِلَ عَلَيْنَـا﴾[١] مـع تركهم إياه.

....

في هذه المسألة ذكر رحمه الله تعالى دعواهم - ادِّعاء - أنهم يعملون بما عندهم من الحق مثل ما تقـدم في بيان قول الله عنهم ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ مع تركهم هذا الحق، الآية نزلت في اليهود يزعمون أنهـم آمنـوا بما أنزل على رسلهم عليهم الصلاة والسلام وهم في نفس الأمر كاذبون من جهتين:

الجهة الاولى - كما تقدم - أين في كتبهم ما فعلوه وما صنعوه من قبائح الأفعال كقتل الأنبيـاء وعبـادة العجل؟ وأين قولهم سمعنا وعصينا؟ أين هذا من قولهم ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾؟ أفيما أنـزل علـيهم هـذه البلايا التي يدَّعُونها؟

الوجه الثاني: أنَّ في كتبهم الأمر الصريح أنْ يؤمنوا بما أنزل على محمـد صـلّى الله عليـه وسـلّم وعلـيهم العهد إذا بُعث صلّى الله عليه وسلّم أنْ يتبعوه وينصروه ويكونوا من أتباعه، ومع ذلك تركـوا ذلـك مـع أنَّ محمدا صلّى الله عليه وسلّم أتى بنفس ما أتى به موسى وبنفس ما أتى به جميع الأنبياء قبلـه علـيهم الـصلاة والسلام من جهة الاعتقاد، فالتوحيد كما قدمنا واحد، فإين قولهم ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ مـع كفـرهم بـما أنزل على محمد صلّى الله عليه وسلّم من جهة التوحيد وهو الذي نـزل عـلى موسـى وعـلى سـائر أنبيـائهم، الحاصل أنَّ هذه دعوى يدَّعُونها؛ أنهم يعملون بما عندهم، وواقـع الأمـر أنهـم يتركـوه، وإذا جمعـت هـذه الخلال والصفات الخبيثة في هؤلاء القوم وجدت أنهم من أسوأ عباد الله، قد كانوا متمنِّعـين عـلى أنبيـائهم متعصين، بلغت بهم الجرأة - كما تقدم - عبدوا معه العجـل في حـال حـضور نبيـين مـن أنبيـائهم علـيهم الصلام والسلام، بلغت بهم الأمور أنْ يقتلوا الأنبياء عليهم الـصلاة والـسلام، بلغـت بهـم الأمـور أنهـم قالوا: سمعنا وعصينا مع أنَّ متبع النَّبيّ لا يمكن إلَّا أنْ يقول: سمعنا وأطعنا، فلهذا عوقبوا هـذه العقوبـة العظيمة وضرب الله تعالى على قلوبهم ولعنهم وصاروا في وعد الله سبحانه وتعالى أنْ يبعث عليهم إلى يـوم

---

(١) البقرة: ٩١.

القيامة من يسومهم سوء العذاب، لأجل ما فعلوه من تلك البلايا والشنائع الكثيرة التي ذكر الله تعالى منها ما ذكر.

هذه المسألة وهي الدعوى بأنهم متبعون مع ترك هذا الاتباع؛ وجدت في بعض المتسبين للأئمة في المذاهب الفقهية، فهم مخالفون لهم في الاعتقاد ولا سيما من المتأخرين، تكلم العلماء على هذه المسألة وتعجب عدد ممن كتبوا من أهل العلم رحمهم الله في هذه المسألة من أناس ينتسبون للأئمة في الفقه وينافحون عن قول الإمام واختياره في الفقه مع مخالفتهم للأساس الأكبر وهو الاعتقاد الذي يبنى عليه الفقه، وللعلماء في هذا كلام نفيس ككلام الهروي وكلام السمعاني وكلام عدد، كيف ينتمي الانسان إلى إمام عقيدته على عقيدة السلف ثم تكون عقيدته على عقيدة الجهمية أو المعتزلة أو الضلال أيا كانوا؟ فكانوا يقولون: هذا كلام الأئمة وهذا كلامكم، فكيف تنتسبون إليهم مع ترككم للاعتقاد الذي كان عليه الأئمة؟ وهذه مسألة شريفة جدا ونفيسة، وهي مسألة بالنسبة للدعاة إلى الله تعالى مما ينبغي أنْ يُعتنى بها، فأئمة المذاهب رحمهم الله ينبغي أنْ تُنقل عقيدتهم ويقال للمتأخرين ممن ينتمون إليهم: هذا عقيدة الأئمة، مثلا الإمام الشافعي رحمه الله هذا كتاب الأم هذا كتاب الرسالة للإمام الشافعي هذه المرويات الصحيحة والثابتة عن الإمام الشافعي؛ هذه عقيدته، هل هذه العقيدة التي عليها الشافعي هي نفسها التي أنت عليها الآن؟ هذه كما قلنا فيها فائدة عظيمة تُجَلِّي للمسلمين حقيقة عقيدة الأئمة الأربعة رحمهم الله وغيرهم من أئمة الإسلام ينبغي أنْ تُجلَّى وتوضح حتى يعلم الذين ينتمون إليهم ممن خالفوهم أنهم خالفو الأئمة، فإن كانوا صادقين في الانتماء إليهم فليرجعوا عن مخالفتهم لهم.

المسألة التاسعة والستون: الزيادة في العبادة كفعلهم يوم عاشوراء.

المسألة السبعون: نقصهم منها كتركهم الوقوف بعرفة.

....

العبادة كما نعلم قد بيَّنها النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ووضحها، فبيَّن وقتها وهيأتها والصيغة التي تكون بها، وإذا كانت من ذوات الأسباب بيَّن صلّى الله عليه وسلّم سببها، فليس لأحد كائنا من كائنا أنْ يزيد على الحد الشرعي المُبَيَّن في سُنَّة الرسول صلّى الله عليه وسلّم ولا ينقص، قال صلّى الله عليه وسلّم: «صلوا كما رأيتموني أصلي»(١) وفي الحج قال: «خذوا عني مناسككم»(٢) فيجب التزام هديه صلّى الله عليه وسلّم وعدم الزيادة عليه أو النقصان منه، ولهذا كان من أعظم ما يُتقرب إلى الله به لمن أصلح الله نيته أنْ يتعلم العلم، يتعلم ما كان عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ويَبُثُّه في الأمة ويكون عاملا به، هذا من أعظم الأعمال التي يُتقرب إلى الله عزَّ وجلَّ بها من النوافل، هذا مما ينبغي أنْ يُحرص عليه، لأنه يُبَيِّنُ للناس حقيقة ما كان عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أهل البدع لا يرضون بهدي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، يزيدون؛ إما بأنْ يخترعوا عبادة لا أساس لها نهائيا، وإما بأنْ يأتوا إلى عبادة مشروعة فيزيدون عليها في حدها الشرعي فيضيفون إلى هيئتها أو إلى صيغتها أو إلى تحديد وقتها؛ يضيفون أشياء من تلقاء انفسهم، ولهذا قال أهل العلم: إنَّ البدعة نوعان:

النوع الاول: البدعة الحقيقية: وهي التي لم يدل عليها دليل من الكتاب أو من السُّنَّة ولا لها أي مستند، بدعة صلعاء هكذا اخترعها الناس.

النوع الثاني من البدع: البدعة الإضافية: المراد بالبدعة الإضافية أنَّ هذا المبتدع يأتي إلى شيء قد دل عليه الدليل وهو مشروع فيضيف عليه إضافة من تلقاء نفسه، أصل العمل مشروع لكنه يضيف إضافة على هذا العمل تكون هذه الإضافة هي المبتدعة، مثال ذلك - على البدعة الحقيقية التي لم يدل عليها أي

---

(١) صحيح البخاري (٦٣١).

(٢) صحيح مسلم (١٢٩٧).





دليل - الاحتفال بالمولد النبوي مثلا، النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم مكث في المدينة عشر سنين لم يحتفل بمولده، الخلفاء الراشدون لم يحتفلوا بمولده صلّى الله عليه وسلّم ثلاثون سنة، جيل الصحابة رضي الله عنهم - الذين أخبر عنهم عليه الصلاة والسلام في ليلة من أواخر عمره أنه لا يبقى على وجه الأرض ممن على ظهرها ذاك اليوم أحد - انخرم ذلك الجيل كاملا لم يحتفل واحدا منهم رضي الله عنهم في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول، التابعون نفس الوضع، أتباع التابعين نفس الوضع، الأئمة الأربعة أبو حنيفة مالك الشافعي أحمد نفس الوضع لا أحد منهم بتاتا احتفل في اليوم الثاني عشر، وكان اليوم الثاني عشر يمرُّ على المسلمين كغيره من الأيام حتى نشأت الطائفة الضالة وهم الزنادقة من غلاة الروافض المسمون بالفاطميين خطأ - واسمهم الحقيقي العبيديون - فاخترعوا عدة أعياد؛ منها عيد المولد ومنها عيد عاشوراء ومنها الأعياد الموجودة الآن عند الشيعة عيد للحسن وعيد للحسن؛ عيد لفاطمة، ومنها اختراع عيد الميلاد تأسيا بالنصارى واختراع عيد النيروز كما كانت تفعل الفرس في وثنيتهم ومجوسيتهم فجاءت هذه الأعياد، فقلدهم بعض المسلمين وانتشر الاحتفال بالمولد، وإلا لا أصل نهائيا لهذا، ولا أحد يُخالف في هذا، ما يستطيع أحد أنْ يقول: إنَّ الصحابة أو التابعين أو الأئمة الأربعة أو أئمة المسلمين احتفلوا؛ بتاتا، إذا هذه بدعة ماذا نسميها؟ بدعة حقيقية، لأنَّ أي شيء يتعلق برسول الله صلّى الله عليه وسلّم إكراما وإعزازا فإنه عبادة، لا يمكن أنْ أقول إنَّا نحب الرسول صلّى الله عليه وسلّم ولا تكون محبته عبادة، أو نصلي عليه ولا تكون عبادة، ماذا تقول إذا؟ أيُّ شيء فيه مستند شرعي في التعامل مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فهو عبادةٌ من العبادات، ولهذا كانت الصلاة عليه صلّى الله عليه وسلّم في المقام الكبير «من صلى عليَّ صلاة واحدة صلى الله عليه عشرا»(١)، ثم يتعبد إلى الله بالصلاة والسلام عليه بنشر سنته؛ بمحبته عليه الصلاة والسلام، كل شيء يتعلق بالنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقد بُيِّن ووُضِّحَ بالنصوص، فالذي يضيف إضافة لا شك أنه ابتدع، فلهذا يقال: هذه بدعة حقيقية.

---

(١) صحيح مسلم (٣٨٤).

النوع الثاني من البدع: البدعة الإضافية، أصلها مشروع لكن أُضيفت إليه إضافة جعلتها مخترعة، مثل الذكر الجماعي، الذكر في أصله لا شك أنه مشروع وأمر الله به في كتابه وبيَّن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أَمْرَهُ وفضيلة الذكر وبيَّن لنا صلّى الله عليه وسلّم عددا من الأذكار؛ فيأتي أناس ويضيفون إلى الذكر - وهو في أصله مشروع - فيضيفون إليه إضافة مبتدعة، فيذكرون الله جماعيا، هذه الهيئة أضافوها على العبادة، فالهيئة هي المخترعة أما أصل الذكر فهو مشروع، وقد ثبت أنَّ ابن مسعود رضي الله عنه أتى إلى أناس حِلَق - كانوا حلقا في المسجد - فيهم رجل يقول: سبحوا مئة فيسبحون جميعا يهتفون جميعا فيقولون: سبحان الله سبحان الله، فيضج المسجد بقولهم سبحان الله، فإذا أكملوا المئة فيقول: هللوا مئة فيقولون: لا إله إلَّا الله جميعا، فأتاهم رضي الله عنه وأرضاه وقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون - وكانوا قد جمعوا حصى يعدون بها التسبيح - قال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا حصى نعد بها التسبيح، فقال رضي الله عنه - الأثر ثابت بإسناد صحيح عنه كما في الدارمي وغيره -: عُدُّوا سيئاتكم فإني ضامن أنْ لا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمة محمد، هذا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم آنيته لم تكسر وثيابه لم تَبْلَ - يعني أنه حديث وفاة كيف تبدؤون في الاختراع والابتداع - ثم قال لهم: إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد صلى الله عليه وسلم أو إنكم مفتتحوا باب ضلالة، اختاروا أحد أمرين: إما أنكم وجدتم دينا أفضل من دين رسول الله، أو أنكم افتتحتم ابتداعا وضلالا في الأمة؟ قطعا كل أحد لا يمكن إلَّا أنْ يقول: إني انا المخطئ وأنا الضالّ في مثل هذا المقام؛ ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا دين أفضل من دينه، فقالوا: والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلَّا خيرا، لا لنا مقصد ولا هدف إلَّا حب الذكر وإقامة طاعة الله عزَّ وجلَّ في الناس، فقال رضي الله عنه: وكم من مريد للخير لن يصيبه، هناك أناس يريدون الخير لكنهم لا يصيبونهم لأنهم لا يسلكون الدرب الذي ينبغي أنْ يُسلك إلى الخير وهو السُّنَّة، ثم قال رضي الله عنه: إنَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حدثنا عن قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، والله إني لأظنكم منهم - يعني الخوارج - يقول الراوي – وأظنه عمرو بن ميمون أو غيره(١) -: فلقد رأيت عامة تلك الحلق يُطاعنونا يوم النهروان،

(١) هو عمرو بن سلمة.

يعني أنهم صاروا بالفعل كما توقع ابن مسعود، لما قال: والله إني لأظنكم منهم، فتطور الابتداع حتى صاروا خوارج وقاتلوا عليا رضي الله عنه يوم النهروان، فالحاصل أنَّ الواجب على المسلم أنْ لا يزيد على العبادة، وهل أدى الإنسان العبادة؟ هؤلاء الذين يزيدون في العبادات ويخترعون هل استوعبوا السنن؟ يعني هذه الأذكار لو أحد أنْ يذكر الله عزَّ وجلَّ هل سيستوعب الموجود في الأذكار؟ لا يستوعب، يقول ابن بطة الحنبلي رحمه الله: استعمل عند نومي – عندما يريد ان ينام - أربعين نوعا من الذكر، هذا فقط عندما يريد النوم، فإذا أصبح هناك أذكار الاستيقاظ من النوم، إذا أصبح هناك أذكار الصباح، هناك أذكار في المساء، هناك مشروعية أنْ تقرأ القرآن وأنْ تختم كل ثلاث، هناك الذكر المطلق كالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير، هذا ليس له عدٌّ، لو جلست تذكر الله تعالى ما شاء الله أنْ تذكره، أذكر ربك تعالى، هناك النفل، لما جاء الشرع بتبيين أوقات النهي، ما معنى ذلك؟ أن ما سوى هذه الأوقات يُشرع أنْ يُصلَّى فيه، إذا قيل: هذا وقت نهي يعني ما سواه صلي فيه ما شئت، وقت النهي من بعد الفجر إلى أنْ ترتفع الشمس قيد رمح، بعده إنْ شئت صل إلى الظهر، وكان يفعل هذا عبد الغني المقدسي، كان إذا انتهى من الدرس - رحمة الله عليه - صلى الضحى إلى الظهر ركعتين ركعتين ركعتين، من منعك؟ كل هذا مشروع، إذا صليت الظهر هل لك أنْ تصلي إلى العصر؟ كان ابن عمر يصلي ما بين الظهر إلى العصر رضي الله عنه، يجيء وقت العصر من العصر إلى غروب الشمس نُهي عن الصلاة وكذا عند وقفة الشمس، الشمس تقف فترة محدودة جدا، هي ثلاثة أوقات، بعدها صل ما شئت، بعد المغرب هل يُشرع أن تصلي؟ لك أن تصلي بعد المغرب إلى العشاء ولك أن تصلي من العشاء إلى الفجر لكن ليس لك أنْ تبقى دون نوم، تنام من الليل ما شاء الله، تريد أن تصلي؟ نَمْ من الليل ما شاء الله، كان النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ينام إلى نصف الليل، كما قال تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً، نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً﴾(١) وكان يستيقظ صلّى الله عليه وسلّم عند نصف الليل، ونصف الليل يتفاوت تارة يكون في بلدنا هذا تارة عند الحادية عشرة وتارة قبل الحادية عشر بقليل وتارة بعد الحادية عشرة بقليل، هذا منتصف الليل، لأنَّ منتصف الليل أنْ تنظر إلى غروب الشمس وطلوع

---

(١) المزمل:٢، ٣.

الفجر وتقسمه نصفين فهذا منتصف الليل، فالأذكار والعبـادات كثـيرة، لمـاذا يزيـد النـاس؟ لم يـستوعبوا أصلا هذه الأذكار وهذه العبادات، ولو أنَّ إنسانا تفرغ تفرغا لا يمكن أنْ يأتي عـلى جميـع الأذكـار في كـل الأوقات، لهذا شُرِع للعباد أنْ يُنَوِّعُوا، فتارة يستعمل هذا الذكر وتارة هذا الذكر؛ لأنّ الأذكار كثيرة جـدا، وهذا من نعمة الله، حتى إنه صلّى الله عليه وسلّم كان يصلي في سفره على الراحلة، المسافر إذا صـلى يـصلي النفل قطعا ولا يصلي الفرض، يصلي على الراحلة، وكانوا يمـشون مـسافات طويلـة، فلـو أنَّ إنـسانا الآن بسيارة اتجه إلى المنطقة الشرقية – عكس القبلة - هل له أنْ يصلي الضحى مثلا؟ نعم له أنْ يـصلي الـضحى، وإنْ كانت القبلة خلفه؟ لا بأس لأنَّ هذا مما جاء عن النَّبيّ صـلّى الله عليـه وسـلّم وهـو مـشروع لـه لأنـه مسافر، وإنما يكون استقبال القبلة في غير حال الركوب، إذا نزل على الأرض، ويكـون الترخـيص في عـدم استقبال القبلة أيضا في النفل وليس في الفرض، استعن بالله؛ اذكر الله ما شئت؛ اقرأ القـرآن؛ تعبـد؛ صـلِّ؛ من منعك؟ كل هذا من باب التنافس، ميدان كبير، لماذا تخترع عبادات ما أنزل الله بها مـن سـلطان؟ كأنـك استوعبت كل العبادات، ولهذا هذه البدعة تشغل عن الـسُّنَّة، فيـشتغلون بهـذه البـدع ممـا يـؤدي لـذوبان وضياع وغربة السُّنَّة وعدم معرفتها، فالحاصل أنَّ هذه الطريقة - وهي الزيادة في البدعة - من الضلالات، قال: كفعلهم يوم عاشوراء، يعني كما يفعل الرافضة يوم عاشوراء مثلا حين يضربون وجوههم ويخمشونها ويصيحون، يقولون: إنا نأسى على مقتل الحسين رضي الله عنه وأرضاه، وهـل شُرِع هـذا؟ مـات مـن هـو أفضل من الحسين رضي الله عنه هو أبوه، وما فعل الحسين ولا الحسن مثل هذا بأبيهم - وهو أفضل مـنهم رضي الله عنهم أجمعين - ومات من هو أفضل من الحـسن والحـسين وعـلي رضي الله عـنهم أجمعـين وهـو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وما فعلوا رضي الله عنهم هذا، ثم من الذي قتل الحسين؟ الذي قتل الحسين هم شيعته الذين كتبوا إليه وهم في الكوفة وطلبوا إليه أن يقدم وبايعوه وأرسـلوا لـه الكتـب، ولمـا أراد أنْ يخرج استمسك به الصحابة والتابعون رضي الله عنهم وترجوه إلى حدِّ البكاء أنْ لا يخرج لكنه خـرج رضي الله عنه وأرضاه، فلما اتجه جيش بني أمية - الذي أرسله عبيد الله بن زياد الوالي الظالم - انضم الذين بايعوا الحسين من شيعته إلى الجيش وقاتلوا الحسين، هذا الصياح والعويل على مقتل الحسين رضي الله عنه وتهديد

الأمة ولعن الأمة والقاتل للحسين هم الشيعة حتى في روايات الشيعة نفسها، فعلى أيِّ شيء يبكي هـؤلاء؟ سبحان الله العظيم، ثم يقول: سننتقم لقتل الحسين ولابن الحسين الذي قتل، من قتل الحسين إلَّا أنتم؟ من قتل الحسين إلَّا شيعته؟ وعنه - رضي الله عنه وأرضاه عنه - عنه مجموعة من الروايات في تبرؤه إلى الله عـزَّ وجلَّ منهم ودعوته عليهم (كتبوا إلينا ثم قتلونا) هذا موجود ومضبوط، ثم هذا على كل حال لا يـشرع إذا مات أحد فكما قـال عـزَّ وجـلَّ: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(١) هذا هو المشروع، ولا أحد أرفع ولا أجلَّ ولا أعزَّ من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقـد أخبر الله أنَّ بني اسرائيل قتلوا الأنبياء ظلما، القتل موجود عند الظلمة قـديما وحـديثا، ولكـن لا يـشرع أنْ يقام الصياح والعويل، والاشكال أنَّ الصياح والعويل هو من قِبَلِ سلفِهم الـذين قتلـوا الحـسين رضي الله عنه، فما أعجب هؤلاء القوم، قابل الرافـضة في ذلـك اليـوم الناصـبة فـصاروا يحتفلـون في اليـوم العـاشر ويلبسون أحسن الثياب ويتطيَّبون ويتعاملون مع هذا اليوم كما يُتعامل مع العيد، فهاتان بدعتان؛ تبرء أهـل السُّنَّة منهما ومن أهلهما، الرافضة يقيمون المآتم والصياح والعويل في اليوم العاشر، وهذا زيادة على العبـادة لم تُشرع، والناصبة يقيمون الفرح والاحتفال ويجعلون ذلـك اليـوم عيـدا، فكـل هـاتين الزيـادتين ابتـداع وضلال ما أنزل الله تعالى بهما من سلطان، عكس الزيادة على المشروع النقص من المـشروع، يـأتي إلى عبـادة من العبادات فلا يؤديها الأداء السليم، هذا يقع من الناس جهلا، فالجاهل يُعلَّم، يُقال: عندك نقص في هيئة العبادة ينبغي أنْ تُصلح هذا النقص عندك، لكن الإشكال إذا كان الـنقص في العبـادة متعمـدا، مثالـه: مـا فعلوه في الحج، فإنَّ قريشا كانت تتعمد أنْ تبقى في الحرم، أنت تعلم أنَّ الحرم له حدود معينة، فمزدلفة مـن الحرم ومِنَى من الحرم، أما عرفة فليست من الحرم بل هي خارج الحـرم، فكـان مـن بـدع كفـار قـريش أنْ يحجوا ويقولوا نحن أهل الله لا نخرج من الحرم، فكان من سـوى قـريش يـذهبون إلى عرفـة، أمـا قـريش فكانوا يبقون ولا يفيضون إلى عرفة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾(٢) بل قال

---

(١) البقرة: ١٥٥، ١٥٦.

(٢) البقرة: ١٩٩.

صلّى الله عليه وسلّم: «الحج عرفة»(١) فمن لم يذهب إلى عرفة فلا حج لـه أصـلا، لَّما حـج صـلّى الله عليـه وسلّم - وظنَّ القرشيون أنَّ النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم سيحج على الوضع الذي يحجـون عليـه - فخـالف النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم المشركين واتجه إلى عرفة عليه الصلاة والسلام، ووضَّح النقص الذي تعمَّد كفار قريش أنْ ينقصوه من الحج حيث كانوا لا يذهبون إلى عرفة، وبيَّن أنَّ الحج عرفـة؛ أنَّ أعظـم أركـان الحـج عرفة، فالحاصل أنه لا يحل أنْ يُزاد على العبادة ولا يُنقص منها.

---

(١) صحيح. ابن ماجه (٣٠١٥). صحيح الجامع (٣١٧٢).

المسألة الحادية والسبعون: تركهم الواجب ورعا.

....

الورع يكون بترك الحرام، يكون بترك الأمر المشتبه الذي لم يظهر للعبد أهو حلال أو حرام؟ هكذا يكون الورع، أما الواجب فلا معنى بتاتا للورع معه إلَّا أن يُعمل ويُتقى الله عزَّ وجلَّ بأدائه كما أمر الله، أهل الجهالة يتورعون عن الواجب كأنه أمر محرم، فيتركون ما أوجب الله، لا كما يفعل الفساق، الفساق يتركون الواجب على سبيل فعل العصاة، يتركون واجبا من الواجبات ويُخِلُّون به، فهؤلاء حكمهم حكم أهل المعاصي، أما هؤلاء فيتركون الواجب - في زعمهم - ورعا، فكما أنت تترك شرب الخمر أو السرقة ورعا هم يتركون الواجب ورعا، من العجائب ومن دلائل ما عندهم من جاهلية، الشيطان يلعب الناس - عياذا بالله - ويعطي كل واحد من أوليائه طريقة يعبث به، فالذي يستثقل الواجب يصعبه عليه ويكرهه له فيستثقل الواجب ويتركه من أهل المعاصي، يأتي إلى أناس عندهم شيء من خوف الله تعالى ولكن عندهم جهل عظيم، فيأتيهم من هذا الباب يأمرهم بالتورع عن الواجب؛ فيتركون الواجب - لا كما يفعله الفساق - لكن يتركون الواجب ورعا، وهذا أسوأ من حال الفساق، لأنَّ الفساق حكمهم حكم عصاة المسلمين يؤمرون ويلزمون بالواجب ويُخوفون، لكن هذا الآن تارك للواجب متورع عن فعل الواجب، وهذا يدلك على أنَّ هذه المسألة مسألة جاهلية فعلا؛ أنْ يتورع الإنسان عن الواجب الذي أمره الله تعالى به، ما مثال ذلك؟ مثال ذلك ما قدمنا من طواف كفار قريش عراة، لماذا تطوفون الله عراة؟ قالوا: لأنَّ هذه ثياب عصينا الله تعالى فيها ، فنتورع أنْ نطوف بالبيت في ثياب عصينا الله فيها، فماذا يفعلون؟ يطوفون عراة ويتركون ما أوجب الله من الستر، هكذا يتورعون بزعمهم.

هناك طائفة من الصوفية تسمى المُلَامِيَّة أو المُلَامَكِيَّة يتعمدون أنْ يظهروا مخالفة الشرع حتى يلومهم الناس هربا من الرياء - أعوذ بالله من الشيطان؛ كيف لعب بهم الشيطان - يتركون ما أوجب الله حتى يلومهم الناس، وحتى يقول الناس: أنتم مخطئون، يقولون هذا أفضل، حتى لا نكون مرائين، ويعملون المعصية ويظهرونها حتى يلومهم الناس فسموا بالمُلَامِيَّة أو بالمُلَامَكِيَّة، يظهرون هذه المخالفات الشرعية في

زعمهم ورعا وخوفا من الرياء، فهذا كله من حيل الشيطان وقلنا: إنَّ الشيطان يعطي كل أحد بحسبه، إذا رأى المحب للنظر إلى النساء والزنى بهن سهَّل له دروب ذلك وبيَّنه ويسره، قال: إذا تقدم بك السن تتوب، وتستفيد من شبابك الآن ومما أنت فيه من النشاط ثم تتوب فتكون كما عليه كبار السن في آخر عمرهم؛ تُقْبِل على الصلاة والطاعة، فيطيعه في هذا ثم يموت في شبابه ويموت على المعصية، آخرون يأتي إليهم من باب جهلهم فيقول: حتى لا تراؤوا الناس ويبقى عندكم شيء من الشرك؛ أظهروا شيئا يخالف الشرع حتى يسبكم الناس ويلومكم الناس، يقول: هؤلاء لا يتقون الله، وأنتم في قرارة أنفسكم من باب الخوف من الرياء، فلاحظ أنَّ الشيطان - عياذا بالله من حيله - يعطي كل أحد بحسب الطريق الذي يتناسب معه، وهذا لا يزيله كما قلنا - بعد فضل الله تعالى - إلَّا العلم الشرعي والعمل به.

المسألة الثانية والسبعون: تعبدهم بترك الطيبات من الرزق.

المسألة الثالثة والسبعون: تعبدهم بترك زينة الله.

....

التعبد بترك الطيبات كما تفعله النصارى حيت يتركون هذه الطيبات رهبانية ويقتصرون على الشيء القليل جدا مما يقيم أَوَدَهُم ويتركون هذه الطيبات الكثيرة التي احلَّهَا الله عزَّ وجلَّ، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهَّ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1] فهي في الدنيا يشترك فيه المؤمن والكافر، وفي الآخرة تكون خالصة للمؤمن في الجنة لا يشركه الكافر.

الطيبات كاسمها طيبة، إنما يُتعبد لله بترك الخبائث، وفي وصف النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كما قال تعالى: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[2] فالطيبات من اسمها طيبة، طيَّبَها الشرع طيَّبتها الأحكام الشرعية كالفواكه مثلا والتمور، هذه يتناولها الانسان ويحمد الله تعالى ويشكره على فضله أنْ سهَّلها ويسرها، طيبة، إنما يترك الخبائث كالخمور وما حرم الله عزَّ وجلَّ، أما أنْ يترك الطيبات متعبدا؟ فالتعبد يكون بترك الخبائث لا بترك الطيبات، ثم ذكر ترك الزينة، الزينة الناس فيها ثلاثة أقسام: القسم الأول: هم الذين على هدي النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهم الذين توسطوا فلم يغالوا المبالغة الشديدة وينفقوا الأموال الطائلة باسم الزينة وإنما لبسوا الملابس الحسنة من غير سرف ولا خيلاء، فمناظرهم حسنة وما ينفقون في ثيابهم ونحوها نفقة سليمة وبعيدة عن المبالغة والزيادة فهؤلاء على السمت الصحيح.

---

(١) الأعراف: ٣٢.

(٢) الأعراف: ١٥٧.

القسم الثاني أهل الإسراف، فيبالغون مبالغة شديدة في الزينة بلا حدود، يتعجب الانسان منها، تتعجب من عقول هؤلاء الناس، كيف ينفقون أموالا في مثل الثياب ونحوها أموال طائلة جدا، لماذا تفعلون هذا؟ قالوا: من أجل الزينة، والله إنَّ لباسك ولباس المتوسط في الظاهر لا فرق بينهما، كل هذه الأموال التي تنفقها؛ الفارق بينك وبين المتوسط في لباسه غير واضح، فإنها ثياب معتادة إذا زاد زيادة محرمة كان يلبس الحرير أو نحوه خرج عن هذا إلى المحرم، لكن إذا اختار أنْ يُنفق الأموال الطائلة ويبحث عن الأشياء الغالية، الضابط عنده هو الغلاء، كلما رأى الشيء غاليا رأى أنه هو الأفضل، ولهذا صار المحتالون من الباعة وغيرهم يرفعون الأسعار رفعا غير عادي مع أنَّ السلع الفوارق بينها ليست إلى هذا الحد، فهؤلاء أهل الزيادة في تتبع الزينة.

الصنف الثالث: عكس هذا الصنف الثاني، وهم الذين يعمدون ترك الزينة التي أخرج الله لعباده حتى يظهروا بمظهر فيه شيء من تدنس الثياب وكونها بالية، جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنها رأى بعض أصحابه رضي الله عنهم على هيئة رثة، فقال عليه الصلاة والسلام: «أعندك مال؟ قال: نعم، قال: من أي المال؟ قال: من كل المال قد آتاني الله من الإبل ومن البقر ومن الغنم ومن كذا وكذا، قال: فإنَّ الله يحب أنْ يرى أثر نعمته على عبده»(١) فبعض الناس يتبذل تبذلا شديدا مع أنَّ الله آتاه، فالفقير لا يُلام إذا ليس ثياب بالية مشققة مخرقة لا يلام لأنَّ هذا ما يملك وهو عزيز النفس، فلو قال انسان: خذ صدقة واشتر، قال: أنا لا أريد صدقة، أنا فيما أنا فيه بحمد الله راضي، وهذا اللباس هو المناسب لي فهذا ما آتاني الله عزَّ وجلَّ، هذا لا يُلام، لكن اللوم فيمن آتاه الله تعالى فيترك الشيء الوسط الذي كان عليه الصلاة والسلام إما بخلا - كما يفعل بعض كبار السن ونحوهم - يكون عنده أموال طائلة لكن يظل الثوب عليه يتقطع ويتدنس وتبقى روائحه سيئة مع أنَّ الله آتاه، فهذا لا ينبغي، إذا ترك هذا التدين في اللباس تعبدا خرج عن كلمة البخل وغيره إلى نوع من الابتداع والضلال، فلا ينبغي أنْ يُتعمد أنْ يترك الشيء الذي فيه الزينة المعتادة ويبقى الانسان دنس الثياب متقذرا على حال يرثى لها والله عزَّ وجلَّ قد آتاه وأعطاه، الأمر كما قال عمر رضي الله

(١) صحيح. الترمذي (٢٨١٩). الصحيحة (١٢٩٠).

عنه: (إذا وسَّع الله فوسعوا)، لا يُلام كما قلنا الفقير على ثياب رثة، لكن رجل آتاه الله ووسَّع عليه من المال فوسِّع على نفسك ووسِّع على مَنْ تحت يدك، وليس معنى ذلك أنْ تُسرف ولكن احمد الله تعالى، الجديد من الثياب الذي لا يكون قد بُذِلَ فيه الشيءُ البالغ من الأثمان فهذا هو الذي ينبغي، فعلى كل الأحوال من تعبد بمثل هذا فإنه من أهل الجهالة، جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل: يا رسول الله إنَّ الرجل يحب أنْ يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا، يعني خشي الرجل أنْ يكون إحسانُ لبس الثياب والنعل من الكبر، فقال عليه الصلاة والسلام: إنَّ الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»[(١)] فدل على أنَّ الشيء الذي هو معتاد فإنَّ الله تعالى يحب الجمال سبحانه وتعالى لكنَّ الإشكال في الكبر الذي هو رد الحق أو غمط الناس يعني احتقار الناس وازدراؤهم لا يرى الناس شيئا، نقول عنه متكبر، كأن ما في الدنيا مخلوق سواه، والحق يرده وهذا الحديث، هذه علامات الكبر، وهذا خطير جدا، لَّما حدَّث عبدُ الله بن عمرو به ابنَ عمر رضي الله عنهم جميعا بكى ابنُ عمر رضي الله عنه فقيل له: لم بكيت؟ يعني كأنه حدث عبدُ الله بن عمرو عبدَ الله بن عمر - وكانا في السعي - فانصرف عبدُ الله بن عمرو، فجاء أحد أصحاب ابن عمر إليه قال: ما الذي يبكيك؟ قال: ألا تسمع إلى ما يقول هذا؟ يقول: إنَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»[(٢)] وهذا خطير جدا هذا الحديث - نسأل الله أنْ يكفينا شر الكبر - مثقال ذرة شيء خطير جدا، لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولهذا أمر الكبر خطير للغاية، يتكبر بعلمه، يتكبر بماله، يتكبر بمنصبه، يتكبر بأنَّ الله تعالى آتاه الرزق، يتكبر بقبيلته، بحسبه، يتكبر بكذا وكذا، هذا في غاية الخطورة، إذا كان القلب إذا وجد فيه مثقال ذرة لا شك أنَّ الأمر في غاية الخطورة، ولهذا بكى ابن عمر رضي الله عنهما وهو لا لوم له، الأمر خطير للغاية، الحاصل أنَّ الصحابي ظنَّ أنَّ التزين من الكبر، فنبَّه صلّى الله عليه وسلّم أنَّ التزين المعتاد ليس من الكبر في شيء؛ بل هو من الجمال والله تعالى جميل يحب الجمال.

---

(١) صحيح مسلم (٩١).

(٢) صحيح مسلم (٩١)، واللفظ لأحمد (٦٥٢٦).

المسألة الرابعة والسبعون: دعوتهم الناس إلى الضلال بغير علم.

المسألة الخامسة والسبعون: دعوتهم إياهم إلى الكفر مع العلم.

....

هاتان مسألتان فيهما وجود من يدعو إلى الباطل، فمن الناس من يدعو إلى الضلال وربما دعا إلى الكفر وهو جاهل، والصنف الثاني من يدعو إلى الضلال وإلى الكفر وهو يعلم أنه على باطل وأن الحق على خلاف ما هو عليه، إذاً الدعاة إلى الباطل نوعان، دعاة يدعون للباطل يظنون أنه حق، فيضلون الناس بلا علم، السبب معروف أنهم دعوا الناس وهم جاهلون، وهذا من أشد ما يكون ضررا، أنْ يتصدر للدعوة أهل الجهل ممن لا يعلمون، قال البخاري رحمه الله: (باب العلم قبل القول والعمل لقول الله عزَّ وجلَّ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾[1] فبدأ بالعلم) وهذه الترجمة التي ترجم عليها البخاري رحمه الله قد استفادها من سفيان بن عيينة، فله كلام رواه أبو نعيم في الحلية بَيَّن فيه رحمه الله تعالى أنَّ العلم قبل العمل، إذا عملت بلا علم فيمكن أنْ يكون هذا العمل خطأ ويمكن أنْ يكون ضلالا بل يمكن أنْ يكون شركا وأنت لا تشعر، فينبغي على من أراد أنْ يعمل أنْ يكون على دراية وعلى بصيرة لما تقدَّم من أنَّ شرطي قبول العمل الإخلاص لله تعالى ومتابعة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى تعمل وأنت على بصيرة كما تقدم في الحديث «صلوا كما رأيتموني أصلي»[2] فلا تعمل العبادة هكذا كيفما اتفق، الذين يَدْعُون من هؤلاء الجهال وقد يكون بعضهم حمَلَه الحماسُ والطيبة والنية الصالحة وحرصه على أنْ يصلح الله عزَّ وجلَّ به من حال أمته ما يراه من جهل؛ ما يراه من إقدام على المعاصي؛ ما يراه من مخالفات ظاهرة؛ فيحمله ذلك على أنْ يتصدر لميدان الدعوة، فيتنقل بين المساجد ويتنقل بين الناس ويتنقل بين المجالس التي يجتمع بها الناس ويحدثهم ويأمرهم وينهاهم لكن عن جهل، لا يُرتاب أنَّ هذا مخطئ وأنَّ الواجب شرعا أنْ يَكُفَّ عن مثل هذا فهو آثم إلَّا أنْ يتكلم في ما يعلم، إذا تكلم في أمر يعلمه فنعم، أما أنْ يتكلم وهو لا يدري هل الحديث

---

(١) محمد: ١٩.

(٢) سبق تخريجه.

الذي يذكره ثابت عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أم هو مكذوب عليه، يتكلم ويقرأ الآيات القرآنية ويخطأ في طريقة نطقها، يتكلم ويذكر أحوالا ويحسنها في نظر الناس ويدعوهم إليه وهي بدع، لا يدري أنها بدع، من قال لك: إنَّ الدعوة تكون لمن هبَّ ودبَّ؟ الدعوة لا تكون إلَّا عن علم، ولهذا جاء عن عمر بن عبد العزيز وعن الحسن البصري رحمهما الله - وهما من أهل العلم ومن أهل الورع والديانة - قال - ما مفاده: (إنَّ من عمل بغير علم كان ما يُفسد أكثر مما يصلح)[1]، فالإفساد فيمن يدعو بلا علم كبير جدا حتى لو كان صالح النية، لو كان سريع الدمعة رقيق القلب، اتق الله ولا تهلك نفسك وتهلك الناس، لا تدعو إلَّا بحسب ما تعلم، الذي لا تعلمه كُفَّ عنه، والذي ينبغي على هذا مادام عنده هذه الطاقة وهذا الحماس أنْ يتعلم، فإذا تعلم نفع الله تعالى به عن علم، أما أنْ يدعو هكذا فإنه قد يُضِلُّ الناس وقد يزين للناس الباطل، وقد يستغله أهل البدع وهو لا يشعر وهذا الذي حصل، هناك أناس من أهل الطيبة ومن أهل الصلاح بعضهم نعرفهم بشكل شخصي من أطيب الناس استغلهم أهل الباطل ولبَّسوا عليهم فصاروا ينقلون كلام أهل الباطل وهم لا يشعرون، وصاروا يدعون إليه بسبب جهلهم، فهذا الصنف من الدعاة فضرره واضح وأنَّ الواجب أنْ يُمنع هذا الصنف من الدعوة، فإذا قال: كيف تمنعونني من الدعوة وأنتم ترون الأمة على هذا الحال؟ نقول: حال الأمة فيه ماذا؟ يقول: فيه جهل، نقول: أنت من الجاهلين، الإشكال أنك انت من الجاهلين والجاهل لا يمكن أنْ يعالج الجهل بجهل مثله، تعلَّم العلم ثم انطلق قوَّاك الله وأعانك، لا تترك بلدا ولا حضرا ولا بادية ولا عربا ولا عجما إلَّا ودعوتهم، لكن عن علم، لا تدعو الناس وأنت لا تدري، هذا الصنف الأول من الدعاة، الذين يدعون إلى الباطل وهم لا يشعرون أنه باطل.

النوع الثاني: من يدعون إلى الباطل وربما إلى الكفر والشرك وهو يعلمون بطلان ما هم عليه، فهم يعلمون أنَّ ما هم عليه من الباطل - عياذا بالله - وغالب هؤلاء هم رؤوس فِرَق الضلالة، ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أنَّ الغالب على زعماء الفرَق الضالة تعمد تلبيس الحق على الناس، وأنه لا يحملهم على ذلك أنهم يظنون أنهم على الحق، بل قال رحمه الله: إنَّ كثير منهم زنادقة، ومن أظهر وأبين ما يكون من

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٥١٩٢).

الفِرَق في هذا الروافض والباطنية، فإنَّ الروافض رؤوسهم وزعماؤهم يعلمون علما تاما أنَّ ما هم عليه من الباطل الذي استذلوا به الناس في أموالهم وفي هذا البلاء الذي يسمونه بالمتعة، فيستمتعون بنساء أتباعهم، فإذا قيل للواحد منهم: المتعة جائزة؟ يقول: نعم، يقال: لماذا لا تزوج بناتك بالمتعة وأنت تقول إنَّ المتعة من فضائلها كذا، وأنَّ الذي يغتسل من المتعة يكون له من عدد قطرات الاغتسال كذا وكذا من الحسنات، لم لا تفعل هذا؟ يغضبون جدا، لأنهم يستذلون ويستغلون الناس ولا يريدون أنْ يُفعل هذا بهم، فيعبثون بهؤلاء الناس، ومن ذلك كثير من زعماء الصوفية، وهكذا رؤوس الفرق الباطنية، حتى إنَّ زعيم الآغاخانية لما قابله أحدهم وسأله فقال له: أنت رجل دارس في البلاد الأوربية وليس عندك شيء من الاكتراث أصلا بأمور الدين إلَّا الطريقة العلمانية الغربية وأنت زعيم لهذه الطائفة الآغاخانية في الهند، كيف ترضى لنفسك - وأنت رجل كما يُعَبِّرون مثقف - بأنْ يعبدك هؤلاء؟ فضحك عدو الله وظل يضحك حتى صار تتدامع عيونه من شدة الضحك، ثم قال بكل سهولة: أليس يعبدون البقر؟ أنا أفضل من البقر، هكذا هكذا نظرته يُضل هؤلاء الناس، ماذا يفعل بالناس؟ استذلال، إذا مات أحد من الآغاخانية وأرادوا أنْ يدفنوه في المقبرة يدفعوا رسما، إذا ولد لهم مولود يدفع رسما لزعيم الطائفة هذه، وأشياء كثيرة كأنها ضرائب الدول، ضريبة مقابل كذا وضريبة مقابل كذا، صار يأخذ منهم هذه الضرائب وهم يعلم أنه على باطل حتى إنه صار يضحك ويسخر يقول: أنا أفضل من البقر فليعبدوني ويستذل الناس، ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله: إنَّ كثيرا من رؤساء هذه الفرق زنادقة في الواقع، يستغلون هؤلاء الرعاع وهؤلاء الهمج ويعبثون بهم، هذا هو الواقع من كثير منهم، وقد قدمنا في بيان قوله تعالى ﴿إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1] فصار الصد عن سبيل الله طريق من طرق أكل أموال الناس بالباطل ولو أنَّ الناس فاقوا وعرفوا طريق الله عز لما أُوكلوا بالباطل، متى سمعتم من علماء أهل السُّنَّة من قال: للناس أنا أُعَلِّمُكم؛ أعطوني مالا، لو قيل هذا من قِبَل أحد من أهل السُّنَّة لقال له أهل السُّنَّة: ومتى كان العلم يؤخذ عليه المال أصلا؟؟ متى كانت الدعوة يؤخذ عليها مال؟؟ أنت

(١) التوبة: ٣٤.

بدعوتك هذه من أهل الباطل ومن أهل الضلال، لأنَّ السُّنَّة تأبى هذا، السُّنَّة لا تأتي بها هذه الاستغلالات إذا هي إما بالمجان تُبذل لله عزَّ وجلَّ وإلا لا تدع، إنْ كنت لن تُعَلِّمَ الناس حتى تأخذ من هؤلاء الضعفاء ومن هؤلاء المساكين أموالا؛ بناء على ماذا؟ إنْ كنت تعليمهم لله عزَّ وجلَّ فعلِّمْهم، وإنْ كنت تريد مالا فأمامك الأسواق وأمامك التجارة، الدعوة إلى الله ليست حرفة، العلم ليس حرفوا يؤخذ من الناس، فتقول: أنا علمتكم القرآن أنا علمتكم كذا، أستحق كذا، ولا يعني ذلك أنَّ أخذ الآجر على تعليم القرآن لا يجوز، ولكن يؤخذ من بيت المال كما يقول أهل العلم، هناك ما يُسمى الرَّزق كان زمن السلف، الرَّزق بأنْ يُعطى هذا المتفرغ للقضاء، يُعطى هذا المتفرغ لبثِّ العلم الذي ليس عنده إلَّا هذا، لأنه أُشغل عن العمل، كما يحصل في التعليم في الجامعات ونحوها، هذه لا تؤخذ من الناس ولكن هو مثل الموظفين الآخرين يأخذ مقابل عمله في الدوام من كذا إلى كذا مقابلا كما يأخذ غيره، لكن لا يأخذ من الناس؛ وإنما أُعطي هذا الذي سُمي بالرَّزق، قال أهل العلم: لا لأنه يبذل المال، يُقال: علِّم السُّنَّة وخذ على تعليم السُّنَّة مالا! قالوا: يُعطى لأجل أنه اشتغل في وقته عن النفقة على أولاده، فلما كان القاضي يذهب ويبقى عند الناس ينتظر الخصوم ولا يذهب ليشتغل ويحترف كان من المُتَعَيِّن أنْ يُعطى من بيت المال لأنه لو ذهب واحترف وصار يُسافر، إذا أتى الناس إلى القاضي قالوا: القاضي مسافر عنده تجارة ذهب إلى الشام ذهب إلى كذا، متى؟ يقف الناس عنده قال سيرجع، ابقوا في قضاياكم حتى يرجع بعد شهر، فلهذا قال أهل العلم: إنَّ مثل هذه الأمور كالولايات الشرعية والقضاء والمناصب التي يكون فيها شيء من مثل هذا الذي ذكرناه لا يُعطى لأنه يبذل العلم ونحوه ولكن يُعطى لأجل وقته، ولهذا جاء عن أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه لما تولّى أراد الدخول إلى السوق - لأنه كان تاجرا رضي الله عنه – فقيل له: إلى أين يا خليفة رسول الله؟ قال: من أين أُطعم أهلي؟ فقالوا رضي الله عنهم - عمر ومن معه - تُعطى أي مقابل بقائك في هذا الوقت، كان يُتاجر في السوق في السابق يذهب من الصباح ويتَّجر ويسافر ويذهب، قال: تبقى وتُعطى مقابل بقائك، يعني مقابل ذلك الوقت الذي اقتطعناه، هذا هو المقصود بالرَّزق الذي يُعطاه هؤلاء ولا يُجَمَّع من الناس، لا، من بيت المال، قال أهل العلم: القضاة والولاة وأمثالهم ومن ينقطعون انقطاعا لتعليم

الناس كالذي يُعلم في المدارس ونحوهم هؤلاء يُعطون من بيت المال نظير ما اقتطعوا من أوقاتهم، لا نظير أنهم يحكمون بالشرع ولكن نظير ما اقتطعوا من أوقاتهم، الحاصل أنَّ ثمة فرقا كبيرا بين من يدعو إلى الباطل متعمدا وعالما بأنه من أهل الباطل وبين الصنف الأول، الصنف الأول الذين يدعون إلى الباطل وهم لا يشعرون إذا كانوا صادقي النية إذا علموا تفطنوا وتركوا الباطل، أما هؤلاء ما الحيلة معهم - الصنف الثاني - الذي يُعلِّم الناس الباطل ويدعوهم إلى الكفر والضلال وهو يَعْلَم أنه على كفر وضلال هذا لا حيلة فيه لأنه يَعْلَم الحق، كما قال تعالى في نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم في خصمته مع أعدائه: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهَّ يَجْحَدُونَ﴾(١) هؤلاء ما الحيلة فيهم؟ الشخص الذي لم تتضح له الأمور تُوضَّح له وتُبين له، لكن الاشكال فيمن يعلم أنَّ النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم على حق ومع ذلك يجحد ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهَّ يَجْحَدُونَ﴾ فالحاصل أنَّ هذا الصنف أخبث من الصنف الأول لأنه متعمد إضلال الناس وإفساد دينهم.

---

(١) الأنعام: ٣٣.

المسألة السادسة والسبعون: المكر الكُبَّار كفعل قوم نوح.

....

لا أرى حاجة إلى التوسع في هذه المسألة لأننا تكلمنا عليها بالأمس بتوسع طويل، وقلنا: إنَّ على المسلمين أنْ يتفطنوا إلى المكر العظيم الذي يحيكه أعداء الله تعالى من اليهود والنصارى ويحيكه ملاحدة الشرق والغرب ويحيكه الروافض أيضا لأمة الإسلام ويخططون على هذه الأمة تخطيطا هائلا تارة يتفقون ويتواطؤون فيما بينهم وتارة هؤلاء يعملون وحدهم وهؤلاء يعملون وحدهم، فالمكر كبير جدا بالأمة، المكر عظيم للغاية ولهذا يجب الفطنة والحذر ولا سيما من أهل العلم وأهل البصيرة لأنَّ الناس تبع لهم، فيكونون على دراية وعلى تفطن حتى ينتبهوا هم وينبهوا غيرهم، ما المراد بالمكر الكُبَّار؟ المكر الكُبَّار قيل: إنه يراد به – كما قال مجاهد - هو المكر العظيم، وقال ابن زيد: الكُبَّار: المكر الكبير، والمعنيان متقاربان فهو مكر عظيم يمكر به أهل الكفر والضلال، قال: كفعل قوم نوح، قوم نوح لما ذكرهم الله تعالى ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾[1] فكانوا في غاية الطغيان والظلم، ومكث فيهم نبي الله عليه الصلاة والسلام ألف سنة إلَّا خمسين عاما ومع ذلك قال تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[2] وكانوا أهل مكر وأهل تحايل وأهل شر، فأصحاب المكر سلفهم الخبيث قوم نوح الذين أغرقهم الله عزَّ وجلَّ وجعلهم عبرة ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً﴾[3] فالمكر الكُبَّار هذا معناه وهو موجود والواجب أنْ يُتفطن له وأنْ يُنتبه له غاية الانتباه وأنْ يكون أهل الإسلام على حال كبير من التيقظ للروافض ومخططاتهم واليهود والنصارى ومخططاتهم ولحلفائهم الفجرة الذي يحملون أفكارهم ويشيعونها في الأمة، يلبسون ثيابنا وينطقون بألسنتنا من بني جلدتنا من حملة هذه الأفكار، الذين يروِّجون في الأمة هذه الأفكار الخبيثة ويتواطؤون مع أعداء الله تعالى بحيث يكونون عملاء لهم يبثون الشر والفتنة في المسلمين، فالواجب أنْ يكون في الأمة حذر من مثل هؤلاء وأنْ يكونوا على دراية تامة بأنَّ أهل الكفر

---

(١) النجم:٥٢.

(٢) هود: ٤٠.

(٣) نوح:٢٥.

كما قال تعالى: ﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾(١) فهم في حال من الاستمرار لا يزالون يستمرون على هذا الحال، واجبٌ الحذر وترك الغفلة والسذاجة الموجودة في بعض الناس، لا تكن ساذجا غبيا لا تفقه، يُخطط على هذه الأمة تخطيط من قبل أعداء الله عزَّ وجلَّ تخطيطا هائلا، الإنسان لا يعيش تكون همته الضحك واللعب وكثيرة الغفلة، يجب على المؤمن أنْ تكون همته عالية رفيعة، وأنْ ينفع الله تعالى به، هي سنوات ستمر عليك في هذه الدنيا وستولي كما ولَّى غيرك، فافعل شيئا ينفع الله تعالى بها أمتك وتنتفع به في قيامتك، افعل شيئا ينفع، كثير ممن مات لا نفع فيه، يعيش لا نفع فيه، إنما إنْ وجد خير فيه فهو مقصور على نفسه مع أنه يمكن أنْ يتعدى خيرُه إلى غيره فينبغي أنْ ينفع الانسان وأنْ يحرص على أنْ يرفع عن هذه الأمة ما استطاع من المذلة ومن الشر الذي يُحاك لها، نسأل الله تعالى أنْ يرد كيد الكائدين إلى نحورهم.

---

(١) البقرة: ٢١٧.

المسالة السابعة والسبعون: أنَّ أئمتهم إما عالم فاجر أو عابد جاهل كما في قوله ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ﴾(١) إلى قوله ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾(٢).

....

يقول رحمه الله أهل الجاهلية يأتسون بصنفين اثنين، إما عالم فاجر وإما عابد جاهل، والعالم الفاجر هو العالم الذي تعلَّم العلم ولكنه لا يعمل بعلمه، متعلم للعلم وهو يعرف الأمور ويدريها ولكنه - عياذا بالله - لم ينتفع من علمه، وهذا من الخطر الكبير جدا على من يدرسون العلم الشرعي، ينبغي أنْ يُصاح بهذا ويُجهر بهذا ويحَذَّر من هذا، العلم الشرعي جاء إليه كثيرون ولا سيما بعد أنْ صار فيها شهادات ويترتب على الشهادات وظائف ويترتب عليها ظهورٌ في المجتمع ومناصب ونحو ذلك، فتعلموا العلم لغير الله لا يريدون العمل، فصاروا يعلمون ولا يعملون، ومنهم صنف وهو المذكور هنا استغل عِلْمَه - والعياذ بالله - في الشر وصار يوجد الشبه والاشكالات على الناس مستفيدا مما تعلم، ولهذا قال: أئمتهم إما عالم فاجر، وهو هذا الصنف الذي تعلم العلم، وقال عليه الصلاة والسلام: «أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان»(٣) يكون عنده شيء من التعلم ولكنه في واقع الأمر منافق - عياذا بالله – فيقول: هذه أئمتهم إما عالم فاجر لا يعمل بعلمه، وإما عابد جاهل ثم ذكر الآية، قال تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٤) هذا الصنف الأول، العالم الفاجر، هو يعلم المعنى الحقيقي لكنهم يحرفون، هذا وجه فجوره، فهو ليس بجاهل لا يدري بكلام الله، هو يعلم يسمعون كلام الله ويعلمون أنَّ معنى كلام الله هو كذا فيحرفون المعنى مستغلين علمهم لأنهم فجار؛ فهم لم ينتفعوا بعلمهم.

---

(١) البقرة: ٧٥.

(٢) البقرة: ٧٨.

(٣) صحيح. أحمد (١٤٣). الصحيحة (١٠١٣).

(٤) البقرة: ٧٥.

الصنف الثاني: العابد الجاهل وهو مذكور بقوله ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾(١) فسرت الأماني بالقراءة، يعني أنه يقرأ القرآن قراءة لا يفهم المعنى وإنما هي مجرد قراءة، وفسرت الأماني جمع الأمنية كما سيأتي كلامه عليها في مسألة آتية، فهم إما عالم فاجر لم ينتفع بعلمه، وإما عابد جاهل وهؤلاء هم أئمة أهل الجاهلية.

---

(١) البقرة: ٧٨.

المسألة الثامنة والسبعون: دعواهم أنهم أولياء الله من دون الناس.

المسالة التاسعة والسبعون: دعواهم محبة الله مع تركهم شرعه فطالبهم الله بقوله ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾(١).

....

هذه الآية نزلت في اليهود والنصارى يدعون أنهم أولياء الله من دون الناس ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾(٢) فيزعمون أنهم من بين الناس كلهم هم أولياء الله تعالى، قال عزَّ وجلَّ مبيِّنا كذب دعواهم: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(٣) ، وطُلب منهم أنْ يتمنوا الموت، قال بعض أهل العلم: إنَّ الآية هذه من آيات المباهلة المذكورة في القرآن، لأنه حتى إذا تمنيتم الموت وأنتم أولياء الله؛ وليُّ الله يحب لقاء الله؛ تمنوا الموت، فلو تمنوه لحل به الموت، فلو تمنوه لأهلكهم الله، لكنهم خافوا أنْ تحل بهم الوفاة لو أنهم تمنَّوها، فدعوى أنهم أولياء الله من دون الناس؛ يعني اليهود تقول: إنَّ هذا خاص بنا، نحن أولياء الله من دون غيرنا، مع أنهم كما تقدم مرات كثيرة في المسائل السابقة قد خالفوا أنبياءهم ونحوه فيقال: الذين كانوا على دين موسى عليه الصلاة والسلام في وقت موسى مستمسكون به هؤلاء أولياء الله، والذين في زمن نوح مستمسكون به هؤلاء أولياء الله، والذين في زمن محمد صلّى الله عليه وسلّم وما بعده إلى قيام الساعة الذين تبعوه صلّى الله عليه وسلّم هم أولياء الله، فمن لم يؤمن به صلّى الله عليه وسلّم فهو عدو الله لأنه قد خالف ما أمر الله تعالى به من اتباع هذا النَّبيّ الكريم، فهذه الدعوى يدعونها من أنهم أولياء لله من دون الناس.

المسألة التي بعدها ادِّعاؤهم أنهم يحبون الله تعالى مع مخالفتهم الشرع فيقول: إني أحب الله، ودعوى محبة الله هذه يدعيها كل أحد، حتى اليهود والنصارى بل حتى كفار قريش كلهم يدَّعون أنهم يحبون الله فطالبهم الله تعالى بالبرهان، أين البرهان؟ في قوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ

---

(١) آل عمران: ٣١.

(٢) المائدة: ١٨.

(٣) الجمعة: ٦.

لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾(١) فعلامة محبة الله الصادقة الحقيقية أنْ يُتَّبع النَّبيُّ الذي أرسله، يُرسل لك رسول من هـذا الذي تقول إنك تحبه تعالى ثم تخالفه؟ لو كنت صادقا لاتبعته، فعلامة آية المحبة الحقيقيـة لله تعـالى أنْ يُتَّبـع رسوله صلّى الله عليه وسلّم، أما ادِّعاء المحبة مع المخالفة؛ فهـذه دعـاوى الكـذَّابين، (تعـصي الإلـه وأنـت تزعم حبه، هذا لعمري في القياس بديع، لو كان حبك صادقا لأطعته، إنَّ المحب لمن يحب مطيع) فإنْ كنت تحب الله تعالى فأطعه، أما أنْ تدعي محبة الله تعالى مع تظاهرك وبروزك واستعلانك بإظهار معاصيك؛ فـأيُّ محبة هذه؟ هذه دعاوي الكذابين.

---

(١) آل عمران: ٣١.

المسألة الثمانون: تمنيهم الأمانيَّ الكاذبة، كقوله لهم ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾(١) ، وقولهم ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾(٢).

....

العبرة كما هو معلوم بما دل عليه الدليل والنص البيِّن الواضح من كلام الله وكلام رسول صلّى الله عليه وسلّم، أما الأماني فبحر لا ساحل له، يتكأ الانسان هكذا ويتمنى أماني وأن يكون كذا ويحصل كذا وسيحصل كذا، الأماني هذه لا نهاية لها، قال الله تعالى مبيِّنا ما يُضِلُّ به الشيطان الناس وما ذكره مستعدا به للناس قال: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾(٣) الأماني هذه أهلكت الكثيرين، يتمنى أنه إذا تقدم به السنُّ سيتوب ولكن في شبيبته سيعصي الله فيستمر على ما هو عليه فيهلك وهو على المعاصي، يتمنى الأماني الطويلة العريضة التي لا تُنال ولا تتحقق ويفتح على نفسه هذا الباب فيضر نفسه، وصاحب الأماني لا ينتج، الذي رضي بالأماني والتخيلات وأنه سيقع كذا وسيحدث كذا وإذا حدث كذا سأفعل كذا، هذا يقتصر عليه، يمضي زمنُه ودهرُه ولم ينفع، إنما النافع - بعد توفيق الله تعالى - الجد والعمل مخلصا لله تعالى، أما الأماني لو فتحت الباب لها سبحت، لا تنتهي، هذا جاء عن بعض السلف أنَّ العبد إذا ركب دابته أتاه الشيطان فقال له: تمنى، فإذا لم يتمنى قال له: تغنَّى، يعني حتى يوقعه فيما لا نفع فيه، يعني إما أنْ يتغنى ويغني وإما أنْ يتمنى؛ فينصرف عن الذكر وعن الشيء النافع، هذه الأماني كثيرة، وقد ذكر الله تعالى من أماني أهل الكتاب أماني كثيرة، ثم بيَّن سبحانه أنَّ الأمر ليس بحسب أمانيِّنا نحن ولا أماني أهل الكتاب، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾(٤) المسألة ليست بالأماني، ما الحزم ما الجزم ما المؤكد؟ ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾(٥) هذا هو الأمر المؤكد ﴿وَمَنْ

(١) البقرة: ٨٠.
(٢) البقرة: ١١١.
(٣) النساء: ١١٩.
(٤) النساء: ١٢٣.
(٥) النساء: ١٢٣.

يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾[1] هذا هو الوضع الحقيقي الصحيح، أما أمانينا أو أماني أهل الكتاب أو أماني أحد هذه المسألة ليست التي تحسم الأمور، ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، فالأمور ليست أماني وإنما هي كما بيَّن الله سبحانه وتعالى، ذكر عندك بعضَ أماني أهل الكتاب كقول اليهود ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾[2] جاء في الصحيح أنهم قالوا للنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: إنّا نكون في النار ثم تخلفون فيها، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «كذبتم والله لا نخلفكم فيها أبداً»[3] فيظنون أنَّ تلك الأفاعيل القبيحة والشنيعة من قتل الانبياء وعبادة العجل والمعاصي والتَّمنع على أمر الله عزَّ وجلَّ يقول سنعاقب عليها مدة في النار ثم نخرج منها، أماني، أماني ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾ وهكذا قولهم ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾ ادَّعى اليهود أنَّ الجنة خاصة بهم، وادَّعى النصارى أنَّ الجنة خاصة بهم، وهذه كما قلنا دعاوى، الجنة عند الله تعالى، وقد بيَّن تعالى أنَّ الجنة لمن آمن وعمل صالحا ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[4] هذا هو الضابط والذي بيَّن الله تعالى به دخول الجنة - بعد رحمة الله وفضله - وإلَّا فمجرد العمل لن يدخل به أحد الجنة، فكون اليهود يدَّعون أنهم في الجنة وحدهم والنصارى يدَّعون أنهم في الجنة وحدهم، يقال: الصالحون الذين كانوا زمن عيسى ممن تبع عيسى ولزم شرعه هؤلاء الذين في الجنة والذين كانوا من صالحي بني اسرائيل زمن موسى أو زمن داود أو زمن سليمان او غيرهم ممن تبعوا أنبيائهم هؤلاء في الجنة، والصالحون زمن هود وصالح وشعيب ونوح، والصالحون وعلى رأسهم أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والتابعون ومن يأتي إلى قيام الساعة ممن لزم هدي النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم هؤلاء في الجنة، الجنة لا يقال: إنها للعرب دون العجم، أو للحاضرة دون البادية، لا يدعيها أحد، إنما هي دار أعدها الله تعالى كرامة لأوليائه، فمن أطاع الله تعالى ولزم ما كان عليه نبيُّه فإنه يكون من أهل الجنة، ولهذا - نسأل الله الكريم من فضله -

---

(١) النساء:١٢٤.

(٢) البقرة: ٨٠.

(٣) صحيح البخاري (٣١٦٩).

(٤) البقرة: ٢٧٧.

يجتمع أهل الجنة في الجنة من لدن آدم إلى آخر من كان من الثابتين في هذه الأمة يجتمعون جميعا في الجنة، من جميع الأصنف ومن جميع الأزمنة، لكن كلهم أتباع نبيٍّ في وقته، أما إذا أتـى نبـيّ كمحمـد صـلّى الله عليـه وسلّم وهو خاتم للأنبياء؛ فالذي يزعم أنه متبع لنبيّ قبله لا يُقبل منه كما تقدم ﴿وَمَـنْ يَبْتَـغِ غَـيْرَ الْإِسْـلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(١) لأنَّا قلنا مرات عديدة: إنَّ الأنبياء قبل محمد صـلّى الله عليه وسلّم أخذوا على قومهم العهد إذا بُعث محمد صلّى الله عليه وسلّم أنْ يتبعوه، فمن لم يتبع محمد صـلّى الله عليه وسلّم بعدما بعث؛ فليس كافرا بمحمد صلّى الله عليه وسلّم وحده بل كافر بمحمد صلّى الله عليـه وسلّم وبالنَّبيّ الذي أخذ عليه العهد أنْ يتبع محمد صلّى الله عليه وسلّم، فالجنة ليست للعرب دون العجم، ليست للحاضرة دون البادية، ليست لمن كان في زمن دون زمن، بل لمن أطاع الله تعالى واتبع رسله من لـدن آدم إلى آخر من يتوفى من أهل الإسلام، يجتمعون جميعا في جنات النعيم - نسأل الله تعالى ذلك. -

---

(١) آل عمران:٨٥.

المسألة الحادية والثمانون: اتخاذ قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد.

....

هذه من خصال أهل الجاهلية ينبغي أنْ يُعرف باتخاذ القبور مساجد، كثيرا ما تسمع هـذه الكلمـة، مـا المراد باتخاذ القبور مساجد؟ يراد بها معنيان:

المعنى الأول: البناء على القبور، يأتي إلى القبر ويبني عليه مسجدا، هذا النوع الأول.

المعنى الثاني: الصلاة عند القبور حتى لو لم يبن عليها مسجد، فلو ذهب ليصلي الضحى مثلا في المقـبرة فقد اتخذها مسجد حتى لو لم يبن مسجدا، لأنَّ اتخاذ القبور مساجد هـذين النـوعين، بـأنْ يُبنـى عليـه بنـاء ومسجد، والنوع الثاني أنْ يُصلى عندها ولو لم يكن هناك مسجد، النَّبيّ صلّى الله عليه وسـلّم حـذَّر تحـذيرا بليغا من اتخاذ القبور مساجد، حتى إنه صلّى الله عليه وسلّم حذَّر الأمة وهو يموت موتا وروحـه الكريمـة الشريفة تُقبض إلى ربها تعالى، في ذلك الموقف كان يحذر الأمة من اتخاذ القبور مساجد، تقـول عائـشة رضي الله عنها: «لما نزل برسول الله صلّى الله عليه وسلّم طفق يطرح خميصة له على وجهه؛ فإذا اغتم بهـا كـشفها، فقال وهو كذلك: لعنة الله على اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيـائهم مـساجد» تقـول عائـشة رضي الله عنها (يُحَذِّرُ ما صنعوا)(١) يعني يُحَذِّرُ الأمة إذا مات أنْ يفعلـوا بـه كـما فعـل اليهـود والنـصارى، وإلَّا فـما المناسبة من لعن اليهود والنصارى في هذا الموضع؟ تحذير الأمة، «لعنة الله عـلى اليهـود والنـصارى اتخـذوا قبور أنبيائهم مساجد» وفي هذا تحذير للأمة فقاله صـلّى الله عليـه وسـلّم في أثنـاء موتـه، وقبـل أنْ يمـوت بخمس - كما في حديث جرير رضي الله عنه - خرج صلّى الله عليه وسلّم عاصبا رأسه وخطب بهـم خطبـة وكان قد أجهده المرض عليه الصلاة والسلام وكان مما قـال في خطبتـه: «ألا وإنَّ مـن كـان قـبلكم كـانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد؛ فإني أنهاكم عن ذلك»(٢) فتميزت أحاديـث النهي عن اتخاذ القبور مساجد أنها في آخر حياته صلّى الله عليه وسلّم بل هي في آخر كلماته، الكلـمات التـي

(١) صحيح البخاري (٤٤٤١).

(٢) صحيح مسلم (٥٣٢).

قالها صلّى الله عليه وسلّم في آخر حياته معروفة، ولهذا لو أنَّ بعض طلبة العلم تفرَّغ وجمع الاحاديث التي في الوفاة النبوية، والنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم مكث نحو الاسبوع ثم توفي صلوات الله وسلامه عليه، فلو ينظر في الاحاديث والأمور التي قالها صلّى الله عليه وسلّم ويصنف في هذا مصنف فينفع كثيرا، كان من آخر ما قال صلّى الله عليه وسلّم أيضا في أواخر حياته: «الصلاة الصلاة؛ وما ملكت أيمانكم»(١) فكان مما أوصى به عليه الصلاة والسلام الصلاة، مما حذر منه ما سمعت من حديث عائشة اتخاذ القبور مساجد، وهكذا جملة من الأمور يكون من فعل الناس لو صنف مصنف في ذكر الأيام الأخيرة من حياته صلّى الله عليه وسلّم وما الذي أوصى به وما الذي نهى عنه صلوات الله تعالى وسلامه عليه، مع ذلك كله أبى أهل الجاهلية إلَّا العناد ومع صراحة الأحاديث وكونها من آخر ما أوصى به أمته صلّى الله عليه وسلّم إلَّا أنهم عاندوه وملأوا الدنيا بكل أسف بهذه البنايات على القبور، حتى إنك ترك بناء شاهقا هائلا تظنه مسجدا وإذا به قد اتخذ على قبر من القبور، مع صريح وجليِّ النصوص في هذا، ومع أنها أحاديث صحيحة ثابتة حتى قال صلّى الله عليه وسلّم: «إنَّ من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد»(٢) الذين تدركهم الساعة وهم أحياء كفار، لأنَّ الساعة لا تقوم بتاتا على مؤمن، إنما تقوم على الكفار، قال: «والذين يتخذون القبور مساجد» فقرنهم بأنهم شرار الخلق، وقال صلّى الله عليه وسلّم - لما ذكرت له أمُّ سلمة كنيسةً رأتها بأرض الحبشة - قال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله»(٣) أحاديث صريحة جدا كلها في الصحيحين وأحاديث ثابتة في المسند وغيره ومع ذلك أصر هؤلاء على العناد وأَبَوا إلَّا أنْ يتخذوا على هذه القبور المساجد، ما النتيجة؟ النتيجة ما تراه، النتيجة التي لأجلها خاف صلّى الله عليه وسلّم على الأمة هو هذا، النتيجة هو استفحال الشرك وانتشاره، لأنَّ القبور إذا عُظِّمَت وفُخِّمَت دخل في قلوب العامة تعظيمُ أهلها والظن بأنه عند أهل القبور رفع الحاجات وإجابة الطلبات، هذا هو الإشكال وهذا هو الذي لأجله

(١) صحيح. أحمد (١٢١٦٩). الصحيحة (٨٦٨).

(٢) صحيح. أحمد (٣٨٤٤)، وصححه الألباني رحمه الله في كتابه (تحذير الساجد) (ص٢٣).

(٣) صحيح البخاري (٤٣٤).

حرص صلّى الله عليه وسلّم على البلاغ المبين في هذا الباب حتى إذا عُصي صلّى الله عليه وسلّم وفُعل هـذا؛ الذنب على من عصى، أما بلاغه فقد أبلغ البلاغ المبين وبيَّن صلّى الله عليه وسلّم أكمل البيان عليـه الـصلاة والسلام.

المسألة الثانية والثمانون: اتخاذ آثار أنبيائهم مساجد، كما ذُكر عن عمر.

....

الآثار المواضع التي كانت بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم - المواضع التي في الأرض الأماكن - على قسمين:

القسم الاول: مواضع خصها الشرع بخاصية معينة، فهذه يُلزم فيها الشرع فيما خصَّه، مثال: مقام إبراهيم، قال تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[1] فيُشرع لمن طاف بالكعبة - إذا تمكن ولم يكن الزحام يضر به غيره - أنْ يأتي عند مقام إبراهيم ويصلي ركعتين بعد الطواف، ولا يشرع له أكثر من هذا أبدا، فالتمسح بالمقام لا شك أنه بدعة، وقد كان السلف ينكرونه، فكان ابن الزبير رضي الله عنه - في مكة - إذا رآهم يمسحون المقام قال: (إنما أمرتم بالصلاة عنده ولم تؤمروا بمسحه)[2]، يعني التزموا ما بيَّن الشرع في هذا الموضع، أُمرنا باتخاذ مقام إبراهيم مصلى، فالمواضع الموجودة في الأرض إما أنْ يخصها الشرع بخصوصية معينة ويُربط بها عمل معين كالصلاة عند المقام ونحو ذلك، هذا النوع الأول من المواضع.

النوع الثاني من المواضع في هذه الأرض من أقصاها إلى أقصاها أنها جميعا متساوية ليس فيها فضيلة تخص بها، البقعة الآن التي نحن فيها الآن في الرياض والبقعة الموجودة في مصر والبقعة الموجودة في العراق ليس لأحد أو في أفريقيا ليس لأحد أنْ يقول: هذه البقعة المعينة فيها فضيلة، من أين؟ من أين أتيت بأنَّ هذه البقعة فيها فضيلة؟ إذا وُجِدَتْ فضيلةٌ بيَّنها الشرع، ولهذا لاحظ الحرم، الحرم له أحكام خصَّها الشرع، بأنَّ الحرم حتى في مكة - مكة كما تعلم نوعان حرم وحل - تقدم أنَّ عرفة خارج حدود الحرم، فللحرم أحكام، إذا وَجَدْتَ لقطة فيه فإنَّ هذه تلتقط للمُعَرِّفِ ولا تُملك، لا يُنفَّر الصيد في مكة، لا يُعضد الشجر، لماذا لأنَّ هذه بقعة خصَّها الشرع بأحكام، فليس لأحد أنْ يدَّعي أنَّ ببقعة أخرى نوعا من الخصوصية، من ذلك آثار الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم، رأى عمر رضي الله عنه عندما كان ذاهبا للحج

---

(١) البقرة: ١٢٥.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (١٥٥١٢).

رأى أناسا يذهبون مذاهب لما وصلوا إلى موضع رآهم يذهبون إلى مواضع، قال: أين يذهب هؤلاء؟ قالوا: مسجد صلَّى فيه النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فهم يصلون فيه، ليس المقصود هنا مسجد مبني، وإنما يقصدون أنَّ النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عندما حج عند ذهابه من المدينة إلى مكة إذا مضى مسافة صلّى الله عليه وسلّم نزل ليصلي الظهر والعصر ثم يمشي مسافة عليه الصلاة والسلام فينزل ليصلي المغرب والعشاء، فهؤلاء الذين رآهم عمر ماذا كانوا يفعلون؟ كانوا يتحيَّنون المحل المكان الذي نزل فيه النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في البرية فيصلون في نفس المكان، فقال عمر رضي الله عنه: (إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا باتباع آثار أنبيائهم، فمن أدركته الصلاة في مثل هذه المساجد فليصل وإلَّا فليمض)[1]، يقول: لا تتحين أنْ تصلي في نفس المكان الذي صلى فيه النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، لأنَّ النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لم يخص ذلك المكان إلَّا لأنه لما أراد النزول جاء وقت الصلاة، فلو أنك مضيت الضحى - الآن - ووصلت بعد ثلاث ساعات إلى الموضع الذي نزل به النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم هل يُشرع أنْ تنزل لتصلي؟ لا، لا يشرع، إنما نزل فيه النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لأنَّ الصلاة أدركه الوقت في ذلك الموضع، ولو أدركه في غير ذلك الموضع صلّى الله عليه وسلّم لصلَّى، ليس لتلك البقعة في البرية وتلك الأخرى وتلك الأخرى أي مزية، فنهى الناس عن مثل هذا وأخبر أنَّ اتِّبَاع هذه الآثار يؤدي إلى الهلاك، لأنَّ الناس ماذا يفعلون؟ الناس إذا فُتح لهم أدنى باب يتجاوزون الحدود، فيظنون ويزعمون أنَّ لهذا المكان خاصية ويعكفون عنده وربما ادَّعوا أنَّ الدعاء عنده – في ذلك الموضع - له خاصية، ربما بُنيت فيه بناية - على هذا الموضع -، ربما صاروا يطوفون به، وهكذا يسترسلون، ولهذا جاء عن عمر رضي الله عنه أنه لما رأى الشجرة التي ذُكرت في القرآن ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[2] تمت تحتها بيعة عظيمة هي بيعة الرضوان، لما رأى الناس يتجهون إلى الشجرة ماذا فعل؟ قطع الشجرة[3]، لأنَّ الحِفاظ على عقيدة الناس أهم من بقاء الشجرة، النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لما

---

(١) صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧٥٥٠). انظر تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق (ص٥٠) للشيخ الألباني رحمه الله.

(٢) الفتح: ١٨.

(٣) أورده الحافظ ابن حجر رحمه الله في كتابه (فتح الباري) (٧ / ٤٤٨)، وقال (وجدت عند ابن سعد بإسناد صحيح أن ...).

بايع تحت الشجرة هل قال: لهذه الشجرة خاصية؟ ما قال ذلك، إنما بايع صلّى الله عليه وسلّم يستظل تحت هذه الشجرة، فعمر رضي الله عنه من فقهه عَلِم أنَّ الناس سيتجاوزون فقطعها رضي الله عنه وأرضاه، ثبت أيضا - وهذا مهم جدا لطالب العلم أنْ يعرفه ويضبطه - ثبت أنَّ المسلمين لما فتحوا تُسْتَر وجدوا جنازة لأحد أنبياء بني إسرائيل بحالها لم تتغير، قال بعض السلف: إنها جنازة دانيال أحد أنبياء بني إسرائيل، كان الفرس قد غزوا بيت المقدس وخرَّبوه كما ذكر الله عزَّ وجلَّ في سورة الاسراء ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾[1] فدخلوا وخربوا بيت المقدس وقتلوا من قتلوا من بني إسرائيل وسبوهم، ولهذا يوجد في بلاد فارس - في خراسان - حارة تسمى حارة اليهودية، كانت فيها بنو إسرائيل، وهي مستمرة، ومنها ينبعث سبعون ألفا من أتباع الدجال كما في الحديث «يتبع الدجال سبعون ألفا من يهود أصبهان عليهم الطيالسة»[2] ممن أسروا أسروا دانيال من بني إسرائيل، فلما توفي جعله الفرس في بيت المال لم يدفن، بقيت جنازته، لم فتح المسلمون تستر وجدوا جنازته عليه الصلاة والسلام جنازة نبيّ فكتب أبو موسى إلى عمر رضي الله عنه؛ ماذا أفعل بجنازة هذا النَّبيّ - نبي من أنبياء الله -؟ فذكر عمر رضي الله عنه أنَّ دانيال دعا الله عزَّ وجلَّ أنْ يتولى دفنه أمةُ محمد صلّى الله عليه وسلّم، وأنَّ الله تعالى استجاب دعوته، فبقيت جنازته محفوظة، لأنَّ الأنبياء لا تأكل الأرضُ أجسادهم، أمر عمر رضي الله عنه أبا موسى بالآتي؛ أنْ يحفر عدة

ولكن قال الشيخ الألباني رحمه الله بعد أن أورد هذا الأثر في كتابه (تحذير الساجد) (ص١١٦): (ثم استدركت فقلت: يبعد ذلك كله ما أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد من طريق أخرى عن نافع؛ قال: قال ابن عمر رضي الله عنهما: (رجعنا من العام المقبل فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها؛ كانت رحمة من الله). (يعني: خفاءها عليهم)، فهو نص على أن الشجرة لم تبق معروفة المكان يمكن قطعها من عمر، فدل ذلك على ضعف رواية القطع الدال عليه الانقطاع الظاهر فيها نفسها، ومما يزيدها ضعفا ما روى البخاري في المغازي من صحيحه عن سعيد بن المسيب عن أبيه؛ قال: (لقد رأيت الشجرة ثم أتيتها بعد فلم أعرفها).

وقال ابن عبد البر في كتابه (الاستذكار) (٣٦٠/ ٢): (وقد كره مالك وغيره من أهل العلم طلب موضع الشجرة التي بويع تحتها بيعة الرضوان. وذلك - والله أعلم - مخالفة لما سلكه اليهود والنصارى في مثل ذلك).

(١) الإسراء: ٥.

(٢) صحيح مسلم (٢٩٤٤).

قبور ويدفن دانيال عليه الصلاة والسلام في واحد منها والناس لا يدرون في أي القبور دفن، وجاء في بعض الروايات أنَّ أبا موسى رضي الله عنه كان عنده أربعة أسرى من الكفار، والأسير يمكن أنْ يُقتل ويمكن أنْ يُفادى ويمكن أنْ يُمنَّ عليه، فأمر هؤلاء الأسرى الأربعة أنْ يحفروا ثلاثة عشرا قبرا، فلما حفروا ثلاثة عشر قبرا قتلهم، لماذا؟ حتى لا يُعرف في أي القبور دُفن دانيال، فدفن دانيال ولم يعلم الناس في أيِّ القبور هذه دفن، لماذا فعلوا هذا؟ حتى لا يُغلى في قبر هذا النَّبيّ لأنَّ قبر النَّبيّ إذا وجد في محل معين فالناس ستبني عليه البنايات وربما يأخذون من ترابه ويتسمحون به، فأمرهم عمر رضي الله عنه بهذا بُعدًا عن الشرك، يقول ابن القيم رحمه الله: انظر إلى صنيع السلف وتأمل لو أنَّ هؤلاء المتأخرين وجدوا جنازة دانيال لجالدوا عليه بالسيوف، يقاتلون عليها قتالا، والسلف قد أخفوا جنازة دانيال عمدا حتى لا يُغلى فيها، فالحاصل أنَّ من الخطر الكبير أنْ يُبالغ في آثار الأنبياء لأنَّ الشرك دخل على من قبلنا بالغلو، فإذا وجدت آثارهم واعْتُنِيَ بها كانت النتيجة أنْ يُشرك بالله عزَّ وجلَّ، وهذا واقع كثير من الناس، ويدلك على هذا ما يفعلونه عند غار ثور ونحوه، كتابات فيها استغاثة بالنَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ودعوى، وهل يُشرع الذهاب إلى غار ثور؟ لا يُشرع، ما الدليل؟ الدليل أنَّ النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لما هاجر ومكث بهذا الغار ثلاثة أيام ثم ذهب إلى المدينة بقي النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى عام ست، ثم أتى ليعتمر فصدَّه المشركون عن العمرة، ورجع صلّى الله عليه وسلّم واعتمر من العام القادم في عام سبع كان بإمكانه أنْ يذهب إلى الغار أو لا؟ نعم، ولم يذهب، ثم رجع النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في عام ثمان وفتح الله له مكة، وصارت تحت يد أهل الإسلام هل ذهب إلى الغار؟ لم يذهب حتى توفي، اعتمر صلّى الله عليه وسلّم أربع عمر وحج حجة الوداع وفتح مكة لم يرجع إلى الغار فدل على أنه لا يشرع، إذ لو كان مشروعا لبيَّنه صلّى الله عليه وسلّم، وهكذا الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم، لم يكونوا يذهبون إلى الغار وإلى المواضع التي مرَّ بها عليه الصلاة والسلام، فالحاصل أنَّ الذي ينبغي أنْ يُحذر من هذه المبالغات في آثار الأنبياء لأنَّ الذي ينبغي للعاقل أنْ ينظر إلى مآلات الأمور وإلى ما يمكن أنْ تنتهي إليه، قوم نوح كما تقدم كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في البخاري لما هلكوا جعلوا على قبورهم وصوروا تلك التماثيل على شكل أولئك

الصالحين، يقول ابن عباس: (ففعلوا ولم تُعبد - لأنهم كانوا موحدين - حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبدت)(١)، هذا هو الذي ينبغي أنْ يُتفطن له - الناس فيما بعد -، ولهذا في كتاب الأم للإمام الشافعي رحمة الله تعالى عليه موضع نفيس جدا لما ذَكَرَ البناء على القبور وبيَّن أنه محرم وذكر حديث النهي قال رحمه الله تعالى: (لم تُؤْمَنُ الفتنةُ والضلال على من يأتي بعده)(٢)، هكذا الفقهاء وهكذا العلماء يقول: زمننا ليس فيه عبادة قبور، لكننا لا نأمن على من يأتي بعدنا، وصدق رحمه الله، فالذين أتوا من بعده قد اتخذوا القبور مساجد، قال: لم يُؤْمَنُ الفتنة والضلال على من بعده، هذا يدلك على أنَّ الوضع في زمن الشافعي وغيره من أئمة الإسلام في عصور الإسلام الأولى لم يكن فيها اتخاذ القبور مساجد ولم يكن فيهم الشرك موجودا، قال: نخشى على من يأتي بعدنا، مع أنَّ هذا صريح النصوص يدل على المنع منه، فالحاصل أنَّ المبالغة في اتخاذ آثار الأنبياء مساجد يؤدي إلى الشرك ولو في الأجيال القادمة.

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٢٠).

(٢) الأم (٣١٧/ ١).

المسالة الثالثة والثمانون: اتخاذ السراج على القبور.

....

اتخاذ السرج على القبور هذه من طريقة الغلاة في القبور، جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج»(١) لعن ثلاثة أصناف: الزائرات هن النساء لأنه ليس لهن أنْ يزرن القبور، ومن اتخذوا على القبور مساجد كما تقدم في المسألة السابقة أو اتخذوا عليها أيضا السرج، السرج جمع سراج وهو متخذ للإضاءة، كثير من الشباب يمكن لا يعرفه الآن، يكون فيه زيت في أسفل هذا السراج، ولاحقا صار فيه ما يسمى بالكاز ونحوه، فيه فتيلة توقد، وإذا أُوْقِدَت وتحتها الزيت أو هذا الكاز أو نحوه فإنها تشتعل في الليل فتضيء المكان، لعن صلّى الله عليه وسلّم من أضاء القبور، ولهذا لا يجوز أنْ تُضاء القبور بالسرج ولا بأدوات الإضاءة المعروفة كالكهرباء لِلَعْنِهِ صلّى الله عليه وسلّم من فعل هذا في القبور، القبور تُبقى على هيئتها وعلى وضعها، ولا يشرع أنْ يمكث الناس عند القبور ويعيش في المقابر ثم يقولون: نحتاج أنْ تُضاء المقبرةُ، من قال: إنه يجوز أنْ يُبقى في المقبرة؟ لا يجوز العكوف، العكوف عند القبور لا يحل، الحاصل أنَّ إضاءتها لا يحل، فإذا أراد أحد أنْ يدفن ليلا فلا مانع من أنْ يحمل معه ما يضيء له في أثناء الدفن، قد يستخدم الناس شيئا من الإضاءة يعني بهذه الآلات قوية الإنارة حتى يُدفن الميت ثم يأخذونها، أو حتى يستعملون إضاءة السيارة أو غيره، المهم أنْ يكون نورا مؤقتا، ثم إذا فرغوا من

---

(١) صحيح بلفظ (زوارات)، وبدون لفظ (السرج). رواه الترمذي (١٠٥٦) عن ابن عباس وأبي هريرة وحسان مرفوعا.

قال الشيخ الألباني رحمه الله في كتابه (تمام المنة) (ص٢٥٧): (هذا الحديث - على شهرته - ضعيف الإسناد؛ فإنه من رواية أبي صالح باذام عن ابن عباس، وباذام ضعفه الجمهور؛ بل اتهمه بعضهم بالكذب كما ذكرته في أحكام الجنائز، نعم؛ الحديث صحيح لغيره بلفظ: (زوارات) لأن له شواهد؛ غير (السرج) فلم أجد له شاهدا فيبقى على ضعفه).

وقال الشيخ الألباني رحمه الله أيضا في كتابه (أحكام الجنائز) (ص٢٣٢): (وأما الجملة الأولى من الحديث فصحيحة؛ لها شاهدان من حديث أبي هريرة وحسان بن ثابت (قلت: عند ابن ماجه، وبلفظ زوارات) أوردتهما في المسألة (١١٩ ص ١٨٥،١٨٦). وأما الجملة الثانية فهي صحيحة أيضا متواترة المعنى). قلت: أي بدون لفظ السرج.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله في كتابه (فتح الباري) (٣ / ٢٠٠) - في شرح حديث ابن عباس هذا -: (وقال مسلم في (كتاب التفصيل): هذا الحديث ليس بثابت، وأبو صالح باذام قد اتقى الناس حديثه، ولا يثبت له سماع من ابن عباس).

الدفن حملوا معهم هذا الذي أضاءوا به ولا تُبقى القبور مضاءة، لا يحل أنْ تُبقى مضاءة لنهيه صلّى الله عليه وسلّم، فإنارة القبور يؤدي إلى ماذا؟ يؤدي إلى تعظيمها أيضا، وهذا مما وقع؛ أنْ صار النـاس ينـذرون - في بلاد كثيرة - ينذرون أنْ يضيئوا قبر الشيخ فلان أو المقابر وكذا ويتقربون إلى الله بمثل هـذا، وأدى هـذا إلى أنْ يُغلى في القبور، هذه المسألة الثانية المتعلقة بالقبور.

المسألة الرابعة والثمانون: اتخاذها أعياداً.

....

العيد نوعان، أولا العيد ما المراد به؟ العيد هو ما يعود، الشيء الذي يعود، سُمي بالعيد لأنه يعود، عاد يعود فسمي عيدا، والعيد نوعان عيد زماني يتعلق بالزمان كعيد الفطر من رمضان وعيد الأضحى عيد زماني في الواحد من شوال هناك عيد، في العاشر من ذي الحجة هناك عيد زماني، والثاني عيد مكاني، العيد المكاني هو المكان الذي يجتمع فيه الناس كل مدة معينة يُرَتِّبُونها كأنْ يجعلوا اجتماعا سنويا أو شهريا أو ما كان، يقولون نجتمع في هذا المكان ونعود إليه في هذه المدة، قال صلّى الله عليه وسلّم: «لا تجعلوا قبري عيدا»[1]، ما معنى قوله عيدا؟ يعني موضعا ومكانا للاجتماع حوله، تعكفون عنده وتترددون عليه وتعودون إليه، فاتخاذ القبور أعيادا يعني كثرة ملازمتها والعود إليها على هيئة معينة، أما الزيارة للقبور فلا شك أنها مشروعة للرجال، يزور القبر ويدعو لأهله ويعتبر كما قال صلّى الله عليه وسلّم: «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة»[2] لكن لا يجعل الناس موسما محددا يعودون فيه إلى القبر، لأنَّ هذا يجعل القبور أعيادا، أما أنْ تزور القبر اليوم ويزوره أخوك غدا؛ تزوره في الصباح؛ تزوره في المساء؛ تزوره في أي وقت، ولا مانع لو أنَّ اثنين أو ثلاثة ذهبوا للزيارة لكن على غير هيئة مرتبة، بحيث لو قال: يا فلان سنزور المقبرة أخبر أبناء عمك وأخبر الناس يجتمعون عند هذا القبر، هذا معنى العيد «لا تجعلوا قبري عيدا»، أما الزيارة فمشروعة للرجال، فَفَرْقٌ بين الزيارة الشرعية وبين اتخاذ القبور أعيادا، بأنْ تجعل مواضعها على هيئة اجتماع عام يجتمع فيه الناس، هذا لا شك أنه غير مشروع، ولا يشرع أيضا العكوف والمكث الطويل، يذهب الانسان ويسلم على إخوانه ويدعو لهم بالمغفرة يعتبر ويعلم أنه يوما ما سيكون في هذه القبور كما أنَّ هؤلاء الذين سبقوا سبقوه إليها ويأخذ من ذلك العبرة ويسأل الله عزَّ وجلَّ لهم المغفرة ويمضي، أما أنْ يعكف فلا يعكف، العكوف طول المدة المكث طول المدة ليس هذا بمشروع، جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنَّ

(١) صحيح. أبو داود (٢٠٤٢). صحيح الجامع (٧٢٢٦).

(٢) صحيح مسلم (١٩٧٧).

رجلا نذر أنْ ينحر إبلا ببوانة – موضع وكان -، النذر قد يُستغرب لأنه يمكن أنْ يريد أنْ ينفع الفقراء في بوانة، ربما له أقارب أو اناس يريد أنْ ينحر عندهم حتى يأخذوا لحمها، النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟» لأنه خشي أنْ يكون في نفس هذا الرجل شيء من أمور الجاهلية، قالوا: لا، قال - وهذا هو الشاهد: «هل كان فيها عيد من أعيادهم؟» يعني بالعيد هنا الاجتماع، هل يجتمعون ببوانة؟ قالوا: لا، قال: «أوف بنذرك، فإنه لا وفاء في معصية ولا في ما لا يملك ابن آدم»(١) فلو كان في بوانة وثن والرجل يريد أنْ ينحر - ولو لم يوجد الوثن - لكن في نفسه شيء من الجاهلية لمنعه صلّى الله عليه وسلّم، ولو كان فيها عيد يجتمعون ربما كان الذبح على هذه الهيئة يعيد العيد الجاهلي مرة أخرى، فلما أخبروا صلّى الله عليه وسلّم أنه ليس بها وثن ولا عيد قال: «أوف بنذرك»، أما لو كان فيها عيد أو وثن لنهاه.

---

(١) صحيح. أبو داود (٣٣١٣). الصحيحة (٢٨٧٢).

المسألة الخامسة والثمانون: الذبح عند القبور.

....

الذبح عند القبور، الذبح عند المقابر على نوعين، إما أنْ يُذبح - والعياذ بالله - لأهـل القبـور أنفسهم فهذا لا شك أنه من الشرك، وقال صلّى الله عليه وسلّم: «لعن الله من ذبح لغير الله»[١]، النوع الثاني من الذبح: أنْ يذبح لله لكن يقول: سأذبح عند القبور، فذبحه لله، كأنْ يذهب يوم الأضحى ويذبح الأضحية لله عند القبر، هل يجوز هذا؟ لا شك أنه لا يجوز، لأمور كثيرة منها: أنه بهذا الطريقة لا يُدرى مَنِ الذابح للقبر ومَنِ الذابح لله كلهم ينحرون، ثم إنه يُكَثِّرُ سواد أهل الشرك فيُظن أنه يذبح كما يذبح هؤلاء للقبر فهو أيضا يذبح للقبر، ثم ما الفضيلة التي تجعلك تذبح عند القبر؟ لماذا تذبح عند القبر؟ لا شك أنَّ هذا كله وسيلة من وسائل الشرك، أما لو ذبح لأهل القبور يكون من الشرك الأكبر، فالذبح عند القبور منهي عنه لا شك، واستدلوا عليه بقول الله عزَّ وجلَّ – في مسجد الضِّرار - : ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾[٢] لأنَّ هذا المسجد بناه المنافقون ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله، فأمر صلّى الله عليه وسلّم بهدمه مع أنهم يقولون وضعناه للضعيف في الليلة الشاتية والمسكين حتى يصلي فيه، فأمر صلّى الله عليه وسلّم بهدمه لأنه مسجد يُنافس به ويُضار به مسجد النَّبيّ ومسجد قباء والمساجد التي بُنيت على التقوى، فلا يحل لأحد أنْ يأتي إلى أهل الشرك فيُعِيْنُهُم على الذبح ولو قال: إني أذبح لله ولا أذبح كما يذبحون، جاء في الحديث أنه صلّى الله عليه وسلّم قال: «من كثَّر سواد قوم فهو منهم»[٣] من كثَّر سواد قوم فهو منهم، لا يحل قطعا الذبح عند القبور حتى لو كان يذبح لله تعالى.

---

(١) صحيح مسلم (١٩٧٨).

(٢) التوبة: ١٠٨.

(٣) (رواه أبو يعلى وعلي بن معبد في كتاب الطاعة) كذا في كشف الخفاء (٢/٣٢٨).

المسألة السادسة والثمانون: التبرك بآثار المعظمين، كدار الندوة، وافتخارُ من كانت تحت يده بذلك، كما قيل لحكيم بن حزام: بعت مكرمة قريش، فقال: ذهبت المكارم إلَّا التقوى.

....

المعظمون يعني كالملوك والعلماء وشيوخ القبائل هؤلاء عادة يُعظَّمون إما للدين أو للدنيا، آثارهم التي تبقى بعدهم كمنازلهم وبيوتهم لا يحل التبرك بآثار هؤلاء، ذكر الشيخ صالح الفوزان وفقه الله وحفظه أنَّ مما يدخل في ذلك ترميم الآثار، يقول: إذا رُممت الآثار؛ يدخل هذا، لأنه يأتي جيل يتوهم أنَّ السبب تعظيم من قبله لهذه الآثار لوجود بركة متوهمة في هذا، مثَّل المصنف رحمه الله بدار الندوة، دار الندوة كان يجتمع فيها كبراء قريش للتشاور، مبناها بقي مدة إلى زمن معاوية رضي الله عنه، فباعه حكيم بن حزام رضي الله عنه لأنه هو صاحبه وهو مالكه، فقال له ابن الزبير رضي الله عنهما: بعت مكرمة قريش؟ - لأنَّ قريشا كانوا يتفاخرون بدار الندوة - فقال: يا ابن أخي ذهبت المكارم إلَّا التقوى، يعني قصده ما الفائدة من إبقاء هذه الدار واستمرارها؟ إما إنها دار تُباع أو تُسكن أو تهدم ويُتوسع، المهم لا تبقى هكذا كالرمز، فقال: ذهبت المكارم إلَّا التقوى، ثم جعل ثمن بيعها - وهو مئة ألف درهم - جعله لله عزَّ وجلَّ، فباعها وانتفع بثمنها الانتفاع الحقيقي بأنْ أخرج هذا الثمن لله، أما أنْ تبقى هكذا ويُقال: كان يُجتمع فيها الكبراء وكان فيها كذا وكذا فلا ينبغي مثل هذا والحمد لله، الدور مادامت تسكن فيستفاد منها، تُسكن أو تؤجر فإذا صارت غير قابلة للسكنى انهدمت أو صارت غير مناسبة للسكن صاحبها بالخيار إما أنْ يتركها وإما أنْ يبيعها وإما أنْ يهدمها ويتوسع فيها ببناء أو نحوه، أما أنْ تبقى هكذا لأجل أنَّ مَنْ قبلنا كانوا وكانوا؛ فهذا لا يُشرع.

المسألة السابعة والثمانون: الفخر بالأحساب.

المسألة الثامنة والثمانون: الطعن في الأنساب.

المسألة التاسعة والثمانون: الاستسقاء بالأنواء.

المسألة التسعون: النياحة .

....

هذه وردت في حديث واحد عنه عليه الصلاة والسلام بيَّن أنَّ هذه جميعا من خصال الجاهلية فقال: «أربع في أمتي لا يدعونها» وذكر هذه الأربعة «الفخر بالأحساب والطعن بالأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة على الميت»(١).

الفخر بالأحساب: أنْ يفتخر الرجل بأمجاد آبائه وأجداده يقول: نحن الذين فعلنا كذا وكذا، ونحن الذين كانت لنا مواقف ويبدأ يتفاخر بتلك الأحساب التي كانت فيمن قبلنا، نقول: هذا الذي كان من آبائك أحد أمرين، إما أنْ يكون محلا للمدح فيكونون هم الممدوحين لا أنت، فهم الذي فعلوا هذه الأفعال، وإما أنْ يكون من ظلمهم وتسلطهم على العباد وغزوهم للناس فهذه أصلا ليست محلا ولا موضعا للمفاخرة لأنها ظلم من مظالمهم، فهذه من طرائق أهل الجاهلية أنهم يتفاخروا بأحسابهم.

الثاني: الطعن في الأنساب، يعيبون أنساب غيرهم، يقولون مثلا: هذا من قبيلة رديئة ناقصة، ويبدؤون يَحُطُّونَ من القبائل ويقولون: قبيلتنا نحن هي الرفيعة، أو يطعنون في ثبوت أصلهم، يقولون: هذا ليس ابنا لفلان، يطعنون في الأنساب، ومن هذا هذه العبارة القبيحة التي يطعن بعض الناس في الأنساب وهو لا يدري إذا أغضبه قال له: ابن الحرام، معناه أنه ابن زنى - نسأل الله العافية والسلامة - لَزِمَ من هذه الكلمة حدٌّ شرعي وهو حد القذف، فهذا كثير في الناس؛ الطعن في الأنساب.

الاستسقاء بالنجوم: اعتقاد أنَّ المطر ينزل بتأثير النجوم بطلوعها وغروبها، فيحيل الأمر إلى النجوم فهذا من صنيع أهل الجاهلية.

---

(١) صحيح مسلم (٩٣٤).

والنياحة على الميت، النياحة إظهار الجزع على الميت بغير الطريقة الشرعية، الميت إذا توفي إذا دمعت العين وحزن القلب فلا أحد يُلام على مثل هذا، هذا أمر لابد منه قد بكى النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لما مات ابنه إبراهيم وقال: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلّا ما يُرضي ربنا»(١) النياحة تتجاوز هذا إلى التسخط بالقلب على القدر وإلى رفع الصوت باللسان بالنياحة على الميت كانوا يقولون: وا مطعماه وا كاسياه وا كذا وا كذا ويصرخ صراخ شديد وتخمش الوجوه بالأظافر وربما قُطِّعت الشعور أيضا وتُشق الثياب، كل هذا من صنيع أهل الجاهلية وصاحبه متوعد بوعيد شديد جدا، واجب على العبد أنْ يرضى بقضاء الله تعالى، أما أنْ يُظهر الجزع والتسخط فعلى من؟ يُظهره على الله تعالى! ثم إنَّ هذا لا ينفعك ولا ينفع الميت وما لك منه إلّا الضرر، فهذه كلها من صنائع أهل الجاهلية ومن طرائقهم، قد قال صلّى الله عليه وسلّم: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها أقيمت يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»(٢) يعني حتى تشتعل فيها النار وتكون أشد، يعني صار عندها - عياذا بالله - القطران سربالا لها وصار درعها من جرب يكون ذلك أشد في اشتعال النار فيها.

---

(١) صحيح البخاري (١٣٠٣).

(٢) صحيح مسلم (٩٣٤).

المسألة الحادية والتسعون: أنَّ أجلَّ فضائلهم البغي، فذكر الله فيه ما ذكر.

المسألة الثانية والتسعون: أنَّ أجلَّ فضائلهم الفخر - ولو بحق - فنهي عنه.

....

هاتان المسألتان تتعلقان بالبغي والفخر، ومع أنهما مذمومان وقبيحان إلَّا أنَّ أهل الجاهلية يجعلون هذا أَجَلَّ الفضائل، الجاهلية والظلم والتعدي على الناس بسلب أموالهم وسفك دمائهم يراه مفخرة تدل بزعمه على أنه جريء وعلى أنه شجاع، لهذا نهى الله تعالى عن البغي فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(١) فجعله الله تعالى مع هذه البلايا جميعا محرما، فالبغي بالتعدي على الناس وظلمهم في دمائهم في أعراضهم في أموالهم هذا من أقبح ما يكون وصاحبه له يوم القيامة نصيب وافر من عذاب الله وعقوبته، جاء في الحديث أنه صلّى الله عليه وسلّم قال: «إنَّ أشد الناس عذابا؛ أشدُّهم عذابا في الدنيا»(٢) يعني بقدر ما يكون معذَّبا للناس في الدنيا بقدر ما يشتد عذابه في الآخرة – نسأل الله السلامة والعافية -، جاء عنه عليه الصلاة والسلام أيضا أنه قال: «إنَّ الله أوحى إليَّ أنْ تواضعوا؛ حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد»(٣)، هناك من لا يبغي لكنه يشجع البغي فيدخل في الإثم وهو لا يشعر، هو لم يمد يده على أحد بضرب أو بسفك دم، لكن إذا علم أنَّ أحدا تعدَّى على أحد بغير الطريقة الشرعية سرَّه ذلك وفرح وربما شجع وحرَّض وحسَّن هذا الفعل، لا شك أنَّ هذا داخل في الإثم بلا أدنى ريب - وإن لم يبغ هو - بل إنه بمثل هذه الأمور قد يكون من أكثر من ينشر البغي، ومن البغي العظيم أنْ يوجد اثنان يتقاتلان ويتضاربان فيجتمع عندهم أحد ويشجعهم على الاستمرار في المضاربة، هذا بغي قبيح هذه مساعدة في البغي، الواجب أنْ يمنع أخاه من الاقتتال مع أخيه الثاني ويمنع أحدهما من ظلم الآخر فيأتي ويشجع ويسره ذلك ويفرح بمثل هذه المواقف التي يكون فيها المضاربة والمشاجرة، فالبغي يقع من أناس

---

(١) الأعراف:٣٣.

(٢) صحيح. أحمد (١٥٣٣٣). الصحيحة (١٤٤٢).

(٣) صحيح مسلم (٢٨٦٥).

والتشجيع عليه يقع أيضا من أناس أخرين، لا شك أنَّ تحسين البغي يأثم به صاحبه وربما كان من أسباب انتشار هذا البغي، وفي الحديث أنه صلّى الله عليه وسلّم قال: «إنَّ الله أوحى إليَّ أنْ تواضعوا» إذا حصل التواضع ماذا يحدث؟ «لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد» أنْ تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد، الذي يجعل الناس يبغي بعضهم على بعض أنهم لم يتواضعوا لله عزَّ وجلَّ، ولو تواضعوا لكَفُّوا وخافوا الله تعالى، وهكذا الخصلة التي بعدها أنَّ أجلَّ فضائلهم - يعني عندهم - الفخر يقول: ولو بحق فنهي عنه، التفاخر حتى لو في أمر من الحق أو من الخير لا شك أنه لا يحل كما في الحديث «حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد» ما معنى قوله «الفخر ولو بحق»؟ يعني قد يكون الانسان نفع الله عزَّ وجلَّ به، هدى الله عزَّ وجلَّ به أناسا، صار له أثر في الدعوى إلى الله تعالى، ربما كان من أهل الإحسان والنفقات والصدقات لا يجوز أنَّ يتفاخر بمثل هذا حتى لا يُفسد عمله، والحق أنَّ الفخر بمثل هذا يدل على غفلة عظيمة جدا، لأنَّ هذا الذي افتخر بأنَّ الله هدى على يديه كذا وكذا وأنه ذبَّ عن السُّنَّة كذا وكذا وأنه رد على كذا وكذا؛ لا شك أنه غافل غفلة عظيمة لأنَّ ما وفَّقَه الله تعالى إليه من العلم أو الجهاد أو بذل المال؛ مِنَّةٌ كبيرة عليه من الله تعالى يجب عليه أنْ يشكرها، فمن غفلته التامة أنْ يجعل مِنَّة الله تعالى موضعا للمفاخرة، هي مِنَّة، لو لم يوفقك الله عزَّ وجلَّ لما تيسر لك من العلم أو من التوفيق في الدعوة أو الحصول على المال حتى بذلته في وجوه النفقة، فلا يفخر إلَّا غافل ساه لا يدري بموارد النعم، ويوجد للأسف في بعض من يتعلم العلم أو بعض من يدعون إلى الله هذا التفاخر، فتجد أنه مفتخر بأنه صار عليه كذا وكذا، بل ربما بعضهم قال: أنا أفخر أني فعلت كذا وكذا، هذا لا يليق بأهل العلم ولا بأهل لزوم السُّنَّة، احمدِ الله عزَّ وجلَّ، وكان السلف رضي الله عنهم يخفون أعمالهم اخفاء شديدا ويحرصون حرصا بالغا على أنْ يعملوا العمل ولا يدري به أحد، هذا عكسهم، هذا الذي لم يَعْلَمْ يُعلِّمه، أنا حصل لي كذا وفعلت كذا، إنْ كنت فعلت هذا مخلصا لله تعالى وقَبِلَهُ منك فإنَّ ابتغاءك الأجر يكون عند الله تعالى لا عند الناس، وإنْ كنت فعلت هذا الأمر ليُشار إليك وتُمْدَحَ فبئس ما صنعت، جعلت الدين صنعة وبضاعة، فينبغي أنْ لا يُفخر حتى في الحق، لا يقول: إني أفخر أني أسلم على يدي كذا وكذا،

أفخر أني فعلت كذا وكذا، ما هذا المنطق؟ منطق غريب جدا أنْ يوجد في أهل الدين، لو أنـه تحـدَّث بنعمـة الله أمر آخر، مما أحمد الله تعالى عليه ومنَّ به عليَّ أنْ وفقني إلى كذا وكذا، إنْ كـان بالفعـل يريـد أنْ يتحـدث بالنعمة، لكن الفخر لا شك أنَّه مضاد للتواضـع، لهـذا قـال صـلّى الله عليـه وسـلّم: «إنَّ الله أوحـى إلي أنْ تواضعوا؛ حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد».

المسألة الثالثة والتسعون: أنَّ تعصُّب الإنسان لطائفته على الحق والباطل أمر لابد منه عندهم، فذكر الله فيه ما ذكر.

....

تكلمنا عن التعصب، أنَّ الانسان يستمر على الباطل ويعلم أنه على باطل، هنا ذكر أنَّ التعصب يكون للطائفة، وهذا واضح جدا في الروافض، تجدهم يتعصبون لما هم عليه لما يقوله شيوخهم مع واضح فساد ما يقولون، مفاسد واضحة في مذهب الروافض كالشمس، لكن تعصبهم الأعمى وتدريب شيوخهم لهم على الخضوع والاستكانة والتنفيذ بدون أدنى كلام هذا الذي عوَّدهم على الحال الذي هم عليه، وإلا يتضح لهم اتضاحا بيِّنا أنَّ ما يتصرفون شياطينهم هؤلاء من الإهلاك الآن الذي صار في أنحاء كبيرة من الأرض، لو كان هؤلاء يعقلون لقالوا: هؤلاء الذين أهلكوا حتى الأطفال حتى النساء هؤلاء وحوش ليسوا شيوخا، هؤلاء شياطين في الحقيقة، أطفال تُذَبَّح تذبيحا، لو دخل المسلمون على اليهود وعلى النصارى فلا يحل أنْ يُقْتَلَ طفل، لو كان عدد الأطفال مليار طفل، ما يجوز أنْ تتعرض لطفل واحد، ولو كان هذا الطفل ابن أكفر كافر وقتل في المسلمين أكثر المقاتل، الطفل لا يُتعرض له ولا يجوز أنْ يُعَذَّب وهكذا النساء إلَّا إذا قاتلت النساء، إذا حملت السلاح تقاتل، أما النساء لا تُقتل، ولمَّا رأى النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم امرأة في إحدى المغازي قد قُتلت نهى عن هذا، وهكذا الأطفال، فهذا البغي الشديد الآن من هؤلاء الروافض على المسلمين في أنحاء العراق في سوريا في أماكن كثيرة، ما الذي يجعل هؤلاء الذين من ورائهم يصمتون؟ التعصب، التعصب الأعمى لطائفتهم، حتى لو فعلوا شيوخهم ما فعلوا، فصاحب التعصب حتى وإنْ رأى الخطأ وتجلَّى له واتَّضَح إلَّا أنَّه لأنَّه يتعصب لطائفته يعمى قلبه كما تعمى عيون الذين لا يبصرون.

المسألة الرابعة والتسعون: أنَّ من دينهم أخذَ الرجل بجريمة غيره، فأنزل الله ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(1).

....

الجاني يُحاسب شرعا بحسب جنايته هو، عند أهل الجاهلية يُعاقب البريء لأنَّ غيره أجرم لماذا؟ لكونه قريبا للجاني، لكونه صديقا للجاني، ما ذنب القريب إذا لم يُعِنْه ولم يكن عَيْنًا له ولكن لمجرد أنه قريب له يقول: نعاقبك ونعاقب قريبك، أو نعاقب صديقك، لا شك أنَّ هذا لا يحل، ولهذا لما قال أخوة يوسف: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾(2) يعني أطلقه وخذ واحد منا ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾(3) ما يحاسب على الجريرة والجناية إلَّا الذي وقعت منه، مِنْ فعل أهل الجاهلية أنه إذا قُتل منهم قتيل وكان القاتل الذي قتل رجلا دنيئا قالوا: هذا لا يستحق أنْ يُقتل، لن نقتل القاتل، سنقتل رجلا شريفا من قومه نكاية به، أما هذا فلا يستحق القتل، فيقتلون غير القاتل، لهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾(4) ذكر ابن كثير في المراد بالإسراف بالقتل: أي لا يسرف في القتل بالتمثيل به أو أنْ يقتصَّ من غير القاتل، هذا من الإسراف في القتل، قوله تعالى ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ ذكر الشنقيطي رحمه الله تعالى أنَّ المراد: لا تحمل نفس ذنب أخرى، بل لا تحمل نفس إلَّا ذنبها، فقوله: ﴿وَلا تَزِرُ﴾ أي ولا تحمل - والوزر هو الثقل المثقل - فالمعنى لا تحمل نفس وازرة أي آثمة وزر نفس أخرى أي إثمها أو حملها الثقيل، أما أهل الجاهلية كما قلنا فبعكس هذا يعاقبون غير الجاني فالذي لم يقع منه إجرام لا يجوز أنْ يُتعرض له، ومن ذلك أيضا وهذه مسألة مفيدة لطالب العلم؛ مما يتفاخر به الغربيون ويروِّجوا أفكارهم أنهم يقولون: إنَّ المتهم بريء حتى تثبت إدانته ويتفاخرون بمثل هذا، يقال: في الشرع المتهم ما هو؟ بريء أيضا لكنها حلوة إذا أتت من أولئك، المتهم في

---

(1) الأنعام: ١٦٤.

(2) يوسف: ٧٨.

(3) يوسف: ٧٩.

(4) الإسراء: ٣٣.

الشرع بريء مادامت مجرد تهمة إلَّا إذا قامت أمارات فيها نوع إشارة إلى أنَّ هذا صلة في الجريمة فيؤخذ ويُتحقق منه فإما أنْ تكون واقعا فيتضح أنه مجرم وإما أنْ يتضح أنه لا واقع لها فيترك، ولهذا جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان في سفر ففقد بعض متاعه واتَّهم به رجلا في السفر؛ فلما وصل إلى أبيه عمر رضي الله عنه الخليفة فقال: يا أبت لقد هممت أنْ أَصَفِّدَهُ - يعني أنْ أربطه - لأنه اتهمه، فقال رضي الله عنه: تأتي به تعترسه يعني تقهره لمجرد أنك اتَّهمته، لا يحل هذا، لا يجوز أنْ تصفد هذا وتربط على يديه وتأتي به في السفر لأنه تتوقع أنه الذي جنى، لا يحل لك هذا، إنما يكون ربطه وعقوبته لاحقا لو اتضح أنه هو الجاني أما أنْ تظن أنَّ هذا متهم، نعم إذا كان هناك ما يدل عليه فإنه يؤخذ ويُحقق معه ويُتأكد؛ هل ثمة إشارات تدل على أنه له صلة؟ قد يقول: أنا لم أكن في البلد ذاك اليوم وأثبت لك ذلك، فيقال: تفضل واعفُ عنا؛ نحن أمام جريمة قتل فأردنا أنْ نتحقق وكان هناك بعض الأمارات عليك فتوقعنا أو جاءتنا أخبار أو أمارات على أنَّ لك صلة بالموضوع، أما الآن فتفضل نعتذر لك ولا نتعرض لإساءة لك ولا يُلام من يبحث في مثل هذه الأمور إذا كان يُحسن التعامل مع المتهمين، فإذا وجدت أمارات على شخص معين، الأمارات هذه لا بد أنْ تُحسم إما بأنْ يتضح أنها لا صواب فيها وليس لها حقيقة، وإما أنْ يتضح بالفعل أنَّ هذا الرجل محل ريبة وأنه اتضح أنَّ تلك الأمارات انقلبت إلى أدلة دامغة على أنه صاحب الجناية، أما مجرد التهمة فلا يحل أنْ يُؤخذ بها أحد، فهذا هو الوضع فيه؛ فضلا عن أنْ يُعاقب، أنا أنْ يُعاقب أحد وهو لم يجن فلا شك أنه لا يجوز ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ وجاء «لا يجني الجاني إلَّا على نفسه»(١) فقط، أما أبوه أخوه ابنه صديقه لا علاقة لهم بالموضوع، قد يكون ابنك - نسأل الله العافية - مِنْ أعصى الناس عليك أنت، قد يتعمد أنْ يقتل إنسانا أو يفعل فعلا، وأكثر مَنْ يعتب عليه ويريد منعه والداه فيعجزون عنه، أو الابن يسعى إلى أنْ يمنع أباه وينصحه لكن يعجز فلا يُؤخذ إلَّا الجاني، أما غير الجاني فصنيع أهل الجاهلية أنهم يأخذون غير الجاني بجريرة الجاني.

---

(١) صحيح. الترمذي (٣٠٨٧). الصحيحة (١٩٧٤).

المسألة الخامسة والتسعون: تعيير الرجل بما في غيره، فقال: (أعيرته بأمه، إنك امرؤ فيك جاهلية[1]).

....

هذا قريب من السابق أنْ يُعيَّرَ إنسانٌ لا بقبح فيه هو لكن يقول: أخوك فيه كذا، أو من قبيلتك من فعل كذا أو من بلدكم من فعل كذا، وأيُّ علاقة لهذا الرجل حتى يُعيَّر بما فعله غيرُه، هـذا فعـل أهـل الجاهليـة، ولهذا لما قال أبو ذر رضي الله عنه لبلال رضي الله عنه: يا ابن السوداء؛ قال صلّى الله عليـه وسـلّم: «أعيرتـه بأمه» يعني خرجت من المناقشة التي بينك وبينه إلى أنْ عيَّرْته بأمر خـارج موضـوع النقـاش عيَّرْتـه بغـيره، «إنك امرؤ فيك جاهلية»، فالحاصل أنَّ تعيير الانسان بما ليس فيه هذا من صنيع أهل الجاهلية، أما لو قيـل لإنسان في مناقشة أو في غيره: أنت إنسان كذوب؛ تكذب ولا تُؤْمَن لأنـك كـذبت يـوم كـذا وقلـت كـذا وقلت كذا فمن يصدقك؟ هذا إذا كان فعلا رجلا كذوبا فقد ذكرتـه بـما فيـه، أمـا أنْ تقـول: أنـت إنـسان صدوق لكن أنا أُعَيِّرُكَ بأنَّ أباك كان كذا أو أنَّ عمَّك كان كذا أو بأنَّ من بلدك من فعل كذا؛ فهذا فعل أهل الجاهلية.

---

(١) صحيح البخاري (٣٠).

أسئلة

- سؤال: هل بالإمكان أنْ تُعيد ما ذكرته من نوع البدع؟

جواب: نقول الأخوة وفقهم الله في المسجد وجزاهم الله خيرا يُسجلون، فتستطيع أنْ ترجع إلى موقع المسجد وأيضا وفقهم الله يطبعون طباعة، حتى هذا الشرح سيُطبع إنْ شاء الله تعالى، فتستطيع أنْ ترجع إليه مسجلا أو مطبوعا إذا أنزلوه في الموقع إنْ شاء الله.

- سؤال: كيف يُرد على من يقول إنَّ قبر النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم موجود داخل المسجد النبوي ويستدل بذلك على صحة اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد؟

جواب: متى أُدخل قبر النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى المسجد؟ هذا الذي ينبغي أنْ يَسأَلَ عنه، أدخل زمن الوليد بن عبد الملك بن مروان في دولة بني أمية، وما أدخله الصحابة، كيف يدخله الصحابة وهم يسمعون النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يخطب فيهم تلك الخطب ويقول ذلك الكلام العظيم ويحذِّرهم؟ هم أشرف وأرفع وأخوف لله وأدْيَن مِنْ أنْ يفعلوا هذا، فلما مات الصحابة رضي الله عنهم، في زمن الوليد بن عبد الملك وسَّع المسجد النبويّ وأدخل حجرات أزواج النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بتصرف الوليد بن عبد الملك، ومع ذلك جعلوا دون القبر جدارا، القبر بينك وبينه ثلاثة جدران، الحجرة التي تراها ثم هناك جدار ثم هناك جدار، فحاولوا أنْ يحتاطوا، وكان المتعين أنْ تكون التوسعة إلى غير جهة القبر، ولهذا استنكر غير واحد من التابعين فعل الوليد بن عبد الملك، فبقوة السلطة أدخله، بعد ذلك ظن الجهلة أنَّ الصحابة دفنوا النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في المسجد ولم يعلموا أنَّ هذا زمن الدولة الأموية في زمن الوليد أيضا زمن بني مروان ليس بزمن معاوية حتى مروان ما أدخله، إنما كان ذلك في زمن الوليد بن عبد الملك بن مروان، متأخر جدا.

- سؤال: يقول ما نقل عن ابن المبارك لما سئل عن التواضع قال: التكبر على أهل الكبير.

جواب: قصده رحمه الله ليس قصده التكبر أنَّه يجوز للإنسان أنَّ يتكبر! لكن يقول إذا رأيت من يتكبر ويتغطرس على الناس وأتى إليك وأنت من أهل العلم فمن باب الزجر ومن باب التأديب له أعرض عنه

وكف عنه، حتى يقول: ما الذي يجعلك لا تكلمني؟ الذي يجعلني لا أكلمك أنَّك تتكبر على عباد الله وتتغطرس، وهذا لا يحل لك، فليس قصده أنَّ التكبر يجوز، التكبر من حيث هو ممنوع، لكن يقول: أدِّب هذا المتكبر، حتى يقول ما الذي صنعت؟ يقال: صنعت أنك تتكبر على عباد الله في مشيتك في جاهك، فيعود ويؤوب، هذا المراد.

- سؤال: من كذَّب خبرا واحدا من أخبار القرآن فهل يكفر؟

جواب: قطعا، مما أخبر الله به؛ أنْ أخبر أنَّ فيمن قبلنا أنبياء وأحداثا وأمورا لو قال: هذا بعينه ليس بصحيح؛ يكفر، قلنا: إنَّ من كفر بحرف واحد من القرآن الكريم يكفر بالقرآن الكريم.

- سؤال: هل تجب طاعة ولي الأمر إذا كان كافرا وأمر بأمر مباح؟

جواب: الأصل أنَّ ولاة الأمور في بلاد الإسلام لا يكونون كفارا ولا يحل أنْ يترأس على المسلمين كافر، لكن غربة الدين الحاصلة الآن في أنحاء الأرض أنَّ الكفار بلغت الأمور في غربة الدين هذه أن صاروا رؤساء على البلدان هذه، وإلا الأصل أنَّ المسلمين - كما قال تعالى -: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾(١) وهذا من الغربة العظيمة ومن المهانة والضعف الذي فيه الأمة.

- سؤال: يسأل عن إنكار الصفات وتحريف معناها.

جواب: محل تفصيل، لا شك أنه لا يجوز هذا، ولكن أمر تكفيره محل تفصيل، ويسأل أيضا عن الأشاعرة، نفس الوضع أنهم فِرْقَة خالفوا وضلوا في هذا الباب في باب الصفات وفي باب الإيمان أيضا فإنهم مرجئة، وخالفوا أيضا في باب القدر لأنهم قالوا بقول المجبرة.

- سؤال: يقول كيف يجمع بين الحث على الزهد وقول الشافعي: أحمد إمام في الزهد والفقر، وبين أنَّ من صفة أهل الجاهلية التعبد بترك الطيبات؟

جواب: من قال: إنَّ الزهد يعني التدنس والتدني في الثياب؟ من قال هذا؟ الزهد يعني أنْ تزهد في أمور، من أعظم الزهدِ الزهدُ في الدنيا بأسرها لكن لا يعني هذا أنَّ الانسان يتدنس ويأتي حتى إلى يوم

---

(١) النساء: ١٤١.

الجمعة سيء الرائحة سيء الثياب، خالف السُّنَّة قطعـا، لأنَّ النَّبـيّ صـلّى الله عليـه وسـلّم أمـر بالاغتسال والتطيب ولبس أحسن الثياب - الحديث - هذا مما يُشرع للعبـد، لـيس معنـى الزهـد في الـدنيا أنْ يكـون الانسان متدنسا قذر الثياب يمضي ثيابه قذرة متدنس ومن اقترب منه وجد الرائحة الكريهة في ثيابه لأنه لا يغيرها، من قال: إنَّ هذا هو الزهد؟ هذا ليس من الزهد، قلنا الحديث أنَّ النَّبيّ صلّى الله عليـه وسـلّم قـال للصحابي: «إنَّ الله يحب أنْ يرى أثر نعمته على عبده».

- سؤال: يسأل عن بعض ما روي عن بعض السلف أنه ربما أخذ على التحديث درهما؟

جواب: إذا ورد مثل هذا عن بعض المحدثين فليس هذا هو الأصل، الأصل أنهم رضي الله عنهم كانوا يبذلونه مجانا، بعضهم كان من شدة حاجته لما سئل عن ذلك قال: في البيت ثلاثة عشر إنسانا، وهـذا رجـل غني ومقتدر قُلْتُ له: لن أحدثك بالتحـديث الخـاص حتـى تعطينـي، لاحـظ التحـديث الخـاص؛ حتـى يعطيني، لكن التحديث العام هذا مبذول للجميع، إذا أتـى وجلـس مـع النـاس مـا يقـول: قـم يـا فـلان حاسبني، لا، لكن إذا قال: تعال حدثني يقول: إني أحدثك، أكثر المحدثين بحمد الله تعالى على عدم الأخذ من الأجرة، الذين أخذوا كعدد قليل منهم قالوا: إنَّا نأخذها من باب الضرورة، لأننا فقراء ولـدينا ذراري؛ وهؤلاء من المقتدرين، لكن الأصل كما قلنا عدم التحديث.

- سؤال: التعليق على قتل حسن شحاتة.

جواب: يا إخوة، قتل أيِّ إنسان لا بد أنْ يكون بالطريقة الشرعية حتى لـو كـان جرمـه عـلى أشـد مـا يكون، فالأصل أنْ يكون القتل من طريق القضاة، ثم القاضي له أنْ يُعزِّر في تشديد القتـل، لـه أنْ يـصلب، أمّا أنَّ الناس يأخذون هذا بأيديهم ليس بصحيح ولو كان رافضيا خبيثا، ولو كـان ربـما لـو رفـع إلى قـاض شرعي ربما قتله، لكن يُقتل بطريق القضاة أما أنْ يهب الناس هكذا لا شـك أن هـذا لـيس بـسديد ولـيس بسوي، وما كل من يستحق القتل يكون قتله على يد الناس، نعم نشهد أنه مـن أعـداء الله عـزَّ وجـلَّ وأنـه استبدل السُّنَّة لأجل الدرهم والدينار بطريقة الروافض وأنه خان الله ورسوله والمؤمنين، نعم، لكن قتله أو

قتل غيره لا يكون على يد العوام، نعم حصل منه ومن أمثاله استفزاز للناس وكذا لكن ما يعني ذلك أنَّ العامة يأخذون الأمور بأيديهم، الأصل أنَّ القتل يكون من طريق الشرع.

- سؤال: يسأل عن معنى حديث (زيارة القبور).

جواب: مثل ما شرحنا.

- سؤال: يقول ما المشروع عند زيارة المسجد النبوي؟

جواب: إذا أتيت إلى المسجد النبوي تريد - شددت الرحل إلى المسجد - لأنَّ الأصل أنَّ الرحال لا تشد إلَّا إلى ثلاثة مساجد، فأنت وصلت المسجد النبوي، فإذا وصلت المسجد النبوي فأنك تسلم على النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لأنَّ شد الرحل كان إلى المسجد وليس إلى القبر، أما كيف يُسلَّم على النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فكما فعل ابن عمر كان إذا أتى من سفر أتى إلى القبر فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبت وينصرف[1]، هذا هو السلام، كان يُسلِّم عليهم صلّى الله عليه وسلّم على محمد وعلى آله وصحبه، كان يُسلم عليهم هكذا وينصرف، أما المكث والبقاء والدعاء لا شك أنَّ هذا غير مشروع، يأتون ويدعون ويصيحون ويهتفون لا شك انَّ هذا مخالف لما أمر به عليه الصلاة والسلام.

- سؤال: يسأل عن الروضة؟

جواب: نعم، ورد في الحديث «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»[2] من تَمَكَّن من الصلاة فيها حاصل على فضيلة.

- سؤال: يسأل عن تتبع ابن عمر رضي الله عنه وما وقع منه.

جواب: هذا خالفه فيه كبراء الصحابة وعلى رأسهم أبوه رضي الله عنه.

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي (١٠٢٧١).

(٢) صحيح البخاري (١١٩٦).

- سؤال: ذكر عن الإمام أحمد أنه كان يصلي في اليوم والليلة ثلاثمئة ركعة، حاولت أنْ أقسم عدد الركعات على أربع وعشرين ساعة لم يحصل ذلك العدد.

جواب: لا، يحصل، لماذا لا يحصل؟ انظر من طلوع الشمس الآن - وإنْ كنت والله لم أفعل هذا حياتي ولم أفكر فيه يعني لا تتصور أنَّ هذا مما وقع مني ولكن أكلمك عن السلف - ثلاثمئة ركعة إذا قلت: إنَّ الشمس ترتفع يعني تصلي تقريبا من نحو الساعة الخامسة والربع الآن؛ لو أنه صلى نحوا من سبع ساعات، الركعتان قد تستغرق خمس دقائق، فإذا واصل إلى الظهر صلى الظهر ثم واصل من الظهر إلى العصر - فترة طويلة تصل لأكثر من ساعتين - هكذا صلاة الليل ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾(١)، يصلون ويطيلون ليست الصلاة - الله المستعان - نصليها الآن، نتسابق لا يسبقنا المؤذن، يصلون ليلا طويلا طويلا جدا، يحصل ثلاثمئة ركعة، من قال أنها لا تحصل ثلاثمئة ركعة؟ إذا صلَّى صلاة معتادة صلَّى ثلاثمئة ركعة.

- سؤال: الدعاء للميت عند قبره هل له فضيلة زائدة عن الدعاء خارج المقبرة؟

جواب: الدعاء في أيِّ موضع ينفع الله عزَّ وجلَّ به إنْ شاء الله تعالى، لكن لمَّا كان مشروعا للعبد أنْ يزور القبور فإذا أتى ودعا لهذا الميت هذا شيء طيب، زيادة في الدعاء إنْ شاء الله.

- سؤال: يسأل الآن عن الغرفة الموجودة في المسجد النبوي.

جواب: قلنا: هذا الوضع كان من أزمنة سبقت.

- سؤال: هل ينتفع الميت بزيارة أقاربه وأحبابه لقبره؟

جواب: إذا دَعَوا، أما مجرد زيارتهم ليس هذا هو الذي ينفعه، الذي ينفعه هو الدعاء له.

- سؤال: الرد على من يستدل على جواز الصلاة عند القبور بوجود القبر النبوي في المسجد.

جواب: مثل ما قلنا لك يا أخي، قلنا: القبر النبوي ما أدخله الصحابة وما أوصى به النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بل حذَّر ونهى ولعن اليهود والنصارى لاتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد، فإذا فعل هذا سلطان من السلاطين كالوليد بن عبد الملك؛ هل يُقال: إنه محل اقتداء ومحل أسوة؟ خباب بن عبد الله بن الزبير

(١) الذاريات:١٧.

اعترض على ذلك فأقيم في البرد وجُلِد حتى مات رحمه الله، لا تتصور أنَّ الناس كانوا سعداء وفرحين، وأنكر هذا سعيد بن المسيب[1] وغيره، لكن قوة السلطة بالعسف توجد أشياء قد يُعجز عنها، لم يتمكنوا من أنْ يردوا الوليد بن عبد الملك بقوته وبما عنده من دولة وبما عنده من جيش، أنكروا هذا حتى خباب بن عبد الله رحمه الله تعالى - أبوه عبد الله بن الزبير الصحابي المعروف رضي الله عنهما - أقيم في البرد حتى مات لاعتراضه هذا، لا يُتصور أنَّ فِعْلَ الحكام والسلاطين قدوة، وليس من علماء الصحابة رضي الله عنهم حتى يُقال قول فلان، وليس من الخلفاء الراشدين الذين قال فيهم عليه الصلاة والسلام: «عليكم بسنَّتي وسُنَّةِ الخلفاء الراشدين المهديين»[2] هو حاكم من الحكام له سيئات وله حسنات، له صواب وله خطأ، متى كان الحكام موضع الاقتداء بأفعاهم؟ إذا وافقت أفعالهم الصواب صُوِّبوا، أما أفعالهم التي تكون على الخطأ لا يُستدل بها، لا يُستدل بالفعل هذا إلَّا جاهل، الوليد بن عبد الملك ليس ممن يُستدل بفعله.

- سؤال: [3] قول العلماء عن الإسماعيلية ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض.

جواب: نعم، لأنهم يظهرون أنهم روافض والواقع أنهم كفرة.

والله تعالى أعلم، وصلّى الله على محمد وسلّم.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تاريخه (٤١٥/ ١٢) بعد أنْ ساق قصة إدخال الحجرة في المسجد: (ويحكى أنَّ سعيد بن المسيب أنكر إدخال حجرة عائشة في المسجد - كأنه خشي أن يتخذ القبر مسجدا -).

(٢) صحيح. الترمذي (٢٦٧٦). صحيح الجامع (٢٥٤٩).

(٣) هنا في الأصل جملة (هل من المكر) سابقة للسؤال الحالي، لعلها من سؤال سابق لم يتمه الشيخ حفظه الله.

المسألة السادسة والتسعون: الافتخار بولاية البيت فذمَّهم الله بقوله ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ﴾(١).

المسالة السابعة والتسعون: الافتخار بكونهم ذرية الأنبياء فأتى الله بقوله ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾(٢).

....

الحمد لله رب العالمين وصلّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، تقدم الكلام عن أمر الافتخار وعن ما فيه من المذمَّة وعن أنَّ ما آتاه الله عزَّ وجلَّ العبد من الخير والفضيلة والنعمة ينبغي أن يكون محل الشكر وينبغي أن يكون حاملاً للعبد على التواضع لله عزَّ وجلَّ لا على الفخر والتطاول على الناس.

في هاتين الخصلتين من خصال أهل الجاهلية ذكر رحمه الله تعالى تفاخرهم لأمر ديني أما الخصلة الأولى فهي افتخارهم بولاية البيت بصد الحجيج والقيام على أمر المشاعر، قال تعالى عزَّ وجلَّ: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ قيل: المراد من قوله ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾، حال منهم حين نكوصهم عن الحق وتكبرهم عليه واحتقارهم له، والقول الثاني - وهو الذي يستدل به الشيخ - أن المراد مستكبرين به؛ أي بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به وقوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً﴾ كانوا يسمرون بالمسجد ولا يعمرونه بل يهجرونه ويتكبرون.

وولاية البيت مما يُتقرب بها إلى الله عزَّ وجلَّ ولا يفتخر بها لأنها عبادة يجب أن تُخلص لله فليست محلاً للتفاخر إلَّا عند أهل الجاهلية.

الخصلة الثانية وهي أيضاً تفاخرهم لأمر ديني وهو أنهم يتفاخرون بأنهم من ذرية الأنبياء معلوم أن كل نفس بما كسبت رهينة فالمتفاخر بكونه من ذرية أنبياء أو ذرية صحابة أو ذرية صالحين يقال له: أولئك

(١) المؤمنون:٦٧.

(٢) البقرة: ١٣٤.

عملوا ورفع الله عزَّ وجلَّ قدرهم، وعملهم لهم، واشتغالك بهذا التفاخر يشغلك عن العمل الذي ينفعك ويرفعك عن السير على هديهم وطريقتهم قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١)، أي أن السلف من آبائكم من الأنبياء والصلحاء لا ينفعكم مجرد انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيراً كما فعلوا يعود نفعه عليكم أنتم، فإن من قبلكم لهم أعمالهم ولكم أنتم أعمالكم، هذا كلام ابن كثير في معنى الآية فلذلك أورد ابن كثير رحمه الله حديث «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»(٢) بطأ به عمله؛ أي أن عمله ضعيف بطيء لم ينفعه في هذه الحالة علوُّ نسبه - وإنْ كان ينتسب إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام-، بعد ذلك ابن كثير قال عند الآية الثانية التي - لأن الآية وردت في سورة البقرة في موضعين – قال: وليس يغني عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة منكم لهم، ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا منقادين مثلهم لأوامر الله تعالى واتباع رسله. انتهى كلامه بمعناه.

لما أنزل الله تعالى على نبيه صلّى الله عليه وسلّم قوله ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾(٣) قال النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم؛ لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنكي من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً»(٤) فما دام النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال هذا لبنته - التي هي بضعة منه - وللعباس عمه ولصفية عمته فغيرهم ممن بعدهم من باب أولى ممن يكونون من ذرية الأنبياء فإذا قال صلّى الله عليه وسلّم هذا مع حبه الشديد لفاطمة ومع تقديره لعمه وعمته «لا أغني عنكم من الله شيئاً» يعني اعملوا وأنتم يا معاشر قريش أيضا اعملوا لا تقولوا نحن رهط النَّبيّ وقومه وجماعته ستنفعنا هذه القرابة مجردةً، لن تنفعكم لا تغني عنكم من الله عزَّ وجلَّ شيئاً، وهذا الدليل

---

(١) البقرة:١٣٤.
(٢) صحيح مسلم (٢٦٩٩).
(٣) الشعراء:٢١٤.
(٤) صحيح البخاري (٤٧٧١).

العظيم من أكبر الأدلة على أن العبد ينبغي أن يشتغل بما ينفعه في القيامة وأن يترك عنه الظنون والتخمينات والأماني وأنواع الافتخار، فإن العبد مجزيّ بعمله، وقد ثبت عنه عليه الصَّلاة والسَّلام أيضاً أنه أخبر أن من غلَّ شيئاً فإنه يأتي به يوم القيامة على رقبته فالذي يُوَكَّل على أمر من أمور المال العام للمسلمين فيخون فيه ويأخذ منه فإنه يأتي به يوم القيامة حتى قال صلّى الله عليه وسلّم: «والذي نفسي بيده لا يأخذ أحد منه شيئا إلا أتى به يوم القيامة، إنْ كان بعيراً له رغاء» يعني يحمله في القيامة «أو شاة تيعر» يعني بصوتها الثغاء هذا المعروف «أو بقرة لها خوار»، الشاهد قوله «فيقول: يا محمد؛ فأقول: لا أغني عنك من الله شيئاً، قد أبلغتك» يعني أني حذرتك من أن تغل شيئاً من الأموال العامة فإذا حملها - عياذاً بالله - على رقبته ورأى النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وطلب منه أن ينفعه بهذا الموقف قال: «لا أغني عنك من الله شيئاً»(١) لأنه قد أبلغه وهذا الدليل العظيم من أعظم أدلة التوحيد على أن الأمر لله سبحانه وتعالى من قَبْلُ ومن بعد وعلى أن العبد ينبغي أن يلزم السُّنَّة وأن يترك عنه التخرصات والظنون، فإن كان من نسل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أو من نسل الصحابة رضي الله عنهم فلا يتوهمن أبداً أن ذلك سينفعه مجرداً عن العمل، فلقد قال الأوزاعي رحمه الله تعالى للمنصور - والمنصور كما نعلم من سلالة العباس رضي الله عنه - لّما كتب له كتاباً ينصحه؛ وللأوزاعي رحمه الله مجموعة من الخطابات والكتابات ينصح فيها الخلفاء والولاة والأمراء رحمه الله ونفع الله عزَّ وجلَّ بكثير من مواعظه ورسائله تجد هذه الرسائل اعتنى بها ابن أبي حاتم رحمه الله تعالى في الجرح والتعديل عندما ترجم للأوزاعي وله في هذا مواقف عظيمة جمّة مع الخلفاء في نصحهم، فكان من ذلك أن كتب لأبي جعفر المنصور ما معناه: اعلم أن قرابتك من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تزيد من التَّبعة عليك يعني أنه من له صلة برسول الله صلّى الله عليه وسلّم من جهة النسب ينبغي أن يكون ألزم لسنته من غيره وأن لا يفتخر بمجرد كونه من قرابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، الحاصل أن الافتخار سواء بالخصلة الأولى أو بالخصلة الثانية أو بخصلة من خصال الدنيا أو بأي خصلة هو من سنن وطرائق أهل الجاهلية الآية ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾نزلت في بني اسرائيل

(١) صحيح. البزار (٣١٤/ ٤). الصحيحة (٢٨٦٥).

يفتخرون بأنهم من ذرية اسرائيل وهو يعقوب عليه الصَّلاة والسَّلام يقول الله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرائيلَ﴾[1] مُذَكِّرًا إياهم بذاك النَّبيّ الكريم ﴿يَا بَنِي إِسْرائيلَ﴾ أي يعقوب ومعنى كلمة اسرائيل عبد الله لأن (ئيل) ترجمتها (الله) و(إسرا) عبد، فالحاصل أن مجرد النعمة الدينية لولاية البيت أو كون الإنسان من نسل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فإن ذلك ليس محلا للافتخار بل هو محلٌ لشكر الله تعالى والسير على هدي السالفين الصالحين نعم.

(١) البقرة: ٤٠.

المسألة الثامنة والتسعون: الافتخار بالصنائع كفعل أهل الرحلتين على أهل الحرث.

....

هذه الخصلة من خصال أهل الجاهلية افتخار بأمر دنيوي - الافتخار بالصنائع - تارة يفتخر أحد بصنعه لشي يحسنه لا يحسنه غيره، تارة يفتخر بتخصصه في ميدان يقل فيه المتخصصون؛ كأن يفتخر في أنواع من التخصصات بالطب أو الهندسة أو نحو ذلك، وهكذا افتخار التجار بتجاراتهم أو الوزير بوزارته أو الأمير بإمارته، هذه أشياء من الصنائع أو من الأعمال يفتخر بها بعض من يكون فيها، وهذا لا شك أنه لا ينبغي أن يكون بين المسلمين ولمن وفق لأمر ديني أو دنيوي فذلك محض فضل الله عزَّ وجلَّ عليه؛ فليكن شاكرا لربه تعالى مقرّاً بنعمه مستعملاً لما أتاه تعالى في طاعته، مراد المصنف رحمه الله بقوله كفعل أهل الرحلتين؛ رحلتا الشتاء والصيف، كان القرشيون يسافرون في الشتاء لليمن ويسافرون في الصيف للشام في تجارة فكانوا يفتخرون بهاتين الرحلتين فيقولون: نحن أهل الرحلتين، ويفتخرون على أهل الحروث والزروع، الافتخار الحقيقة لا يزال موجوداً الى اليوم بين أهل التخصصات والتجارات والمناصب، وقلنا: إنهم لو عقلوا عن الله عزَّ وجلَّ أمره لما تفاخروا هذا التفاخر، ولعلموا أن الناس بحاجة إلى كل هذه الأشياء النافعة، فالتخصصات التي تنفع المسلمين ينبغي أن يعتنى بها جميعاً، وأن يكون أهلها متعاونين على البر والتقوى، فالأمة بحاجة إلى الطب؛ بحاجة إلى الهندسة؛ بحاجة إلى الزراعة؛ بحاجة إلى التجارة؛ بحاجة إلى الحدادة؛ بحاجة إلى النجارة؛ بحاجة إلى هذه كلها، فهي مما يحتاج إليه في أمور المعاش وليست محلاً للتفاخر بأن يفخر هؤلاء على هؤلاء كما تقدم في الحديث «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا؛ حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد»[1] نعم درجات العلوم تتفاوت وشدة الاحتياج إلى بعضها يتفاوت، فالطب مثلاً الحاجة إليه شديدة وإذا أهمله المسلمون احتاجوا إلى أعدائهم في ميدان لا ينبغي أن يحتاجوا إليهم فيه، ولهذا روى ابن أبي حاتم عن الشافعي رحمه الله تعالى أثراً عزيزاً نادراً قال فيه - ما معناه: (إنه يأسى على أمر الطب أنْ تركه المسلمون لليهود والنصارى) وما ينبغي أن يترك المسلمون التخصصات

(١) صحيح مسلم (٢٨٦٥).

النافعة هذه؛ لأنه إذا ترك تخصص منها احتاج المسلمون إلى أعدائهم من اليهود والنصارى فيها، والطب - كما تعلمون - ميدان يُحتاج فيه إلى الأمانة من عدة جهات، من الأمانة حتى لا يُغَشَّ المريض ويضر، يُحتاج إلى الأمانة في شيء من اطلاع الطبيب على أحوال المريض يطلعه عليها لحاجته إلى العلاج، فإذا لم يكن الطبيب متقياً لله عزَّ وجلَّ ثرثر وتكلم بأن فلاناً عنده كذا وكذا، فيُحتاج بها إلى الأمناء، فإذا لم تسدّ الحاجة فيها احتاج المسلمون فيها إلى الكفار، ولهذا هذه الصنائع كلها وهذه التخصصات والمهن والحِرَف؛ من أصلح نيته فيها وقصد بها أن ترفع حاجة الأمة بدخوله بها فإنه يؤجر - حتى وإن لم تكن علماً شرعياً - فالأحاديث الواردة في مدح العلم كثيرة جداً، والمقصود بها العلم الشرعي - وهو أنفس وأجلّ العلوم كما تقدم بيانه - لكنّ الأمة بحاجة إلى شيء كثير من التخصصات حتى إن بعض الأحكام الشرعيّة يتوقف القضاة فيها على - ويتوقف المفتون فيها - على بيان أهل التخصص كأمور الطب ونحو ذلك، يُحتاج فيها إلى شيء من التشخيص يشهد به أطباء عدول، فالأمة بحاحة إلى شيء من التكامل، فالتخصصات لا ينبغي أن تكون موضع تفاخر ويبغي هذا على هذا ويقول أنت تخصصك وضيع وأنا تخصصي رفيع، الأمة بحاجة إلى هذه وأن يكون الأمر فيها تكاملياً بين المسلمين، هذا ينفع في الهندسة؛ وهذا ينفع في الحاسب؛ وهذا ينفع في الطب؛ وهذا ينفع في تجارته ويكون أميناً وبعيداً عن الغش؛ وهذا ينفع حتى في حرفته، فالحاجة إلى الأمانة والتعاون في الأمور كلها؛ هذا هو الوضع السّوي، الوضع الجاهلي أن يتفاخر هؤلاء فيما بينهم فيفخر هذا في تجارته وهذا في تخصصه وهكذا.

المسألة التاسعة والتسعون: عظمة الدنيا في قلوبهم كقولهم ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(١).

....

من خصال أهل الجاهلية أن قلوبهم قد زينت لهم فيها الدنيا تزييناً عظيماً هائلاً قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾(٢) بناءً على استحواذ أمر الدنيا على قلوبهم نظروا إلى الناس بناءً على ما أشربته هذه القلوب الفاسدة من حبها، فالقرآن العظيم لَمَّا أنزله الله تعالى على خيرة خلقه صلّى الله عليه وسلّم رأى هؤلاء الجاهليون أن الذي كان ينبغي أن ينزل هذا القرآن على غير محمد صلّى الله عليه وسلّم، على من؟ على رجل من القريتين عظيم، القريتان هما مكة والطائف، والرجلان هما الوليد بن المغيرة في مكة وعروة بن مسعود في الطائف أو غيره، فأهل الجاهلية رأوا أن اللائق أن يكون نزول هذا القرآن وهذه الرسالة على غير محمد صلّى الله عليه وسلّم والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾(٤) فهو سبحانه وبحمده أختار خيرته من خلقه من الناس صلّى الله عليه وسلّم وهو عزَّ وجلَّ أعلم حيث يجعل رسالته، أهل الجاهلية ينظرون إلى ما زُيِّن في قلوبهم من الدنيا، لَمَّا كان الوليد بن المغيرة معظماً في مكة كان صاحب ثراء؛ صاحب مال؛ صاحب شهرة، قالوا: هذا الذي كان ينبغي أن يصطفى لأن النظرة في قلوبهم تنبعث من خلال الدنيا، من هو العظيم في دنياه؛ هو الذي يعظم - وإن كان أسفل الناس وأحطهم - كالوليد بن المغيرة الذي كان من أخبث عباد الله، وهو الذي تقدم عند الكلام على قوله عزَّ وجلَّ حين قال الوليد بن المغيرة عن القرآن: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ، سَأُصْلِيهِ سَقَرَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾(٥) الآية نازلة بمثل هذه

(١) الزخرف:٣١.
(٢) البقرة: ٢١٢.
(٣) الأنعام: ١٢٤.
(٤) الحج: ٧٥.
(٥) المدثر: ٢٥- ٢٧.

فكيف يستحق هذا وأضرابه النُّبوّة، لكنَّ أهل الجاهلية أُشربت قلوبهم بالدنيا، وهكذا استحواذها - نسأل الله أن يعيذنا من شر الاغترار بها - استحواذ الدنيا على قلوب الكثيرين وهي في قلوبهم عظيمة جداً ولهذا يخذل بعض من يتعلم العلم - والعياذ بالله - ويخون أمانته ويقدِّم أمرَ دنياه على دينه، ولهذا تجده قد استعمل العلم الشرعي ليجني به ويُحصِّلَ به دنياه؛ كأنما العلم بضاعة من البضائع التي تشترى وتباع، وهذا أمر خطير للغاية، عَظَمَةُ الدنيا في قلوب أهل الجاهلية ليست بالمُستغربة لأنهم أهل جاهلية، والغافلون من المسلمين والجهلة لا شك أنه يُستكثرُ هذا منهم؛ لكنهم أيضا جهلة، إنما الأمر المرعب والمخوف والذي ينبغي على طالب العلم أن يستعيذ بالله عزَّ وجلَّ من شره أن تستحوذ الدنيا على قلبه فيستعمل علمه في تحصيل الدنيا، وقد تواردت الأحاديث عنه صلّى الله عليه وسلّم مبيِّنةً أن من تعلم هذا العلم لغير الله عزَّ وجلَّ فإنه متوعد بدخول النار فقال صلّى الله عليه وسلّم: «من تعلم العلم ليجادل به العلماء أو ليماري به السفهاء أو ليصرف وجوه الناس إليه أدخله الله النار»(١) الوجوه تنصرف إلى ذوي المكانة العالية في الدين أو في الدنيا فالعلماء تنصرف لهم الوجوه لمكانتهم الدينية، والأمراء والأثرياء أيضاً تنصرف لهم الوجوه لكن لمكانتهم الدنيوية، فالذي يتعلم العلم يريد أن تنصرف الوجوه إليه - نسأل الله العفو والعافية - أو للمجادلة والمماراة فهو متوعد بهذا، وقال صلّى الله عليه وسلّم «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله»وهو العلم الشرعي هذا هو المراد «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا لينال به عرضاً من الدنيا؛ لم يجد رائحة الجنة»(٢) ولهذا قال صلّى الله عليه وسلّم أيضاً: «أكثر منافقي أمتي قراؤها»(٣) نعوذ بالله، قراؤهم الذين يتعلمون العلم يكثر فيهم النفاق لأن العلم يرفع أهله، تجد الشاب في العشرين والخامسة والعشرين إذا دخل على ذوي السن الكبار من ذوي السبعين والثمانين سَنَةً أجلّوه وأكرموه من بين أقرانه وقدَّمُوه، فالمخذول يرى أن العلم لمّا كان فيه هذه الرفعة يرى أنه وسيلة من وسائل الارتفاع به في الدنيا على أقرانه، فهذا أمر مخوف جداً على طلبة العلم، آفتان خطيرتان جداً علينا جميعاً،

---

(١) حسن. ابن ماجه (٢٥٣). صحيح الجامع (٦١٦٠).

(٢) صحيح. أبو داود (٣٦٦٤). صحيح الجامع (٦١٥٩).

(٣) صحيح. أحمد (٦٦٣٣). الصحيحة ٧٥٠).

الآفة الأولى: طلب العلم لغير الله عزَّ وجلَّ سواء للمال أو للمنصب والشهرة والارتفاع على الأقران؛ وأن يكون الواحد بارزاً من بينهم، والخطر الثاني: هو عدم العمل بالعلم، فيكون على علم بالأحكام وبالذي ينبغي ويتعمد مخالفة هذه الأحكام، وقد جاء عنه عليه الصَّلاة والسَّلام في حديث سَمُرَة الطويل الذي رواه البخاري أن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم رأى عدداً من الذين يعذبون في قبورهم، الزناة والزواني ورأى أكلة الربا، ورأى الذي يكذب الكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الأفاق، ورأى أيضا من تعلّم علما لم ينفعه الله بعلمه، فقال صلّى الله عليه وسلّم في نوع عذابه: «رجل قاعد وعلى رأسه رجلٌ قائم بيده فهر - الفهر ما يملأ اليد من الحصى أو صخرة - فيضرب على رأسه فينشدخ الرأس - الرأس إذا ضرب بصخرة أو بحصاة قوية انشدخ - فيتدهده الحجر» يتدهده أي يتدحرج «فيتبعه» يعني هذا الذي يعذبه وهو الملك «يتبعه ثم يعود إليه فيلتئم رأسه» - نسأل الله العافية - يعني «حتى يعود عليه بالضرب فيضربه ثانيةً، يُفعلُ به هذا الى يوم القيامة» – نسأل الله العافية - مستمر في القبر هذا النوع، بعض أنواع العذاب في القبر كعذاب الزناة وكعذاب هذا الصنف يستمر إلى يوم القيامة، فسأل صلّى الله عليه وسلّم عن هذا فقال له الملكان: انطلق انطلق، وفي آخر الحديث قال: «رجلٌ علمه الله القرآن؛ فنام عنه بالليل ولم يعمل فيه بالنهار»(١) ما تأثَّر ليله ولا نهاره، النهار لا عمل بالقرآن والليل ينام كما في اللفظ الآخر «هو الرجل يرفض القرآن وينام عن الصلاة المكتوبة» أي عن الفريضة، فينام عن الصلاة المكتوبة فلا يقيمها ولا يعمل في النهار بما آتاه الله عزَّ وجلَّ من العلم، فهو يعلم ولكنّه لا يعمل، فآفتان خطيرتان استولتا على القلوب وغيرت النية فعلى طالب العلم أن يتفحص، وأهل العلم في مجالسهم عليهم سمت ووقار إذا جلسوا في مجالسهم لم يقوموا إلا بفائدة وبمنفعة، ومن علامة الخذلان أن يكون في مجالس طلبة العلم ما في مجالس أهل الهزل واللّعب بأن يجلسوا فيخوضوا كما يخوض أهل الغفلة ولا تتأثر مجالسهم بما آتاهم الله تعالى من العلم، أهل العلم إذا جلسوا أفاد هذا فائدة وذكّر هذا بموعظة وذكّر هذا أخاه بخير يُعِيْنُهُ عليه، وذكّر ذاك أخاه بشّر ينبغي أن يجتنب، فينتفع بمجالس أهل العلم وطلبة العلم، ولهذا جاء عن ابن مسعود رضي الله

---

(١) صحيح البخاري (١٣٨٦).

عنه (أن صاحب القرآن ينبغي أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبسكوته أذا الناس يهذرون)[1] أو نحو ذلك، طالب العلم متميز أمره في عبادته وفي عمله وفي سمته لأن الذي يَعْلَم ليس كالذي لا يَعْلَم، فالذي يعلم يلزمه العمل فالحاصل أنَّ استيلاء الدنيا - عياذاً بالله - غيّر كثيرين وجعلهم ينظرون إلى الناس من خلال الدنيا، فلمّا عظّموا الدنيا صار النظر إلى الناس رفعة أو انخفاضاً في نظرهم بحسب ما عندهم من الدنيا ووصل هذا إلى بعض من لديه علم حتى فاستعمل علمه لأجل الدنيا، فهذا أمر مخوف ومما يحذر ومما ينبغي أن يتفطن له وقلنا: إن طلبة العلم ينتفع بعضهم من بعض، إذا جلس طلبة العلم إلى بعضهم قاموا وقد ذكّر بعضهم بعضاً وقد أفاد بعضهم بعضاً واستفادوا وانتفعوا فلهذا تجد مجالس أهل العلم وطلبته مجالس خير ومجالس ذكر حتى في مجالسهم العامة، وليس معنى ذلك أنهم لا يتكلمون أبداً في أمور الدنيا، يتكلمون، لكن إذا تكلموا في أمور الدنيا عرفوا فيما يتكلمون وكيف يتكلمون لا يتكلمون كما يتكلّم السذج والجهال والعوام بالغيبة والنميمة والثرثرة والسخرية بالناس بألوانهم بألسنتهم بكذا ما فائدة العلم؟ ما فرق مجلسك عن مجلس الفسّاق والفجّار، لا يوجد فائدة إذا لم تتميز المجالس ولم يكن على صاحب العلم منه أثر في قلبه وفي لسانه ومنطقه وفي عمله فما الفائدة من هذا العلم؟ ينبغي أن يلاحظ هذا وأن ينظر أيضاً إلى الناس النظرة التي ينظرها ذوو الفهم السوي بأن ينظر إليهم بحسب تقواهم ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِّ أَتْقَاكُمْ﴾[2] ، أما النظرة الجاهلية فهي بحسب الدنيا حتى قالوا في النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ما قالوا ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي كأنه في نظرهم لا يليق أن ينزل على هذا النَّبيّ الكريم، وكأنه في زعمهم هناك من هو أولى منه كعروة بن المسعود أو الوليد بن المغيرة وأمثالهم بسبب استيلاء الدنيا عليهم.

---

(١) شعب الأيمان للبيهقي (١٦٦٨).

(٢) الحجرات: ١٣.

المسألة المئة: التَّحَكُّم على الله كما في الآية السابقة ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1].

....

ما الذي حملهم على أن يقولوا هذا؟ إنه التحكم، تقدم أن الله تعالى يقول ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[2] فقالوا ينبغي أن يكون القرآن أو أن تكون الرسالة نزولها على الوليد أو على عروة، التحكم هو دائماً فعل المفلس من الحجة فحيث لا برهان عنده يقول: لا بد أن يكون الأمر كذا وكذا، وإذا سألته هل عندك برهان على أن الأمر لابد أن يكون كذا؟ فترى أنه لا يوجد لديه برهان لكنه يقول: إنه ينبغي أن يكون الأمر هكذا وكفى! يكون الأمر كذا! هذا معنى التحكم، والمتحكم هو الذي يقول: إن المسألة يجب أن تكون على وفق كذا وكذا، ولكن ما دليلك هكذا؟ هذا هو معنى التحكم، يتحكم أي يقول أمراً ويبني بناءً عليه حكماً معيناً وأن الصواب كذا وأنه ينبغي أن يخطّأ كذا؛ ولكن ليس لديه برهان ولا حجة، أي ينبغي أن يكون الأمر كذا ويكفي! هذا ليس منطق أهل العلم، هذا منطق الجاهليين، فالتحكم كما ذكر الله تعالى عن هؤلاء الكفار ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ هذا من التحكم، هكذا يتحكَّمُون؛ أنه ينبغي أن يكون الأمر كذا وكذا، تقدم أن الذي حملهم على أن يزعموا أن الوليد وعروة أولى هو مجرد النظرة إلى الدنيا.

مِنْ تحكمهم أيضاً أنهم قالوا إن الرسول الذي ينبغي أن يرسل إلينا ينبغي أن يكون ملكاً كما تقدم وأنه لا يصلح أن يكون بشراً ما الدليل على ذلك إنه التحكم ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾[3] وذكر الله تعالى هذا عن غير أُمَّة من أمم الكفر أنهم يقولون: لا بدّ أن يكون المرسل إلينا ملكاً، وإذا قيل لهم لماذا؟ قالوا: أنه لا يصلح أن تكون الرسالة في بشر، وما الدليل على أن الرسالة لا تصلح أن تكون في بشر؟ هكذا؛ ليس هنالك دليل لكن ينبغي أن يكون الأمر كذا، هذا فعل أهل الجاهلية الله تعالى يقول: ﴿اللَّهُ

---

(1) الزخرف: ٣١.

(2) الأنعام: ١٢٤.

(3) المؤمنون:٣٤.

يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾[1] ، وهذه الطريقة في التحكم هي طريقة كثير من أهل الباطل يزعمون أن المسألة ينبغي أن تكون كذا وأن الصواب هو كذا - بلا حجة ولا برهان - وإنما هكذا يُقَرِّرُون بلا برهان، هذا معنى التحكم.

(١) الحج: ٧٥.

المسألة الحادية بعد المئة: ازدراء الفقراء فأتاهم الله بقوله ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾(١).

....

هذه المسألة في ازدراء واحتقار الفقراء سببها ما تقدم أيضاً من عظمة الدنيا أيضا في قلوبهم، معلوماً أن الله تعالى جعل الدنيا دار امتحان يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر سبحانه وتعالى الرزق لحكمة بالغة يعلمها، فيجيء في الناس فقراء ويجيء في الناس أغنياء والله عزَّ وجلَّ حكيم خبير، الفقير ربما كان من أحب الخلق إلى الله عزَّ وجلَّ كما في الحديث «ربّ أشعث أغبر ذي طمرين - أي ثوبين باليين من شدة فقره - لو أقسم على الله لأبرّه»(٢) أي لو أنه أقسم على الله أن يقع كذا لأبرّ الله قسمه، ما حاله؟ أشعث: في رأسه، أغبر ذي طمرين: ثياب خرقة، في بعض الروايات «مدفوع بالأبواب»(٣)، إذا أتى ليس من أهل الوجاهة يقال له: تفضل، وإنما إذا أتى دُفع لفقره وضعف حاله، «لو أقسم على الله لأبره» هو عند الله بهذا المقام وهو عند الناس بهذا المقام، فلهذا لا يحتقرُ الأنسانَ لفقره إلا رجلٌ فيه خصلة من خصال الجاهلية، لأن مجرد الفقر ليس فيه ما يستدعي أيَّ احتقار نهائياً، فالفقر ليس ذنباً كالزنا يفسق به الإنسان ويهجر ويؤدَّب، أو كشرب الخمر ونحوه، الفقر حال جعله الله تعالى في الدنيا ابتلى به أناساً، كالغنى حال ابتلى الله تعالى به أناساً، الجاهل الذي لا يعي حكمة الله يُعَظِّمْ من شأن الأغنياء، وينفخ فيهم ويتملَّقهم لمجرد غناهم، جاء عنه صلّى الله عليه وسلّم أنه كان جالساً وعنده أحد أصحابه رضي الله عنهم فمرّ رجل فقال صلّى الله عليه وسلّم: «ما رأيك في هذا أو ما تقول في هذا؟ فقال: يا رسول الله؛ هذا رجل من أغنياء الناس حريٌّ إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفّع، فسكت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم - وكان ذاك ثري من الأثرياء - فمرّ به آخر من ضعفاء المسلمين، فقال: ما تقول في هذا؟ فقال: يا رسول؛ هذا رجل من فقراء المسلمين؛ حريٌّ إن شفع أن لا يشفّع، وإن خطب ألّا ينكح، قال صلّى الله عليه وسلّم: لهذا خير من ملء الأرض من

---

(١) الأنعام: ٥٢.

(٢) صحيح. الترمذي (٣٨٥٤). الصحيحة (٢٦٤٣).

(٣) صحيح مسلم (٢٦٢٢).

ذاك»[1] لأن ذاك الفقير - الذي قيل فيه هذا - من خيار المسلمين ومن صلحائهم، وذاك من الفاسدين أو من المنافقين، فالموازين عند البشر ينبغي أن تُعدّل على وفق النصوص، وقد تقدم المراد من قوله تعالى ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ وبيننا سبب نزولها وهي دالّة على المسألة التي ذكرت فيها ودالّة على أنهم يزدرون الفقراء ويقولون لا نجلس نحن والفقراء والأعبد في مجلس واحد عندك فيرانا العرب ونحن سادة من سادات العرب مع هؤلاء الفقراء ومع هؤلاء الذين يرونهم أراذلهم، فازدراء الفقراء خصلة من خصال أهل الجاهلية ينبغي على المسلم أن يتنزه منها غاية التنزه، وأن يكون بعيداً كل البعد عن أن يحتقر الناس لصنائعهم أو لألوانهم أو لألسنتهم أو لأنسابهم أو لفقرهم وعدم ظهور آثار الغنى عليهم فمن صنع مثل هذا واحتقر الناس وأنزل الناس بناءً على هذه المنازل فإن فيه خصلة من خصال أهل الجاهلية.

---

(١) صحيح البخاري (٥٠٩١).

المسالة الثانية بعد المئة: رميهم أتباع الرسل بعدم الإخلاص وطلب الدنيا فأجابهم بقوله ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾(١) الآيَةَ وأمثالها.

....

هنا تقدير أي أكمل الآيَةَ، حيث تجدون كثيراً أهل العلم رحمهم الله يذكرون بعض الآية ثم يقولون بعدها الآية فيختصرون ذكر الآية ويحيلون طالب العلم إلى إكمال الآية لأن بقيتها ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

اتهام الرسل أو اتباع إتباع الرسل بما هم منه براء هذا من خصال أهل الجاهلية، أهل الجاهلية لما لم يؤمنوا ولم تتزكى نفوسهم ولم تتطهر قلوبهم ولم تتقوّم ألسنتهم ولم تصلح أعمالهم؛ ووجد الزكاء والطهر في الرسل وأتباعهم عليهم الصلاة والسلام صار هؤلاء الجاهليون يرمون الرسل وأتباعهم بأنهم إنما يظهرون الدين للدنيا فهم غير مخلصين وإنما يريدون بالدين بالدنيا فيتهمونهم بالنفاق والرياء هذا المعنى، فيرمون أتباع الرسل بعدم الإخلاص وأنهم طلاب دنيا، طلاب الدنيا ماذا يريدون؟ يريدون إما المال أو العلو والرفعة أو السلطة، كل هذا مما يتهم به حملة المنهج السوي الصحيح، وهذه سُنَّةٌ في الجاهليين قديمة اتهموا بها حتى الرسل، مما ذكره عدو الله فرعون عن موسى عليه الصَّلاة والسَّلام لَمَّا أبطل الله تعالى سحر السحرة قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾(٢) أي ما هو إلا مكر منكم، وقال في موسى عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾(٣) أي أنه أمر مخطط ومدبر بينكم وبين موسى فموسى هو كبيركم الذي علمكم السحر، ومن ذلك قوله متهماً موسى وهارون ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾(٤) أي تريدون أن تتكبروا في الأرض، وقال أيضاً في اتهامهم في مقاصدهم ﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أي تخرجوا أهل الأرض منها وتكون الكبرياء لكم فأظهرتم الدين والرسالة

---

(١) الأنعام: ٥٢.

(٢) الأعراف: ١٢٣.

(٣) طه: ٧١.

(٤) يونس: ٧٨.

والإيمان لهذه المقاصد، هذه سنة في أهل الكفر وأهل الجاهلية وقد تقدم أن العرب تقول لكل قوم وارث، فكما أن الأنبياء يرثهم العلماء؛ ففرعون والطغاة يرثهم من بعدهم فلكل قوم وارث، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾(١) ، ورثة الأنبياء هم العلماء فكما أن المجرمين عادَوا الأنبياء فورثة المجرمين يعادون ورثة الأنبياء وهذا مستديم إلى قيام الساعة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ جعل الله للأنبياء أعداء، الذين ورثوا علم النبوّة وهم العلماء يقابلهم أعداء الرسل القدامى وهم المجرمون فيرث المجرمون مجرمين ويرث الرسل علماء وتستمر العداوة بين ورثة الأنبياء وبين ورثة المجرمين كما كانت العداوة موجودة بين الأنبياء وبين المجرمين، ومن ذلك هذه الاتهامات، لا يزال أهل الباطل من العلمانيين وأضرابهم يتهمون أهل الصلاح بأنهم يظهرون الدين ليتوصلوا به إلى مطامع دنيوية ومن أكثر ما يُتهم به أهل الخير أنهم يقصدون الوصول إلى الحكم، هذا كثير ما يتهم به أهل الدين والصلاح، أو أن مقصدهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذكر منهج السلف أنهم يقصدون أن يُؤَلّبوا الرعية بالتدريج على الحاكم، نعم يوجد بعض من يتزي للأسف بالعلم من له مطامع ومطامح قبيحة - وهذا لا ينكر - ولكن اتهام جميع أهل الحق واتهام الملتزمين بالسُّنَّة من أهل العلم الذين يَعُوْنَ أن الحفاظ على الجماعة أصل أصيل في اعتقاد أهل السُّنَّة وأنه لا يجوز أن يُتسبب في نزع اليد من الطاعة ويقررون هذا في العقيدة ويظهرون هذا في خطبهم وفي دروسهم وفي فتاواهم وفي توجيههم للناس - سواء على نطاق الأفراد أو على نطاق الجماعات - ومع ذلك يقال: وإن كان! وهم يريدون في نهاية المطاف هذا طبعاً طريقة أهل الجاهلية كما اتهم فرعون موسى فأنتم تتهمون حملة العلم الشرعي وأئمة السُّنَّة بمثل هذا كما اتهم من قبلكم مَنْ هم أَجَلُّ ممّن تتهمونه، فالمُظْهِرُ للعلم والسُّنَّة والخير لا يجوز أن يتهم في دينه، أو أن يقال أنه يرائي أو أنه يقصد كذا وكذا، وهذا ليس فقط في أهل العلم بل في كل مسلم، فكل مسلم عرضه مصون ولا يجوز بتاتاً أن يتهم في نيته والمتهم له في نيته هو الضعيف العاجز، إن كان لديك برهان على خلل عنده فهات قولاً أو فعلاً محققاً يُشهد به أنه على الباطل، أما إذا لم تجد وادّعيت أن مراده

(١) الفرقان: ٣١.

وهدفه فأحد أمرين إما أن تدّعي الغَيْبَ فتكفر - وتقول إني أعلم ما الذي في قلبه - فتكون كافراً بالله لادعاء الغيب، وإما أن تقول أنا لا ادّعي الغيب؛ فيقال: كفّ عنه إذاً واترك عنك التناول لنيّات الناس ومقاصدهم فإنها أمور لا يعلمها إلا علّام الغيوب، وقد روى البخاري عن عمر رضي الله عنه أثراً مهماً جداً ينبغي أن يتداول ويذكر ويعرف أنه قال: (إن أناس كانوا يُأخذون بالوحي زمن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم - أي يأتي الوحي ويبيّن أناس معينين ويحددهم - وإنَّ الوحي اليوم قد انقطع؛ فمن أظهر لنا خيراً قرّبناه وأمّناه)(١) ولا شأن لنا بسريرته الله يحاسب سريرته، أي قد يظهر الخير ويقترب من الدعوة إلى الله يقول: سنقربه وسنأمنه وسريرته نكلها إلى الله عزَّ وجلَّ، (ومن أظهر شراً لم نأمنه وفعلنا به كذا وكذا) وإن قال: إن سريرته حسنة فنحن لا نتعامل بالسرائر نهائياً، فالسرائر عِلْمُهَا عند الله تعالى، وهكذا القضاة وهكذا التعامل مع الناس، كل التعامل بحسب الظاهر فالأصل في المسلمين هو هذا أما اتهام النوايا فهذا لا ينبغي أن يكون بين المسلمين لأن النية إلى الله، نعم قد يظهر علامات ودلائل وقد يظهر من بعض الناس شيء من ما يشير، لكن هذا كما ورد في الحديث «إذا ظننت فلا تحقق»(٢) تجزم تتكلم فيه تقول: أنا من خلال ما تفرست في شأنه؛ أنا أشك في مقصده، هذا لا يجوز - وإن كان المرء في بعض الأحيان قد يشعر من بعض الناس بنوع من المصانعة والمداهنة والمراءاة - قد يشعر أن هذا الرجل قد يظهر شيئاً ليس هو الصواب الذي هو عليه لكن هذا يبقى امراً قلبياً لا تظهره لأنه ليس حجة ولا برهان قد تَحْذَرْه أنت؛ قد تهابه فيما بينك وبينه؛ قد تكل أموراً إلى غيره ولا تقول: إن فيك كذا وكذا، لكن يحوم حوله بعض الأمور التي قد تشعر بنوع من الريبة لكن لا يحل أن تتكلم به نهائياً، أما كونك تقول: إن العمل الفلاني يتولاه هذا وهذا، فهذا الأمر إليك أنت لك أن تولّي على عملك هذا وأن تقصي هذا فهذا راجع إليك أنت لكن لا تحقّر ولا تتكلم أمام الناس بأن فلاناً هذا مدخول النية قبيح القصد، ما دليلك؟ هكذا يجوس في خاطري! كم جاس في الخواطر من مثل هذه الأمور ثم اتضح أنها سراب وليست بصحيحة؟ فالحاصل أن من طريقة أهل

---

(١) صحيح البخاري (٢٦٤١).

(٢) صحيح. الكامل لابن عدي (٥/٥٠٩). الصحيحة (٣٩٤٢).

الجاهلية أن يرموا الرسل وأن يرموا أتباع الرسل بطلب الدنيا ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾(١) فلو فرضنا أن في أتباع الرسل وفي بعض المظهرين للخير شيء من هذه المقاصد وأنهم يريدون الدنيا وأنهم ليسوا بمخلصين؛ فإن هذا أمر لا يحاسب به النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في بعض من قد يظهرون الخير من أتباعه ولا يحاسب به أهل الحق وأهل الخير إذا أظهر هذا بعض مثلاً طلبتهم أو بعض الناس فيهم؛ هؤلاء يتولى الرب حسابهم ولا نتعامل دائماً إلا بالظاهر، واعلم أن هذه المسألة قد أضرت بعدد من طلبة العلم ضرراً شديداً وبغضتهم لبعضهم، ويلقون الله تعالى لا حجة لهم، يبغض بعضهم بعضاً ويُحَذِّرُ بعضهم من بعض - وليس فيما يظهر منهم أي مخالفة للسُّنَّة - إنما أمور تكمن في النفوس كما قال ابن القيم رحمه الله: (واحذر كمائن نفسك اللاتي متى خرجت عليك كُسِرت كسر مهان)(٢) قد يحمل الحسد والبغض أو الاحتقار والازدراء على أن تنظر لأخيك نظرة بأنه ليس بمخلص وأن لديه مقاصد وأن لديه كذا وكذا ثم تبدأ تُحَذِّرَ منه دون أن يكون صاحب بدعة أو صاحب فساد في فتواه وفي اعتقاده وإفساد الناس؛ وإنما هو على السُّنَّة كما أنت على السُّنَّة فهذا لا يرتاب أنه من الشيطان، ولهذا قال مالك ابن دينار رحمه الله تعالى: (أقبل شهادة القراء في كلّ شيء إلا بعضهم على بعض، وجدتهم أشد تنافساً من التيوس)(٣) كما أن التيوس تتنافس على المعز ويظهر منها الصياح والنطح والضرب؛ يقول: وجدت بين طلبة العلم أشد مما يكون بين التيوس في التنافس، وهذا أمر مؤسف جداً أن يقع بين أهل السُّنَّة، ولهذا يقول: أقبل شهادتهم في كل شيء، يقول: دخلَ رمضان عدل، يشهد اثنان منهم على رجل بأنه قتل أقتله، يقول: إذا التفتوا إلى بعضهم فلا أقبل شهادة بعضهم في بعض، هذا قطعاً إذا كانوا على السُّنَّة، أما شهادة طالب العلم السُّنِّي على المبتدع فهي واضحة يقول: هذا رجل يروّج لبدعة كذا وكذا ويسهّل أمر التعامل مع أعداء الله عزَّ وجلَّ ويخفف من أمر الروافض ومن أمر الخلاف البدعي ويسهّل من شأنه ويفتي بهذه الفتاوى العوجاء التي أضرّت بالناس - اسمعوا ماذا يقول: كذا وكذا - شيء ظاهر لكن أن يكون

(١) الأنعام: ٥٢.

(٢) نونية ابن القيم (ص٢٠).

(٣) المجالسة وجواهر العلم (٢٩٤٧).

على السُّنَّة وأنت على السُّنَّة ثم تبدأ تقول: أنا أتشكك في منصبه، أنا هذا الرجل غير مرتاح له، أرأيت لو قال هو: وأنا أيضاً لا أرتاح لك، ما الدليل الذي يحسم بينكما؟ إن قلت: دليلي ما في قلبي، فدليله هو ما في قلبه، ومتى كانت الشريعة يُلجأ في الأحكام فيها إلى ما يجوس في النفوس والخواطر؟ هذا لا ينبغي أن يكون، وطالب العلم ينبغي أن يكون نبيهاً وأن يستفيد من العلم وأهله وأن يبعد عن مثل هذه النزاعات بين أهل السُّنَّة التي أضعفتهم وأشمتت بهم أعداءهم وأدخلت أعداء السُّنَّة عليهم - شعروا أم لم يشعروا - فصرنا موضع الشماتة، وهذا حاصل وينبغي أن يجهر به وأن يُعَلَّم طلبة العلم أن يدرسوا العلم ويستفيدوا منه؛ فإذا رأوا ما بين اثنين من أهل السُّنَّة ممن هم على السُّنَّة شيئاً من النزاعات استفد من علمه واترك النزاعات، ولهذا قال أهل العلم: (كلام الأقران يطوى ولا يروى) الأقران الذين يكون بينهم منافسة في العلم؛ يطوى، فإذا قال فلان في فلان كذا وهو من أهل السُّنَّة وذاك من أهل السُّنَّة وهذا من أهل العلم وهذا من أهل العلم، هذا يحرّض على البدع والضلالات ويحضّ الناس على اجتنابها وذاك يفعل نفس الفعل وهذا يدعو إلى السُّنَّة وإلى الخير والظاهر منه لزوم السُّنَّة وذاك الآخر الظاهر منه لزوم السُّنَّة، ما الذي أوجد هذه الخصمة بينهم وهم جميعهم على السُّنَّة؟ الشيطان الرجيم؛ وهذه البلايا التي تجوس في النفوس، فالذكي النبيه من طلبة العلم يستفيد من علمهم ويبعد عن نزاعهم، ولا تفهم بتاتاً أن المقصود ما يكون من النزاع بين أهل السُّنَّة وأهل البدعة؛ هذا مما يتقرب به المؤمن من الله تعالى هذا يُجهر به، الروافض، المتصوفة، أهل الباطل، أهل التمييع للدين هؤلاء يتقرب إلى الله بالجهر بمذمتهم والتحذير منهم لكن البلاء كل البلاء في طلبة من أهل السُّنَّة عقيدتهم واحدة واستدلالهم واحد ومنهجهم واحد وبينهم هذه الخصمة، في نفوسهم على بعضهم ما فيها، كن نبيهاً استفد من علم هذا وعلم هذا واترك صراعهم، وستجد آثار هذه الوصية - إن التزمتها - أن تستفيد من علم هذا ولا تتضرر بما عنده مما يسمونه بالزغل، يكون بين أهل العلم هذا الزغل وهذا البلاء الذي يحدث بين بعضهم طبعاً وليس كل أهل العلم يقيناً لكن يوجد، فلا تترك علم هذا وقد برّز في فن عظيم قد يكون فيه رأساً، لا تترك علمه بل خذ منه واترك عنك ما يقوله في أخيه الآخر، واذهب إلى أخيه الآخر الذي هو من أهل السُّنَّة وبرّز في علم آخر وخذ من علمه

واترك صياحه وتحذيره من أخيه الآخر؛ فتستفيد من علم هؤلاء وتترك ما عندهم من البلاء، وكن دقيقاً فالكلام يقصد به أهل السُّنَّة فقط لا أهل البدعة، فأهل البدعة دائماً يُحذّر منهم، ولهذا كما في أثر مالك بن دينار رحمه الله لما قال: وجدتهم - يعني طلبة العلم - أشدّ تنافساً من التيوس على المعز، يوجد هذا التنافس ويوجد هذا الصراع وبعضه طفا وظهر - والجميع من أهل العلم - وإذا جلست إلى بعضهم للأسف وقلت: ما الذي في خاطرك عن أخيك؟ أطال الكلام ورفع الصوت واحمرّت عيناه، ما عنده شيء، هذا الواقع ما عنده شيء، إذا كنت تعي وكنت طالب علم تدري أنه ما عنده شيء، لم يستطع أن يضبط عليه شيئاً واحداً على خلاف السُّنَّة، نفس الوضع إذا سألت الآخر ما الذي حملك على التحذير من هذا الفلان؛ حتى ربما لا تسلم عليه؟ نفس الوضع الذي رأيته في الأول تراه في الثاني، وفيه وفيه وفيه، وليس هناك وضع حقيقي يقتضي هذا الذي حصل فكن نبيهاً استفد من علم هذا ومن علم هذا واترك ما بينهم من اتهامات بعضهم أو نحوه؛ فإن هذه الخصلة في أصلها خصلة جاهلية لأن الأصل أن أتباع الرسل يُزكّون في الظاهر ويُرجى لهم في الباطن أن يكونوا ممن يُنتفع بعلمهم - لا نجزم على نواياهم بأنها طيبة - لكن نقول: الأصل فيهم هو هذا من حيث العموم، فاتهامهم في نواياهم أصله من غير أهل الحق، فإذا وجد مثل هذا بين أهل الحق فعلى طالب العلم أن يكون - كما ذكرنا - نبيهاً يترك عنه مثل هذه الأمور وإلّا انعكست للأسف الشديد كما تراها الآن تجد شاباً في السابعة عشر وآخر في عمره قد اختصما لماذا؟ لأن الشيخ فلان والشيخ فلان اختصا وأنت بهذه الشخصية الذائبة إذا اختصم هؤلاء فوقك اختصمتم أنتم، ألا يكون عندك عقل ورشاد وتأتي لتستفيد من الطرفين وتترك عنك الزغل هذا وتنعكس عليكم هذه الأمور، إذا اختصم أولئك اختصمتم! وإذا اصطلحوا اصطلحتم! هذا ذوبان شخصية ينبغي أن يكون طالب العلم أعقل وأن يهيّأ نفسه دائماً إلى ما ذكرنا من مثل هذا وإلّا صار الناس على ما ترى للأسف من هذه التحزبات، فلان يتبعه عدد من الناس وآخر يتبعه عدد من الناس، فلان اختصم مع فلان، اختصم أتباع هذا مع أتباع هذا، والتحزب يا أخوة تارة يكون واضحاً فتنشأ جماعة تسمي نفسها باسم وتارة يوجد تحزب - لا يتفطّن إليه أهله - وهو أنهم يقولون كما قال الأول: (هل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن

ترشد غزية أرشد)، أي الذي يقوله فلان فنحن معه بعلم أو بغير علم، هذا تحزب - وإن لم تتسموا باسم - فهو تحزب بواقع الأمر؛ لأن العبرة بالمضامين حتى لو لم يتسم باسم بحزب أو بجماعة فالفعل الذي فعلتموه هو التحزب وخاصمتم إخوان لكم آخرين وعاديتموهم - وإن لم يكن لكم اسم جماعة كذا أو حزب كذا - واقعكم هو التحزب، وطالب العلم الموفق هو الذي يتعامل مع أهل السُّنَّة تعاملاً على أساس أنهم من أهل السُّنَّة ويتعامل مع أهل البدعة تعاملاً على أساس أنهم من أهل البدعة، فالكفّار يتعامل معهم على أنهم كفّار، والمسلمون يتعامل معهم على أنهم مسلمون، فيكون عنده رؤية سليمة بعيدة عن هذه التحزبات وعن هذه الأمور التي أوغرت في الصدور وشككت في النوايا وفي المقاصد والله المستعان.

المسألة الثالثة بعد المئة: الكفر بالملائكة.

المسألة الرابعة بعد المئة: الكفر بالرسل.

المسألة الخامسة بعد المئة: الكفر بالكتب.

المسألة السادسة بعد المئة: الإعراض عن ما جاء عن الله.

المسألة السابعة بعد المئة: الكفر باليوم الآخر.

المسألة الثامنة بعد المئة: التكذيب بلقاء الله.

....

هذه المسائل: أصول الدين الكبار وأصول الإيمان كالإيمان بالملائكة والرسل واليوم الآخر والكتب؛ أهل الجاهلية يكفرون بها، وواضح تماماً أن المقصود بهذه الخصلة المرتدون الكفرة ككفار قريش وأمثالهم، فهذه الخصال واضحة لا تحتاج إلى مزيد من الشرح؛ أنهم لمّا كفروا بالله عزَّ وجلَّ كفروا برسله كفروا بكتبه كفروا بلقائه كفروا باليوم الآخر؛ فهذا باب واحد، يكون من أهل الكفر، من ذلك أيضاً أنهم يعرضون عمّا جاء عن الله لأنهم لمّا لم يقروا بأنه من الله أعرضوا عنه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾(١) فتجدهم معرضون، لماذا هذا الإعراض؟ لأنهم يعتقدون أنه ليس من الله فلا يقبلون إليه ولا يلتفتون إليه، فهذه خصال أهل الكفر الصريح الجليّ من كفرة الوثنيين وأضرابهم أنهم كفرة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر معرضون عمّا جاء عن الله مكذبون بلقائه.

(١) الأحقاف: ٣.

المسألة التاسعة بعد المئة: التكذيب ببعض ما أخبرت به الرسل عن اليوم الآخر كما في قوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾[1] ، ومنها التكذيب بقوله ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[2] ، وقوله ﴿لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ﴾[3] ، وقوله ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[4].

....

هذا داخل فيما قبله و والتكذيب ببعض ما أخبرت به الرسل عن اليوم الآخر، فأكثر ما أنكر المشركون التوحيد الخالص لله عزَّ وجلَّ بالعبادة، وأنكروا البعث وما سيكون بعده من جزاء وحساب وجنة ونار، فخصه رحمه الله تعالى بالذكر لأنه من أكثر ما كفر به الكفار، وإلَّا فهو داخل في الحقيقة بما قبله من كفرهم بلقائه عزَّ وجلَّ واليوم الآخر.

اليوم الآخر الإيمان به يتضمن أموراً ثلاثة: الإيمان بالبعث والثاني الإيمان بالجزاء والحساب والثالث الإيمان بالجنة والنار، الكفار جحدوا أول شيء وهو البعث ومن جحد البعث أنكر ما بعده مباشرة فمن أنكر البعث ينكر الجزاء والحساب والجنة والنار، فهذا مما أنكروا، لهذا ذكر رحمه الله جملة من الآيات كقوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ فيكفرون بأنهم سيلقون الله تعالى وسيبعثون وهكذا قوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ لأنهم لا يقرّون بيوم الدين وهكذا ما يكون في الآخرة من انقطاع هذه الأمور التي في الدنيا ﴿لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ﴾ تنقطع، ليس هناك بيع ولا شراء في الآخرة وليس هناك خلة ولا صداقة إلَّا أهل التقوى الذين ائتلفوا على التقوى - وهي الباقية - ولا شفاعة: أي الشفاعة التي يتوهَّمها المشركون حيث يظنون أن أوثانهم ستشفع لهم، أما الشفاعة التي بشرطيها: إذن الله تعالى للشافع ورضاه عن المشفوع؛ فهذه ثابتة كما في قوله تعالى ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا

---

(١) الكهف: ١٠٥.

(٢) الفاتحة:٤.

(٣) البقرة: ٢٥٤.

(٤) الزخرف: ٨٦.

﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾[1] وقوله ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[2] فهذه ثابتـة لكـن المقصود في الآية - في نفي الشفاعة - الشفاعة التي يتوهمها المشركون التي يظنـون أن معبـوداتهم ستـشفع لهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[3] ، فهذا المقصود بالشفاعة المنفية في الآية وهكذا قوله ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ كل هذا مترتب على جحدهم.

---

(١) النجم:٢٦.

(٢) البقرة: ٢٥٥.

(٣) الأنعام: ٩٤.

المسألة العاشرة بعد المائة: قتل الذين يأمرون بالقسط من الناس.

....

قتل الذين يأمرون بالقسط بالحق بالمعروف هو صنيع أهل الجاهلية وهو من أعظم الإجرام لأن من يأمر بالقسط آمرٌ بالحق قد أمر بها أمر الله تعالى به فينبغي أن يكرم وأن يشجّع على ما هو فيه وأن يعان، فأما قتله فلا يُقْدِمُ عليه إلا أهل الجاهلية وأهل الظلم والتعدي والفحش الشديد في الظلم أيضاً، القتل يكون لأهل الجنايات الكبار العظام فكيف يجعل هذا القتل للداعي إلى الحق المُبَيِّنُ لما أمر الله عزَّ وجلَّ به، من جرائم بني اسرائيل قتلهم من أمروا بالقسط ممن دعوهم إلى الله عزَّ وجلَّ، ذكر الله تعالى ذلك في قبائحهم وجرائمهم ولم يقتصر إجرامهم على ذلك بل كما تقدم قتلوا حتى الأنبياء، ذكر الله تعالى قتلهم الأنبياء وقتلهم الآمرين بالقسط في قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهَّ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(١) ذكر الله تعالى هذه الجريمة - جريمة قتل الآمرين بالقسط - مقرونةً بقتل النَّبيّن كما ترى وبالكفر بآيات الله، ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى في معنى الآية - ما موجزه - أن هذا غاية الكبر؛ قتلهم للآمرين بالقسط، غاية الكبر منهم، واستدل عليه بقوله صلّى الله عليه وسلّم «الكبر بطر الحق وغمط الناس»(٢) بطر الحق أي رده، وغمط الناس أي احتقارهم، لما تكبروا عن الحق واستكبروا على الخلق قابلهم الله تعالى على ذلك بالذلّة والصّغار في الدنيا والعذاب المهين في الآخرة هذا موجز كلامه رحمه الله تعالى، وهذه الخصلة الخبيثة في قتل من يأمرون بالقسط من الناس لا تزال في أهل الجاهلية، فقد قتلت أنظمة الظلم والتّعدي كثيراً من الدعاة إلى الله عزّ وجل وفي فترة مضت بعد حقبة الاحتلال الخبيث المسمّاة بالاستعمار - وهو الاحتلال الصليبي من قبل الفرنسيين والبريطانيين والإسبان والإيطاليين وغيرهم في بلاد الإسلام - جاءت عدد من الأنظمة كثير منها اتخذ الطابع العسكري العنيف فقتلت عدداً كبيراً من الدعاة إلى الله عزّ وجل - كما فعل البعثيّون في العراق وفي سورية - وكما فعل

---

(١) آل عمران:٢١.

(٢) صحيح مسلم (٩١).

أضرابهم ممن قادوا ما سُمّي بالثورات في الأنظمة التي قلبت الحكمَ بين فترة وأُخرى وقتلت النـاس وكـان ممن خصّتهم بالقتل والتعدي الدعاةُ إلى الله عزّ وجل، وهكذا أنظمة اتّخذت النّزعة الاشـتراكيّة - سـواءٌ في بلاد المسلمين وفي البلاد خارج بلاد المسلمين - خصّت الدعاة إلى الله عزّ وجلّ؛ الآمـرين بالقـسط بمزيـد من العقوبات وتتبعتهم وقتلتهم حتى أخلت منهم بعض البلدان، بعض البلدان يكاد يخلو منها دعاة الحـق بسبب تتبّع هؤلاء المجرمين لمن يدعوا إلى الله عزّ وجل - ولا سيما اذا كان من الّـدعاة إلى الـسُّنَّة - وهكـذا أنظمة الروافض، فالرافضة بعد ثورتهم الخبيثة في إيران قتلوا في إيـران الـذين يـدعون إلى الله تعـالى وعـلى السُّنَّة عدداً غفيراً جداً من الناس، وهكذا لمّا استولوا على العراق، وهكذا ما يفعلونه في سورية وفي غيرهـا، عدد من المنظّمات الإجراميّة المفسدة التّابعة لهذه الدّول أو لغيرها - ممـن يتـشكّل ويتّخـذ طـابع الاغتيـال طابعاً يصفّي به الدعاة إلى الله عزّ وجل - كلُّ هؤلاء من أهل الجاهلية، وقد أضروا بالأمة ضرراً بالغـاً، وفي الوقت نفسه فتحوا الباب على مصراعيه لدعاة الشرك والخرافة، لهذا اشتدت الغربة في هـذا الـزمن لأمـور كثيرة كان من ضمنها أن خبا العلم الشرعي وخبت السُّنَّة وتُتبعت من قبل هذه الأنظمة الخبيثة التي ورثت هذا الإرث الجاهلي فحريٌ بالـدّعاة إلى الله عـزّ وجـلّ أن يتعـاونوا، واليـوم - ولله الفـضل والمنّـة - صـار الإنسان يدعوا وبينه وبين من يدعوهم أميالٌ كثيرة، وعجـزت هـذه الأنظمـة المجرمـة عـن أن تحـول بـين الدعاة إلى الله وبين الوصول إلى النّاس، هذه الأدوات استخدمها أهـل الخـير وأهـل الـشّر، وكـما أن أهـل الباطل والفساد وصلوا إلى إفساد كثير من المسلمين من خلال هذه الطّرق في الشبكة وفي الوسـائل المتاحـة الآن التي صارت تصل إلى الناس بسهولة، فينبغي على الدعاة إلى الله أن يستثمروا مثـل هـذا وأن يحرصـوا على أن يبثّوا دعوتهم إلى الله تعالى؛ لأنها - بحمد الله - دعوةٌ لا تحتاج إلى كثير دعم، قوّتها فيها، هذا مـا أقـر به حتى أعداء الله من المُنَصّرين والمستشرقين والملاحدة وأن قوّة الإسلام فيها، فيحتاج إلى من يحمله ويهـتمُّ به ويكون ذا همّة بالغة يعطي جهداً لله عزّ وجلّ في مثل هذا فـإذا ائتلـف أهـل الحـق أوصـلوا دعـوتهم إلى أماكن بعيدة قد يُحْظَرُ عليهم دخولها أصلاً، فيقال: ابقوا على ما أنتم عليه وندعو إلى الله عزّ وجـلّ في وسـط بلدانكم رغم أُنوفهم - كما أنّ اهـل الباطـل يـدعون إلى بـاطلهم في بـلاد المـسلمين ويـصلون الى شـبابهم

وفتيانهم وفتياتهم - فينبغي أن يكون عند أهل الحق الدّعوة إلى الله عزّ وجل همّةً عالية وأن ينشروا الدعوة إلى الله؛ فإن الله تعالى فتح لهم هذا المجال، وإذا أُخلي وضَعُفُوا عنه استغلّه غيرهم ولهذا كما أنه يحدث من مثل هذه الأجهزة آثارٌ سلبيّة كثيرة جداً على المسلمين؛ فبحمد الله حدث من الاستفادة منها من قِبَلِ مَنِ استعملها في طاعة الله عزَّ وجلَّ حدث شيء عظيم جداً من إسلام أُناس كثيرين لم ترهم ولم يروك، وتسنن أُناس من الروافض والمشركين والمخرّفين - لم ترهم ولم يروك - فينبغي بثُّ مثل هذه الأمور واستغلال هذه الوسائل حتى ينفع الله عزَّ وجلَّ بها، لأن الدعاة إلى الله قد يضيّق عليهم في بعض البلدان ويتتبعون للسجن والتعذيب والقتل، فهيّأ الله تعالى هذه الفرصة ليوصل إليهم رغماً عنهم.

المسألة الحادية عشرة بعد المئة: الإيمان بالجبت والطاغوت.

....

الجبت فُسّر الجبت بالسحر وفسّر بالشيطان، وذكر شيخنا الشّيخ ابن باز رحمه الله تعالى في تعليقه على تفسير ابن كثير أن الجبت تطلقه العرب على الشّيء الذي لا خير فيه فيطلق على الصّنم وعلى السّحر وسائر ما لا خير فيه، ولهذا جاء في الحديث «إن العيافة والطرق والطّيرة من الجبت»(١) هذا معنى الجبت.

الطاغوت يشتقّ من الطّغيان وهو ما تجاوز به العبد حدّه من معبود أو متبوع او مطاع، وذكر ابن القيّم رحمه الله تعالى أنّ الطواغيت كثيرة ورؤوسهم خمسة وذكرهم رحمه الله تعالى، الطّاغوت: هو الشيء الذي يتم فيه التجاوز والطّغيان، والطاغوت يُذكر في القرآن على المعبود من دون الله إذا كان راضياً قال عزّ وجلّ: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾(٢) المراد بالطّاغوت هنا المعبود من دون الله اذا كان راضياً، ويطلق الطّاغوت أيضاً في كتاب الله عزّ وجلّ على تحكيم غير الشّرع ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾(٣) الطّاغوت هنا تحكيم غير الشّرع، هذه الآية نزلت في اليهود الذين شهدوا لكفّار قريش ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾(٤) نزلت الآية في اليهود، اليهود معلوم أنّهم أهل كتاب، وكان القرشيون والعرب يعلمون أنّ عندهم أثارةٌ من العلم، فقال كفار قريش لبعض اليهود - سواءٌ كعب بن أشرف أو غيره – سألوا: أيُّنا خير نحن أم محمّد: قالوا: أخبرونا عنكم وعن محمّد، فبدأوا يُعَرِّفُون بأنفسهم أنهم يسقون الحجيج وأنهم ينحرون الكوماء ويفعلون ويفعلون ومحمّدٌ قطع أرحامنا وتبعه السّراق ونحو ذلك، فقال اليهود: أنتم خير(٥) - مع علم اليهود أن كفرة قريش ما لهم عند الله من

(١) ضعيف. أبو داود (٣٩٠٧)، وفيه حيان بن العلاء؛ وهو مجهول. تحقيق رياض الصالحين للشيخ الألباني رحمه الله (١٦٧٨).

(٢) البقرة: ٢٥٦.

(٣) النساء: ٦٠.

(٤) النساء: ٥٠.

(٥) تفسير ابن كثير (٢ /٣٣٤).

خلاق - عبّاد أوثان حتى عند اليهود لا يساوون شيئاً لأنهم يعبدون الأوثان؛ ومع ذلك شهدوا لهم بالباطل مع علمهم أنّ النّبي صلى الله عليه وسلّم على حق كما تقدّم في بيان قوله تعالى ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾[1] ففضّلوا كفرة قريش من عبّاد الاصنام على المؤمنين مع علم اليهود كذبهم في هذه الشهادة ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾[2].

(١) البقرة: ١٤٦.

(٢) النساء: ٥٠.

المسألة الثانية عشرة بعد المئة: تفضيل دين المشركين على دين المسلمين.

....

كما في المسألة المتقدّمة فضّل اليهود دين هؤلاء الوثنيين على دين الحق، وتكلم عنها وعن الآية ما المراد بها، اليوم يفضّل هؤلاء المخذولون من أنصار الفكر الغربي منهج هؤلاء الكفرة أو منهج كفرة الشرقيين من الشّيوعيين ونحوهم على دين الله الذي أكمله العزيز العليم، حثّهم عليه أولئك الذين لا يعرفون ربّهم ولا يعرفون لأيّ شيء خلقوا ولا إلى أيّ شيء يكونون بعد أن يموتوا، حسّنوا ما عليه هؤلاء وبثّوا لهم دعايةً خبيثةً في الأُمة وخدموا تلك المبادئ الكفريّة وقالوا: إنها هي المتناسبة مع القرون المتأخرة مع القرن العشرين والقرن الحادي والعشرين وزعموا أن الإسلام غير مناسب لهذه الأعصار، ولهذا خدموا الفكر الاشتراكي وطبّلوا له فترةً إلى أن سقط وصار في المزابل واليوم يُطبِّل للديمقراطيّة - على ما فيها من الشّر والسُّم الزعاف - الذي لا يدريه كثيرٌ ممن يحسنونها، وكما تمدح الدّيمقراطية اليوم فقد مُدِحَت - بالضبط - الاشتراكية قبل ذلك، وكما كان لها أنصار فلها اليوم أنصار، وهي في غاية الخطورة على الأُمة وهناك كلمة سبق أن ألقيناها متعلقة بحكم الإسلام (الدّيمقراطية في ميزان الإسلام) كُتبت وأيضاً محاضرةً أُخرى لا يشك أنّ الدّيمقراطية لا يمكن أن تنشأ إلا مع العلمانية ولهذا من عجيب الأمر - كما نبّهنا - أنّ هناك من يمدحون الدّيمقراطية ويعنون العلمانيّة ولا يدرون أنّ الدّيمقراطية عند أهلها لا يمكن أن تنشأ إلا في جوّ علماني ولهذا يقولون لا بدّ من علمنة العقول والمؤسّسات حتّى ينشأ الوضع الديمقراطي ولهم كتابات في هذا كثيرة جداً نقلنا بعضاً منها، فالفكر الديمقراطي الآن الذي يروّج له ويفضّل على دين الله الذي تطبّق به الحدود ويقام به الشّرع ولا يساوى فيه بين المسلم والكافر لا يستوون لا في الدّنيا ولا في الآخرة، في الدّيمقراطية وهذه الأوضاع الجميع مستو، في الدّيمقراطية المعوّل والعبرة على ما يقوله الشّعب والاكثرية ولهذا قالوا هذه الكلمة الخبيثة والخطرة للغاية: (الأمة مصدر السلطة) والسلطات ثلاث - كما قلنا - السلطة التشّريعية والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية، إذا قيل: إن الأمة هي مصدر السلطات فمعنى ذلك أنّ للأمة أن تشّرع وإذا رأت تشريعاً غير الإسلام فلها ذلك؛ لأنها هي مصدر السلطات وإذا أرادت

الإسلام أيضاً فلها ذلك، لكن إذا قررت يوماً ما أن تقصي الإسلام فهي المصدر - مصدر السلطات - وليس التشريع عند الله وإنما عند الشعب، فكرة عفنة قديمة جداً عند اليونان حاصلها في اللغة اليونانية معناها (حكم الشعب) مكونة من كلمتين (ديموس غراتيك): حكم الشعب، تطبيقها قديم جداً عند اليونان وفشلت فشلاً ذريعاً واستقبحها حتّى اليونان، حُسِّن وجهها اليوم كما حُسِّن وجه الاشتراكية في السّابق وصار ينادى بها ويدعى بها في بلاد المسلمين مع أن أكثر من ثلاثين في المئة في احصائيات مضبوطة - من كُتّاب الغرب - ضد الديمقراطيّة، ليس حبّاً للإسلام لأنهم ليسوا مسلمين لكن لأنّها فشلت في مهدها، ولكنّ فشل المبادئ قد لا يتّبدى ويظهر إلا على مدار سنين فهذه الأفكار التّي تُبَثُّ ويظهر ما يسمّى للأسف بالإسلاميين ويقولون إن الإسلام يتناسب مع الدّيمقراطية يُقال: كنتم من نحو خمسين سنة تقولون: إنّ الاسلام دين الاشتراكية ويتناسب مع الاشتراكية ثم أنتم اليوم تقولون: إن الإسلام دين الدّيمقراطيّة.

الدّيمقراطية فكرة عفنة عند اليونان حاول أن يُحَسِّنَها أولياؤها في الغرب وهي قائمة على أساس خطر للغاية أن الأمر عند الشّعب، فالتّحليل والتّحريم عنده، التّقبيح والتّحسين عنده، فإن حلّل أمراً محرماً فذلك للشّعب، وإن حرّم أمراً مباحاً فذلك للشّعب، التّشريع بيد الشّعب.

الأمر الآخر ما ذكرناه أنّه لا يمكن أن تنشأ الدّيمقراطية في وضع مثالي عندهم إلّا إذا كان الجوّ علمانياً فهي الواجهة أصلاً للعلمانية ، هذا التّفضيل لهذه المبادئ الخبيثة داخل في فعل أهل الجاهلية، تفضيل دين المشركين على دين الله عزَّ وجلَّ فسواء كان تفضيلهم لعباد الأوثان - كما قال اليهود - أو للأفكار الإلحادية التّي وفدت من الاشتراكيين أو للأفكار الإلحادية التّي وفدت من الغرب، لكن لاحظ أمراً خطيراً جداً في هذه المبادئ أنّها لا تُجَلَّى على حقيقتها، فالنسخة الموجودة عندك التّي يُرَوّج لها ويُرَوّجُ للديمقراطيّة من خلالها مثل النسخة التي كانت قديماً في البلاد الإسلامية الاشتراكية لا تُوضح على حقيقتها، الاشتراكية قائمة على مبدأ - والعياذ بالله - أنّه لا إله أصلاً ، والشيوعية أنه لا إله والحياة مادة، هذا لا يقال في بلاد المسلمين أبداً، وإنما يشرع حقوق العمال والطبقات المسحوقة والحقوق المسلوبة هذا الذي كانوا يروجونه،

الآن يروجون للدّيمقراطية أيضاً بمثل هذا، وإلّا الجو العلماني الذي لا بدّ منه حتّى تنشأ الديمقراطيّة هذا ما يتحدثون عنه في بلاد المسلمين لهذا إذا رجعت إلى مراجعهم وكتبهم هم وجدتهم يتكلمون براحة، فهؤلاء المُترجمون لا يُترجمون الأمور على حقيقتها وإنما يعطونك نسخة تتناسب مع وضع المسلمين حتّى يدسوا السمّ في العسل، كلّ هذا من تفضيل دين أهل الكفر على دين الله عزَّ وجلَّ سواء كان في شكل ما عليه أهل الأوثان أو تفضيل دين اليهود على دين المسلمين أو النّصارى على دين المسلمين أو الأفكار الفاسدة الوافدة من الغرب أو من الشرق كل هذا من تفضيلها على دين الله عزَّ وجلَّ ولكن لا يجهرون بها على حقيقتها وخذ قاعدة فيهم إذا رأيت الكتّاب المنسوبين إلى البلاد الإسلامية يمدحون فلاناً من كتبة الغرب أو الشرق ويعظّمون منه ويقولون: إنه أنموذج؛ فارجع إلى كتبه هو لأنه في تلك البلاد يتكلم براحته فتجد أنه يعظّم رجلاً من أهل الإلحاد ويبثون فكره ويخففون من النبرة الموجودة عنده فإذا رجعت الى كتبه نفسها فإذا بها إلحاد صريح وهذا من خيانتهم طبعاً ومن تدليسهم وتزويرهم لأنهم لو جَلّو للمسلمين أن هذا هو المبدأ لأجْمَلَ المسلمون على ردّ مثل هذه المبادئ لكن يأخذون منها جوانب ويدلسون ويلّبسون على المسلمين فلهذا راجت مثل هذه الأفكار لا الاشتراكية ولا جميع ما أنتجته الليبراليّة الخبيثة وهي التّي الآن يُروّج لها فمعناها الحرّية المفتوحة بلا قيد وبلا حد، يقول لك: نحن عندنا ليبرالية إسلامية؛ فيها شيء من الضبط الإسلامي! هذا مثل الذّي يجمع الشرق والغرب في مكان واحد لا يمكن أن تجتمع الليبرالية عند أهلها لأن الليبرالية مأخوذة من الانفتاح المطلق التّام لا يوجد شيء اسمه أخلاق يمكن أن يقال: إنك تعديت وتجاوزت الآداب الاسلامية، لو أن رجلاً من أهل الإسلام قررّ أن يضع صنماً ويرتدّ عن الإسلام ففي الفكر الليبرالي له ذلك، لو قررّ أن يعبد الشّيطان فله ذلك، لو قررّ أن يرتدّ من الإسلام إلى النصرانية فله ذلك، لو قررّ أن يلحد فله ذلك، هذه الليبرالية؛ ثم يقول الليبرالية الإسلامية! كيف تجمع المشرق والمغرب في موضع واحد وتقول هنا المشرق والمغرب؟ فكلّ هذا من التدليس ومن تفضيل دين المشركين على دين المسلمين.

المسألة الثالثة عشرة بعد المئة: لبس الحق بالباطل.

....

لبس الحق بالباطل معناه خلط الحق بالباطل وهذا الذي يفعله هؤلاء كما قلنا فيما سبق ويفعله كثير من المبتدعة، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١).

يقول ابن عباس في بيان معنى قوله تعالى ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ خلط الحق بالباطل، لا تخلطوا الحق بالباطل والصدق بالكذب.

ذكر شيخ الإسلام موضعاً نفيساً جداً قال فيه ما حاصله أنّ كلّ بدعة يكون عليها طائفةٌ كثيرة من الناس لابدّ أن يكون فيها شيءٌ من الحق الذّي جاء به الرّسول صلّى الله عليه وسلّم فتُقْبَلُ تلك البدعة لأجل ما فيها من ذلك الحق، ثم قال رحمه الله: أما الباطل المحض فلا يقبل أحد، الباطل المتمحّض لا يقبله أحد لكنهم يأخذون شيئاً من الحق ويخلطون به باطلهم، خذ على سبيل المثال: الرّافضة حين أبرزوا محبة آل بيت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أبرزوها لأنهم يعلمون أن كل مسلم فهو يحبّ رسول الله صلى الله عله وسلّم ويحب آل بيته ويصلّي على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعلى آل بيته، اللّهم صلّ على محمّد وعلى آل محمّد كما صلّيت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمّد وعلى آل محمّد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، كلّ المسلمين يقولون هذا في صلاتهم، ويأتون من هذا الباب فلا يذكرون شيئاً غير آل البيت وفضائل آل البيت ومحبة آل بيت النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ثم يدرجون الناس بالتّدريج إلى أن يقولوا إن أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيهم كذا وكذا ويدرجونهم إلى أن يشتموا أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ويكفرونهم، لو أنّهم أبدوا هذا من البداية لردّهم كلّ أحد من المسلمين، لكنّهم يأتون من خلال هذا الموضوع ويلبّسونه على الناس، خذ مثالاً آخر من الرّافضة حين يقولون إن هذه الأُمة متمزّقة وإن الواجب على أهل الإسلام أن يحرصوا على الوحدة الإسلاميّة وأن يكون هناك بين أهل الإسلام تقريب، هذا من حيث الظاهر طيّب، الشّخص الذي سيجمع النّاس ويجمع هذا

---

(١) البقرة:٤٢.

الشّتات، لكن على ايّ أساس يجمعون النّاس، تحايل ثمّ اذا استمكنوا كما حصل - حتّى الأعمى رأى - إذا استمكنوا كانوا أشدّ النّاس تدميراً للوحدة الإسلاميّة لأنهم لا يُقِرُّون بشيء اسمه الوحدة الإسلاميّة، عندهم أمر يُصرّحون به في كتبهم كالشّمس في وضح النّهار (من لم يؤمن بالولاية على طريقة الشّيعة؛ فإنه يكون كافراً) هذا صريح جداً في كتبهم، ثم يتحدّثون عن المسلمين وعن الوحدة وأنه يجمعنا شهادة أن لا إله الا الله وأنّ محمداً رسول الله وأنّ قبلتنا واحدة وأننا جميعاً نصلّي ونصوم شهراً واحداً...الخ، فإذا استمكنوا كما وقع منهم وكما هو الآن حاصل في بلاد الله عزّ وجل الطّويلة في سورية وفي العراق وفي بلدان كثيرة وفي إيران في ثورتهم لمّا ثاروا في مواضع كثيرة جداً أشد من يدمّر وحدة المسلمين هم، لماذا أبرزوا موضوع وحدة المسلمين؟ ليلبسوا الحقّ بالباطل، خذ مثالاً ثالثاً: دعاة ما يُسمّى بحقوق المرأة يذكرون أنّ بعض الرّجال يتسلّط على النّساء يستضعف هذه المسكينة فتسمعوا بين فينة وأُخرى من ضُربت ضرباً مبّرحاً، من قطع عنها النّفقة، من علّقها، لا هو بالذي طلّقها ولا هو بالذي استرجعها، ويذكرون مثل هذه المظالم ويتباكون عليها ويقولون: لا بدّ أن يرفع حق هذه المسكينة وأن لا تترك، وهذا هو المبدأ والمنطلق، ولكن ماذا يريدون؟ يريدون أن يخلطوها بالرّجال حتّى تكون كما يسمّون نصف المجتمع المعطّل، ماذا تريدون من النّصف هذا المعطّل؟ هم يريدون أن يتحرر، فكيف يتحرر؟ لا يوجد عندهم شيء اسمه أنّ المرأة لها عمل في البيت لا يعتقدون أنها تعمل لا بدّ أن تخرج وأن يضيع الصّبيان هؤلاء ولا يربّون، وتنافس الرّجال في أماكنهم وفي وظائفهم حتّى إن الوظائف تشّح بسبب أنهم يقحمونها إقحاماً في بعض الميادين، ينبغي أن تكون للرجال، بعد ذلك هؤلاء المتباكون على حقوق المرأة يوصلونها الى ماذا؟ يوصلونها إلى وضع أسوء بكثير من الوضع الذي ظلمت فيه في بيتها، ولأنها صارت سلعة يتلاعبون بها تلاعباً وصارت سلعة للترويج كما أنّ الشّركات تروّج لبضائع معيّنة ولغيرها صارت تُروّج في فنادقها وفي غيرها وفي مؤسساتها بإبداء هؤلاء النّساء الحسناوات ثمّ بعد مدّة إذا ذهب شبابها وزهوتها استبدلوها بغيرها بشابّة جديدة، هذه حقوق المرأة التي تزعمون؟ هذا الظّلم الحقيقي بأن تعبثوا بعرضها الذي هو ضرورة من الضّرورات التي وقاها وحماها الشّرع، ثم المظلمة التي وقعت على أيديكم منها حين عبثتم بعرضها

وجعلتموها بالمقام الذي كأنها فيه موضع البيع والشّراء أشد بكثير من المضار التي تأتيها في بيتها، لا أنتم آتيتموها حقوقها ولا أولئك الظّلمة من الأزواج الذين خالفوا شرع الله تعالى بسوء التّعامل معهنّ أوفهنّ الحقوق فلا أنتم ولا هم، بل أنتم ظالمون وهم ظالمون، فالحاصل أنّ لبس الحق بالباطل له صور كثيرة ويمكن ايضاً أن يتصدّر بعض طلبة العلم لجانب جمع صور لبس الحق بالباطل، هذا سيكون فيه فائدة كبيرة، لبس الحق بالباطل عند المبتدعة والرّافضة والمعتزلة وغيرهم سيجد نماذج لبس الحق بالباطل حتّى عند اليهود، لبس الحق بالباطل عند الملاحدة، لبس الحق بالباطل حتّى عند هؤلاء الدّعاة لما يسمّى بتحرير المرأة وغيره يلبسون الحقّ بالباطل فيبدون كلاماً، كما قال شيخ الإسلام فيقول: كل بدعة عليها طائفة كثيرة من النّاس لا بدّ أن يكون فيها حق هذا الحق يبرزونه حتّى يلبّسوا من خلاله ويدعوا الى باطلهم، فهذا باب لا أعلم أنّه صنّف به تصنيفاً قويّاً، تُجمع أمثلته وسيكون في جمعها فائدة كبيرة للأُمّة - وإن كان في بعض طلبة الدراسات العليا أو غيرهم - موجود الآن معنا؛ فيمكن أن يكون هذا من ضمن الموضوعات الجّيدة والمناسبة لو تقدّم به سيجد مادّةً كبيرة، بل لا أظنّه يستطيع أن يقوم به شخص واحد، الغالب أنه سيكون له صور كبيرة ولا سيما إذا استجلاه، يعني ذكر الله تعالى لبسهم الحق بالباطل في بعض النّماذج والمواضع، ذكرها الله تعالى عنهم في القرآن، ذكر لبس الحق بالباطل في السُّنَّة ،في التّاريخ مليء لبسهم الحق بالباطل ،والواقع الموجود الآن من دعاة الفساد والليبرالية وبما يسمّى بدعاة تحرير المرأة كلّه لبس للحق بالباطل فهو باب كبير جداً يمكن أن يكتب فيه أكثر من شخص.

المسألة الرابعة عشرة بعد المئة: كتمان الحق مع العلم به.

....

تقدّم أنّ النبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام قد بُيِّن ووُضِّح في كتب أهل الكتاب وجُلِّي حتّى قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾(١) ما يخفى عليهم أبداً كما نقلنا عن كعب الأحبار رحمه الله هذا من أحبار اليهود الذّين أسلموا وهو من علماء اليهود الكبار الذين هداهم الله تعالى للإسلام يقول: إن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم مذكور في التوراة باسمه محمد ومهاجره المدينة، تكلمنا عن هذا، فكتم اليهود هذا الحق وأخفوا أنه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى أنه قال صلّى الله عليه وسلّم: «لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود»(٢) وهم زعمائهم الكبار لكنهم كتموا الحق عن عوامهم ولم يسلم منهم إلا عدد؛ من أعلمهم وأعظمهم موقعاً عبد الله بن سلام رضي الله عنه كما قدمنا.

كَتْمُ الحق أيضاً يكون من علماء السوء الذين يخفون الحق المبيَّن في النصوص فيضل الناس بسبب هذا الكتمان توّعد الله تعالى من فعل هذا بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(٣) قال ابن كثير رحمه الله: (هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل صلّى الله عليهم وسلّم من الدلالات والبينات على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب من بعد ما بيّنه الله لعباده في كتبه الّتي أنزلها ثم أخبر أنه يلعنهم كلّ شيء - والعياذ بالله - على صنيعهم ذلك، وكما أنّ العَالِم يستغفر له كلّ شيء حتّى الحوت في الماء؛ هؤلاء بخلافهم يلعنهم الله تعالى ويلعنهم اللاعنون) ثمّ ذكر رحمه الله تعالى حديث «من سُئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة فيه بلجام من نار»(٤) وذكر أنّ لهذا الحديث طرقاً يشدّ بعضه بعضا.

---

(١) البقرة: ١٤٦.

(٢) صحيح البخاري (٣٩٤١).

(٣) البقرة:١٥٩، ١٦٠.

(٤) صحيح. الترمذي (٢٦٤٩). صحيح الترمذي (٢٦٤٩).

الحاصل أنّ كتمان العلم خطير جداً ونبهنا إلى أنّ بعض طلبة العلم قد يقع بالكتمان وهو لا يشعر فيكون في بلد الشّركيات فيه ظاهرة وحاجة الناس إليه كبيرة جداً وقد تَعَلَّم وعرف الحق وعرف السُّنَّة ولكن ليس عنده همّة ويرى الناس يشركون، ويرى الناس يضلون وهو لا يبثّ ما عنده من علم، لا شكّ أن هذا قد أثم وقد وقع في الكتمان لأنّ الواجب عليه أن يذكر العلم المبين الذي آتاه الله تعالى ما يصلح الله تعالى به هذه من الأحوال، والأمر كما قال تعالى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾(١) وليس مسؤولا عن أن يهديهم ولكن لا بدّ أن يبثّ العلم.

ذكر الشّيخ صالح حفظه الله تعالى في شرحه للمسائل ما موجزه أنه لا يجوز كتمان الحق لمن قدر على بيانه وإظهاره، أما من لم يقدر أو خاف في بيانه الفتنةَ أو أن تكون أكبر من أمر البيان فهو معذور، ثمّ قال: فلا يسوغ للعلماء أن يسكتوا وهم يقدرون على البيان فإن سكتوا فهذا من كتمان العلم، فكيف إذا قال بخلاف الحق؟ وأفتى بخلافه من أجل إرضاء الناس ومن أجل تمشية الأمور أو من أجل أن يساير الناس على ما هم عليه! انتهى موجز كلامه وفقه الله، فأمر الكتمان خطير جداً، لأن الكتمان يترتب عليه فشوّ الباطل وانحسار الحق فقد آتاك الله تعالى العلم فيتّوجب العلم في بعض الأحيان، إذا وجد من يدعو الى الله سواك وقد قام بالمهمة صار بَثُّك للعلم فرض كفاية في هذه الحالة، لكن لا يرتاب أن حاجة الأمة اليوم حاجة هائلة وكبيرة جداً والميادين التّي تحتاج فيها الأمة إلى التّوجيه والكتابة والتّنبيه بدروس أو بكلمات ميادين كثيرة للغاية ولا يمكن أن يسدّها الموجودون الآن أبداً لأن أعداد الأمة كما ترى بالملايين والأمة أيضاً مفرقة وصار كما قلنا قبل قليل صار الوصول إليهم بحمد الله سهلاً فهذا الذي يكتم ما عنده من علم والله عزو جل قد آتاه العلم لا شكّ أنه يأثم وأنّ عليه أن تنبعث عنده الهمة وأن يكون دينه أولى من دنياه، بعض الناس إذا سألته قال: مشغول، مشغول بماذا؟ أتجد تجارة أعظم من التجارة مع الله عزَّ وجلَّ في مثل هذا الميدان؟ ثمّ تستطيع أن تجعل لشغلك وقتاً وللدعوة إلى الله تعالى وقتاً، والحاصل أن كتمان العلم خطر للغاية؛ ولا سيما عند شدّة الحاجة إليه، أو عند السؤال؛ إذا سُئل وكتم فكما الحديث «أُلجم بلجام من نار»

---

(١) الغاشية:٢٢.

فينبغي أن تنبعث الهمم لنشر الحق ونشر السُّنَّة ولا نكون يا إخوة لا نكون أقل في هممنا من أعداء الله وأهل الفساد، انظر إلى بعض المفسدين كيف يواصلون الليل بالنهار لبثّ الفساد والشر بعضهم منذ شبابهم وإلى أن بلغوا التّسعين والثمانين وهم في دأب حتّى ماتوا في نشر الباطل كلّ هذا الدأب في نشر الباطل، ألا تنبعث عندك الهمة أن تنشر الحق؟ ينبغي أن تنبعث الهمم لبث الحق، فالإنسان لديه ولله الحمد من الوسائل لكن عليه ألا يتكلم إلا فيما يعلم، هذا أمر مهم كما سيأتينا في القاعدة التي بعدها وتستطيع أن تعلم أشياء كثيرة بحمد الله وأن تتكلم وأنت متأكد منها كبث التوحيد ومعناه وجملة من الأحكام التي أنت منها متأكد ومتوثق فتستطيع أن تبثها ولا تترك الأمة بهذا الوضع التي هي عليه.

المسألة الخامسة عشرة بعد المئة: قاعدة الضلال وهي القول على الله بلا علم.

....

هذا رحمه الله من حسن ترتيبه ،الكتاب مرتب ترتيبا جيدا جدا والمسائل هذه يرتب بعضها على بعض، لما تكلم في السابق على كتمان الحق مع العلم به؛ تكلم عن ضد ذلك وأن بعض الناس قد تنبعث عنده الهمة لبيث العلم فيتكلم بغير علم، ذكر أن هذه هي قاعدة الضلال، تكلمنا عن الدعاة الجهال الذين يدعون الى الله تعالى على غير علم ويقع اليوم الكثير من المجتهدين بالإعلام القولُ على الله تعالى بلا علم وهو كثير، يذكرون مسائل شرعيّة في كتاباتهم أو في برامجهم أو ينزلون نصوصاً من الكتاب والسُّنَّة على وقائع موجودةٌ الآن وهم لا يعلمون، ينتشر هذا جداً بسبب أنّ الإعلام لـه رُوّاد كثير - سواء كان هؤلاء الإعلاميون فاسدي القصد كالكتبة من الليبراليين وأمثالهم أو كانوا من الجهلة ومن العوام - فهم داخلون جميعاً في القول على الله تعالى بلا علم، القول على الله تعالى بلا علم خطير لأنك قد تحرّم الحلال وقد تجعل السُّنَّة بدعة والبدعة سُنَّة، وقد تجعل الواجب غير واجب وتجعل المحرّم غير محرّم ولا شكّ في خطورة القول على الله تعالى بغير علم وطالب العلم يجعل الورع قريباً منه وإذا لم تتضح له المسألة ليقل: لا أدري، لست مكلّفاً أن تُفتي وأن تجيب على كلّ شيء، ولك ايضاً أن تسأل غيرك أن توجهه الى من ما هو أعلم منك لكن لا تسارع إلى ما لا تعلم، قف كما قيل: (ومن كان يهوى أن يُرى متصدّراً ويكره لا أدري أصيبت مقاتله) هنا فكرة أن يقول: لا ادري والله اعلم، قل: اسأل عن هذا غيري أو قل: أنا اسأل لك أو أبحث لك، لا تستعجل في الإجابة واحرص على هذا، والله المستعان قد يزل الإنسان لا يتصور المسألة أو نحو ذلك لكن أن لا يجيب الإنسان أفضل من أن يجيب وهو غير متوثق، بل هذا هو الواجب إذا لم تكن متوثقاً فلا تجب، نقول: إن هذا القول على الله كثير حقيقة والمتكلمون فيه كثير والواجب في الواقع أن يُمنع من ليس من أهل العلم أن يتكلم في مسائل العلم، كما أنه لا يحق لأحد أن يفتح عيادة طبيّة ويعالج الناس وهو ليس بطبيب ويُحاسب على هذا ويُعاقب ويستحق، لأنه يهلك أبدان الناس فهذا الذي يتكلم بمسائل العلم وهو ليس من أهله يُهلك دين الناس وهو أعظم وأعز فالواجب أن يُمنعوا ويُحظر على من ليس من أهل العلم

أن يتكلم في مسائل العلم، يا من ليس لك في هذا التخصص مجال ولم تتعلم العلم الشرعي لا تتكلم وليس لك ذلك وينبغي أن يعاقب هؤلاء وأن يكون هناك زواجر تردعهم عن أن يتكلم، تكلم فيما تعلم، عندك تخصص، عندك مجال، عندك كثير من مسائل الحياة تتكلم فيها بما لا يخالف الشرع، لك ذلك لكن تدخل وتقحم نفسك في مسألة من مسائل العلم حتّى رأينا العجائب في هذه الكتابات وتعود الصحف بعض الآحيان وتعتذر حتّى كان بعض المهووسين كتب كتابة عن التكفير بغير حق وقال هؤلاء الذين يكفرون ويكفرون وأول من بدأ التكفير هو أبو بكر - قبحك الله - هذه أكبر دعاية للخوارج، أحسن من يدعو للخوارج أن يقول: إن تكفير المسلمين بغير حق على يد أبي بكر، لأنهم إن كانوا على طريقة أبي بكر فوالله إنا معكم، أبو بكر رضي الله عنه على السُّنَّة وعلى الحق فاعتذرت الصحيفة وقالت: إنّ هذه غلطة، فلماذا يكتب هذا الجاهل وأمثاله؟ لماذا يتحدث عن مسألة من مسائل عظيمة جداً في التكفير وفي التفسيق وأمثاله رجل من أمثال هؤلاء السفلة ونحن نعلم طريقتهم، هؤلاء الكُتّاب ماذا يفعلون؟ يدخلون إلى مواقع الانترنت كثير منهم وبعضهم نعلمهم علماً تاماً وعلى دراية بهم وأنهم من الجهلة وبعضهم يأخذ كتباً ويلّخص ما فيها ولأنه جاهل لا يدري بخطورة الكلمة التي يحمل فيأتي بباقعة كبيرة جداً فتضج البلد بأسرها وهو غير متصّور ما الذي فعل، من الذي قال: إنّ هذا يستحق أن يكتب؟ هذا هو وجه الإشكال الآن، أن هؤلاء الذين يكتبون في بعض الأحيان لا يتصورون المسائل التي يتكلمون فيها، ولهذا لما اطلعت على الكلمة هذه من نحو سبع سنوات أو نحو تعجبت قلت: هذا الكاتب الآن هو أفضل من يُرَوِّج للخوارج وكان يريد أن يرد على الخوارج لأنه نسبهم إلى أبي بكر وأبو بكر رضي الله عنه وأرضاه من الخلفاء الرّاشدين «عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الرّاشدين من بعدي» فروّج لمنهج الخوارج بنسبته إلى أبي بكر رضي الله عنه ولم يفقه أمراً وهو ان أبا بكر رضي الله عنه كفّر من يستحق التّكفير، التّكفير كما قلنا من حيث هو ليس مشكلة بل لا بدّ من التّكفير هو حكم من أحكام الله، كما تقول: يجوز ويحرم ويباح فتقول: يكفر من فعل كذا، من يقول: إن التّكفير غلط في ذاته إلّا الجاهل التّكفير، إذا وقع في موقعه فهو من دين الله عزّ وجل فنقول: اليهود كفّار النّصارى كفّار، من ذبح لغير الله تعالى كفر، من دعا القبور وصرف

العبادة لغير اهلها، كفر هذا هو التّكفير لكن وقع في موقعه، ما في إشكال، فصاروا يتصوّرون أن كلمة التّكفير في ذاتها خاطئة ويرجعون إلى كتب بعض الليبراليين وأمثالهم فوجد أنّ أول بذرة للتّكفير نشأت في حروب الرّدة وأنّ أبا بكر كفّر خصومه، فالذي يقول هذا ليبرالي أو غيره، جاء هذا الكاتب الجهول وكتب تقريراً وقال: إن ابا بكر هو أوّل من كفّر، يعني يأخذون من هذه الكتب وهو غير متصوّر، جاءت الصّحيفة تعتذر، من يُمَكِّن هذا من كتابة مثل هذه المسائل العظام يترتب عليها إخراج من الملّة يتكلّم بها جاهل، فالحاصل أنّ هؤلاء يتكلّمون بغير علم في أحيان كثيرة وترتجُّ البلاد الإسلاميّة كلّها لبعض الكتابات لأن هؤلاء يكتبون فيما لا يعلمون، الواجب أن يحال بينهم وبين هذه الكتابات الدّالة على ما عندهم من الجّهل العظيم، قد قلنا: إنّ بعضهم لو أُوْقِفَ وقيل لهم: اقرأ القرآن وافتح على بعض السور لا نريدك أن تحفظ ختمة اقرأ القراءة الصّحيحة فقط ولا نريدك أن تعطينا الدليل ولا التّفسير للآية، اقرأ القراءة الصّحيحة، ما يستطيع أن يقرأ؛ فضلاً عن أن يحفظ - فهم ليسوا من ذوي العلم - ومع ذلك يتكلمون في مسائل العلم ويتشدّقون ويتحدّثون عن أنواع أهل العلم وأن هذا منزعه كذا وهذا منزعه كذا والصّواب في مقولة الشّافعية أو الحنابلة من أنت حتّى تحدّث؟ اذا قيل: هذا عندنا غير جائز؛ فمن أنتم حتّى يقال: لكم عند؟ من أنت حتى تقول عندي؟ جهّال، فالحاصل أنّ القول على الله بغير علم خطير للغاية والواقعون به كثر، بعضهم ذوو نية صالحة من هؤلاء الدّعاة الذين يقولون إنهم انخرطوا في ميدان الدّعوة قبل التعلّم وبعضهم من هؤلاء الكتّاب الذين إن أُحسن فيه الظّن فهم من عوام المسلمين الجُّهال وبعضهم من هؤلاء الليبراليين المفسدين الذين يلبسون الحقّ بالباطل فالواجب أن يُصان العلم كما يُصان الطّب، بل العلم أعظم وأجل - العلم الشّرعي - حتى لا يُضلل الناس ويزيغ النّاس بسبب أنّ هذا الذي نشر هذه الكلمة أو هذه الكتابة انتشرت في أوساط الناس، والناس اذا انتشرت فيهم الباطل بالتّدريج هذه الكتابة وهذه الكلمة يتراكم هذا الامر ويكون واقعاً والقول على الله بغير علم قول خطير للغاية وقد ذكره الله تعالى في المحرّمات: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ

تُشْرِكُوا بِاللهِّ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِّ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[1] فذكره بعد أن ذكر الشّرك، فالأمر في غاية الخطورة أن يتحدّث بغير علم سواءٌ من قِبَلِ هؤلاء أو من أولئك - سواء كانت نيّتهم صالحة أو غير صالحة - العلم لا ينبغي أن يكون كَلَأً مباحاً لمثل هؤلاءً.

(١) الأعراف:٣٣.

المسألة السّادسة عشرة بعد المئة: التّناقض الواضح لّما كذّبوا الحقّ كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾(١).

....

تقدّم أن مَنْ ترك الحقّ فابتُلي بضده، من ترك الحقّ وقع في الباطل، من ترك السّنة وقع في البدعة، من ترك الالتزام في الشّرع وقع في الفسق والفجور، هم متناقضون لأن المكذّب بالحق يكون عنده أباطيل والأباطيل من شأنها أنها مضطربة متناقضة قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾(٢) هذه الأباطيل عند غير الله فيكون فيها شيء كثيرٌ من الاضطراب والتّناقض هذا التّناقض ذكره الله تعالى عنهم في قوله ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ تناقض أهل الكفر أيضاً من المجالات التي يمكن أن يُكتب فيها، أهل الكفر، أهل البدع وأهل الضّلال مجال واسع - وان كان قد كتب فيه لكنه أوسع من أن يُحاط به في كتابة - تناقضهم عجيب جداً يقرر في كتاب شيئاً وينقضه في كتاب آخر، قال شيخ الإسلام: ويقرر شيئاً في الكتاب وينقضه لاحقاً على نفسه، فتناقضهم شديد جداً وواسع - سواءٌ كانوا من اليهود أو النّصارى أو من الرّوافض أو من الصّوفية أو من المتكلّمين من المعتزلة والجّهميّة والأشعريّة وأضرابهم - تناقض عجيب جداً، اذا وقفت على كتبهم تعجبت، فهذا الميدان يمكن أيضاً أن يُكتب فيه، هذا التناقض بينهم ناشئٌ عن كونهم يقبلون الباطل كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ ما معنى قوله تعالى ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ يقول ابن كثير رحمه الله: أي هذا حال كلّ من خرج عن الحق مهما قال بعد ذلك فهو باطل، والمريج هو المختلف المضطرب المُلتبس المنكر كقوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾(٣) فهذا حال الخارجين عن السُّنَّة إلى البدعة ومن الحق إلى الباطل ومن الإسلام غلى الكفر يتناقضون دائماً وهذا التناقض يؤدي بهم إلى شيء عظيم من الحيرة وهذا موجود في كتبهم وطبقاتهم، ذكر منه شيخ الإسلام شيئاً كثيراً عن فحول كبار

(١) ق:٥.

(٢) النساء: ٨٢.

(٣) الذاريات: ٨، ٩.

أنهم يتناقضون في آخر أمرهم ويصابون بالحيرة وربما سجلوا هذا في كتاباتهم كما نقلنا من كلام الرازي وأمثاله حين قال في آخر كتاب صنّفه وهو (أنواع اللّذات): لقد تأملت الطرق الكلامية والمذاهب الفلسفية فما وجدتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، سبحان الله العظيم، في آخر كتاب رأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، وهل يمكن أن يكون هناك طريقة أقرب من طريقة القرآن؟ لكنهم هاموا وسبحوا في فلسفة مثل هذه الأمور ثم رجعوا وقالوا: أقرب الطرق طريقة القرآن، ثم قال: اقرأ في الإثبات ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[(١)] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾[(٢)] و أقرأ في النفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[(٣)] يعني يجمع بين النفي والإثبات، قال: ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي، لأنه من فحولُ النظّارٌ الكبار يقول: من يجرّب مثل هذه التجربة التي وقعت فيها يعرف هذه المعرفة التي وصلت إليها ثم قال شعراً طويلاً - قد يطول بنا المقام لو ذكرناه - وهكذا غيره كالجويني وأمثاله حين قال: يا إخواني لا تشتغلوا بالكلام فلو علمت أنه يوصلني إلى ما وصلت إليه ما دخلت فيه وهكذا مجموعة منهم ذكر شيخ الإسلام وشارح الطحاوية شيئاً كثيراً من تناقضاتهم ،يحارون يحتارون بسبب أنهم تكونت عندهم مجموعة من الأباطيل، هذه من أباطيل الفلاسفة، هذه من أباطيل المعتزلة، هذه من أباطيل الجهمية، هذه من أباطيل المرجئة، فتجمعت عندهم هذه الأباطيل فصار عندهم هذا الاضطراب ووصل إلى الحيرة – نعوذ بالله -.

---

(١) طه:٥.

(٢) فاطر: ١٠.

(٣) الشورى: ١١.

المسألة السابعة عشرة بعد المئة: الإيمان ببعض ما أُنزل دون بعض.

....

الناس بالإيمان بما أنزل الله ثلاثة أقسام، القسم الأول: أهل الإيمان الذين آمنوا به كله ولم يفرقوا، القسم الثاني: الكفار الذين كفروا به كله ولم يقبلوه، الصنف الثالث: الجامعون بين الإيمان ببعض والكفر ببعض، قال الله تعالى - وهو الحكيم الخبير قد حكم على هؤلاء بأنهم كفار لأن الذي يكفر ببعض لا ينفعه أن يؤمن ببعض لا بد أن يؤمن به كله - قال الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾[(١)] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾[(٢)] فمن آمن بشيء من الحق لأنه من عند الله ورد بعضه يقال له: ما الفرق بين الذي آمنت به وكفرت به: إن قلت: إني آمنت به لأنه من عند الله فهذا الذي كفرت به هو من عند الله تعالى؟ والله سبحانه وتعالى قد بعث الرسل بالحق المبين، الإيمان ببعض المنزل والكفر ببعض المنزل هذا من صفات أهل الجاهلية يتشهون، يؤمنون بهذا ويردون نظيره يؤمنون بباب من الأبواب ويردون باب آخر مع أن هذا الباب الآخر الذي ردوه دلت عليه النصوص التي دلت على الباب الآخر فهذه من طريقة أهل الجاهلية.

---

(١) البقرة: ٨٥.

(٢) النساء:١٥٠، ١٥١.

المسألة الثامنة عشرة بعد المئة: التفريق بين الرسل.

....

التفريق بين الرسل المقصود به هنا التفريق بينهم من جهة الإيمان ببعضهم والكفر ببعضهم - قريبة من المسألة السابقة – فقلنا: إن اليهود كفروا بعيسى أو بمحمد صلّى الله عليه وسلّم والنصارى كفرت بمحمد صلّى الله عليه وسلّم فمن طريقة أهل الجاهلية أن يفرقوا بين الرسل فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، تقدم الله تعالى ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾(١) نوح عليه الصَّلاة والسَّلام بعث لقومه وحده ومكث فيهم ألف سنة إلَّا خمسين عاما ثم أهلكهم الله ،قول الله تعالى ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني حتى من الرسل الذين أتوا بعدهم، كيف كذبوهم وهم لم يدركوهم؟ لأن الحق الذي جحدوه وكفروا به مع نوح هو الذي مع هود وصالح وشعيب وإبراهيم ومحمد وعيسى عليهم الصلاة والسلام جميعا.

فالذي كذب بهذا التوحيد الذي جاء به نوح وقلنا: إن جميع الرسل متفقون على التوحيد، فالذي كذب الذي مع نوح لو أنه أدرك محمداً صلّى الله عليه وسلّم لكذب به، فالتفريق بين الرسل بالإيمان ببعض والكفر ببعض يجعل من جحد واحداً من الرسل عليهم الصلاة والسلام كافراً بالجميع لهذا قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً﴾.

---

(١) الشعراء:١٠٥.

المسألة التاسعة عشرة بعد المئة: مخاصمتهم فيما ليس لهم به علم.

....

هذه المسألة نشأت من آثار القول على الله بلا علم، الذي يتكلم بلا علم يخاصم أيضاً فيما لا علم فيجمع الشّرين، يُنشأ قولاً بلا علم ثم إذا نوقش به خاصم بلا علم قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[1] وهذا لا يسلم منه أي مُبطل، أصحاب الباطل سواء كانوا من المنتمين للإسلام أو غيرهم لَّما كانوا أهل باطل في اعتقادهم خاصموا فيه وجادلوا بهذا الباطل ليدحضوا به الحق، فهذا أمر مشترك بين كل المبطلين - سواء كانوا من أهل البدع من المسلمين أو كانوا من أهل الكفر - لَّما كان عنده باطل جادل وخاصم عنه، خصمته هذه بالباطل ناشئة عن قوله أيضا بلا علم فهو يقول بلا علم ويخاصم بلا علم.

(١) الحج:٨.

المسألة العشرين بعد المئة: دعواهم اتباع السلف مع التصريح بمخالفتهم.

....

هذا أيضاً باب واسع جداً، كثير من المدلسين من ذوي الاعتقاد الفاسد ينتسبون إلى صلحاء، وهذا نقول مرة أخرى أيضاً نقول يمكن أن يكتب فيه كتابة واسعة جداً وأن يكون محلاً من محلات البحوث، وأن يضع مقارنة بين أهل الباطل وبين الذين ينتسبون إليه، ذكر شيخ الإسلام في كتابه الاستقامة - المجلد الأول في الصفحة الثالثة عشرة إلى السادسة عشرة - كلاماً مهماً جداً في المنتسبين للأئمة رحمهم الله الذين قلبوا كلامهم من المتأخرين فجعلوا كلام الشافعي والمالكي وأحمد رحمهم الله في الحثّ على السُّنَّة جعلوه يراد بهم عقيدة هؤلاء المتأخرين، وجعلوا كلام هؤلاء الأئمة في ذمّ البدعة جعلوها مراداً بها اعتقاد السلف، فعكسوا وصاروا يستدلون على باطلهم؛ يقولون: إنّ الباطل الذي هم عليه يقولوا: هذا هو السنّة وقد قال الأئمة كذا في نصرة السنّة ومدح السُّنَّة، مع أنّ الذي هم عليه هو الباطل وضرب أمثلةً لهذا في المتأخرين من الحنابلة والمالكية والشافعية وقال: انظر كيف الإمام أحمد وكيف الإمام مالك وكيف الإمام الشافعي في هذه المسائل وانظر إلى هؤلاء المتأخرين ممن انتسبوا لهم وصاروا على خلاف ما عليه هؤلاء الأئمة في كلام نافع وماتع جدا.

وهذه المسألة كما قلنا طويلة جداً ويمكن أن يصنف فيها ومن ذلك على سبيل المثال الخوارج وخذ نموذج منهم الإباضية يدّعون أنّهم ينتسبون إلى أبي الشّعثاء رحمه الله - جابر بن زيد - وهو من خيار التّابعين رحمه الله مع أنهم يُسَمّون بالإباضية، لماذا لا تكونوا صريحين؟ أنتم أتباع عبدالله بن إباض، وعبدالله بن إباض زميل نافع بن الأزرق الخارجي - وإن اختصم معه - ولكنهم جميعاً خوارج لماذا لم تُسَمَّوا بالجابرية نسبةً لجابر، قد تبرأ منهم جابر رحمه الله تعالى كما تجد في ترجمته، قيل له: إنّ هؤلاء الإباضيّة ينتسبون إليك، قال: أبرأ إلى الله عزَّ وجلَّ منهم وقال هذا للحسن رحمه الله، لأنه لّما مرض تمنّى أن يرى الحسن قبل وفاته فجاءه الحسن وقال: إنّ هؤلاء الإباضية ينتمون إليك، قال: أبرأ إلى الله منهم، قال: ما تقول في أهل النهر - يعني الخوارج الأوائل – قال: أبرأ إلى الله منهم، ينسبون هذه الاعتقادات الباطلة

لأُناس أخيار من الصلحاء، ومن ذلك الرافضة، الرافضة يسمّون مذهبهم الباطل هذا مـذهب آل البيـت، مع أنّ آل البيت المضبوط المحرر المحقق عنهم بالأسانيد الثابتة اعتقاد أهل السنّة قطعاً لكـنهم ينـسبون مـا هم فيه من باطل لآل البيت والعجيب أنّ عند أهل السنّة وعند الرافضة معاً روايات في تبرُأ آل البيـت مـن الشيعة حتّى في كتب الشيعة يتبرؤون من الشيعة ثم يقولون: مذهبنا مذهب آل البيـت، أيُّ انـتماء هـذا لآل البيت؟ مع أنّ آل البيت يتبرؤون إلى الله منكم، وقس على هذا شيء كثير جداً ،انتماء النّصارى للمسيح عليه السلام وتسميتهم أنفسهم بالمسيحين وهي تسمية خاطئة لا يُقَرُّون على مثل هذه التسمية، ليسوا من أتبـاع المسيح بل هم خرجوا على ما جاء به المسيح يـسمّون بالاسـم الـشرعي في القـرآن النـصارى، والنـصارى معلوم أنهم قسمان: قسم لزم ما عليه عيسى ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِّ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْـصَارُ اللهِّ﴾(١) وقسم خالفوا وخرجوا عما عليه عيسى، فتضبط الأسماء الشرعية، أما إذا قيل: إنهم هم المسيحيون فكأنـك تقرر أنهم على دين المسيح حقّاً وهو منهم براء عليه الصّلاة والسّلام.

(١) آل عمران: ٥٢.

المسألة: الحاديةُ والعشرون بعد المئة: صدّهم عن سبيل الله ومن آمن به.

....

الصّدُّ عن سبيل الله واضح وتقدّمت نماذج مثل التّنفير من الحقّ وأهله، والصّد عن سبيل الله عزّ وجل في هذا الزّمن كثير للغاية واستثمرت فيه مليارات الأموال لصدّ أهل الإسلام والإيمان عن إيمانهم وصدّ النّساء عن الحشمة والحياء والأدب، لصدّ النّاس عن السُّنة وعن لزومها، لصدّ النّاس عن نشر الحق والتّحذير من البدعة والجّهر بمعاداة أعداء الله تعالى ووجوب موالاة أولياء الله، فيسعون سعياً هائلاً واستخدم في هذا الإعلام استخداماً مهولاً للغاية، واستخدم في هذا ايضاً دوائر التّعليم الباطلة التي تُصوّر قول أهل السُّنة وما عليه السلف بأنه قول للخوارج أو بأنه قولٌ لكذا أو كذا؛ صدّاً عن الحق، فصدُّهم عن سبيل الله كثير وهذا واقع في أرض العالم على نطاقات واسعة منظّمات ودول يبذلون في هذا جهوداً هائلة ويستخدم في هذا المال ويستخدم في هذا الإعلام ويستخدم في هذا التّعليم في الصّد عن سبيل الله حتّى لا يصل هذا النّور المبين إلى أهل الأرض لأنه إذا وصل إليهم واستناروا به فلا ريب أنّ ذلك من أعظم ما يبعثُ هذا الدّين وينشره نشراً كبيرا، ولهذا يصدّون عن سبيل الله بالباطل وافتعال مواقف معيّنة وباستثمار أحداث ونسبتها إلى أهل الحق وهذا كثير للغاية فيهم قاتلهم الله تعالى انّى ينصرون.

المسألة الثانية والعشرون بعد المئة: مودّة الكفر والكافرين.

....

يقول الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللهَّ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾(١) فالمؤمن يبغض الكفر ويبغض أهله لأجل الله تعالى حتّى لو كانوا اقرب الأقربين قال تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهَّ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَّ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾(٢) فيبغضهم لله عزَّ وجلَّ، ومهما قال الرّعاع من تشويه أمر الولاء والبراء؛ فالمسلم لا يهتمّ لكلام هؤلاء، الولاء والبراء ركن ركين من اعتقاد المسلم يبرء إلى الله عزَّ وجلَّ من الكفر وأهل الكفر ويبرء إلى الله تعالى منهم من مجاهرتهم بشركهم ومن فسادهم ومن باطلهم، وهذا التّشويه لأمر الولاء والبراء كثير، ومنه تشويه الجهاد في سبيل الله عزّ وجل في الزّعم بأنّ الجهاد في سبيل الله هو مجرّد دفع وليس طلب وأنّ المسلمين ليس لهم أن يطلبوا عدوّهم والمسلمون حين كانوا بالمدينة ثمّ وصل الإسلام إلى جميع الجزيرة العربيّة ثمّ وصل إلى جنوب فرنسا وإلى حدود الصّين كل هذا يدافعون عن نبيّهم ألا يستحون؟ كلُّ هذا دفاع عن المدينة وعن الجزيرة العربية؟ الإسلام كان في الجزيرة فإذا لم يكن في الإسلام جهاد طلب لماذا وصل الى هذه الاماكن، كلُّ هذا دفاع عن الجزيرة العربية أو عن المدينة ومكّة؟ لا شكّ أنّ هذا من الهزل الفارغ، فهذا التّشويه لمسألة مودّة الكافرين والولاء والبراء هذه لا تحرّك في المسلم ساكنا ويعلم أنّها من الباطل الذي يدعوا إليه هؤلاء ويعلم علماً تامّاً أنّ أعداء الله أعداءٌ له - إن كان صادقاً في عبادته لربّه - فعدوُّ الله عدوُّنا وإن كان أقرب الأقربين وقد جعل الله تعالى لنا في إبراهيم ومن معه أُسوة ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهَّ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهَّ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾(٣) الآية، صريحة الآيات في عدم مودّة الكفّار لكن هنا أمر في غاية الأهميّة وهو مما أضرّ كثيراً حقيقةً

---

(١) الحجرات: ٧.

(٢) المجادلة: ٢٢.

(٣) الممتحنة: ٤.

بأمر الولاء والبراء ومسألة عدم مودّة المشركين؛ البراءة من الكفّار وعدم مودّتهم لا تعني أبداً ظلمهم والتّعدي عليهم وعدم إيتاء حقوقهم سواء الماليّة أو حقوقهم - وهو من أعظم الحقوق وأخطرها - حقوقهم التي أعطيت لهم بناءً على عهد أخذوه حتّى قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «من قتل معاهداً لم يجد رائحة الجنّة»(١) فبغضاؤهم شيء والحرص مع هذه البغضاء على استنقاذهم قدر ما تستطيع هذا مما ينبغي أن تتقرّب به إلى الله، مهما بذلتَ من الجهود فأنت على خير لاستنقاذهم من أن يموتوا وهم على هذا الكفر، تحرص على توضيح الحق لهم، تحرص على استنقاذهم، وثمّة قسم كبير جدّاً من الكفّار كبير كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾(٢) لا يعلمون لا يعرفون الحق، وإذا بُيّنَ لهم بطريقة سليمة لا تشوّه هذا الدّين آمنوا وأسلموا، قد أسلمت منهم طوائف كثيرة فعدم مودّتهم شيء والظّلم والإساءة إلى الشّرع شيء آخر، الظّلم من حيث هو كالزّنى؛ يعني كما أنّه لا يجوز أن تزني بكافرة ولا بمسلمة فلا يجوز أن تظلم مسلماً ولا كافراً لأن الظّلم في ذاته محرّم وقد قال صلّى الله عليه وسلّم: «واتّق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب»(٣) وفي المسند «وإن كان كافراً»(٤) لأنّه قد يدعو عليك الكافر فتصيبك الدّعوة، لا تظلم فالظّلم شيء آخر يختلف كلّ الاختلاف عن عدم المودّة، عدم المودّة والبراءة منهم شيء؛ لا يعني ظلمهم ولا يعني عدم بذل الجّهد في أن يهديهم الله تعالى بل هذا كما قال الله تعالى في القرآن: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾(٥) سوف تسأل الأُمة عن هذه الأمانة، أمانة القرآن قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾(٦) لا بدّ أن يُبلّغ فتبلغه وترغّب فيه وتحببه إليهم قدر ما تستطيع وتُعَلِّمَهُم أنك على جانب كبير من الحرص عليهم وأنك لا تريد منهم شيئاً إلا أن يهديهم الله إلى دين الحق

---

(١) صحيح البخاري (٣١٦٦).
(٢) التوبة: ٦.
(٣) صحيح البخاري (١٤٩٦).
(٤) أحمد (١٢٥٤٩). الصحيحة (٧٦٧).
(٥) الزخرف:٤٤.
(٦) الأنعام: ١٩.

فيهتدي كثيرون، لكن التصرفات الفوضوية أضرّت كثيراً بالإسلام وأهله، وأعداء الله من اليهود استثمروها غاية الاستثمار للصدّ عن دين الله فينبغي أن يكون المسلم ضابطاً، وهذه مزية العلم - نسأل الله أن ينفعنا وإياكم به - مزية العلم أنك بين الإفراط والتفريط لا أنت مع أهل الإفراط في إفراطهم ولا مع أهل التفريط في تفريطهم، فبغض الكفّار دين كما تتقرب إلى الله تعالى بصلاتك وزكاتك، والله تعالى جعل هذا من صفات عباده الراشدين ﴿وَلَكِنَّ اللهَّ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْأِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ﴾[١] الكفر مكروه مبغوض عبادة الأصنام أو عبادة البشر أو حتى - والعياذ بالله - عبادة شيطان؛ من يحب هذا؟ المؤمن هذا أبغض شيء إليه ولكن فرق بين أن تبغض الكفر وتبغض الكافرين وبين أن تظلم، الظلم ممنوع منه ليس مع المسلم بل حتى مع الكافر لا يحلّ لك أن تظلمه ولهذا جاء عبد الله بن رواحة لما بعثه النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم خارصاً على التمر عند يهود خيبر فكان إذا خرص فقال مثلاً: عليكم ألفان، قالوا: ظلمتنا كثير، قال: أليس لنا النصف ولكم النصف؟ نعطيكم ألفين، نحن الآن نعطيكم من الثمرة لأن الثمرة بينهم وبين النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كانت بالشطر يقول: هاتوا تقديرها؟ هاتوا ألفين؟ فيقولون: هذا كثير، قال: أنا قدرتها بأربعة آلاف أنتم لا تعطوني ألفين؛ أنا أعطيكم الألفين، والله إنكم لأبغض عندي من عدادكم قردة وخنازير لكن والله لا أظلمكم، يقول: بغضي لكم أشد من بغض القردة والخنازير، لكن والله لا أظلمكم، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض[٢]، أي بالعدل، فالمسلم يعدل حتى مع الكافر ولا يظلمه وبغضه له لا يعني أن يتعدى عليه وبغضه له لا يعني أيضاً أن يتركه دون دعوى ودون حرص عليه بل حتى لو دعا له بأن يهديه الله لأنهم قد يُدعى لهم بالهدى فكان اليهود يتعاطسون عند النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ويحمدون الله - ومعلوم أن من عطس فحمد الله فإنك تقول له: يرحمك الله - فكان النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول لهم: «يهديكم الله»[٣]، ولا يدعو لهم بالرحمة، لأنه لا يجوز أن يُدعى لهم بالرحمة، ولمّا قال قائل: إن دوساً أبت - أي عن الإسلام - وتمنعت فرفع النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم

---

(١) الحجرات: ٧.

(٢) أحمد (٤٧٦٨).

(٣) صحيح. الترمذي (٢٧٣٩). صحيح الأدب المفرد (٧٢٣).

يديه - فقال الصحابة: هلكت دوس - فقال النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «اللهم اهدِ دوساً وائتِ بهم»[1]، فهداهم الله وأتى بهم، فالدعاء لهم ولا سيما الجهلة منهم، فهناك مجموعة كبيرة منهم من الجهلة لا يدرون بالإسلام إلا من خلال تشويهه، فأنت تسأل الله تعالى أن ينشر الحق في الإسلام ويهتدي هؤلاء الضالّون الزائغون؛ هذا من الخير وأن تحرص على أن توصل لهم الحق وتبينه على حقيقته كل هذا من الخير ولا يعني ذلك أن يُوَدّوا بل لابدّ أن يبغضوا في الله عزَّ وجلَّ وأن يُتقرّب إلى الله ببغضهم والبراءة منهم ولكن لا يعني ذلك الظلم، فالظلم شيء، المسألة مثل ما قلنا لما ذكرت الفتن في بعض الروايات ومن يهلك فيها قال: (إلا من نعشه الله بالعلم)[2] ونعشه أي رفعه، التفريق بين هذه الأمور بعد توفيق الله وفضله يحتاج إلى علم، فيأتي إنسان يرى أن بغض الكفار يعني: إهلاكهم ونقض عهودهم والسعي في الإضرار بهم وتشويه الدين حتى ربما ارتعبوا من مجرّد أن يروه، من قال: إن هذا من الدين؟ من قال: إن هذا من الحق؟ قال صلّى الله عليه وسلّم: «إن منكم منفّرين»[3]، من قال: بأن الدعوة إلى الله أن تنفرهم؟ أنت بهذا لا تحسن الدعوة إلى الله فاتركها لغيرك، وعكسهم المخذولون الذين يقولون: أنهم إخواننا في الإنسانية وأنه لا ينبغي أن نتحدث عن البراءة من الكفار وعدم مودتهم وأن هذا من الغلط وأننا أمة إنسانية هم لهم دينهم يفعلون ما يريدون ونحن لنا ديننا ولا ينبغي أن يكون هذا النشر للكراهية كما يعبرون عنه، الكراهية ذكرها الله في القرآن فقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْأِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ﴾ ماذا تحب؟ تحب الكفر؟ لابد أن تكره الكفر والكافرين؛ لكن بهذا الضبط، كراهة للكفر وعدم المودة لأهله مع عدم ظلمهم مع الحرص على إيصال الحق لهم والله المستعان.

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٢٤).

(٢) ضعيف. ابن ماجه (٣٩٥٤). الضعيفة (٣٦٩٦).

(٣) صحيح البخاري (٧٠٢).

المسألة الثالثة والعشرون بعد المئة، والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة والعشرون بعد المئة: العيافة والطَّرْق والطيرة والكهانة والتحاكم إلى الطاغوت وكراهة التزويج بين العيدين، والله أعلم وصلَّى الله على محمد وعلى آله وصحبه.

....

هذه المسائل جمعها رحمه الله هناك تقارب بين بعضها، العيافة والطيرة: زجر الطير، كانت العرب إذا رأت الطير في وكره أتت إليه وطيَّرته حتى يطير لتنظر أين يتجه، فإن اتجه عن اليمين تيامنوا، إذا كان أحد يريد السفر منهم سافر؛ قال: لما ذهب عن الجهة اليمنى فهذا يدل على أن هذا السفر ميمون، فإن ذهب عن الجهة الشمالية تشائم؛ وقال: هذا يدل على أن السفر مشؤم، الطيرة التشاؤم وسواء تشاءم بالطير أو بالأيام أو لو رأى حادث سيارة أمامه مثل بعض الناس لو رأى حادث سيارة ورأى كثرة الدم والقتلى تشاءم ورجع ويظن أنه سيصيبه مثل ما أصابهم، كل هذا تشاؤم، بالأيام، بذوي العاهات كالأعور، ببعض الدواب والطيور كالغراب أو البومة ونحوها، التشاؤم ببعض المظاهر التي يراها، بأصوات كل هذا من الشرك، قال صلّى الله عليه وسلّم: «الطيرة شرك الطيرة شرك الطيرة شرك»(١) فلا يحل أن يفعل هذا أحد وهذه من مخلفات الجاهلية القديمة، أما الطَّرْق: فالطَّرْق يزعم أهله أنهم يخطّون بالأرض ويزعمون من خلال هذه الخطوط المغيّب، يخطّون خطوطاً كثيرة هنا وهنا ثم يبدؤون يمسحون خطين خطين، والخطوط إما أن تكون شفعاً أي أعداد الخطوط في الأرض وإما أن تكون وتراً، فإن كانت شفعاً أخذ منها معنى وإن كانت وتراً أي إن مسح الخطوط وبقي واحد فهذا له دلالة وإن كان العدد الذي تبقى اثنين فهذا له دلالة هكذا وادّعاء للغيب، وهكذا الكهانة، الكهانة ما يدّعي هؤلاء الكذبة من أنهم يستطيعون أن يطّلعوا على الغيوب وقد بيّن صلّى الله عليه وسلّم أن الكهّان تنزل عليهم الشياطين، قال صلّى الله عليه وسلّم: «ومسترق السمع هكذا»(٢) حرَّف يديه وبدَّد بين أصابعه، فيسترق السمع من الملائكة إذا نزلت إلى العنان

---

(١) صحيح. أبو داود (٣٩١٠). الصحيحة (٤٢٩).

(٢) صحيح البخاري (٤٨٠٠).

وتحدثت فيما بينها فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه حتى تصل إلى الكاهن فيكذب معها مئة كذبة وإلا فلا يمكن أن يطّلع على الغيب أحد لكن يسترقون السمع من الملائكة ويأتون إليه بأمر مغيّب مما سمعوه من الملائكة ثم يخلط الكاهن معها مئة كذبة، ومن ذلك التحاكم إلى الطاغوت من فعل أهل الجاهلية وتقدم الكلام عليه أن معنى الطاغوت في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾(١) أي إلى غير الشرع ويدخل في التحاكم إلى الطاغوت كلُّ شيء غير الشرع، طرائق القبائل وعوائدها – سلومها -، الأنظمة الوضعية الغربية من الأنظمة الفرنسية أو الأنظمة الاشتراكية أو لو تواطأ الناس فيما بينهم ووضعوا أنظمة هكذا من تلقاء أنفسهم على خلاف الشرع فكل هذا من حكم الطاغوت، والآخر من خرافات الجاهليين، كراهة التزويج بين العيدين أي بين عيد الفطر وعيد الأضحى يتشاءمون منه ويبقون في هذه الفترة بين العيدين يبقون بلا زواج، وهكذا التشاؤم من سفر وغيره، كل هذا من طرائق الجاهلية، نسأل الله أن يجزل للإمام المثوبة ويغفر له ويرحمه وأن يجعلنا وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، والعبرة أيها الإخوة من دراسة مثل هذه الأمور أن يُنتفع بها وأن تُبَثَّ في الناس ليحذروا هذه الطرائق الجاهلية لا أن يُعرف أنَّ الجاهليين يقولون كذا ويعتقدون كذا، ما الفائدة؟ الفائدة أن تُحذّر وأن يبيّن أنَّ هذه على خلاف الحق.

---

(١) النساء: ٦٠.

أسئلة

- سؤال: قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾[1] أي أصحاب الكبائر كيف تجمع بينها وبين أنَّ الله يخرج العصاة من النار؟

جواب: بجمع النصوص، الخلود في القرآن نوعان، خلود للعصاة ينقطع وينقضي فيأذن الله بالشفاعة فينتهي خلودهم، ومعنى الخلود هو الإقامة الطويلة، كما قالت العرب: أقاموا فأخلدوا، فإذا بقي - والعياذ بالله – في جهنم ألف سنة؛ خلد، قد يكون عمره في التكليف عشرين سنة، فأخذ ضعفها خمسين مرة، خلد لا شك أنه خلد، ثم دلت النصوص الجليّة أن الله تعالى يُفرِّق بين من مات من عصاة الموحدين وبين الكفار، فلا يكون من شرب الخمر ومات عليه كأبي لهب وكأبي جهل وكفرعون وكإبليس في العذاب حتى في درجة العذاب لا يكونون في درجة واحدة، ثم إن الله تعالى يأذن في الشفاعة والأدلة على الشفاعة كثيرة في القرآن والسُّنَّة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾[2] فالله قد يغفر حتى لصاحب الكبيرة ولا يدخله النار، وهذا إليه تعالى كما قال: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فإذا جمعت النصوص اتضح المراد. أما النوع الثاني: فهو خلود أهل النار، هؤلاء كما قال تعالى : ﴿لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى﴾[3].

- سؤال: هل يُحتج بأحاديث الآحاد في العقيدة؟

جواب: السلف الصالح ما كانوا يفرقون في الاحتجاج هل هو آحاد أو غيره إذا ثبت، العبرة أن يثبت، ولهذا أرسل النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم رسائل للملوك هرقل وكسرى والمقوقس والنجاشي مع رجل واحد، فيه العقيدة بأسرها أنه رسول الله، وهكذا مسائل كثيرة، ومن أحسن من تكلم على هذا الإمام الشافعي رحمه الله في كتاب نافع لطالب العلم هو الرسالة، كتاب الرسالة للإمام الشافعي قيِّم جدا وبيَّن رحمه الله تعالى أمر الآحاد وتكلم عليه كلاما مستقيما.

- سؤال: يتكلم عن الصلاة خلف الخوارج الذين لا يعلمون كثيرا من عقيدة الخوارج.

---

(١) الأحزاب: ٦٥.

(٢) النساء: ٤٨.

(٣) طـه: ٧٤.

جواب: هذا داخل تحت مسألة الصلاة خلف المبتدع، فيتفاوت من عنده عقيدة كفرية فإنه لا يُصلى خلفه، ولو كانت عقيدته دون الكفر فلأهل العلم فيه قولان: منهم من يقول: إنه يصلى خلفه لأنه مسلم لو مات صلينا عليه، مبتدع لكنه مسلم، ومنهم من يقول: هذا ليس أهلا أن يُصلى خلفه، يُصلى خلف المستقيم من أهل السُّنَّة.

- سؤال: يسأل عن النصيحة لطلاب العلم الذين أنهوا هذه الدورة وهم على وشك أن يرجعوا إلى بلدهم.

جواب: الوصية كما قال رسول صلّى الله عليه وسلّم : «قل آمنت بالله ثم استقم»(١)، هذه هي الوصية التي أوصى بها صاحبه، ثم الوصية أن ينتفع بعلمه، وأن ينفعنا الله عزَّ وجلَّ به، ولا نجلس نُجَمِّع من هذه العلوم ما لا نعمل به، وأن نبث العلم، الأمة بحاجة كبيرة جدا لبث العلم، لو أن الناس إذا رجعوا إلى بلدانهم وإلى قومهم نشروا فيهم العلم هنا، وهذا ينشره في قبيلته وهذا ينشره في بلده وهذا ينشره في قريته، يكون من آثار ذلك خير كثير، لكن أن يجمع الانسان المعلومات ويجمع الكتب ويقرأ ويقرأ، ما الفائدة من علم خُزن؟ العلم ينبغي أن يُخرج وأن يُستفاد منه.

- سؤال: ما نصيحتكم إذا اجتمع بالشيعة والإباضية وهم تساعدوا على نشر ما عندهم من الأباطيل في مجتمع ينقصه العلم؟

جواب: دواءه العلم، هم يبثون ما عندهم من الباطل واجعل عندك من الهمة أن تبث ما عندك من الحق.

- سؤال: بعض الأسر إذا تقدم شخص صالح أسود اللون للزواج (لم يزوِّجوه) بسبب اللون، هل هذا من الجاهلية؟

جواب: لا يُردُّ الناس لأجل مثل هذا، إنما المُعوَّل في القبول والرد على الاستقامة، هذا هو الأصل.

---

(١) صحيح مسلم (٣٨).

- سؤال: كيف نجمع بين ذمِّ الافتخار وبين قوله صلّى الله عليه وسلّم «أنا ابن عبد المطلب»(١) وقوله «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»(٢)؟

جواب: أجبت وفقك الله، «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» لماذا قال: «أنا سيد ولد آدم»؟ حتى يُعلِّمنا من هو سيد ولد آدم، لأن هذا باب من العلم، لأنه لو قال أحد أن سيد ولد آدم هو إبراهيم أبوه، وقال آخر: لا، بل سيد ولد آدم أبوهم آدم لأن هؤلاء من ذريته، فاحتيج إلى البيان فأخبر أنه سيد ولد آدم لهذا قال: «ولا فخر» يعني أنا أخبركم بأمر مما جعله الله تعالى وهو بأن جعل السيادة له صلّى الله عليه وسلّم، ولهذا قال: «ولا فخر»، أما قوله «أنا ابن عبد المطلب» فقاله عليه الصَّلاة والسَّلام في موقعة حنين وكان هذا من أعظم الأدلة على شجاعته ورباطة جأشه صلّى الله عليه وسلّم لأنه لَمَّا فرَّ مَنْ فرَّ من المسلمين وبقي صلّى الله عليه وسلّم في نفر قليل ركب بغلته حيال الكفار وقال: «أنا ابن عبد المطلب» قال أهل العلم: هذا من أعظم ما يكون من الشجاعة لأنه الذي لا يعرفه يقول: اعرفني الآن أنا محمد رسول الله، فما كان يقولها متفاخرا بل كان يقولها معرفا «أنا ابن عبد المطلب» فمن لم يكن يعرفني فليعرفني، واتجه صلّى الله عليه وسلّم نحو الكفار، وهكذا قوله «هذا خالي فليريني امرؤ خاله»(٣) سعد رضي الله عنه، يقصد سعدا رضي الله عنه بيانا لمكانته وقدره رضي الله عنه وأرضاه.

- سؤال: الأخ يدعو لزيارة بعض البلدان.

جواب: نسأل الله عزَّ وجلَّ أن يُسهل الأمور، وبحمد لله الأمر كما قلنا العلم يمكن أن ينتشر ويمكن أن يصل - بحمد الله - إلى بلاد كثيرة.

- سؤال: يقول عن ابن عباس: (استمعوا إلى العلماء ولا تصدقوا بعضهم على بعض، والذي نفسي بيده لهم أشد تغايرا من التيوس في زربها)، هذا أثر آخر عن ابن عباس، والأثر الآخر عن مالك بن دينار قال: (أقبل شهادة القراء في كل شيء إلا بعضهم على بعض؛ وجدتهم أشد تنافسا من التيوس على المعز)

---

(١) صحيح البخاري (٢٨٦٤).

(٢) صحيح. الترمذي (٣١٤٨). صحيح الجامع (١٤٦٨).

(٣) صحيح. الترمذي. صحيح الجامع (٦٩٩٤).

هذا رواه الخطابي في العزلة، والأخ يقول: هذا ذكره ابن عبد البر في كتاب جامع بيان العلم، وعن مالك بن دينار (يؤخذ بقول العلماء والقراء في كل شيء إلا قول بعضهم في بعض)، هذه رواية يمكن مختصرة، لكن هذه الرواية هذه إذا أردتها تجدها في كتاب العزلة للخطابي كما ذكرت لك.

- سؤال: حكم استبدال الشريعة بالنظام الوضعي.

جواب: هذا من تحكيم الطاغوت.

- سؤال: هناك كتاب (الأيام الأخيرة من حياة الرسول صلّى الله عليه وسلّم) ذكر فيه الأحوال والأخبار والأحاديث التي جاءت آخر حياته، جيد، إذا كان هناك هذا الكتاب وكفَّى جيد وحسن، لكن آخر حياته صلّى الله عليه وسلّم فيها أحداث كثيرة متعلقة بتولية أبي بكر والإشارة إلى أبي بكر، «مروا أبا بكر يصلي بالناس»(١)، ووصيته بالصلاة وما ملكت الأيمان، قوله وهو يموت في السياق «لعنة الله على اليهود والنصارى ؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(٢) إذا جمع المصنف كل هذا فهو شيء طيب، ومن الأمور التي يوصى بها طلبة العلم أنه إذا وجدت أحد المصنفين صنف في باب وكفَّى لا تصنف، تتكوم الكتب الآن في موضوع واحد وينقد بعضهم البعض، هذا ليس بسليم، ابحث عن مسألة لم تُحرر وتحقق واكتب فيها بدلا من أن يجتمع الكتب، إذا كان الكتاب هذا - أنا لا أذكره - قد وفَّى وكفى بالمقام فلا حاجة إلى أن يُصنَّف.

- سؤال: هل هناك تلازم بين لبس الحق بالباطل وبين كتم الحق؟

جواب: نعم، متلازمان، إذا لبس الحق بالباطل فقد كتم الحق.

- سؤال: رأي العلماء في الأحزاب والجماعات التي تتحاكم إلى الديمقراطية بحجة التغيير؟

جواب: كما قلت، التغيير له منهج شرعي مضبوط، الاسلام لم يقصر أمر التغيير حتى يأخذ بالديمقراطية أو غيرها.

---

(١) صحيح البخاري (٦٦٤).

(٢) صحيح البخاري (٤٣٤).

- سؤال: عن إعانة الكفار على المسلمين يشترط الكفر بها أن يعتقد نشر الكفر...

جواب: لا يجوز أن يُعان بتاتا الكفار على المسلمين، لا يحل هذا، أن يُشترط ولا يُشترط، كل هذا لا يصح، إلا أن يُجبروا إجبارا، أن تكون الدول الكافرة تجبر إجبارا، هذا وضع آخر لأنهم ألجأوهم إلجاء، فتستخدم بلادهم مثلا بالقوة، فهم ما استشاروا أصلا، لكن أن يُعانوا على المسلمين لا يحل هذا بتاتا.

- سؤال: زيارة القبور التي فيها شرك كقبر الجيلاني والشافعي بحجة النظر إلى ما هم عليه من الشرك وعدم الإنكار.

جواب: لا يصلح يا أخي، ما الفائدة؟ تُكَثِّرُ سوادهم! كما قال صلّى الله عليه وسلّم: «من كثَّر سواد قوم فهو منهم»(١) إذا كثَّرت سوادهم صرت منهم، فينبغي أن لا تكثر سواد إلا أن تذهب لتنكر عليهم ما هم فيه.

- سؤال: حكم زيارة الأماكن الأثرية سواء في بلاد المسلمين أو في بلاد الكفار وأماكن المعذبين؟

جواب: بيَّن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن المعذبين لما مرَّ بمدائن صالح أنه لا يحلُّ أن يُدخل عليهم إلا أن يكونوا باكين، فهي ليست موضع فرجة وليست من المواضع التي يفرجوا فيها، فغطى رأسه صلّى الله عليه وسلّم لما مرَّ بهم وأمر - لما سبق بعض لصحابة رضي الله عنهم إلى آبارهم وأصلحوا منها بعض الطعام - أمر صلّى الله عليه وسلّم أن لا يؤكل وأن تعلف الإبل منها، لما أصلحوا الطعام لا يأكله أحد(٢)، كل هذا بيان لكون هذه المواضع لا يحل أن تكون موضع فرجة لأنه موضع اعتبار.

- سؤال: النصيحة في أساليب الدعوة إلى الله إذا رجع البلاد.

جواب: عليكم بالرفق، الناس يجهلون أشياء كثيرة، والناس قد مُلئت قلوبهم بالتشويه للحق وأهله، فإذا ذهبت فعليك بالرفق والحرص قدر المستطاع على أن تبذل الحق بطريقة ترغب فيه، لا تزهد الناس فيه، واصبر، لا بد من الصبر، وبإذن الله عزَّ وجلَّ ستجد العاقبة - إذا أعطاك الله نية صالحة - فتكون العاقبة

---

(١) (رواه أبو يعلى وعلي بن معبد في كتاب الطاعة) كذا في كشف الخفاء (٣٢٨/ ٢).

(٢) صحيح البخاري (٣٣٧٩).

حميدة، لأن الناس إذا أتيت وأنت عليك مظهر السُّنَّة وأنت على عقيدة أهل السُّنَّة قد كوم عليك من التهم والاكاذيب شيء كثير، فالعامة ينفرون بطبعهم فإذا رأوا منك حسن التعامل والصبر عليهم وبذل الدليل عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وبيان الحق فبإذن الله عزَّ وجلَّ ينفع الله عزَّ وجلَّ بهذه الدعوة لكن إذا رأوا منك الصلف وسوء الكلام وسوء التعامل كان هذا الدليل على أن ما نسمعهم عنهم صحيح، لذلك ينفر الناس عنهم بسبب هذه التصرفات.

- سؤال: هل يحل أن يحلق المسلم اللحية؟

جواب: اللحية شعار عظيم جدا وواجب من واجبات الاسلام لا يحل التلاعب به ولا العبث به، وإنما لو وجدت ضرورة ملجئة - كما تؤكل الميتة - بحيث أن الإنسان لو ذهب إلى تلك البلاد سجن وضرب وأهين وعُذِّب عذابا بالغا لمجرد أنه ملتحي فالمشتكى إلى الله، إذا كان لا بد له أن يذهب إلى تلك البلاد طبعا؛ إذا كان لا حيلة له في لا يذهب، لكن عليه أن يحرص على الخروج من بلاده، يخرج من هذه البلاد التي لا يستطيع أن يُقيم فيها شعائر دينه، لكن إذا كان سيترتب على إعفائه لحيته أن يُعذَّب من قبل أولئك المجرمين في سجونهم، ويترتب على هذا شيء من الأذى العظيم له في جسده؛ لا أحد يقول: إنه في هذه الحالة يحرم عليه أن يحلق لحيته لأنه من باب الضرورة الملجئة، لكن مثل هذه الأماكن ينبغي أن يحرص المسلم - إذا كانت يُضايق فيها إلى هذا الحد فينبغي عليه أن يحرص على أن لا يبقى فيها وأرض الله واسعة.